شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور اقيس صايغ

رقم ٦٣ / ٦٤ — شباط / اذار (فبراير / مارس) ١٩٧٧

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي فصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرآبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
ايتيل عدنان

المحتويات

صفحة ٤ عن اللحظة الرائجة ، شؤون فلسطينية ·

٦ عشية انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني : افكار للمرحلة المقبلة، شفيق الحوت ·

٢٠ حول المرحلة الراهنة واحتمالات المستقبل ، منير شفيق

٣٣ الوجه القبيح لنظام الكانتونات السويسري ، الدكتور محمد المجذوب ·

٥٧ مأزق الاقتصاد الاسرائيلي بين العمل العبري والعمل العربي ، حسين ابو النمل ·

٨٥ غاب راشد حسين ، توفيق فياض ·

٨٧ كان ما سوف يكون ، محمود درويش ·

٩٥ تجارب من الارض المحتلة : زراعة النجوم على ارض فلسطين ، عبد الجواد صالح ·

١١١ **مقدمات نظرية حول مسالة تحرر المرأة** ، غازي الخليلي ٠

١٣٩ **التركيب الاقتصادي لشرق الاردن : مقدمات التطور المشوه** (١٩٢١/١٩٥٠) ، هاني حوراني ٠

١٧٨ **رسالة من الشرق : كمبوديا الجديدة** ، حمد العابدي ٠

٢٠٢ **رسالة الارض المحتلة : بيرزيت اول جامعة عربية في فلسطين** ٠

٢٠٥ **رأي : الدلالات السياسية لاغتيال محمود صالح** ، غ٠خ٠

٢١٠ **تقرير** : قوات الردع العربية (من تشرين الاول الى كانون الثاني ١٩٧٦) ، عصام الجزار ٠

٢٢١ **اسرائيليات** : (١) توفيق فياض (٢) حمدان بدر (٣) حنه شاهين٠

عن اللحظة الرائجة

ياتي آذار الداخل ، آذار الارض المتفتحة في الانسان ليكون لهذه اللحظة الرائجة بوصلة اوضح · ويأتي آذار الداخل ، آذار الانسان المتفجر في الارض ليكون تجديدا لوعي الفارق بين الواقع وبين الامر الواقع · ولينزع عن « الواقعية » المتداولة ايحاءها المحايد ·

تحتفل العلاقة بين الارض المحتلة واصحابها دما وصمودا وثباتا · ويخطو اهل الارض المحتلة بالزمن العربي لحظات حقيقة وصواب في اتجاه الغد · وهذه اللحظة العائمة على رمال الاحتمالات المتحركة في الخارج تاخذ وجهة الغرق · ان الحالة ملأى بالرموز والدلالات ، والغيم النازل على هذه الايام قد يؤجل صفاء الرؤية ولكنه لا يزحزح الحتمية ، ولا يغير مسار الخطى ، ولا يمنع آذار من الانبثاق فالانفجار · وتنتشر الازمة · تتعمق · تحتال على الجميع · تهجم ، ولا تستطيع ان تكون الا ما هي : ازمة اصحابها ·

بعد اكثر من ربع قرن من بحث الغزاة الاسرائيليين عن الامن تحت مظلة « وعد الله لابراهيم » ، وفي اللحظات التي تدثروا فيها بأمنهم الطاريء كانت الحقيقة تشهر وجهها من احذية المقاتلين العرب ، ومن حجارة في ايدي اطفال الضفة الغربية والجليل ومن محاريث المزارعين · تخرج من النسيان الرسمي · تنتشر · تتعمق · تحتال على ايام سوداء ، ثم تهاجم · تهاجم الغزاة وتهاجم الانسجام الذي لا ينسجم ·

ان شرط صناعة السلام هو القدرة على صناعة الحرب · وفي هذه اللحظة الرائجة تنتقل الحرب الى الداخل العربي وتشهر في وجه العدو القومي اسلحة السلام · ويروج الحديث عن الواقعية ليكون فتوى للتسليم بالامر الواقع ، آنفا عن ملامسة بديهة هي ان الواقعية فهم الواقع من

اجل تغييره · فهل يستطيع الخارجون من الحرب الوطنية ، وهي التي لم تنجز مهامها في التحرير ، ان ينصرفوا الى مواجهة المسألة الاجتماعية المتفاعلة حتى الغليان ؟ · وهل يوسع الشروط الاسرائيلية (الامريكية) لانهاء الحرب ان تساعدهم ـ لو ارادوا ـ في التوصل الى السلام · وهذا هو تعريفه الاسرائيلي الرسمي : « حدود مفتوحة ، مرور حر للاشخاص وللبضائع وعلاقات دبلوماسية » (رابين)·

وهل يستطيع العدو الاسرائيلي ان يخرج من مأزقه التاريخي ؟ لم يعد لجوؤه الى حله الجاهز ـ الحرب يقادر على ايصاله الى السلامة التاريخية · ولا يستطيع ـ راضيا ومتحررا من عناصر الضغط العربي ـ ان يواجه السلام في حده الوطني الادنى : الانسحاب الكامل من كل الاراضي العربية المحتلة ، وتأمين حقوق الشعب العربي الفلسطيني بولادة الكيان الفلسطيني المستقل تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ·

لا جديد ·· لا جديد رغم كل ما حدث · وان التوازن الذي ترسو عليه لحظة التسوية الراهنة لا يستطيع اخفاء المأزق التاريخي لاطراف متناقضة تدخل معادلة لا تنسجم · المسألة الوطنية ـ في الشروط الحالية ـ لا تسير في اتجاه الحل · والمسألة الاجتماعية تقترب من شروط الانفجار ·

ويأتي أذار الداخل ،أذار الانسان المتفجر في الارض ليجدد الذاكرة ويصقل الجوهر وليعيد الى الذين ينسون السياق حقيقة الفارق بين الواقع وبين الامر الواقع · ان القوى التي تفهم الواقع فهما ثوريا هي التي تفهمه من اجل ان تغيره · ولذلك ، لا تكون حالة الحصار المضروب عليها ـ مهما طالت ـ اكثر من برهة زائلة ·

(شؤون فلسطينية)

عشية انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني
أفكار للمرحلة القادمة

شفيق الحوت

من المفروض ان تكون قيادات فصائل المقاومة الفلسطينية ، ومن حولها جميع القوى السياسية والشعبية والمهنية الممثلة في المجلس الوطني الفلسطيني ، عاكفة هذه الايام على مناقشة واعداد تقاريرها السياسية ، من خلال المراجعة النقدية للمسيرة الفلسطينية طوال العامين المنصرمين ، وتسجيل ما لها وما عليها · وذلك تمهيدا للمشاركة في دورة المجلس الوطني القادمة وصياغة الستراتيجية المطلوبة لتحديد مسار النضال الفلسطيني في المرحلة الجديدة ·

وتكتسب هذه الدورة المرتقبة اهمية بالغة الخطورة ، لانها تنعقد في اعقاب الازمة اللبنانية – احدى اخطر الازمات التي تعرضت لها حركة المقاومة منذ نشأتها – ولانها تنعقد ايضا ، على اعتاب مرحلة سياسة تحمل من التوجهات الحاسمة ، ما قد يترك اثارا مصيرية على مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي ، ومستقبل القضية الفلسطينية وحركتها الثورية بالذات ·

واذا استطاع المجلس الوطني في دوراته السابقة ، بما في ذلك دورته الاخيرة التي انعقدت بين ٧٤/٦/١ – ٧٤/٦/٨ ، ان يوفق في نحت الصيغ الجماعية ردا على تحديات تلك المرحلة ، وان يحفظ في نفس الوقت ولو شكليا الوحدة الوطنية الفلسطينية ، فان انجاز مثل هذه المهمة ، في هذه المرحلة بالذات ، يبدو غاية في الصعوبة ويستحق بذل كل الجهود ·

ان « الانهماك اللغوي » لايجاد اللغة المشتركة الموحدة لن يكون بديلا ممكنا عن « المعاناة السياسية » على المستويين الستراتيجي والتاكتيكي ·

★★★

ان الاسرة الدولية المعنية بقضية الصراع العربي الاسرائيلي ، وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، قد اكدت التزامها خلال العامين المنصرمين

بالحل السلمي لهذا الصراع · ورغم التباين في تصور كل عضو منها لصيغة الحل المطلوب ، فلقد ساهمت جميعها ، وبشتى الوسائل في فرض الضغوط على اطراف هذا الصراع لاقناعها باستحالة الوصول الى اي حل عن غير الطريق السياسي·

وعلى الرغم من ان هذه الاطراف ، لم يسقط اي منها احتمال الحرب الا انها في نفس الوقت ، وبدرجات متفاوتة ، لم تسقط كذلك احتمال السلام ، وتقدم بعضها بتصوراته للحل عن هذه الطريق ·

وفي المجتمع الدولي اليوم قناعة شبه اجماعية بان الجانب العربي ، ممثلا في مصر وسوريا والاردن ، قد تقدم بتصورات واضحة ومحددة للحل المطلوب ، تشجع على استئناف التحرك السياسي من جديد سواء عن طريق جنيف او عن طريق الامم المتحدة بشكل مباشر ·

غير ان هذه القناعة شبه الاجماعية لا تشمل حتى الان طرفين اساسيين من اطراف هذا الصراع وهما بالتحديد : اسرائيل والمقاومة الفلسطينية · فالاتحاد السوفياتي غير مقتنع بموقف اسرائيل ، ولا الولايات المتحدة مقتنعة بالموقف الفلسطيني · ومن دون قناعة العملاقين معا يستحيل التحرك السياسي وتتوقف قاطرته في محطة اللاحرب واللاسلم ·

ولذلك، لم يكن شيئا غير متوقع ما تعرضت له المقاومة الفلسطينية من ضغوط خلال العامين المنصرمين ، ولا سيما في الساحة اللبنانية ، بهدف زيادة « كمية » الوضوح التي سمحت المقاومة بالكشف عنها بالنسبة لاهدافها المرحلية وتوقعها من مسيرة الحل السلمي · ولن ينجو المجلس الوطني الفلسطيني في دورته القادمة من حملة الضغوط هذه بقصد تطوير برنامجه السياسي الذي اعتمده في دورته الثانية عشرة والذي اشتهر ببرنامج « النقاط العشر » · وستكون هذه الضغوط دولية وعربية وفلسطينية ·

وكما عندنا كذلك في اسرائيل ، هناك ثمة ضغوط تدفع في نفس الاتجاه وان كانت من اوزان اخف وبعيدة عن العنف الذي تعرض له الفلسطينيون · ومهما قيل في اسباب استقالة حكومة اسحق رابين ، فما من شك ، بان احد هذه الاسباب هو الضغط الدولي الذي تتعرض له اسرائيل لتزيد هي الاخرى من «كمية» الوضوح الذي سمحت بالكشف عنه حتى الان ، بالنسبة لتصورها النهائي لاهدافها المرحلية وتوقعاتها من المسيرة السلمية ·

واكثر من ذلك ، أن المجتمع الدولي لا يضغط فقط من اجل المزيد من الوضوح

والتحديد في الموقفين الفلسطيني والاسرائيلي ، ولكنه يدفع كذلك من اجل قيـــام قيادات « فلسطينية » و« اسرائيلية » و« عربية » ، قادرة على الوفاء والالتزام بما تطرحه من تصورات ٠

وهذا هو سر الازمة التي يعاني منها المسؤول الفلسطيني والاسرائيلي على حد سواء ، وهذا هو محور الصراع السياسي في ساحتنا كما في الساحة الاسرائيلية٠ وهو صراع من العمق والخطورة بحيث تجاوز الاحزاب والتنظيمات فيما بينها ، وانتقل الى داخل الحزب الواحد والتنظيم الواحد ٠

ولذلك فان مهارة الحزب او التنظيم او القائد عندنا ، وفي طرف الخندق الاخر، تتجلى في القدرة على وضع المعادلة السياسية التي تضمن له الافلات من دوائـر الضغط المتناقضة الرؤى ، باقل خسارة ممكنة على الصعيدين الخارجي والداخلي، وتضمن له المصداقية المتوقعة من المسؤول ٠ انها معادلة صعبة جدا ، وتحتاج الى كل مقومات السياسي المناور ، مقرونة بمدى قدرته على استيعاب حركة التاريخ وادراكه لموازين القوى المعاصرة واستشفافه لما يحمله المستقبل من امكانيـــات التغييـــر ٠

ويعلم قادة المرحلة المقبلة ، لدى كل الاطراف انهم مقبلون على مناورة كبرى ، اخطر ما فيها امكانية تحولها من مجرد مناورة الى مسرح للتعامـــل الجـــاد المسؤول ٠ وعندئذ فان سلاح المناورة سيصبح نفسه سلاح المعركة ، وعلى مـــن يخوضها ان يتحمل كافة نتائجها ٠ معركة سلاحها تاريخ وجغرافيا وطوبوغرافيا وارقام واحصاءات ووثائق والتزامات و ٠٠٠ ورؤيا للمستقبل تفرض مواصفات الوقفة الراهنة التي لا يجوز التساهـل فيها ٠

★★★

وليست « صيغة القرار » وحدها هي ما يعانـــي منه المسؤول الفلسطيني او المسؤول الاسرائيلي في هذه الفترة الحرجة ٠ فهناك كذلك مشكلة « صنع » هـذا القـــرار ٠

ففي مصر وسوريا والاردن ، القيادة تصنع القرار بمبادرة منها ، ثم تباركـه وتدعو اليه المؤسسات الملحقة بهذه القيادات ٠ وربما كان هذا هو السبب الاهـم الذي مكن قادة هذه الاقطار من اتخاذ المبادرة قبل غيرها من اطراف الصـــراع في طرح تصوراتها للحل السلمي ٠ وقد سبق لوزير الخارجية الاميركي السابـق ان سجل هذه الملاحظة خلال زياراته المكوكية عندما قال انه في تلـــك العواصـم

كان يجابه مسؤولا واحدا يملك القدرة على صنع القرار والالتزام به ، بينما في اسرائيل فلقد كان عليه ان يجابه اكثر من مسؤول واكثر من مرجع وكلهم من المشاركين في صنع القرار ٠

ولو تسنى لكيسنجر ان يلتقي مع الفلسطينيين لاكتشف انهم يشتركون مع عدوهم الاسرائيلي في هذه المشكلة او ربما هذه الميزة ٠

فلقد كان من دواعي اعتزاز حركة المقاومة المستمرة ، نجاحها في الحفاظ على الحوار الديمقراطي بين فصائلها وقواها ، وحرصها على اتخاذ قراراتها بالاجماع مهما طال الحوار وتشعب وتعقد ٠ وهناك من اخذ على قيادة المقاومة مغالاتها في ممارسة اللعبة الديمقراطية وابدوا خشيتهم من ان تفقدها اللعبة من ميزتها الثورية ٠

اذن ، فمجلسنا الوطني ، في دورته القادمة ،وبعد انجازه ، « لصيغة » القرار، عليه تأمين كيفية « صنعه » بشكل يضمن له شعبيته ، دون ان يهدد الوحدة الوطنية بالانقسام او التفتت ٠ وهو ما اشرنا الى صعوبته في بداية هذه المقالة ٠ فكيف الخروج من المأزق ؟

شخصيا ، لست من المؤمنين بنسخ تجارب الاخرين وسحبها على الساحة الفلسطينية ٠ فلكل شعب ، ولكل ثورة ، من السمات والظروف والتقاليد ما يصلح لها ٠ غير ان هناك من التجارب التنظيمية ما يمكن اعتمادها كقوانين عامة لكل الشعوب ولكل الثورات وعبر كل الازمان ٠

فالاجماع على الرأي مثلا ، هو وضع مثالي يتمنى كل مناضل سياسي لو كان باستطاعته تأمينه داخل الاطار الذي يناضل فيه ٠ واذا تعذر ذلك ، فلا مناص عندئذ من اللجوء الى قانون الاكثرية التي تلزم الجميع برأيها ٠ فما من شعب ،وما من ثورة ، الا وتعرضت خلال مسيرتها الى منعطف تختلف الاراء من حوله ٠وعند مثل هذه المنعطفات ، قرأنا في التاريخ الماضي وشاهدنا في تاريخنا المعاصر ، اكثر من اسلوب اعتمدته هذه الثورة او تلك في حل مشكلة الخلاف في الرأي ٠

★★ منها من لجأ ـ للاسف الشديد ـ الى التصفيات الدموية ، واستئثار الفريق المنتصر بصنع القرار ٠

★★ ومنها من لجأ ـ للاسف ـ الى التصفية السياسية واخراج الفريق المعارض من محفل صنع القرار بعد التنديد والتشهير به والصاق كل الاوحال به٠

★★ ومنها من لجأ ـ وهذا هو الموقف الاكثر ديمقراطية والاسلم وطنيا ـ الى الانقسام داخل المحفل ، واعتماد قانون الاكثرية مع ضمان الاحترام الكامـــل لحقوق ممثل الاكثرية المسؤول ، وحقوق ممثل الاقلية المعارض ٠

وبديهي ان من بين هذه الخيارات لا يتردد فلسطيني عاقل في اختيار البديل الثالث ، لا لانه الاكثر ديمقراطية وبالتالي الاكثر تجاوبا مع نفسية الفلسطيني ، بل لانه كذلك البديل الوحيد الذي لا يحمل بين ثناياه اي ثغرة يمكن لاعداء الثورة الفلسطينية ان تنفذ منها لضرب الثورة بيد ابنائها اشقاء السلاح الواحد ٠ واكثر من ذلك ان اعتماد هذا البديل بالذات هو الضمانة التنظيمية الوحيدة لاستمرار الثورة في حال انتكاسة المرحلة وانهيار مسيرة الحل السياسي بكاملها ٠ كما انه في حال استمرار المرحلة وتوالي حلقاتها السياسية فمن شأن وجود « معارضة » ان يدعم المسؤول الفلسطيني لينجز مهمته على احسن وجه ممكن ٠

ولعله يجدر بنا ، ونحن نبحث هذه النقطة بالذات ، ان نتذكر بان هذا هـــو البديل الذي يعتمده العدو الصهيوني قبل قيام اسرائيل وبعد قيامها ٠ فالخلاف والتباين في وجهات نظر الاحزاب الصهيونية لا تقل اتساعا وعمقا عن خلافاتنـــا وتباين نظراتنا ٠ غير ان العقل الصهيوني استطاع توظيف هذه الخلافات لصالح الحركة الصهيونية ككل ، بعد ان حرفها عن زوايا التناقض الى زوايا التكامل ٠ ولو استجاب بن غوريون ، مثلا لغلاة المتطرفين من الصهاينة ورفض قـــرار التقسيم عام ١٩٤٧ باعتباره لا يعطي اليهود كل فلسطين، لربما فقدت الصهيونية كل فلسطين ولما وصلت الى ما وصلت اليه الان ٠ ولكنه رفض الاستجابة يومها، وكان رده ان وايزمن جاء بوعد (يقصد وعد بلفور) من سطرين ، وجاء هو بدولة، وعلى الاخرين ان يكملوا ما اتفقت الحركة الصهيونية على انجازه ٠

★★★

ونعود لموضوعنا الذاتي ، والبديل الذي يبدو ان لا بديل سواه امامنا في الدورة القادمة ، اي اعتماد قانون الاكثرية والاقلية ٠ ان السؤال الذي يتبادر للذهـــن هنـــا :

★★ هل باستطاعة الثورة الفلسطينية ان تتحمل مثل هذا الانقسام بديلا عن وحدتها الوطنية ، وان تنهض في نفس الوقت بتحمل تبعات المسؤولية الكبرى التي قد تفرضها المرحلة القادمة ؟

اذا شئنا المزيد من الصراحة ، فان لهذا السؤال بقية :

★★ هل باستطاعة الدول العربية المشتركة في عملية الحل السلمي تحمـــل مثل هذا الانقسام ، وقيام معارضة فلسطينية لن تنجو هذه الدول من نقدها ، وربما تجريحهـــا ؟

لو كان فصل هذين السؤالين ممكنا ، لاجبنا على السؤال الاول ، وربما بشيء من الادعاء المقبول ، بأن ذلك ممكن ، وان باستطاعة قيادة الاكثرية تحمل تبعاتها والنهوض بمسؤولياتها • ورصيدها لتحقيق ذلك هو هذا الدعم المتواصل لهـــا من قبل جماهير الفلسطينيين ولا سيما في الوطن المحتل • اضف الى ذلك مـا استطاعت هذه القيادة انجازه من مكتسبات دولية دفعت بالعديد من دول العالـم لتعديل موقفها والبدء باقامة علاقات ثنائية معـها •

غير ان الفصل بين السؤالين يبدو لي شخصيا ، بعد ان استوعبت بعض عبـر الازمة اللبنانية ، غير وارد • وان شركاء المسيرة في مصر وسوريا لا يحتمـــلان مثل هذا الانقسام وتشريعـه ومنحه حصانة للمعارضة •

ومرة اخرى نجد انفسنا في مازق ونبحث عن طريق للخروج منه • فكيف الخروج وعن اي طريـــق ؟

ان هذا السؤال ليس هاجسا شخصيا انفرد في تحمل هموم البحث عن جـواب له • هو من غير شك هاجس كل القياديين في حركة المقاومة • بل هو هاجس كل مواطن فلسطيني في ارضنا المحتلة وفي الشتات • ولا ريب في ان اكثر من جهـــة فلسطينية تناقش الان مثل هذا السؤال لا انطلاقا من الناحية التنظيمية المحضة ، وانما كامتداد للتحليل السياسي الشامل لما قد مضى ، والتقدير السياسي الشامل لمـا هـو آت ، وكيفية التصدي لحل مشاكله •

فالثورة الفلسطينية في مجموعها لم تعد مجرد « عمـــل فدائي » كما كانت في اواخر الستينات واوائل السبعينات • لقد اصبحت بتجاربها المتعددة والباهظـة الثمن ، حركة سياسية فيها من العـمق بقدر ما اتسعـت رقعتها وتضاعف انصارها وجماهير مؤيديها • وان كان ثمة تباين في درجات النضوج التي وصلت اليهـــا فصائل الثورة وقواها الشعبية والمهنية ، فمن المؤكد بان الثورة ككل ، قد قطعـت شوطا كبيرا على طريق النضوج المسؤول ، والتحول من مرحلة الاكتفاء « بـرد الفعل » الى مرحلة « الفعل » والمبادرة •

وارجو ان لا اكون مبالغا في تفاؤلي ، وسنرى على كل حال ، في الدورة القادمة

ما ستتقدم به هذه الفصائل من تحليلات واقتراحات ورؤى ، للاسهام في عملية المخروج من المأزق المشار اليه عبر المعاناة السياسية التي لا بديل عنها ٠

***

وليس من الصعب ان نتكهن سلفا ببعض النقاط الاساسية التي قد تحكم مجمل النقاش السياسي المرتقب ٠

★ أولا : قضية الحل السلمي من حيث المبدأ ٠

وفي قناعتي ان الرفض المبدأي للحل السلمي لا لامر الا لانه سلمي وليس حربيا لم يعد مقبولا بل ومحرجا لحركة المقاومة ٠ وخصوصا بعد اعتماد هذه الحركة للنضال السياسي كركيزة كفاحية تكمل نضالها المسلح وتفسره وتكسب له المزيد من المؤيدين والانصار ٠

لم يعد مقبولا منا قبل غيرنا ، ان تبقى صورتنا في العالم وكأننا نقاتل من اجل القتال ٠ وعلينا ، كما فعل من قبلنا الجزائريون والفيتناميون ان نثبت للعالم باننا نقاتل من اجل تحقيق هدف سياسي واضح ٠ واننا كشعب وكثوار نكون اسعد الجميع لو تمكنا من تحقيق هذا الهدف دون الاضطرار لدفع ضريبة الدم الغالية٠ علينا ان نعكس الصورة الخاطئة التي يحاول اعداؤنا تظهيرها وتكبيرها عنا ، فنذكر العالم اننا لم نرفع السلاح ولم نلجأ للقوة الا عندما يئسنا من تحقيق اي هدف من اهدافنا ، عبر الوسائل السلمية والتحركات الدبلوماسية ٠ وهذا يتطلب منا مراجعة موقف الرفض المبدأي الذي تتبناه بعض الفصائل ونقده بكل جرأة ووضوح ٠ ولنزن بكل دقة ما جره علينا مثل هذا الرفض من سلبيات وايجابيات٠ وبديهي بعد الوصول الى القناعة المشتركة ان تنعكس هذه على اعلامنا وتصريحاتنا ومجمل ادبياتنا ٠

واذا توهم بعضنا ان التأييد الرومانسي الذي شعرنا به وانتشينا منه لفترة غير قصيرة تجاه بعض مقولاتنا انما يعكس مجمل الرأي العام العالمي ، فهم من غير شك مخطئون ٠ ان الرأي العام العالمي ، مع تأييده المستمر لنا ولجميع قضايا الحرية والاستقلال والعدالة فانه يربط هذه جميعها وباستمرار بحرصه على قضية السلام ٠

★★ ثانيا : قضية مضمون الحل ، سواء جاء عن طريق الحرب او السلم ٠

هناك حلول مرفوضه حتى ولو فرضت بقوة السلاح ، كما هناك حلول مرفوضة

مهما كانت الضغوط والمؤثرات السياسية · وعلينا ان نميز بدقة الفروق بين هذه الحلول · وليس هناك حتى الان ما يمكن تسميته بـ « الحل السلمي » وانما هناك مشروعات لحلول عدة ·

ـ هناك ما يمكن تسميته بـ « الحل الاميركي » اي « الحل الاسرائيلي » لحد بعيد ، وهو الحل الذي اساء سمعة كل الحلول الاخرى التي التزمت طريق التحرك السياسي سبيلا لتحقيقها ·

ـ وهناك ما يمكن تسميته بـ « الحل السوفياتي ـ الاميركي » ولا يزال هذا الحل موضع نقاش متواصل وشد وجذب بين كل من واشنطن وموسكو في اطار الوفاق الدولي ·

ـ وهناك ما يمكن تسميته بـ « الحل الدولي » وهو الذي يعتمد قرارات الامم المتحدة بصدد مشكلتي فلسطين والشرق الاوسط ، وكان آخرها ما صدر عن الجمعية العامة للامم المتحدة في شهر تشرين ثاني ١٩٧٦ من توصيات في منتهى الاهمية والجدية حول تقرير ما عرفت باسم « لجنة العشرين » ·

ـ وهناك ما يمكن تسميته بـ « الحل الوطني القومي » ، وهو ما يجب ان يتفق العرب والفلسطينيون عليه ، وطرحه بديلا لكل الحلول السابقة الذكر ·

فهل تقف منظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها الممثل الوحيد لشعب فلسطين نفس الموقف من جميع هذه الحلول ، وكلها حلول سلمية كما هو واضح ؟

بالطبع لا ، وبالتالي فانها طفولة سياسية ان يستمر بعضنا في التعامل مع هذه الحلول وكأنها نسخ كربونية عن بعضها البعض ، علما ان بين بعضها من الفروق ما يبدو استحالة تجاوزه من دون اللجوء للحسم العسكري وتعديل موازين القوى ·

فالموقف السليم هو ذاك الموقف المحدد من مشروع الحل المحدد · هذا مقبول وذلك مرفوض · هذا قابل للنقاش والتفاوض وذلك مرفوض ·· وهكذا ·وكما في ميدان القتال كذلك في ميدان السياسة ، الصراع مستمر والحرب كر وفر ·

★★ ثالثا : قضية العلاقات مع العرب ·

اذا كانت القضية الفلسطينية قضية عربية ، وهي بالفعل كذلك ، فانه من الضروري جدا ان تنعكس هذه المقولة الصحيحة على علاقات المقاومة الفلسطينية بالدول العربية ·

ومنذ انطلاقتها ، استشعرت المقاومة الفلسطينية اهمية هذه العلاقات وخطورتها · وكان اول ما جابهته من مشاكل في هذا الصدد ، هو القناة التي يجب ان تختارها لتسيير هذه العلاقات وتنميتها ·هل تختار القناة الرسمية ام القناة

الشعبية ؟ وهل تقصر تعاملها على الانظمة العربية وقممها واجهزتها ، ام تقصر هذا التعامل على القوى والاحزاب الوطنية في هذا القطر او ذاك ؟ ومما زاد في صعوبة الموقف ، ولا سيما في الستينات ، ما كان على السطح السياسي القومي من خلافات واختلافات بين هذه الانظمة ·في هذه الفترة كانت تصنيفات الانظمة :هذا وطني وذاك رجعي ، حادة في مواصفاتها ، وواسعة في شعبيتها ·

واتضح من خلال مراقبة التجربة التي خاضتها المقاومة ، انها اختارت طريقا بين بين · طريقا يمكن وصفها بانها طريق « التعامل » مع الانظمة الرسمية، و « التفاعل » مع القوى الوطنية والتقدمية القائمة داخل هذه الانظمة · وكلنا يدرك الان خطورة الحساسيات التي كانت تحيق بهذه الطريق ، خصوصا بعد ان تفجر منها ما تفجر سواء في الساحة الاردنية ام في الساحة اللبنانية ·

لم تكن تلك، الطريق الصعب وحسب ، انما كانت الطريق الاصعب · لكن هل كان للمقاومة خيار ؟

لقد كانت منظمة « فتح » بالذات اول من بادر ، من بين جميع القوى الفلسطينية الى تجاوز التصنيفات القائمة في الستينات للانظمة العربية ، فرفضت ان تكون « التقدمية والرجعية » هي المعيار الذي يحدد علاقاتها مع الانظمة العربية · وتقدمت بمعيار جديد يعتمد موقف هذا النظام او ذاك من كفاح الفلسطينيين المسلح كدلالة على تقدميته او رجعيته ، على وطنيته او انهزاميته · وتحملت « فتح » في سبيل تثبيت هذا الشعار العديد من السهام التي اطلقت عليها من جهات فلسطينية وعربية على حد سواء · ولكنها استطاعت ان تصمد وان تثبت هذا الشعار وان تقود وراءها اكثرية القوى الفلسطينية على هذه الطريق دون ان تحاول فرضها على الجميع ، بدليل استمرار تعاونها مع الفصائل التي رفضت هذا المعيار واستمرت في اعتماد التصنيفات القديمة القائمة على التقييمات الايديولوجية للنظام الاجتماعي لهذا القطر العربي وغيره ، كمعيار لها ·

ولكن ما بين اوائل الستينات واواسط السبعينات جرت مياه كثيرة تحت الجسور العربية وطرأت متغيرات جذرية ، وتغيرت تحالفات وتبدلت موازين قوى·

في هذه الفترة ، قامت حرب ١٩٦٧ وما جرته من ذيول · وانتهت حرب القومية العربية في اليمن ، واقيمت مصالحات بين الانظمة ، واستمر العمل الفدائي بالقتال ووقع الصراع في الاردن وخرجت المقاومة من ساحتها الاستراتيجية هناك ، ومات عبد الناصر ، وتحولت الاوضاع في مصر وسوريا وليبيا ، وقامت حرب تشرين وبرزت اهمية النفط، وتضعضع التحالف العربي السوفياتي،ووقعت حرب اهليةفي لبنان و··· وغير ذلك كثير مما اضاف الى محاذر الطريقالتي اعتمدتها المقاومة

« تعاملا » مع الانظمة و « تفاعلا » مع القوى الوطنية التقدمية القومية ٠

واذا كانت تجربتنا الدامية في الاردن قد دقت ناقوس الخطر لمراجعة موقفنا من هذه الطريق ،فان تجربتنا الاخرى في لبنان ، تحتم علينا ـ وليس لنا اي خيار ـ من ممارسة هذه المراجعة بحثا عن معادلة جديدة تكون اكثر تركيبا وتفصيلا في سياستنا التحالفية لتجنب المزيد من الاخطار ٠

وهذا هو قدر هذه الثورة وهو ليس من صنعها ، ومع ذلك فعليها ان تواجه هذه الحقيقة ، وان تقف منها موقفا محددا وواضحا يحميها من ذرائع اي نظام يريد ضربها لاي سبب من الاسباب ، وفي نفس الوقت يبقي لها هذا الرصيد الهام من دعم وتأييد القوى الوطنية والقومية ، وهو رصيد لا غنى للثورة عنه ٠

وقد يكون كافيا لمعادلة عامة في هذا الصدد ان تحكم علاقات المقاومة مع الدول العربية بشكل عام ، ولكن ذلك غير كاف بالنسبة لعلاقاتها مع قطرين عربيين بالذات : مصر وسوريا ٠

ولا اريد في هذا المجال ان اسهب كثيرا فاكرر من البديهيات ما هو معروف لكل عربي ، كالحديث عن وزن مصر ، او تاريخ سوريا او ما قدمته هاتان الدولتان للقضية الفلسطينية ٠

وساقصر الحديث وبتركيز شديد على الحقائق التالية :

١) ـ ان مصر وسوريا لا تنطلقان في موقفهما من القضية الفلسطينية من منطلق قومي وحسب ، وانما تنطلقان ايضا من منطلق الدفاع عن وجودهما القطري باعتبارهما اطراف صراع مباشر مع العدو الصهيوني واجزاء من اراضيهما محتلة حتى الآن ٠ وبالتالي ، ليس « الترف القومي » وحده الذي يحركهما (اذا جاز مثل هذا التعبير) وانما الكرامة الوطنية المثلومة بسبب الاحتلال لاراضيهما ٠ بالاضافة الى ما يعكسه هذا الصراع على اوضاعهما الاقتصادية ومشاكلهما الاجتماعية ٠

٢) ـ ان تحرير فلسطين مهمة قومية لا يستطيع الفلسطينيون انجازها بمعزل عن الدعم والتأييد العربيين اللذين يصلان ، ووصلا ويجب ان يصلا ، حد المشاركة في الحرب وبشكل مباشر ٠ وعندما نتكلم عن الدور العربي في هذا المجال فاننا

نتكلم عن مصر وسوريا قبل اي فريق آخر ، اولا للسبب الذي ذكرناه قبل قليل ، وثانيا للسبب الجغراسي الثابت دائما وابدا · فلا حرب ثورية ولا حرب عربيـة بمعزل عن مصر وسوريـــا ·

٢) ــ وهذه تبدو فرعية ولكنها اساسية ، ان الحديث عن مصر وسوريا يفقـد معناه ان لم تكن هاتان الدولتان العربيتان متضامنتين الى ابعد حدود التضامن · واي خلاف بينهما يفقد كل واحدة منهما قيمة دورها وفعاليته ·

ومن هنا فان للعلاقة الفلسطينية مع هذين القطرين ، بغض النظر عن هويـــة الانظمة فيهما خصوصية استراتيجية من غير المعقول او المقبول اغفالها ــ ولـو للحظة واحدة ــ مهما كانت الدوافع والظروف ·

وقد بات واضحا ، وبعد تجربة الازمة اللبنانية ، ان هذين القطرين ادركـــا ايضا اهمية علاقاتهما بالمقاومة الفلسطينية التي استطاعت بنضالها وصمودهـا ان تؤكد وجودها ، كما اكدت استحالة الاستغناء عنها كقوة ثالثة لا يستقيم اي عمل عسكري او سياسي دون وجودها هذا · فمنظمة التحرير الفلسطينية وحدها القادرة ، باسم فلسطين والفلسطينيين ان تمنح الشرعية لاي قرار سياسي يتناول القضية الفلسطينية ومصير شعبها العربي · ومن يمنح بامكانه ان يمنـــع ·

ونستطرد في هذا المجال للحديث عن علاقة اخرى لها سمات الخصوصية وهي علاقة المقاومة في الاردن ·

فاذا كان تحرير فلسطين بالقوة لا يتم بمعزل عن مصر وسوريا ، فان اي تسوية مرحلية لهذه القضية لا يتم بمعزل عن الاردن ·

والحديث عن الاردن يتجاوز « النظام » للحديث عما هو اهم · انه الحديـــث عن هذا الخط الطويل الذي يفصل بين شرق النهر وغربيه · وهو الخط الفاصل بين شرق الاردن وارضنا المحتلة حاليا ، وبين شرق الاردن والضفة الغربية (المرشحة للدولة الفلسطينية) مستقبلا ·

وانه الحديث عن دولة يقيم فوق ترابها قرابة المليون ومئتي الف فلسطيني ، اي ما يعادل ثلث شعب فلسطين كله ·

فعلى ضوء هذه الحقائق لا بد لنا من وضع سياسة خاصة تتعلق بعلاقاتنـــا مع الاردن · علاقات لا تخاطب النظام وحده ، وانما عبر هذا النظام تخاطب مـا هو اهم منه واخلد : اي الجغرافيا السياسية والحقيقة الديموغرافية ·

لا بد من حوار عقل بيننا وبين هذا النظام والوصول الى صيغة تكفل على اقل تعديل تحقيق الهدف المعلن لنا وله ، وهو تحرير شعبنا في الارض المحتلة من نير الاحتلال الصهيوني ٠

وقبل الانتهاء من هذه النقطة حول العلاقات الفلسطينية العربية تجب الاشارة الى ان تحديد وتوضيح مثل هذه العلاقات لا يعني على الاطلاق القبول او الاستسلام لما يطرح علينا ، لان قيمة هذه العلاقات وضمانة استمرارها هو في قيامها على اسس متكافئة بين شركاء متساوين في الحقوق والواجبات ٠ لا تبعية ولا وصاية ولا انفراد باتخاذ القرار ، وانما مشاركة واخوة وخطة جماعية ٠ وتواصل مستمر لتفادي وحصر اي خلافات جانبية كلها بالحوار السياسي المسؤول ٠

★★ رابعا : العلاقة بين الاهداف الستراتيجية والاهداف المرحلية ٠

يحلو للبعض ان يصور الاختلافات السياسية بين فصائل المقاومة على انها مبدأية ، وتتجاوز الدائرة التاكتيكية الى الدائرة الستراتيجية ٠

ويرى هذا البعض ان رفع اي شعارات مرحلية انما يعني بالضرورة التنازل النهائي عن الشعار الستراتيجي القاضي بتحرير كامل التراب الفلسطيني واقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية العلمانية ٠

ان مثل هذا التصور ، اما انه يغالي في تبسيط الامور لدرجة السذاجة ، واما انه يستهدف التهويل بقصد الاحراج فالاخراج كما يقولون ٠

والمغالاة في التبسيط قد تؤدي بنا للتخبط العشوائي بين مفهومي الستراتيجية والتاكتيك ، وبالتالي الى ارباك مسيرتنا النضالية وافقادها لمصداقيتها ٠كما ان اعتماد التهويل الديماغوجي بقصد استصدار « براءات وطنية » يومية تؤكد فيها القيادة على التزامها بشعارها الستراتيجي لكي لا تحرج ولا تخرج ، يضيق من قدرة هذه القيادة ــ اي قيادة ــ على المناورة التكتيكية وكسب المواقع السياسية المطلوبة على طريق الهدف الستراتيجي المنشود ٠

هذا من الناحية الشكلية ، فماذا من ناحية المضمون ؟

بديهي انه ليس باستطاعة اي قيادة سياسية فلسطينية او اسرائيلية ان تعلن تنازلها عن الاهداف الستراتيجية للحركتين اللتين افرزتا هاتين القيادتين : المقاومة الفلسطينية ونقيضها الحركة الصهيونية ٠

حتى لو اعلنت هاتان القيادتان او اي منهما هذا التنازل فانه لا يلزم احدا غير الموقعين عليه ٠

وطالما ان اسرائيل تدين بالفكرة الصهيونية القائمة على اغتصاب ارض الغير، وفتحها ـ الى ما شاء الله ـ ليهود العالم ، وتصر على اقامة الدولة العرقية المذهبية ، فمن البديهي ان الفلسطينيين ومعهم كل العرب والعالم التقدمي سيستمرون في رفعهم لنقيض كل هذه الاهداف بقصد تحرير الارض المغتصبة واقفالها في وجه اي هجرة لا تخضع لقوانين واعراف الهجرة في العالم كله ، تمهيدا لاقامة الدولة الديمقراطية العلمانية المنفتحة على كل المذاهب والاراء ٠

هذه قضية صراع ايديولوجي تتجاوز بعمقها قدرة اي قيادة سياسية عندنا او في اسرائيل على الغائها باتفاق او معاهدة ٠

وليس سرا، لا علينا ولا على عدونا انهم ونحن ننظر الى اي هدف مرحلي ونسعى اليه او نجاهد ضده على ضوء تقييم هذا الهدف واهميته بالنسبة للغاية النهائية، اي الهدف الستراتيجي ٠

فالعودة لتقسيم فلسطين مثلا ، كتسوية مرحلية ، ينظر اليها الفريقان الفلسطيني والاسرائيلي بنفس الحذر والقلق ٠ وتجد عند الفريقين من يرى هذه التسوية اما « كبداية نهاية لاسرائيل » او « كبداية نهاية لفلسطين وقضيتها » ٠ والفريقان على حق في هذا الحذر وهذا القلق ٠ وليس باستطاعة اي منهما القبول بهذه التسوية دون تجيير رهانه المصيري على المستقبل وما قد ينجم عن مثل هذه التسوية من تغييرات داخل المجتمعين الفلسطيني والاسرائيلي ، وخارجهما في المنطقة العربية ، بل وفي العالم اجمع ٠ لانه من العبث ان يعتمد اي من الفريقين على موازين القوى الراهنة واعتبارها ازلية وغير قابلة للاختلال ٠

ومن هنا فان حدود المناورة في المعركة المرحلية الراهنة لن تتجاوز الدائرة السياسية الى الدائرة الايديولوجية ، لانه ليس لاي من الفريقين اية مصلحة في الصراع داخل الدائرة الثانية ٠ وارباب التحرك السلمي الدولي يدركون هذه الحقيقة وخطورة الانزلاق الى الصراع في ميدانها مما قد ينسف كل المساعي السلمية ٠

ولذلك فمن المتوقع ان تكون هذه النقطة حول علاقة الهدف المرحلي بالهدف الستراتيجي محور نقاش حاد يجب على المجلس الوطني في النهاية ان يحسمها بكل وضوح فنرتفع عن سذاجة التبسيط ونترفع عن ديماغوجية التهويل ونفرق بالتالي بين ما يقرر ليكتم وبين ما يقرر ليذاع ويشاع ٠

وليس في تاريخ الشعوب من هدف استراتيجي تحقق بضربة صاروخية واحدة لا عسكريا ولا سياسيا ٠ لا في تاريخ الفيتناميين ولا الجزائريين ولا

الكامبوديين ولا اي شعب اخر · نضال هؤلاء جميعا كان مسلسلا مترابط الحلقات عسكريا وسياسيا ، سواء وراء متاريس المقاتلين او موائد المتحاورين ·

★★★

هذه بعض النقاط الاساسية التي ستكون محور « المعاناة السياسية » والتي لا مفر من حسمها · فان تم من حولها الاتفاق بالاجماع ، فقد ينجو المجلس الوطني عندئذ من اي انقسام ، وتتكرس الوحدة الوطنية الفلسطينية مرة اخرى ووفق مفاهيم واضحة لا مجال للاجتهاد في تفسيرها ، كما حدث للنقاط العشرة ·

يبقى بعد ذلك الناحية التنظيمية ، اي الاسلوب الذي سيعتمد هذه المرة في تشكيل القيادة السياسية المعروفة باللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير · خصوصا وان المجلس الجديد قد تضاعف عدده واصبح الى حد ما اشمل في تمثيله لشعب فلسطين مما كان عليه المجلس السابق · ويضاف الى هذا ، ايضا ، امكانية تشكيل حكومة مؤقتة ، وعلاقة هذه الحكومة بالمنظمة · فهل ستكون البديل للجنة التنفيذية ؟ ام ستكون مؤسسة مستقلة ، بمعنى ان تاخذ المنظمة واجهزتها شكل التنظيم السياسي الذي يشرف على الحكم دون الممارسة المباشرة ؟

هذه ايضا ، من الموضوعات التي قد تساهم في عملية الخروج من المازق ومواجهة المرحلة الجديدة بموقف وقيادة قادرين على التصدي للتحديات المستقبلية ·

وعلينا ونحن في خضم مناقشاتنا حول المرحلة القادمة ان نتذكر دائما اننا لسنا امام بداية ولسنا امام نهاية وانما في حلقة جديدة من مشوار طويل ، واننا نحيا في عالم عربي يحمل في احشائه اخطر ثروة عرفها القرن قد تفرز اخطر ثورة كذلك ·

واذا كان من كلمة اخيرة ، فانني من الواثقين بان الشعب الفلسطيني والعالم كله يتوقع من هذه الدورة المرتقبة للمجلس الوطني نقلة نوعية في التحرك الفلسطيني تكون على مستوى المتغيرات التي طرأت وقادرة على الصمود امام المنعطف المنتظر ·· والفلسطينيون قادرون ·

حول المرحلة الراهنة واحتمالات المستقبل

منير شفيق

لا بد من وقفة لتحليل ميزان القوى في الوطن العربي عموما وفي لبنان ، خصوصا · وتحديد الاتجاهات السياسية · ومحاولة استشفاف تطورات الاحداث في المرحلة الراهنة والقادمة · وذلك بعد ان توقفت الحرب الاهلية في لبنان ، وبعد انعقاد مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة · وما ترتب عن ذلك من تطورات في عودة العلاقات المصرية ـ السورية ، والسورية ـ الفلسطينية ·

ميزان القوى :

اولا : العدو الصهيوني :

كان العدو الصهيوني قد تنفس الصعداء في اثناء تصاعد الحرب الاهلية في لبنان ، وفي ظروف الانقسام الحاد المصري ـ السوري ، والسوري الفلسطيني · وكان ينتظر ان تنتهي الثورة الفلسطينية في لبنان وسوريا كما ضربت في الاردن عام ١٩٧١ · ولكن انعقاد مؤتمري القمة العربيين في الرياض وفي القاهرة ، بعد الصمود البطولي للثورة والجماهير الفلسطينية والقوى الشعبية والوطنية اللبنانية وما نجم عنه من وقف للحرب الاهلية في لبنان ضمن المحافظة على وجود الثورة الفلسطينية وفقا لاتفاقية القاهرة ، وعودة التأكيد ، وعلى المستوى اللبناني والعربي ، على ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، ثم ما نجم عن ذلك من بداية لراب الصدع المصري ـ السوري ، والسوري ـ الفلسطيني · ان كل ذلك اعاد جو الاختناق بالنسبة للعدو الصهيوني · وقد تفاقمت ازمته الداخلية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ·

ولعل من المؤشرات التي تدلل على مأزق العدو السياسي داخليا استقالة حكومة رابين وما نشهده من انفراط لتحالفات ، ومحاولة تكون تجمعات وتحالفات اخرى · وما يبدو من تخبط في تحديد السياسات وبروز تراجعات، ولو محدودة، من قبل مختلف الاحزاب والكتل السياسية بالقياس لما قبل سنتين · اما من جهة الازمة الاجتماعية فهنالك مؤشرات الفضائح والانتحار وهبوط معدلات الهجرة وارتفاع معدلات الهجرة المعاكسة · كما ان الامر ليس صعب الملاحظة من ناحية

الوضع الاقتصادي ابتداء من التدهور المستمر لليرة وارتفاع معدلات البطالة ، ومرورا بالتضخم والمزيد من العسكرة للاقتصاد والمزيد من الاعتماد على المساعدات الامريكية • طبعا ان هذه الازمات الاقتصادية والاجتماعية مؤشر بدوره على عمق الازمة السياسية الداخلية • ولها دورها الراجع عليها •

اما من الجهة الاخرى فقد اشتدت عزلته الدولية (لم يبق له الان من حلفاء غير الامبريالية الاميركية والنظام العنصري في جنوبي افريقيا • وهذه الاخيرة تواجه الان حصارا وهي تحت النيران • اما الامبريالية الاميركية فهي في حالة من التأزم كما سنرى لاحقا) • ولهذا يمكن القول ان العدو الصهيوني يمر الان في اصعب ظروف عرفها منذ تأسيس دولته • واذا كانت عضلاته العسكرية ما زالت قوية الا ان ذلك لا يشكل الا احد العوامل لحساب موقعه في ميزان القوى •وهو على كل الاحوال ليس العامل الحاسم • وانما العامل الحاسم هو القوة السياسية والوضع العام في ميزان القوى •

ثانيا : الامبريالية الاميركية :

تعاني الامبريالية الامريكية من تفاقم في ازمتها السياسية والاقتصادية الداخلية فهنالك ازدياد في التضخم والركود والبطالة • وتواجه تحديا متعاظما من الاتحاد السوفياتي على مستوى عالمي• كما ان الخسائر الكبيرة التي لحقت بها من هزيمتها في الهند الصينية ، فضلا عن خسائرها في حرب تشرين (فقدت ما بين ٣٠ ـ ٤٠٪ من احتياطها الاستراتيجي للاسلحة التقليدية المخزونة في اوروبا من خلال جسرها الجوي للعدو الصهيوني في حرب تشرين وتسليحه فيما بعد) • وتتعرض منذ سنتين الى نيران متعاظمة من بلدان العالم الثالث وشعوبه • اما علاقتها الاوروبية واليابانية فقد تعرضت هي الاخرى للاهتزاز • واصبحت مضطرة لتقديم التنازلات للمحافظة على حلفائها ولتعزيز الحلف الاطلسي •

كانت الامبريالية الامريكية خلال الثلاث سنوات الماضية منذ حرب تشرين قد هبط موقعها في ميزان القوى العام في الوطن العربي عموما على الرغم من انها حققت بعض النقاط ضد الاتحاد السوفياتي في منطقة الشرق الاوسط عبر سياسة الخطوة ـ خطوة والمساومات مع بعض الدول العربية • ولكنها منيت بفشل مشروعها للتسوية الذي عملت له خلال السنتين الاخيرتين في منطقة الشرق العربي• ذلك المشروع الذي رمى الى تصفية الثورة الفلسطينية ، واجراء تسوية من خلال الاردن • وكان هذا المشروع يشكل العامل الاكثر حسما في تفجير الحرب في لبنان وتصعيدها ، وبصورة خاصة ، ضد الثورة الفلسطينية والجماهير والقوى الوطنية اللبنانية • وقد تكرس هذا الفشل من خلال مؤتمري القمة في الرياض

والقاهرة · حيث توقفت الحرب ، وحصلت الثورة الفلسطينية على اجمـــــاع عربي ولبناني جديد · اكد على وحدانية منظمة التحرير الفلسطينية في تمثيـــل الشعب الفلسطيني · وعلى حق الثورة الفلسطينية في التواجد على ارض لبنان وفقا لاتفاقية القاهرة · كما ادت هذه التطورات الى بداية رأب للصدع بين سوريا ومصر وكذلك بين سوريا ومنظمة التحرير · وهو الصدع الذي عملت الامبريالية الامريكية طوال ما بعد حرب تشرين على توسيعه الى حدوده القصوى · ان هذه النتائج تعني بالنسبة للامبريالية الامريكية اضعافا لموقعها في ميزان القوى فـــي البلاد العربية · وهو يعبر عن ذلك الان بالارباك الذي وقعت فيه السياسةالامريكية في المنطقة · وبالاعلان عن انتهاء سياسة الخطوة ـ خطوة ·

ثالثا : الاتحاد السوفياتي :

كان دور الاتحاد السوفياتي في منطقة الشرق الاوسط قد ضعف بعد تدهـــور علاقاته بمصر · وزاد ذلك بعد الغاء المعاهدة المصرية السوفياتية ولكن من الناحية الاخرى فان علاقاته بسوريا قد اصيبت بالاهتزاز في المرحلة الاخيرة من الحـــرب اللبنانية · واصبح تأثيره في الوضع عموما اضعف بعد مؤتمري القمة العربييـــن وبعد انتهاء الحرب في لبنان · ويعبر عن ذلك من خلال التشاؤم الظاهر فـــــي الصحافة والتعليقات السياسية السوفياتية حول الوضع في الشرق الاوسط ·

رابعا : الوضع العربي والفلسطيني :

ان عقد مؤتمري القمة العربيين في الرياض والقاهرة وقراراتهما ، ووقف الحرب في لبنان ومن ثم بداية توثق العلاقات المصرية ـ السورية وتحسن العلاقـــــات السورية ـ الفلسطينية · يعني ان الوضع العربي والفلسطيني هو الان في الموقع الاقوى في ميزان القوى العام في المنطقة · واذا استمر هذا الوضع وتصلب فـــان ذلك يؤدي الى توفر الامكانات للانتقال الى مواقع هجومية ·

وهنا لا بد من ان نلاحظ ان الثورة الفلسطينية استطاعت ان تنتصر على اخطر مؤامرة امريكية تعرضت لها · واستطاعت ان تخرج من مؤتمري القمة باعتراف شامل بمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني · فضلا عـــــن الاعتراف بحقها في التواجد المسلح على ارض لبنان وفقا لاتفا ٤ القاهرة · ولقد سقطت تلك الاحلام التي تخيلتها الصحافة الامريكية والاوروبية خلال العام الماضي بانتهاء الثورة الفلسطينية والخلاص منهـــا · وأخذ يحل محلها الان تعاظم فـــي التأييد الدولي لمنظمة التحرير الفلسطينية ·

اما من الجهة الاخرىفان الانتفاضة الشعبية العارمة التي شهدتها مصر مؤخرا

لتؤشر ايضا على نهوض جماهيري يؤكد على ان عيـــن الشعب لا تنام • وان الشعب لا يمكن تجاهله في معركة التحرير والاستقلال ولا يجوز ان يتنكر لمطالبه العادلة المشروعـــة ، او ان يسام الخسف والجـــوع على ايدي الفاسديـــن والاحتكاريين وسارقي قوت الجماهير • كما تؤشر على ان جماهيرنا العربيـــة تقف في الصفوف الاولى في النضال ضد الكيان الصهيوني والامبريالية • ومن اجل تعزيز الاستقلال الوطني ودفع عجلة النضال العربي الى الامام • (نميز هنـــا بين خـط الجماهير في الانتفاضة وبين الذين شوهوهـا بالتخريـب والـحرق والسرقة • او الذين حاولوا استغلالها لاغراض مدغولة) •

ملحوظة : عندما نتحدث في ميزان القوى عن الضعف والقوة فاننا نرى ذلـــك نسبيا ضمن حالة شبه التوازن الاستراتيجي لمصلحة الثورة الفلسطينية والعرب•

الاتجاهات السياسية والتوقعات المنتظرة لتطور الاحداث :

ان فشل المشروع الامريكي في تصفية الثورة الفلسطينية وفي اجراء تسوية من خلال الاردن • ومن ثم بروز مشروع التسوية الذي كانت قـــد دعت له مصر ، وتمحور التحركات العربية حوله يطبعان الوضع الراهن في المنطقة بطابعهما • ان هذا المشروع الاخير يتلخص في ان على امريكا ان تعترف بمنظمة التحريـــر الفلسطينية وتوافق على قيام دولة للفلسطينيين والانسحاب « الاسرائيلي » من الارض العربية كشرط للتحرك السياسي القادم باتجاه التوصل الى « تسوية » • اما الشروط المقابلة فهي مرتهنة على الموافقة على هذا الشرط • ولهذا فان عقدة الوضع بالنسبة للتطورات القادمة يمسك بها عاملان رئيسيان :

١ ــ مدى صلابة الموقف العربي بتمسكه بهذا المشروع •

٢ ــ وبالجواب الامريكي عليه •

ويمكن القول ان مدى صلابة الموقف العربي هو الذي يلعب الدور الحاسم على الموقف الامريكي وعلى اتجاه التطورات القادمة في المنطقة عموما وفي لبنـــان خصوصـــا •

ان الاتجاه العربي حتى الان ، وكما تعبر عنه مصر وسوريا والسعودية ، يميل الى لملمة الوضع العربي ، والدفع باتجاه المشروع المذكور ، اي يشكل عملية تحويل للطابة الى الملعب الامريكي •

اما بالنسبة للعدو الصهيوني فهو يعاني ارتباكا عاما • ولا شك في انه يسعـى الى استمرار حالة اللاحرب واللاسلم ، والى عودة الاقتتال الـــى لبنان ، مـــع التحضير لشن الحرب اذا ما تطورت الاحداث في غير ما تشتهي سفنه • ولكـن ذلك كله سيبوء بالفشل ، وبتفاقم سوء حالته ، اذا لم تشتعل الصراعات العربيـة

السابقة من جديد · اي اذا بقي الوضع العربي ـ الفلسطيني الحالي متماسكـــا وتعزز اكثر فالعدو سيحاول ولكنه سيفشل ·

ان دور الاتحاد السوفياتي من حيث التحرك الدبلوماسي يواجه حرجا شديدا بسبب تدهور علاقاته العربية · ومن ثم من غير المتوقع ان يلعب دورا سياسيـــا مؤثرا في المرحلة القادمة اذا بقي الوضع العربي الراهن مستمرا ·

اما بالنسبة لاتجاه سياسة منظمة التحرير فهي تعمل على نزع فتيل تجدد القتال ضدها في لبنان ضمن المحافظة على وجودها وفقا لاتفاقية القاهرة · وتمضي في تعزيز علاقاتها العربية ضمن التمسك بوحدانية تمثيلها للشعب الفلسطيني ، هـذا فضلا عن تصعيد نشاطها الدولي للحصول على اكبر تأييد ممكن ·بيد ان ذلـك يجب ان يمضي ضمن ضرورة تعزيز وحدتها الوطنية ، وتطوير قوتها العسكريـة والجماهيرية الفلسطينية والعربية · وتصعيد كفاحها المسلح والشعبي ضـــد العدو الصهيوني ، الى جانب التسلح باليقظـــة العالية في مواجهـــة المؤامرات والمخاطـر القادمـــة ·

لقد سبق وقلنا حول الجواب الامريكي على المشروع الذي يواجه كارتر الان ـ الاعتراف بمنظمة التحرير ، الموافقة على قيام دولة فلسطينية ، والانسحاب مـن الاراضي العربية ، انه سوف يؤثر وفقا لاتجاهه علىتطور الاحداث القادمة ·وان كان المؤثر الرئيسي على هذا الجواب نفسه هو مدى صلابة الموقف العربي ·

امام كارتر ثلاثة خيارات في الاجابة عن هذا المشروع ·

الاول : الرفض ، ورمي قفاز التحدي ، ومخاطبة العرب والفلسطينيين بلغة القبضة الحديدية · ولكن هذا الخيار ليس سهلا ونستبعد اللجوء له · وذلك لانه يؤدي بالامبريالية الامريكية في ظل ميزان القوى العالمي وفي منطقة الشرق الاوسط الى هزيمة مؤكدة · فضلا عن انه قد يفقدها تلك النقاط التي احرزتها في صراعها ضد الاتحاد السوفياتـــي ·

الثاني : ان يقبل بالمشروع ومن ثم يدفع بشروط خطيرة مقا ٢ ولكن ثمة ثلاث صعوبات يتطلب من كارتر اجتيازها لمجرد القبول :

أ) الصعوبة الاولى ان ذلك يعني التخلي عن سياسة امريكية ضد الشعـب الفلسطيني دامت ما يقارب الثلاثين عاما ، وهي اعتبار الشعب الفلسطيني كومة لاجئين يجب ان يذاب في البلاد العربية ·

ب) الصعوبة الثانية ، ان ذلك يعني اخطر تراجع امريكي يقدم في منطقةالشرق

الاوسط حتى الان · اي الاعتراف بمنظمة التحرير بعد اعتبارها لسنوات عديدة منظمة ارهابية ومخربة ويجب سحقها ·

ج) الصعوبة الثالثة ، يعني الاصطدام بالموقف الصهيوني على مستوى دولة العدو وعلى الصعيدين العالمي والامريكي · ان الدولة الصهيونية تأخذ موقفا متشددا حازما وتاريخيا من مسألة الاعتراف بالشعب الفلسطيني· وتشكل هذه المسألة بالنسبة لها معيارا حاسما · ولهذا فان على كارتر ان يلجأ لاحداث تغييرات في السياسة الرسمية لدولة العدو لتوافق معه على هذا الموقف او ان يواجه التحدي الشديد الذي ليس من السهل حساب ابعاده · الامر الذي يجعل تجاوز هذه الصعوبة هي المسألة الاخطر فيما بين الصعوبات الثلاث المذكورة ، ومن هنا ليس من المتوقع ان يلجأ لهذا الخيار ·

الثالث : ان يلجأ كارتر الى خيار المناورة والمماطلة ضمن السعي لممارسة سياسة الضغط وسياسة الاغراء معا على الدول العربية ، اساسا ، مصر وسوريا والسعودية مجتمعة او منفردة للتخلي عن مشروعها والقبول بمشروع آخر هو التسوية من خلال الاردن وتصفية منظمة التحرير · ومن هنا فان الامبريالية الامريكية ستلجأ الى هذا الخيار · ولكن نجاحه او فشله يتوقفان على مدى صلابة الموقف العربي · فانه سيفشل اذا قوبل بتصلب في الموقف العربي وعندئذ لن يكون امام الامبريالية الامريكية غير الخيارين الاولين · والارجح الخيار الثاني معدلا بعض الشيء كالقبول بمنظمة التحرير ضمن وفد عربي ·

ان مراجعة هذه الخيارات الثلاثة تجعلنا نرى الحرب تطل مع كل منها · ففي حالة الخيار الاول اي مواجهة الموقف العربي بالتحدي فان هذا سيفتح امام دولتي المواجهة مصر وسوريا طريق الحرب لا محالة · اما في حالة الخيار الثالث والنجاح فيه اي دفع الدول العربية المعنية مجتمعة او منفردة للتخلي عن منظمة التحرير ، وقبول تسوية من خلال الاردن فهذا يعني اندلاع الحرب في لبنان لا محالة ، لان الثورة الفلسطينية ستتعرض عندئذ لمواجهة مؤامرة تصفية · اما في حالة الخيار الثاني اي الموافقة على الاعتراف بمنظمة التحرير وعلى قيام دولة فلسطينية والانسحاب من الاراضي العربية · فقد يدفع العدو الصهيوني لشن الحرب ·

من هنا يمكن وصف المرحلة القادمة انها ستكون مسرحا لسباق بين الحرب وبين التسوية كفرسي رهان ·وهذا يتطلب الاستعداد للحرب على اعلى مستوى·

ان المسألة الباقية التي تحتاج في هذا الصدد الى دراسة احتمالاتها هي العامل

الرئيسي الذي سيتوقف عليه الى حد بعيد القرار الامريكي وتطور الاحداث في المرحلة الراهنة والقادمة • وهو مدى صلابة الموقف العربي في تمسكه بمشروع مؤتمري القمة العربيين في الرياض والقاهرة • او مدى استعداده للخضوع للضغط او للاغراء او كليهما معا للانقلاب على منظمة التحرير والقبول بمساومة مع الامبريالية الامريكية على حساب شعب فلسطين •

ليس ضروريا الغوص في مناقشة احتمالات هذه المسألة بالنسبة لكل دولة عربية على حدة • ولكن يمكن القول ان هنالك ارضية للتمسك بهذه المسألة ، كما ان هنالك نقاط ضعف ولا شك • واذا طغت نقاط الضعف ، وانقسم الموقف العربي ، في الوقت نفسه ، فان ذلك رغم مخاطره الشديدة سيبقي الباب مفتوحا امام الثورة الفلسطينية لتخرج من مؤامرة التصفية منتصرة مرة اخرى ، شريطة ان يتوفر عامل الصمود • وهو أمر ممكن تماما • ومن هنا يمكن القول ان على الثورة الفلسطينية التحلي باليقظة تجاه الموقف العربي حول هذه المسألة • وتمتين التضامن العربي معها وضد العدو الصهيوني والمؤامرات الامريكية • وعليها هنا ان تسعى للحيلولة دون حدوث تراجع عن مقررات مؤتمر الرباط ومؤتمري الرياض والقاهرة • وهو أمر يتطلب تجنيد كل العوامل الايجابية في الوضع العربي بهذا الاتجاه • ولكن كخط عام يجب ان يصحب هذا المسعى عمل حثيث وجدي لتعزيز وحدة كل فصائل منظمة التحرير ، ووحدة اوسع الجماهير الفلسطينية • والعمل على تمتين التلاحم الجماهيري العربي ، وبصورة خاصة اللبناني ، في دعم الثورة الفلسطينية ، وتطوير قوانا المسلحة وتصعيد كفاحنا المسلح والشعبي ضد العدو الصهيوني • كما يتطلب الاسراع في اعادة توحيد لبنان وبنائه وتصفية الانقسامات التي لعبت دور العامل الداخلي في الحرب وتفاقمت معها ، شريطة ان يتم كل ذلك ضمن الوجود المسلح للثورة في المخيمات والجنوب وتعزيزه الى اقصى ما يمكن • لان هذا الخط العام يخدم ايضا فيمواجهة احتمالات طغيان نقاط الضعف في الوضع العربي ، والتي لا يجوز ان تنام اليقظة العالية تجاهها ، ولو للحظة واحدة •

لعل من الضروري التأكيد على ان تقديم تحليل صحيح ومقنع لميزان القوى القائم بالاتجاه الذي تم تناوله اعلاه ، يساعد ، كواحد من العوامل ، على تصليب الموقف العربي والفلسطيني (الفلسطيني في الحالتين) • ذلك لان الموقف العربي ما زال يحمل اوهاما كثيرة من اثار الماضي حول قوة الامبريالية والعدو الصهيوني •

ان المشكلة التي يجب ان يعيها الفلسطينيون والعرب هي ان يتحسسوا جيدا مواطن القوة في وضعهم الراهن في ميزان القوى ، ومواطن الضعف في وضع

الامبريالية الامريكية والعدو الصهيوني • وذلك لشد العزائم وتصليب المواقف والانتقال للهجوم وعدم السماح للانهيارات المعنوية والتراجعات بسبب التقديرات الخاطئة لميزان القوى • وانه لشيء مبك حقا الا نتحسس مواطن القوة في وضعنا فنتراجع حيث يجب ان نتقدم ، وننهار في حين يجب ان ينهار اعداؤنا • ونتشتت حيث يمكن ان نتماسك ، وتخور العزائم وتضعف المعنويات حيث يجب ان تشتد العزائم وترتفع المعنويات • ان الظروف مناسبة للتصلب ، وعدم تقديم تنازلات• وشن الهجمات على العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية •

تبقى مسألة يجب التوقف عندها هنا • وهي ضرورة ملاحظة الفرق بين المشروعين المذكورين اي المشروع الذي يتجه لاجراء تسوية من خلال الاردن ، والقاضي بتصفية الثورة الفلسطينية • وبين المشروع العربي الاخر الذي يسعى للتسوية من خلال الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية واقامة دولة مستقلة للفلسطينيين • ان ملاحظة الفرق بين هذين المشروعين مسألة على غاية من الاهمية حتى بالنسبة للذين يرفضون كل هذه المشاريع من حيث اتت • ولهم موقف ثابت ضد التسوية •وذلك ليس لكي يقفوا الى جانب هذا المشروع ضد ذلك • وانما لان ذلك يجعلهم يرون بوضوح ، وبصورة صحيحة ، كيف يعالجون كل حالة • وذلك على ضوء خطورتها المباشرة • اما الناحية الاهم فتكمن في ان الفهم الصحيح للفرق بين المشروعين يشكل دعامة للوحدة الوطنية الفلسطينية ، فيعطي لهذه الوحدة تدعيما سياسيا مباشرا • ويجنب الثورة صراعات داخلية ، اقل ما يقال فيها ، انها في غير اوانها ، ولا تخدم مختلف احتمالات تطورات الوضع • من هنا لا بد من ان نرى ان المشروع الامريكي الذي يريد تسوية من خلال الاردن سيوجه الحربة فورا الى صدر الشعب الفلسطيني • ويفتح الباب لمجزرة رهيبة في لبنان • بينما يؤدي المشروع الاخر الى نقل رأس الحربة الى جهة الامبريالية الامريكية والكيان الصهيوني • حيث رأينا من الاحتمالات التي تحملها اجابة كارتر على هذا المشروع مسألتين رئيسيتين الاولى احتمالات اندلاع الحرب مجددا ، والثانية احتمالات التناقض الشديد مع الموقف الصهيوني الذي قد يلجأ الى الحرب هو الاخر ، حيث سيواجه مأزقا خانقا الى اقصى الحدود • ولهذا من المهم ان نرى الفرق بين المشروعين • ومن ثم الفرق في نتائج كل منهما على ارض الواقع ، حتى ولو كنا معارضين للمشروعين من حيث الاساس • ان « المشروع العربي » سوف يمر بمرحلتين لا محالة :

١ ـ المرحلة الاولى وهي الممتدة من الان حتى تحديد موقف امريكي منه •

٢ ـ المرحلة الثانية وهي التي ستأتي على ضوء الاجابة الامريكية •

فمن ناحية المرحلة الاولى فستكون الكرة في ملعب الامبريالية الامريكية وستعطينا فرصة جيدة لتعزيز وضعنا ، والمحافظة على وحدتنا ، وتقوية انفسنا•

كما ان الاجابة الامريكية على المشروع في حالة الرفض تكون قد وفرت علينـــا صراعات داخلية ، ووضعت الجميع في خندق واحد ، رغم كل الخلافات · اما في حالة النجاح باجتذاب احد الاطراف العربية المعنية او كلها ، للقبول بالتسوية من خلال الاردن · فهذا سوف يضع جميع الثوار الفلسطينيين والشعب الفلسطيني في خندق واحد ايضا دفاعا عن الثورة الفلسطينية التي ستتعرض لحملة تصفية لا تستثني احدا · اما الحالة الثالثة وهي الموافقة على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وعلى قيام دولة فلسطينية · فان ذلك سيمر عبر صراع معقد طويل · ولكن من الناحية الاخرى حين يستقر الاتجاه لتنفيذ هذا المشروع فسوف تبرز فورا المخاطر التي يخشى منها الذين يرفضون مثل ذلك الحل ، وهي خشية مشروعة ومسوغة · وذلك من جهة ما يمكن ان يبتز من تنازلات مقابلة او من جهة ما يمكن ان يتولد عنه من انقسام في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية · ولكن ما دامت هنالك مرحلة مليئة بالاحتمالات بين الان وبين مجيء مرحلة تلك المخاطر · فمن المهم الا نستبق ذلك في صراعات ليس الان اوانها · ومن ثم المهم ان نرى مختلف جوانب الوضع لنستطيع الاتحاد في دحر المخاطر والمؤامرات الراهنة · والتي لها الاسبقية فيما نتعرض له · وبالمناسبة ان التجربة التاريخية خلال السنتين الماضيتين اثبتت على ارض الواقع صحة هذه الموضوعة · حيث رأينا اصحاب تلك المقولات التي كانت تتحدث عن « القيادة المستسلمة والمنبطحة » يقفون طوال سنتين في خندق واحد ، وتحت قيادة تلك « القيادة ··· » يقاتلون جنبا الى جنب ضد الخطر الاشد الداهم · ولكن اذا كانت ممارستهم للوحدة الوطنية ، عمليا ، موقفا صحيحا ، الا انهم يتناقضون مع انفسهم حين يمارسونها ، ويطرحون ، في الوقت نفسه، مقولاتهم حول اولوية الصراع ضد «القيادة المستسلمة والمنبطحة»، والمطالبة « بفضحها » ، و « تعريتها » ·· الخ · ان الموقف سيأتي متماسكا حين تحدد الاولوية ، في كل مرة ، بدقة شديدة · وتأتي الممارسة الفعلية منسجمة معها · بل ان ذلك وحده هو الذي يجعل التمسك بالمبدأ يتدعم بالسياسة التكتيكية الصحيحة نظريا وعمليا · ان التمسك بتحرير كامل التراب الفلسطيني لا يمكن الا ان يمر عبر احباط سلسلة المؤامرات التي تتعرض لها الثورة خلال الطريق المتعرج الطويل · ومن ثم لا مفر من احباط المؤامرة بعد الاخرى ، ومعركة بعد معركة · لا دفعة واحدة · ان هذا الطرح لا ينطلق من محاولة لتصفية حسابات مع مقولات خاطئة ، ويجب الا يساء فهمه ، باي شكل من الاشكال ، وانما ينطلق من حرص على ضرورة المحافظة على الوحدة الوطنية بين جميع فصائل الثورة الفلسطينية تحت خيمة منظمة التحرير الفلسطينية · وتدعيم ذلك بالتحليل السياسي الصحيح، والموقف السياسي الصحيح لان المحافظة على الوحدة الوطنية الفلسطينية تشكل حجر الاساس بالنسبة للثورة وللشعب الفلسطيني لاحباط المؤامرة ، ومن اجل انتصار قضيتنا العادلة ·

الوضع في لبنان :

ثمة موضوعة اساسية يجب ان انيدركها كل من يعالج الوضع في لبنان ·وهي ان ميزان القوى الداخلي في لبنان هو دائما انعكاس شديد الامانة لميزان القوى في المنطقة العربية · وهو من ثم لا يحمل ميزان قواه الخاص المستقل · ولا يكون تاثير ميزان القوى العام عليه كعامل خارجي · ان ميزان القوى العام في المنطقة يمتد الى صلب ميزان القوى الداخلي في لبنان ، بل ان هذا الاخير يتشكل على صورته ومثاله · واذا لم يقم هو من تلقاء نفسه بهذه المهمة فان الجيوش ستجتاحه لتقوم هي بهـا ·

ولعل استعراضا سريعا للثلاثين سنة الماضية يؤكد هذه الموضوعة · فعلى سبيل المثال عندما ضعف الاستعمار الفرنسي في المنطقة وقوى ساعد نوري السعيد بهجمة حلف الشرق الاوسط وحلف بغداد واجه لبنان هزة قوية اطاحت بالرئيس بشارة الخوري وجاءت بكميل شمعون حليف نوري السعيد والبريطانيين في ذلك الحين · وعندما اخذ نفوذ نوري السعيد وبريطانيا ينهار في البلاد العربية · ويتصاعد المد التحرري بقيادة البطل القومي جمال عبد الناصر انفجرت في لبنان ثورة ١٩٥٨ · ولكن عندما تحركت الامبريالية الامريكية لتحل محل الاستعمار البريطاني انزلت جيوشها في لبنان · وخرجت الشهابية كتعبير عن ميزان القوى بين عبد الناصر وبين الاستعمار الامريكي · وعندما نزلت ضربة قاسية بعبد الناصر وسوريا في حرب حزيران تشكل في لبنان التحالف الثلاثي واسقطت الشهابية لياتي فرنجية معبراً عن رجحان كفة الامبريالية الامريكية والعدو الصهيوني في ميزان القوى في المنطقة · ولكن ذلك واجه ايضا في الوقت نفسه سعيا حثيثا من الجانب القومي العربي لوقف الانهيار والعمل لاعادة تعديل ميزان القوى· وهنا كان لا بد للثورة الفلسطينية من ان تدخل لبنان وتتمكن من انتزاع اتفاقية القاهرة كدليل على تحرك مصر وسوريا والثورة الفلسطينية بعد ١٩٦٧ لتجاوز الهزيمة واستعادة المواقع · ولكن عندما تغير ميزان القوى في المنطقة نتيجة حرب تشرين لمصلحة مصر وسوريا والدول العربية عموما ولمصلحة الثورة الفلسطينية والحركة الشعبية العربية كان لا بد من ان يتغير ميزان القوى الداخلي في لبنان· والذي اخذ يختل نتيجة التغير الذي حصل في حرب تشرين المجيدة · ومن هنا يمكن ان نقرأ رسائل بيير الجميل في اوائل عام ١٩٧٥ تعبر عن ضعف الدولة اللبنانية ونشوء عدة « دول » وانهيار هيبة السلطة · وهو الامر الذي دفع لاشعال الحرب من جهة الامبريالية الامريكية لتصفية الثورة الفلسطينية · ومن جهة الكتائب والاحرار للابقاء على ميزان القوى السابق والحيلولة دون تغييره والسيطرة على كل الوضع في لبنان · ولكن ماذا نرى في المحصلة بعد هذه الحرب· ان ميزان القوى الداخلي في لبنان يعكس الان ميزان القوى العام في المنطقة والذي

سبق وتناولناه اعلاه · انه صورة مصغرة لذلك الميزان · واذا كان سيعاد تركيب دولة لبنان فلا بد لهذه التركيبة من ان تعكس ميزان القوى في المنطقة العربية · وتظل تتأثر باي تغيير ذي اهمية فيه ·

ميزان القوى الداخلي الراهن في لبنان :

اولا : بالنسبة للقيادة المارونية المتمثلة « بالجبهة اللبنانية » ، فقد خرجت الخاسر الاول داخليا في لبنان · فبعد ان كانت تسيطر على الدولة وعلى لبنان عموما قد انكفأت الان تحاول عبثا ان تسيطر على جزء منه · انها مجرد قوة ما من بين القوى في الميزان الداخلي · ولم تعد لها اليد الطولى والكلمة صاحبة القرار ·

ثانيا : ان القوة النافذة الان والتي هي صاحبة القرار فتتمثل باللجنة العربية الرباعية ومعها الثورة الفلسطينية · طبعا هنالك تفاوت في قوة كل منها ، مثلا لسورية دور متميز واكبر ، ولكنها مجتمعة تشكل القرار وليس بمقدور اي منها ان تنفرد بالقرار لان ذلك سيؤدي الى ازمة جديدة بسبب تناقضه مع محصلة ميزان القوى العربي · وبكلمة ان لبنان عربي ·

ثالثا : ان الرئيس الياس سركيس ـ المقصود هنا اتجاه عام يمثله ـ يشكل من حيث كونه رئيس الجمهورية ، قوة من خلال ترجمته لميزان القوى العام · وانطلاقا من هذا الوضع هو الشريك في القرار العربي ·

رابعا : القوى الاسلامية الوطنية تقدمت في ميزان القوى موضوعيا ، ولا بد من ان ينعكس ذلك بالمكاسب التي ستحصل عليها في عملية اعادة بناء الدولة اللبنانية، وبما سيتم ادخاله من اصلاحات ·

ان هذه الصورة لوضع ميزان القوى الداخلي والتي تعكس فعلا ميزان القوى العام في المنطقة حتى هذه اللحظة · تجعلنا نرى ان التحركات الراهنة لقيادات « الجبهة اللبنانية » سواء باتجاه التقسيم (اللامركزية السياسية) او باتجاه العناد في الاقرار بميزان القوى ، ينطلقان ، رغم خطورتهما ، من مواقع الضعف لا من مواقع القوة · ان هذا الاتجاه يتناقض مع قرارات مؤتمري القمة ·ويتعارض مع مهمة اللجنة الرباعية ، ومع خط الثورة الفلسطينية · ويلقى المعارضة الشديدة من الرئيس الياس سركيس الذي يجب ان يأتي محصلة لميزان القوى العام والمحلي · فضلا عن المعارضة الشديدة من الاطراف الاسلامية والوطنية · ولهذا يمكن القول ان ثمة ارضية حقيقية لاحباط هذا الاتجاه التقسيمي والمتعنت والمعادي للثورة الفلسطينية ، والمعادي لاعادة توحيد لبنان وبنائه على ضوء ميزان القوى

المذكور في المنطقة العربية وفي لبنان·كما يمكن القول ان ثمة ارضية قوية كذلك لمقاومة اي اتجاه يسعى لتركيب الوضع في لبنان خارجا عن قرارات مؤتمـــــري الرياض والقاهرة ، ومتجاهلا ميزان القوى العام في المنطقة · ولكن من الجهـــة الاخرى هنالك ارضية لصراعات جزئية فيما بين مختلف الاطراف المعنية ضمن حدود محاولة كل طرف ان يكبر من حصته نسبيا ويصغر من حصة هذا الطـرف او ذاك او الاطراف الاخرى نسبيا · ولكن باللحظة التي يتعدى فيها ذلك حدودا معينة فانتلك الصراعات الجزئية ستتحول الى حرب جديدة اذا لم تتراجع في الوقت المناسب · وسيكون العرب والفلسطينيون والقوى الخارجية اطرافا مرة اخـرى في هذه الحرب · ولكن ذلك سيكون في الوقت نفسه **مؤشرا لعملية تغيير في وضع ميزان القوى في المنطقة العربيه منعكسا في لبنان ·**

ان الثورة الفلسطينية يمكنها ان ترى بوضوح ماذا تريد ؟ ومن ثم يمكنها ان تقود سياسات صحيحة في ذلك الاتجاه · فالثورة الفلسطينية قد تعهدت من خـلال قائدها العام على تنفيذ قرارات مؤتمري القمة العربيين · فهي ، من ثم ، ترى ان من مصلحتها التمسك بهذا القرارات نصا وروحا · ففيما يتعلق بلبنان فهي قـــد تعهدت بتطبيق اتفاقية القاهرة بينما تعهدت الاطراف الاخرى كلها باحترام الوجود المسلح للثورة الفلسطينية في لبنان وفقا لاتفاقية القاهرة · كما تعهدت الاطراف كلها ان تقيم علاقاتها مع منظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعي الوحيدللشعب الفلسطيني اي ان يحترموا استقلال القرار الفلسطيني ولا يتدخلون في الشـؤون الداخلية للثورة الفلسطينية · اما من الجهة الاخرى فان الثورة الفلسطينية ترحب وتسعى لنزع فتيل عودة القتال على الارض اللبنانية · واعادة توحيد لبنان شعبا ودولة والعمل الجاد لاعادة بناء اقتصاده الوطني وازدهاره · وبهذا تأخذ الثورة الفلسطينية موقفا ايجابيا من اللجنة الرباعية العربية ومن قوات الردع العربية ، ومن الرئيس الياس سركيس على اساس الخطوط المذكورة اعلاه · امـــا الخط الاحمر الذي سوف يجبرها للعودة للقتال فهو التنكر لاتفاقية القاهرة ومحاولـة المساس بجوهرها ونصوصها · وهو امر يكون موقفهـــا فيه دفاعيا وعادلا ومسوغا ·

تبقى المسالة المرتبطة بما تقدم ، والتي لها اهمية خاصة ، وهي مسالة الجنوب فبالنسبة للجنوب لا بد من تعزيز وجود الثورة الفلسطينية المسلح وفقا لاتفاقيـــة القاهرة · والعمل الجاد لاحباط محاولات العدو الصهيوني من خلال بعض العملاء او الحاقدين الطائفيين ، الرامية الى منع تطبيق اتفاقية القاهرة وتكريس الانقسام في صفوف ابناء الشعب اللبناني في الجنوب ، والذي يحمل في طياته استخدام بعض القرى كجسر للعدو الصهيوني ، ومن هنا لا بد من تثبيت وجود الثورة الفلسطينية المسلح في جنوبي لبنان وفقا لاتفاقية القاهرة اي ان يصار الى تشكيل اوسع جبهة عريضة حول الثورة الفلسطينية · ثم اجراء مصالحة مع القرى المسيحية التـــي

تقف الان في الصف المقابل · وذلك تحت شعار اعادة وحدة الشعب ، وعزل العدو الصهيوني وعملائه ومقاطعته ·

واخيرا فيما يتعلق بميزان القوى في الجنوب فانه مرتبط بميزان القوى العام في المنطقة وفي لبنان · ومن ثم فان بالامكان تحقيق الانتصار على مؤامرة العدو الصهيوني · وتكريس وجود الثورة الفلسطينية في الجنوب رغم انف العدو الصهيوني · وهنا ايضا ان المشكلة هي ان نتحسس مواطن القوة في وضعنا ونتهج سياسات صحيحة فلا شيء يشكل خطرا علينا مثل التقدير الخاطيء للموقف الذي يحطم المعنويات ويسمح للمؤامرة ان تتقدم على ارض مفرغة من المقاومة اللبنانية والفلسطينية المسلحة ومن السياسات الصحيحة · وبكلمة اخيرة ، اننا في الجنوب ايضا نستطيع ان نتقدم ونكون في موقع جيد ·

الوجه القبيح لنظام الكانتونات السويسري

الدكتور محمد المجذوب

قبل الحرب الاهلية في لبنان ، كنا نسمع ونقرأ الكثير عن سويسرا · وكان كل ما يقال فيها يوحي بانها جنة الله في ارضه ، او المدينة الفاضلة التي تحدث عنها افلاطون والفارابي · وكانت فئات كثيرة من اللبنانيين تبدي ، في كل مناسبة ، تقديرها البالغ للنظام الديموقراطي والبرلماني المطبق في سويسرا ، وتطالب ، عند حدوث اي خلل في النظام اللبناني ، بنقل التجربة السويسرية الى لبنان ، جازمة بان العمل بالنظام السويسري كفيل بازالة اسباب الصراع الطبقي او الفئوي او الطائفي ، وتعزيز الروح الديموقراطية ، وتوفير الرفاهية والازدهار للمواطنين · وكنا ، بشيء من التحفظ والحذر ، نصدق كل ما يقال ويكتب ، منتظرين اول فرصة سانحة للانكباب على درس الموضوع والوقوف على صحة المعلومات الشائعة ·

وخلال الاحداث الدامية ، طرح اليمين اللبناني بعض الافكار والمشروعات لمعالجة الازمة كان من ابرزها فكرة الاخذ بنظام الكانتونات السويسري ، من اجل تحويل لبنان الى دولة فدرالية (اتحادية) قادرة على تحقيق « الوحدة في التعددية » · وجندت الافواه والاقلام للتبشير بالفكرة ، والاشادة بالديموقراطية السويسرية ، والتأكيد على وجود العديد من نقاط الالتقاء والتشابه بين اوضاع لبنان واوضاع سويسرا · وبالغ اهل اليمين في امتداح النظام السويسري حتى خيل الى البعض ان انقاذ لبنان ، من محنه المزمنة ، لن يتم الا باقتباس نظام شبيه بهذا النظام ·

وانتهزنا هذه الفرصة ، والقينا نظرة شاملة على الاوضاع السويسرية ، محاولين التعرف الى الدوافع والحوافز التي حدت باليمين اللبناني الى المناداة باعتماد نظام الكانتونات ، ومحاولين كذلك اكتشاف حقيقة النظام السويسري الذي احيط بهالة من الاكبار · وبعد التدقيق توصلنا الى النتيجة التالية :

١ ـ ان سويسرا دولة تحكمها طبقة اوليغارشية تبهر العالم بدعاياتها المضللة ، وتسخر انظمة الدولة ومرافقها لخدمة مصالحها المرتبطة بمصالح

الامبريالية العالمية • واليمين اللبناني يسعى الى نقل التجربة السويسرية الى لبنان لانها ، في رأيه ، تضمن له استمرار امتيازاته وتعود عليه بالمزيد من المكاسب المادية •

٢ ــ ان سويسرا لم تتبوأ مركزها المالي والمصرفي الضخم الا بسبب مشاركتها في استغلال ثروات الشعوب المسحوقة •

٣ ــ ان سويسرا تتمتع بمركز اقتصادي رفيع ، ولكن هذا المركز يخفي وجها قبيحا ، لانه يضع الاقتصاد في خدمة الاحتكار واللصوصية ، لا في خدمة الشعوب •

٤ ــ ان سويسرا تعيش في ظل واجهة زائفة من الديموقراطية ، لان الحكم فيها يخضع لسيطرة ارباب الشركات الاحتكارية •

٥ ــ ان سويسرا تخدع الشعوب باسطورة حيادها ، لانها ما زالت تستغل هذه الاسطورة لتحقيق اغراض مادية واستعمارية •

وسنعالج هذه النقاط بشيء من التفصيل •

★ ★

اولا ــ نظام الكانتونات وامتيازات اليمين •

ماذا يقصد اليمين اللبناني عندما يتحدث عن نظام الكانتونات ؟

انه يقصد النظام الدستوري والسياسي المطبق في الاتحاد السويسري او (حسب التسمية الرسمية للدولة السويسرية) الكونفدرالية السويسرية • **وكانتون** كلمة من اصل ايطالي تعني : المقاطعة او المنطقة او الولاية •

وسويسرا مكونة ، حاليا ، من ٢٢ كانتونا او ولاية ذات سيادة ، كما ينص على ذلك الدستور السويسري • ومن المحتمل ان ينضم الى العدد الراهن كانتون جديد يحمل اسم جورا Jura ، مكون من المناطق الشمالية الناطقة بالفرنسية ، والداخلة في ولاية برن ، منذ عام ١٨١٥ • فسكان هذه المناطق يناضلون منذ اعوام للانفصال عن ولاية برن وتكوين ولاية خاصة بهم • وقد تم الاتفاق على اجراء استفتاء شعبي في العام القادم للبت في موضوع انشاء الكانتون الجديد •

وتاريخ سويسرا حافل بالاحداث المثيرة • وهي لم تصل الى نظامها الاتحادي الا بعد سلسلة من الحروب والمعارك الدينية والسياسية ، كانت اخرها

الحرب الاهلية التي نشبت في عام ١٨٤٧ بين المقاطعات الكاثوليكية المحافظة والمقاطعات البروتستانتية المتحررة ، وتمت الغلبة فيها للبروتستانتيين الذين خاضوا غمار تلك الحرب القصيرة بقيادة جنرال كاثوليكي ، هو دوفور Dufour وعقد مؤتمر وطني بعد الحرب تمخض عن دستور عام ١٨٤٨ ، الذي تم ابداله ، في عام ١٨٧٤ ، بالدستور الراهن للاتحاد ٠

وفي غمرة الاحداث اللبنانية ، وبعد اخفاق فكرة التقسيم ، اقدم اقطاب اليمين على طرح فكرة الكانتونات كمخرج للازمة وبديل للصيغة التي ارسى قواعدها الميثاق الوطني ٠ ويبدو ان الفكرة من وحي اميركي ومباركة اوروبية ٠ وكان الدكتور شارل ملك اول من لوح بها وبشر ، ففي تموز (يوليو) الماضي ادلى بتصريح قال فيه : « ان الولايات المتحدة تنظر الى الحرب اللبنانية من زاوية انها تتركب من ثلاثة اشياء : حرب داخلية اهلية ، وحرب فلسطينية ـ لبنانية ، وحرب راديكالية ـ شيوعية او انقلابية عالمية » ٠ واضاف انه لا يملك معلومات عن خطة اميركية للتقسيم ولكنه يتصور اليوم « بعد الذي حصل في لبنان ، صار عند الاميركان استعداد للنظر في المساهمة في ايجاد نوع من التنظيم الداخلي الذي يؤول الى الاستقرار ، وهذا قد يشمل شيئا من الفدرالية او نظام الكانتونات ، ولكن من ضمن اطار وحدة لبنانية » ٠ واكد في نهاية حديثه « ان لبنان هو واقعيا مقسم » (١) ٠

وبعد اسابيع عاد الرئيس السابق شارل حلو من اوروبة ، بعد غياب استمر ستة اشهر ، وادلى بتصريح لاذاعة هولندا استهله بالدعوة الى اعتماد نظام الكانتونات والعمل باللامركزية في المجالات الاقتصادية والادارية والمالية ، معتبرا ان هذه الخطوة مرحلية ولا بد منها لاعادة توحيد لبنان شعبا وارضا ٠ واكد ، في حديثه ، على ان لبنان هو سويسرا الشرق ، وتساءل : « ولماذا لا يكون لبنان سويسرا الشرق على الصعيد السياسي ؟ » (٢) ٠

وعلى اثر هذا التصريح كثر الحديث عن مشروع الكانتونات ٠ وذكرت بعض الصحف ان صيغة جديدة ومفصلة لمشروع سمي بمشروع « الادارة الجديدة للبنان » قد عرضت ، في اطار من السرية التامة ، على الرئيس فرنجية، وان هذه التسمية التي تم اختيارها ليست غير مشروع نظام الكانتونات ، الذي يقسم لبنان الى مجموعة مقاطعات تتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي والحكم المحلي ، وان المشروع استوحى دستور الدولة السويسرية ، وان بعض كبار القانونيين في اوروبة درسوه من مختلف نواحيه قبل صبه في صياغته الاولية الحالية (٣) ٠

وفي اليوم الذي توجه فيه الرئيس حلو الى الاردن ، موفدا من قبل جبهة الكفور لاجراء اتصالات بالملك حسين والمسؤولين في عمان ، اشارت بعض الصحف الى انه يحمل اقتراحا (مشفوعا برسالة من الرئيس شمعون ، صديق الملك حسين) بحل الازمة اللبنانية عبر نظام الكانتونات واللامركزية ، لان الهدف من الزيارة هو الوقوف على رأي الاردن في الاتحاد الكونفدرالي (بين الاردن وسوريا ولبنان والمقاومة الفلسطينية) ، وفي نظام الكانتونات للبنان تمهيدا لطرحه على دمشق مقرونا بموافقة الاردن (٤) ٠

وفي نفس اليوم تضمن التصريح اليومي للشيخ **بيار الجميل** اشارة واضحة الى اتفاق اقطاب اليمين على مخطط الكانتونات ، فقد تحدث عن بناء لبنان عن طريق احياء التعايش الاسلامي المسيحي ، وقال ان ذلك غير ممكن « الا اذا اتيح للمسيحيين ان يمارسوا نوعا من العناية المباشرة بشؤونهم ٠٠٠ ان يتاح لهم ان يكونوا احرارا في مناطقهم على الاقل ، فلا تفرض عليهم الفوضى الفلسطينية ولا مطامع اليسار الدولي ولا شهوة الاقلية الفاجرة الى التسلط والسيطرة» (٥) ٠ وفي اليوم التالي صعد صراحته الى حد الدعوة الى نظام لامركزي يكون اساسه « الوحدة في التعددية » ٠ وفهم الجميع ان الترجمة الصحيحة لكلامه هي الدعوة الى اقامة نظام الكانتونات (٦) ٠

وعندما اصبح هذا النظام المشروع المفضل لليمين اللبناني اسرع الدكتور **هنري كيسنجر** (وزير الخارجية الاميركية آنذاك) الى الترويج له عن طريق الحديث عن مشروع اعادة توحيد لبنان على اساس الكانتونات ، لانه « يجب ان يكون لكل من الطائفتين المسيحية والاسلامية نمط حياة خاص يتوافق مع التقاليد الخاصة بكل منهما » (٧) ٠

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، اقترحت اللجنة السياسية المنبثقة من « **مؤتمر البحوث اللبنانية ـ الكسليك** » اربع صيغ لبناء لبنان الجديد ، دون ان تخفي تفضيلها للشكل الاتحادي للدولة ٠ والصيغ الاربع هي :

١ ـ صيغة الميثاق الوطني المعدل بموجب وثيقة ١٤ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ (اي ما سمي بالوثيقة الدستورية) ٠

٢ ـ صيغة الدولة الوحدوية العلمانية ٠

٣ ـ صيغة الدولة الاتحادية المؤلفة من مقاطعات ذات استقلال داخلي واسع ، يتأمن داخل كل منها اكبر مقدار ممكن من التجانس السكاني ، وتلتقي

في اتحاد تمارس داخله مشاركة متساوية في الحكم وتتمتع كل منها بحق النقض ·

٤ ـ صيغة الدولة الفدرالية ذات المقاطعات التي تتمتع باستقلال داخلي وتشارك في الحكم المركزي دون ان يكون لها حق النقض ، اذ ان المناصفة في التمثيل والتصويت باكثرية مزدوجة يعوضان ضمانات هذا الحق (٨) ·

وتبنى حزب الوطنيين الاحرار فكرة الكانتونات ، فدعا **الرئيس شمعون** الى تطبيقها على الطريقة السويسرية بحيث يكون لكل كانتون دستوره وجهاز حكمه · ولكن المحامي **موسى برتس** (وهو من المنظرين في الحزب) اقترح مشروعا ، عرضته صحيفة الحزب مع خرائط تفصيلية ، واسماه « المناطقية » ، تصل اللامركزية فيه الى درجة الكونفدرالية ، ليس بين الطوائف ، وانما بين المناطق الثلاث التي سيتكون منها لبنان الجديد (٩) ·

ونلاحظ ان كل حديث عن الكانتونات يقترن بالمثال السويسري ويتضمن رغبة عارمة في تحويل لبنان الى سويسرا شرقية ، او سويسرا الشرق · ويبدو ان اعجاب اليمين اللبناني بسويسرا له ما يبرره ، فهو نابع ، في الدرجة الاولى، من المركز الرفيع الذي تتبوأه سويسرا في مجال القدرة المالية والاقتصادية، فعلى رغم ضآلة مساحتها (٤١٫٢٩٥ كلم٢) ، وقلة سكانها (٦٫٤٣١٫٠٠٠) فانها تعتبر السوق المالي الاول في العالم ، والسوق العالمي الاول للذهب ، والسوق العالمي الاول لتثنيه التأمين Réassurance · وتأتي في المرتبة الثالثة في العالم من حيث القوة المالية ، وفي المرتبة الحادية عشرة من حيث القوة الصناعية · وهي مركز اقوى صناعة غذائية في العالم · والسويسريون هم الشعب الثاني الاكثر ثراء في الدنيا (١٠) · وفي بلادهم اكثر من اربعة الاف مصرف ، ففي مدينة لوغانو Lugano وحدها ، التي لا يزيد عدد سكانها على ٢٥ الف نسمة ، اكثر من ٣٠٠ مصرف ، وشركة مالية ، ووكالة استثمار ·

واعجاب اليمين اللبناني بالنظام السويسري ليس بالامر المستغرب ، لان اليمين ، انى كان ، يطمح الى تبني النظام السياسي والاقتصادي الذي يستطيع ان يحقق له اكبر قدر ممكن من الخدمات والتسهيلات ·

ويمكننا تلخيص الميزات البارزة التي يتسم بها النظام السويسري ، والتي تستهوي اهل اليمين في كل قطر وتجعلهم يتمنون نقل التجربة السويسرية الى اوطانهم ، بالامور الاربعة التالية :

١ ـ المركز المالي والمصرفي الحر الذي تتمتع به سويسرا ·

٢ ـ نظامها الاقتصادي الذي يجعلها من اغنى الدول ٠

٣ ـ نظامها البرلماني الديموقراطي الذي يطبق بحكمة ومسؤولية ٠

٤ ـ حيادها الذي يضرب به المثل ٠

ولو تركنا جانبا ما تزودنا به وسائل الاعلام (التي توجهها الاحتكارات الدولية) عن الاوضاع السويسرية ، وحاولنا الغوص في الاعماق ، فماذا نجد في سويسرا ؟ هل يستحق نظامها السياسي والاجتماعي والمالي والمصرفي تلك الهالة من القداسة والاكبار التي تضفى عليه ؟ هل يصلح النظام السويسري لان يكون قدوة حسنة للدول ، ولا سيما النامية منها ، التي تسعى ، بالطرق الشريفة والمشروعة ، الى توفير السعادة الدائمة لمواطنيها والاسهام مع غيرها من الدول المحبة للسلام في ازالة اسباب الخصام ؟ وبتساؤل موجز : هل سويسرا هي ، حقا ، ذلك البلد المثالي الساحر الذي تتحدث عنه بعض الكتب كما تتحدث الكتب السماوية عن الجنة التي وعد بها المتقون ؟

ان لسويسرا وجها اخر غير مألوف يختلف كل الاختلاف عن الصورة المرتسمة في اذهاننا عنها ٠ ولعل الامبريالية العالمية (المستفيدة الاولى من الخدمات التي يوفرها لها هذا البلد) هي التي تحرص كل الحرص على اخفاء وجهها الحقيقي خوفا من تعرض وجودها ومصالحها للخطر ٠

وللكشف عن الوجه الاخر يمكننا الاعتماد على ما كتبه بعض المفكرين السويسريين المرموقين ، من ذوي الضمائر الحية والجرأة النادرة والوطنية الصادقة ٠ ويأتي **جان زيغلر** Jean Zeigler ، الاستاذ الجامعي والنائب في البرلمان السويسري ، في طليعتهم ٠ فقد نشر في العام الماضي كتابا رائعا بعنوان « **سويسرا فوق كل شبهة** » ، اعتبر فيه ان وطنه اصبح العقل المدبر لوحش عالمي اسمه الامبريالية ٠ ومن هذا الكتاب القيم سنستقي كثيرا من المعلومات (١١) ٠

ثانيا ـ الوجه الاخر لمركز سويسرا المالي والمصرفي ٠

يريد اهل اليمين ان يصبح لبنان ، كسويسرا ، مركزا ماليا ومصرفيا حرا تتكدس فيه اموال الدنيا ٠ وهم يعلمون ان لبنان لن يصبح كذلك الا اذا وافق شعبه على ان يقوم بلده بتأدية نفس الدور الذي تمارسه سويسرا داخل النظام الامبريالي العالمي ٠ فسويسرا تقوم بدور المخبأ او المخزن او المستودع لمسروقات

الامبريالية · ان الاوليغارشية الامبريالية ، المتواطئة مع الاوليغارشيات المحلية ، تحتاج الى بلد آمن يسمح تشريعه المصرفي وتسهيلاته النقدية واستقراره السياسي بتكديس الاموال المسروقة من العالم الثالث فيه واستثمارها من جديد بغية تحقيق ارباح جديدة خيالية ·

وقد وجدت الاوليغارشية العالمية ضالتها في سويسرا · ولم يخيب حكام سويسرا آمالها · فالاموال المسروقة تحول الى سويسرا بوسائل مشروعة وغير مشروعة · والمصارف نفسها تشارك سرا في تنفيذ هذه المهمة · وهناك مهربون محترفون ينقلون الاموال النقدية من مختلف الدول الى المصارف السويسرية مقابل عمولة تصل احيانا الى ٧ ٪ (١٢) ·

والغريب او المستغرب ان الصحافة ، بشكل عام ، تحجم عن نشر اية معلومات رسمية عن مقدار المبالغ الفلكية المهربة الى سويسرا · وكلما سئل المجلس الفدرالي (الحكومة) عن ذلك اكد جهله بحجم هذه المبالغ ، وبمصدرها، وبامكنة ايداعها ، مع ان الجميع يعلمون ان المصارف الخمسة الرئيسية في سويسرا تسيطر وحدها على نسبة من المبالغ توازي قيمة الانتاج القومي ، وان الرساميل المهربة لا تخضع للضريبة في اقطارها الاصلية ، وان بعض هذه الرساميل هو ثمرة اعمال اجرامية قابلة للعقاب ، وان مصدر كميات كبرى من الاموال هو الطبقات الحاكمة في الدول النامية ، وان الدول التي تفقدها تتشدد عادة في اخراج الرساميل منها · ويمكننا ايراد ثلاثة امثلة :

١ ــ بعد انهيار النظام الدكتاتوري في البرتغال ، في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ، هربت اموال كثيرة الى الخارج ، على الرغم من صدور مراسيم تحظر ذلك · وفي تموز (يوليو) ١٩٧٥ ، نشر مصرف البرتغال تقريرا جاء فيه ان اكثر من مليار (اسكودو) هربت من البلاد بشكل اوراق نقدية ما بين نيسان ١٩٧٤ ونيسان ١٩٧٥ ، وان مصارف الدول التي تلقت هذه المبالغ قد اعادتها الى مصرف البرتغال لاستبدالها بالذهب او بالعملات الصعبة · واكد التقرير انه كان للمصرف الوطني السويسري حصة الاسد في هذه العملية ·

٢ ــ عندما خلع الانقلابيون الاثيوبيون ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ ، الامبراطور هيلاسيلاسي ، اكتشفوا انه كان يستولي على كميات الذهب المستخرجة من بلاده ويحولها الى الخارج · وقدروا ان الرساميل التي اودعها في المصارف الاجنبية ، ولا سيما في المصارف السويسرية ، تبلغ ٦ مليارات من الدولارات · وقد اقدم على ذلك على الرغم من فقر شعبه وحاجة بلده الى

الرساميل لانجاز بعض المشاريع العمرانية واستثمار بعض الخيرات المدفونة في الارض ٠

٣ ــ في ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ ، ذكرت مجلة « التايم » ان طائرة سويسرية حطت في مطار سايغون في نهاية مارس من نفس العام ، اي قبل ايام من الاطاحة بالجنرال ثيو ، رئيس جمهورية فيتنام الجنوبية ، والماريشال لون نول ، رئيس جمهورية كمبوديا ، وكانت تحمل مواد غذائية ومعدات طبية ٠ وبعد تفريغ شحنتها اتصل رجال القصر الجمهوري في سايغون بقائدها وطلبوا منه نقل ١٦ طنا من الذهب الى سويسرا لحساب الرئيسين المذكورين ٠

★ ★

ويبدي اهل اليمين اعجابهم البالغ بسرية المصارف في سويسرا ، فما هي، في الحقيقة ، سرية المصارف ؟

انها اسلوب متقن وبارع يقضي بتشجيع بعض المارقين من رجال الحكم في الدول النامية على تهريب اموال شعوبهم واخفائها في دهاليز المصارف السويسرية ٠وهي كذلك اسلوب ذكي للاستيلاء على ما يتيسر من هذه الاموال عندما تسمح الظروف بذلك ٠

واذا حدث،مثلا،ان اودع مبلغ ما في احد المصارف السويسرية واحيط بالسرية التامة ، ولكن تبين فيما بعد ان المبلغ مسروق وان هناك من يطالب به ، فانه يصبح بحكم المستحيل تقريبا استعادة المبلغ ٠ فلكي يحق لمدع ما حجز حساب للغير في المصرف يتوجب عليه التقدم بطلب يحدد فيه اسم صاحب الحساب ، وهويته ، ورقم حسابه ، واسم مصرف الايداع ، والقيمة التقريبية للمبلغ المودع٠ ومن النادر ان تكون في حوزته كل هذه المعلومات ٠ وحتى لو حصل عليها ورفعها الى السلطات المختصة فمن المحتمل (والتجارب تثبت ذلك) الا يحصل على بغيته ٠ ولو تصورنا ان الشكوى رفعت الى المراجع القضائية فان صاحب الحساب لا يعدم وسيلة لتهريبه ، فيكفيه أن يتصل هاتفيا بالمصرف ليطلب منه تغيير رقم حسابه فورا ، او تحويل الحساب الى مكان او مصرف اخر ٠

ان عددا كبيرا من القادة والسياسيين الذين سيطروا على مقدرات الدول النامية (واحيانا مقدرات الدول المتقدمة) قد تمكنوا من الاستيلاء على قسم من ثروات بلادهم وتحويله الى المصارف السويسرية ٠ وبعد الاطاحة بهم لم يتمكن القادة الجدد الذين حلوا محلهم من استعادة هذه الاموال بسبب سرية المصارف٠ فالنظام الجديد الذي خلف نظام الدكتاتور تروخيليو ، الرئيس السابق لجمهورية الدومينيكان ، طالب مرات ومرات باستعادة الاموال التي ابتزها ابناء تروخيليو

واودعوها مصارف سويسرا ، فلم يوفق حتى الان • وتقدر هذه الاموال بنصف مليار دولار •

وقصة محمد خيضر واموال جبهة التحرير الجزائرية المودعة في احد المصارف السويسرية ما زالت ماثلة في الاذهان • فقد كان خيضر امينا لصندوق الجبهة • وقبل استقلال الجزائر اودع البنك التجاري العربي (وهو سويسري) مبلغ خمسين مليون فرنك سويسري • وفي عام ١٩٦٤ ، وعلى اثر الخلافات بين اعضاء المكتب السياسي للجبهة ، حل السيد آيت حسين محل خيضر ، فعهدت اليه الحكومة باسترجاع المبالغ من سويسرا • ولكن خيضر سارع الى تحويل قسم منها الىخارج سويسرا • ورفعت القضية الى المحاكم السويسرية حتى وصلت الى المحكمة الفدرالية في لوزان (وهي المحكمة العليا في البلاد) ، فكان جوابها واضحا : ان خيضر هو الذي وضع المبلغ في المصرف ، والمصرف لن يسلمها الا لصاحبها • وهذا الحكم قد صدر في صيف عام ١٩٧٤ ، اي بعد عشر سنوات من اقامة الدعوى ، وبعد اغتيال خيضر • وما زالت اموال الجبهة (وهي مبالغ مكونة من الاشتراكات المالية التي تبرع بها العمال الجزائريون في فرنسا ما بين عام ١٩٥٤ و ١٩٦٢) قابعة في خزائن المصرف السويسري • وقد تبقى مدة في حوزة المصرف قبل ان تصدر الحكومة السويسرية مرسوما بتوزيعها على المؤسسات الخيرية ، ومنها المبرات اليهودية (١٣) •

وماذاتفعل سويسرا بالرساميل المهربة والمخزونة في مصارفها ؟

ان الطبقة الحاكمة تدلي بعدة حجج ، لعل اهمها الحجة القائلة بان هذه الرساميل ضرورية لتمويل الانتاج القومي في سويسرا • ولكن الحجة واهية لان الادخار القومي فيها يكفي وحده لتمويل كل مشاريع الازدهار الاقتصادي • ان الرساميل المهربة ضرورية ، في الحقيقة ، لشيء اخر ، لتمويل عمليات مشبوهة ومغامرات استغلالية ترسمها الامبريالية وتنفذها الانظمة المتواطئة معها • وما حل بدولة التشيلي اعظم مثل على ذلك •

ففي الخمسينات من هذا القرن ، وبعد ظهور بعض الحركات الوطنية في العالم النامي ،قررت الامبريالية العالمية التصدي بسرعة لاية حركة تحررية•وهذا ما فعلته ، وبشكل مباشر ، في دول اميركا اللاتينية ابتداء من عام ١٩٥٦ ، وخصوصا بعد نجاح حركة كاسترو في كوبا • وهذا ما فعلته كذلك في افريقية ، بعد نجاح الثورة المصرية في عام ١٩٥٢ ، وظهور لومومبا في الكونجو البلجيكي في عام ١٩٦٠ •

ولكن هزيمتها في فيتنام لقنتها درسا يتلخص في وجوب الاعتماد على الحلفاء

والعملاء لقمع حركات التحرر · وغيرت اسلوب عملها ، فلم تعد تتدخل مباشرة، بل اصبحت تعتمد على الانظمة الخاضعة لها ، او المتواطئة معها ، للقيام بنفس الدور · ومثل ظفار لا يحتاج الى شرح · ان الامبريالية العالمية تقف بالمرصاد لاية حركة ترمي الى تغيير اي نظام رجعي او متخلف ، والانظمة العميلة تنتظر اشارة منها للانقضاض على بوادر التحرر ·

وحتى لو حدثت الثورة الداخلية بالطرق السلمية والدستورية فان الامبريالية مستعدة لخنقها ماليا واقتصاديا · وما حصل في التشيلي مثال صارخ على التكتيك المستحدث الذي تتبعه الامبريالية · فمنذ ان تسلم الرئيس المنتخب الراحل ، سلفادور اللندي ، سلطاته الدستورية ، في اواخر عام ١٩٧٠، بدأت الامبريالية تنظم وتنفذ اعمال التخريب والمقاطعة ضد اقتصاد التشيلي · وكان للاوليغارشية السويسرية الحاكمة باع طويل في خنق النظام الديموقراطي الذي اطل على هذا البلد · وقد تم ذلك بواسطة تخريب القطاعات المهمة في اقتصاده ، وخصوصا قطاع المواد الغذائية الذي تسيطر عليه الشركات السويسرية · ودخلت الامبراطوريات المصرفية السويسرية حلبة الصراع فامتنعت عن تقديم اي اعتماد او عون للنظام الجديد · واشتركت وكالة الاستخبارات الاميركية في المؤامرة فافسدت (باعتراف رئيسها السابق) كبار الموظفين وحرضتهم على ارتكاب الاخطاء الجسيمة لعرقلة اعمال الدولة (١٤) ، ولم تتورع عن توزيع ملايين الدولارات في البلد وتحريض اعضاء النقابات على الاضرابات والاستمرار فيها مقابل اغراءات مالية كبيرة (١٥) · ودمغت الحكومة السويسرية نفسها بالتواطؤ عندما رفضت ، خلافا للبروتوكول ، تنكيس اعلامها عند مقتل الرئيس اللندي ، وارسال برقية تعزية الى ارملته ·

ثالثا ـ الوجه الاخر للنظام الاقتصادي الحر في سويسرا

لو قمنا بدراسة عميقة وموضوعية لهذا الاقتصاد لخرجنا منها بخيبة امل مريرة ، ولاكتشفنا ان سويسرا ليست سوى نظام تسيطر عليه اوليغارشية ضيقة الافق تسخر التشريع والانظمة السياسية والاقتصادية والانتخابية والعقائدية لخدمة مآربها · وبفضل نظام مصرفي مصاب بالتضخم او الانتفاخ غير الطبيعي يعتمد على السر المصرفي وعلى الحسابات المرتكزة الى الارقام لا الاسماء ، استطاعت هذه الاوليغارشية تحويل بلدها الى مخبأ ضروري لمسروقات النظام الرأسمالي ، وتحويل نظامها الى جهاز امبريالي مساعد للامبريالية العالمية ·

ان أسياد المصارف السويسرية الكبرى لا تقتصر اعمالهم على الشؤون المالية ، بل هم يمارسون كذلك وظائف سياسية · انهم ينجزون مهمات استعمارية،

فهم ، مثلا ، اشتركوا مع الامبريالية العالمية في خنق النظام الشعبي الديموقراطي في التشيلي عن طريق تخفيض الاعتمادات المصرفية له ثم قطعها عنه · وهم يسهمون ، بقدراتهم المالية الهائلة ، في تعزيز الانظمة العنصرية في جنوب افريقية وروديسيا ، وفي اطالة عمر الانظمة الدكتاتورية الطاغية في مختلف انحاء العالم · انهم يفسدون الرأي العام في سويسرا ويشوهون نضال الشعب السويسري عندما يحاولون اقناعه بوجود انسجام او تناغم تام بين مصالحه واهدافه الوطنية وبين استراتيجيتهم القائمة على نهب ثروات الشعوب المسحوقة·

ان الامبريالية ، التي اعتبرها لينين اعلى مراحل الرأسمالية ، تعاني اليوم ازمة · ولكنها ليست ازمة احتضار ، بل ازمة تكيف واعادة تكوين · ان الهدف الاساسي للامبريالية هو استغلال الشعوب · وكانت طريقة الاستغلال في الماضي تتم بواسطة دولة او دول قوية · وبعد ظهور المعسكرين العالميين وانتشار نزعة الاستقلال والحرية لدى الشعوب المضطهدة ، ادركت الامبريالية ان الاسلوب القديم لم يعد صالحا او قابلا للحياة ، فعمدت الى تبني اسلوب اخر لا يعتمد على الاجتياح والاحتلال · لقد حلت الشركات العالمية ذات الجنسيات المتعددة محل الدول الاستعمارية · وتهدف هذه الشركات الى تحقيق اكبر قدر من المكاسب المادية عن طريق سيطرتها على الانظمة السياسية في العالم · وقد عمدت مؤخرا الى الغاء فكرة التنافس فيما بينها لئلا يسيء ذلك الى قدرتها على نهب الشعوب·

وسويسرا هي اليوم المقر المركزي والرئيسي لهذه الشركات الضخمة · وهي تقوم بدور الحليف للامبريالية العالمية · وعلاقاتها الاقتصادية والتجارية بالدول النامية مؤشر مهم ، ففي عام ١٩٧١ (وحسب احصاءات الادارة الفدرالية للجمارك في سويسرا) كانت قيمة الصادرات السويسرية الى هذه الدول ٤ر٩ مليارات من الفرنك السويسري ، مقابل ٢ر٦ مليارات من الواردات · وفي نهاية عام ١٩٧٢ ، بلغت قيمة الاستثمارات السويسرية الخاصة في العالم الثالث ٤ مليارات ·

رابعا ـ الوجه الاخر للديموقراطية السويسرية

عندما يسأل عشاق الديموقراطية السويسرية عن سر ولههم بها يجيبون بان الامر بسيط لا يحتاج الى شروح · ان السر يكمن في ان هذا النظام الديموقراطي يزخر بميزات كثيرة ، اهمها : قدرته على تحقيق التطور السياسي للبلد بشكل هادىء ورصين ، وكفالته لحرية الرأي والتعبير ، وتأمينه لحرية العمل الجاد والمنافسة الشريفة للاحزاب السياسية ، وتطبيقه لنظام برلماني سليم · غير ان هذه الميزات ، عندما توضع تحت مجهر الواقع الاليم ، لا تقوى على الصمود ·

١ ــ ان المتعمقين في الدراسات السويسرية يؤكدون ان تاريخ سويسرا لم يكن هادئا ، وان تطورها السياسي ، عبر العصور ، لم يكتمل الا عبر المآسي والآلام · فاصل الاتحاد السويسري يعود الى ميثاق التحالف الذي ابرمته ، في عام ١٢٩١ ، ثلاث مقاطعات بقصد الدفاع عن نفسها ضد السيطرة النمساوية والجرمانية · وفي عام ١٣١٥ ، جرت معارك طاحنة حاسمة بين الطرفين انتهت بطرد المستعمر الاجنبي من المقاطعات · وارتفع عدد المقاطعات ، آنذاك ، الى الثلاث عشرة ، واتسم تاريخ البلاد بسيطرة الاقطاعية والمركزية وبانتشار الفوضى والاضطرابات في العلاقات المتبادلة بين المقاطعات ·

وفي نهاية القرن الثامن عشر بدأت العناصر التقدمية في الشعب السويسري تتحرك للمطالبة بالوحدة الوطنية وبتحويل الكانتونات الى دولة موحدة · وكانت الثورة الفرنسية مناسبة كبرى للتعبير عن نقمة الشعب السويسري على النظام الاقطاعي المستبد ونظام كانتوناته الهزيل ·ولكن الجيوش الفرنسية التي احتلت سويسرا ، في عام ١٧٩٨ ، وفرضت عليها دستورا جعلتها بموجبه « جمهورية سويسرية موحدة وغير قابلة للتجزئة » ارتكبت خطأ فادحا عندما ارادت اخضاعها لتوحيد مطلق سابق لاوانه ، على غرار التوحيد الذي حققته الثورة في فرنسا · وكان من نتيجة هذا الخطأ ان نشبت ، في عام ١٨٠٠، ثورة في سويسرا اطاحت بالحكومة التي تشكلت بحماية حكومة « المديرين » الفرنسية · وبعد عام اندلعت حرب اهلية بين المقاطعات حدت بنابليون الى التدخل (١٦) ·

وفي عام ١٨١٥ ، وعلى اثر انهيار الامبراطورية النابليونية ، ارتفع عدد المقاطعات المنضمة الى التحالف السويسري الى اثنتين وعشرين ، وظهر في البلاد تياران : وحدوي واتحادي · غير أن كفة التيار الاتحادي هي التي رجحت·

وتأثرت سويسرا ، في النصف الاول من القرن المنصرم ، بالتيارات الديموقراطية والتحررية التي هبت على الغرب · وشهدت الصناعة فيها تطورا محسوسا حملها على توحيد انظمتها المالية والاقتصادية ، والغاء الجمارك بين مقاطعاتها ، والبحث عن اسواق خارجية لتصريف منتوجاتها · ولكن الخلافات والمنازعات الدينية عادت لتعكر صفو العلاقات بين المقاطعات الكاثوليكية (الاقل عددا وثروة) والمقاطعات البروتستانتية · وفي عام ١٨٤٧ ، اندلعت حرب اهلية خاطفة فيها انتهت بانتصار المقاطعات الاخيرة ·

وما دمنا نتصفح تاريخ سويسرا فلا بد لنا من قراءة صفحة سوداء فيه · لقد عرف السويسريون ، بعد عام ١٣١٥ ، فترة سلام اتسمت بتكاثر السكان

وقلة الموارد • ولكن حكامهم ، الذين كانوا ينتمون الى الطبقة الاقطاعيـــة ، استنبطوا حينئذ وسيلة بارعة وغريبة لحل مشكلة التضخم السكاني ، فراحـــوا يبيعون او يؤجرون ، علنا ورسميا ، العدد الفائض من مواطنيهم للحكومـــات الاوروبية التي كانت تستخدمهم كمرتزقة في جيوشها وتخوض ، بسيوفهـــم وارواحهم ، حروب التوسع والسيطرة ، ارضاء لنزوات ملوكها او تحقيقـــا لاطماعهم ، فكان ابناء المقاطعات السويسرية ، وجلهم من الفقراء المعدميـــن ، يموتون او يشوهون من اجل اهداف لا تعود على بلدهم باي نفع او خير • وفـي نهاية القرن الثامن عشركان هناك اكثر من سبعين الف سويسري مجنديـــن ، بشكل دائم ، في الجيوش الاوروبية •

ومما تقدم نستنتج ان تاريخ سويسرا لم يكن ، كما يتصور البعض ، ناصع البياض ، وان تطورها السياسي والاجتماعي لم يتم ، كما يزعم البعض ، بشكـل متزن وهادىء •

٢ ـ والمطلعون على الاوضاع العامة في سويسرا يعرفون ان الدستور ينص على وجوب احترام الحريات العامة ، وخصوصا حرية الرأي والتعبير ، ولكنهـم يعرفون كذلك ان ثمة فرقا او هوة بين النص المكتوب والممارسة الفعليـــة • ان معظم الدول التي تخضع لانظمة رأسمالية او اوليغارشية تحرص على تزييـــن دساتيرها باروع ما قيل عن تقديس الحريات العامة ،تاركة لرجالها مهمة التلاعب بهذه الحريات والتحايل عليها •

صحيح ان الحريات العامة في سويسرا مكفولة دستوريا • وصحيـــح ان المواطن يستطيع ، اذا شاء ، ان يعبر عن رأيه ومعتقده بمختلف السبل المتوافرة• وصحيح ان الحاكمين والمسؤولين يتعرضون ، من وقت لاخر ،لانتقادات واتهامات لاذعة فيتقبلونها برحابة صدر • ولكن كل ذلك يجري ضمن الخطط الذي تضعـه وتنظمه الاوليغارشية الحاكمة • ان حرية الرأي مصونة ، نظريا ، ولكنها فـي الواقع مقيدة • ان النظام القائم قد رسم لها حدودا معينة لا يجـــوز لهـــا أن تتجاوزها • وكل مخالفة للاسس والركائز التي يقوم عليها النظام توصف بانهـا هدامة وخطرة ، وتقمع فورا او بعد حين ، ويتعرض صاحبها لانواع شتى مـــن الضغط والوعيد والتهديد •

ان النائب في البرلمان السويسري يتمتع بالحصانة التي تخوله حق التعبير عن ارائه بحرية تامة وبمختلف الوسائل ، الا أن اقدامه على خـــرق حرمـــة « المقدسات » التي يفرضها النظام يعرضه لحملة فورية وواسعة النطاق من القمع او التهديد أو العزل الاجتماعي • فهو ، في البداية ، ينعت بانه غير رصين •ثم توصف آراؤه واقواله بالتطرف والتهور • وبعد ذلك يعمد اهل النظام الى شن

حملة قدح وذم وتحقير ضده ، من شأنها الحط من قدره في اعين المواطنين • وهذا ما خبره السيد Arthur Villard ، النائب الاشتراكي في البرلمان ، عندما حمل على الحكومة لبيعها الطائرات السويسرية من طراز Pilatus-Porter الى الولايات المتحدة وحلفائها واستخدامها في حرب الابادة في فيتنام (١٧) •

والمؤلم حقا ان اهل النظام ما زالوا حتى اليوم يبررون كل تفاوت طبقي ، او على الاقل كل تفاوت في الاجور والرواتب ، بنظريات بالية عفى عليها الزمن ، مثل نظرية « منطق الاشياء » او « طبيعة الاشياء » •

واذا كانت المعارضة ، في كل بلد ديموقراطي ، هي الوجه الاساسي البارز لحرية الرأي والتعبير ، فان اهل النظام في سويسرا يبذلون الجهود ويجندون الطاقات للحيلولة دون توافر الظروف والفرص لظهور معارضة نوعية بناءة • انهم ، على غرار ما يحدث في دول اوليغارشية كثيرة ، يسمحون بانتقاد كل شيء ما عدا الايديولوجية التي يعتنقونها • انهم يتساهلون بانتقاد الشكل ويفاخرون الغير بمدى ما وصلت اليه الحرية في بلادهم ، اما الجوهر الذي يتناول اسس النظام فشيء مقدس لا يخضع للنقد ولا يحتمل المناقشة • ولو حاول احد المواطنين يوما ان يتسلح بالجرأة ويهاجم « مقدسات » النظام لهبت في وجهه على الفور ، ومن كل الجهات ، زوابع عاتية كفيلة باخراسه او تحطيم مستقبله •

٣ ـ والمتخصصون في علم الاجتماع والسياسة يجزمون بأن الاحزاب السياسية في سويسرا لا تقوم بدورها المطلوب ولا تتنافس في سبيل الخير العام• ان حكام سويسرا يشيدون بنظامهم الديموقراطي الذي لا يخضع لدكتاتورية البروليتاريا، ولا لسطوة الحزب الواحد ، بل لحكم الاحزاب المتحالفة المتعاونة • ولكن ما هي القيمة الفعلية للاحزاب السويسرية ، ولا سيما للاحزاب الحاكمة ؟ وما هي الفروق الايديولوجية البارزة بينها ؟ وما هو مدى تأثيرها في الحياة العامة ؟

في سويسرا ٢٩ حزبا • وفيها ثلاثة ملايين ناخب ، لا ينتسب الى الاحزاب اكثر من ١٠ ٪ منهم • وغالبية الاحزاب تنشط على صعيد اقليمي دون ان يكون لها تأثير في بقية اجزاء الوطن • هناك ثلاثة احزاب فقط لها وجود ملموس في معظم الكانتونات • والثلاثة ، مجتمعة ومتآلفة ، لا تحصل على اكثر من ٢٠ ٪ من اصوات المقترعين • وهذا يعني ان ليس في البلاد حزب كبير يمثل الاغلبية •

واذا كانت وسائل الاعلام الموجه في العالم تتحدث باعجاب وتقدير عن مدى الوعي الاجتماعي والسياسي الذي يتمتع به المواطن السويسري ، فان

الحرص على تأدية الواجب الانتخابي يجب ان يكون من مقومات هذا الوعي ٠ ولكن الاحصاءات تشير الى عدم اكتراث هذا المواطن كليا بالشؤون الانتخابية، فظاهرة الامتناع عن الاقتراع في سويسرا امر يسترعي الانتباه ويستدعي التحليل والتفسير ٠ ففي انتخابات عام ١٩٧٢ ، ضرب الامتناع رقما قياسيا فتجاوز ٦٧ ٪ ٠ وهذه النسبة تقلل من اهمية التمثيل الشعبي وتجعل من البرلمان منبرا لا يمثل اكثر من ٣٠ ٪ من الناخبين ، واكثر من ١٤ ٪ من المواطنين (اذا اخذنا بعين الاعتبار عدد المقترعين وعدد السكان) ٠

٤ ــ وعلماء السياسة يرون ان **النظام البرلماني السويسري لا يستحق كل هذه الضجة التي تثار حوله** ٠ فهذا النظام ، ككل نظام اتحادي ، يتكون من برلمان (يسمى الجمعية الفدرالية) ذي هيئتين تسميان في سويسرا : المجلس الوطني ومجلس الولايات ٠ والمجلسان يتمتعان بصلاحيات متشابهة ، ويتكون الاول من ٢٠٠ نائب ينتخبون لمدة اربع سنوات بطريقة الاقتراع او التمثيل النسبي ، ويشكل كل كانتون (او ولاية) دائرة انتخابية ٠ اما مجلس الولايات فيتكون من ٤٤ نائبا ، بمعدل ممثلين اثنين عن كل كانتون ٠

ودراسة بسيطة للحياة البرلمانية في سويسرا تؤكد لنا ان البرلمان لا يمثل الشعب السويسري تمثيلا صحيحا :

ا ــ فالمواطنون الذين تتراوح اعمارهم ما بين ٢٠ و ٤٠ عاما يمثلون الغالبية في الهيئة الانتخابية ، ولكن ٧ ٪ من النواب فقط تنتمي الى هذه الفئة٠

ب ــ والنساء يشكلن ٥٣ ٪ من الهيئة الناخبة ، ولكن ١٥ امرأة فقط استطعن الوصول الى مقاعد البرلمان ٠ هذا مع العلم ان حق الانتخاب لم يمنح للمرأة السويسرية الا في عام ١٩٧١ ، في حين ان المرأة اللبنانية قد نالت هذا الحق منذ عام ١٩٥٢ ٠

جـ ــ وفي سويسرا ١٫٣٥٠٫٠٠٠ عامل ، وليس لهم سوى ممثل واحد ٠

د ــ والعائلات الغنية الكبرى تتوارث ، ابنا عن اب ، المناصب النيابية ، ففي كل دورة انتخابية يلاحظ المراقبون ان نسبة التغيير في وجوه النواب ضئيلة وان الابناء والانسباء يخلفون الراحلين او المتقاعدين او المتغيبين من النواب السابقين ٠

هـ ــ والدخل السنوي المتوسط للمواطن لا يتجاوز ١٨ الف فرنك ، اما الدخل المتوسط المعلن للنائب فيتجاوز ٥٣ الفا ٠

والاوليغارشية السويسرية تحكم سيطرتها على البرلمان ليبقى التشريع

رهن ارادتها · وكلما رغب نائب في مناقشة بعض القضايا التي تمس جوهر النظام ، او عمل المصارف ، او العلاقات الخارجية ، تصدت له الاوليغارشية وثبطت من عزيمته · وهي تتبع اسلوبا ماهرا في الهيمنة على اعضاء البرلمان والحكومة ، وفي ترويضهم وتوظيفهم لخدمة مصالحها · انها تسيطر على معظم الشركات الكبرى ذات النفوذ الواسع · وكلما توسمت خيرا في نائب جديد وجهت اليه سهام الترغيب والاغراء وعرضت عليه عضوية مجالس الادارة في شركاتها · بل انها تكافئه احيانا (وخصوصا عندما تتثبت من كفاءاته وتتلقى خدماته) بترفيعه الى رئيس لمجلس ادارة احدى الشركات · وكل ذلك مقابل تعويضات مالية مغرية · و٨٢ ٪ من نواب البرلمان السابق كانوا اعضاء في مختلف مجالس الادارة ·

وفي سويسرا حكومة ، تسمى المجلس الفدرالي ، مكونة من سبعة اعضاء تنتخبهم الجمعية الفدرالية (البرلمان) في بداية كل دورة تشريعية · ويتناوب السبعة على الرئاسة ونيابة الرئاسة · ويعتبر رئيس المجلس الفدرالي رئيسا للاتحاد السويسري · وليس للرئيس صلاحيات خاصة · انه يتولى تمثيل الاتحاد في الداخل والخارج ويدير جلسات المجلس · والحكومة ليست مسؤولة امام البرلمان ، ولا يمكن اسقاطها خلال الدورة التشريعية · انها تستمد فترة بقائها من عمر البرلمان ·

وهل يطلب من الوزير ، قبل انتخابه او بعده ، مؤهلات او كفاءات معينة ؟ يطلب منه ان يلتزم الصمت الطويل ، فلا يتدخل في المناقشات العامة الا بحكمة وحذر ، ولا يبدي اي رأي او يقدم اي اقتراح من شأنه عرقلة مخططات الاوليغارشية المهيمنة · المطلوب منه ، باختصار ، ان يكون انسانا مغمورا وطيعا لا لون له ولا طعم ·

☆ ☆

ذلك هو الوجه الحقيقي للديموقراطية السويسرية · والفئات اللبنانية المغرمة بالتجربة السويسرية تصر على نقلها الى لبنان لانها تمكنها ، باسم الديمقراطية والحرية ، من توسيع حلقة امتيازاتها ، وستر عوراتها ، وتسخير الدولة لتحقيق مآربها · واذا كانت تظن ان اروع ما في هذه التجربة ليس النظام السياسي والاجتماعي وانما التزام الحياد ، فهي واهمة ، لان حياد سويسرا فقد فضائله منذ زمن وتحول الى اداة ووسيلة لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة ·

خامسا ـ الوجه الاخر للحياد السويسري

الحياد ، في القانون الدولي العام ، نوعان : مؤقت ودائم · والمؤقت موقف تلتزمه الدولة تجاه حرب معينة لا تود المشاركة فيها · وهو ينتهي بانتهاء الحرب · اما الحياد الدائم فهو مركز قانوني تتعهد فيه الدولة التي تتبناه بعدم اللجوء مطلقا الى القوة الا دفاعا عن نفسها · ومقابل ذلك تتعهد الدول المجاورة والكبرى ، عادة ، باحترام هذا الحياد وضمانه ضد كل دولة تحاول خرقه · وسياسة الدول الاوروبية في القرن التاسع عشر ، والرغبة في المحافظة على وجود الدول الصغيرة ، والحرص على تجنب الاحتكاك بين الدول الكبرى ،والميل الى ايجاد توازن دولي يقترن بسلام عالمي ، هي التي املت فكرة الحياد الدائم ·

والمصدر الاساسي للحياد الدائم هو ، قبل كل شيء ، اتفاق دولي · وهذا الاتفاق قد يكون معاهدة جماعية ، كحياد بلجيكا لعامي ١٨٣١ و ١٨٣٩ ، وحياد اللوكسمبورج لعام ١٨٦٧ · وقد ينتج عن قرارات منفردة متضامنة كحياد سويسرا ، الذي صدر عن تصريح ادلت به الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨١٥ ، وعن قرار وقعته الدول الكبرى والبرتغال في نفس العام واعترفت فيه بحياد سويسرا وبعزمها على حمايته واحترامه · وقبلت هذا القرار ، بعد ذلك ، دول عديدة · وحياد النمسا لعام ١٩٥٥ مر بنفس المراحل تقريبا ·

والغرض الاساسي من الحياد الدائم هو تجنب الاخطار الحربية في منطقة يتنازع عليها الكبار ، او في منطقة يمكن ان تندلع منها شرارة الحرب اذا بقيت مسرحا للخصومات والمساومات · فالحياد هو ، اذن ، بمثابة وسيلة او محاولة تهدف الى توفير السلام في منطقة خطرة ·

والى جانب هذا الغرض الجوهري هناك اهداف جانبية خاصة تختلف من دولة حيادية الى اخرى ، فحياد سويسرا ، الذي كان قبل عام ١٨١٥ ، تقليدا قديما لا يخضع لانظمة واضحة ، كان الغرض منه تجنيب المقاطعات السويسرية اخطار الحروب التي كانت محتدمة في اوروبة بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية · وبعد مؤتمر فيينا اصبح الهدف من حيادها اقامة سد منيع في وجه المطامع الفرنسية · وبعد تحقيق الوحدة في كل من ايطاليا والمانيا بدا الحياد كوسيلة فعالة لانقاذ سويسرا ، ذات القوميات واللغات والاديان المختلفة، من اطماع جيرانها الذين كانوا ينادون بوجوب تكوين الامم انطلاقا من مبدأ القوميات · ويفسر البعض حياد سويسرا في الوقت الحاضر برغبتها في الابتعاد عن المنازعات بين الشرق والغرب وعن الاحلاف العسكرية ·

والمعجبون بالحياد السويسري كثيرون ، ومنهم اهل اليمين اللبناني • وهم يعتقدون ان هذا الحياد مثل اعلى لكل دولة نامية ، ولكل دولة تضم قوميات ومذاهب متعددة • ويبالغ بعضهم فينسب اليه كل المحاسن والميزات والفضائل التي تشتهر بها سويسرا •

وعندما ندقق مليا في الامر نجد **ان الطبقة الاوليغارشية الحاكمة قد افرغت الحياد من مضمونه القانوني الاصيل لتتمكن من استغلاله في سبيل مصالحها** • وهي تردد في كل مناسبة النظرية التي اذاعها مرة Pictet-de-Rochemont وهو دبلوماسي سويسري كان له دور بارز بعد مؤتمر فيينا لعام ١٨١٥ • فقد كان يحاول اقناع الدول الكبرى بضرورة الحفاظ على الحياد السويسري ، معتبرا ان سويسرا قد ارتضت الحياد لخدمة المصلحة الاوروبية • قال : « ان سويسرا لا تلتزم الحياد من اجل نفسها ، بل من اجل الاخرين ، لان وجود دولة حيادية في قلب اوروبة يتجاوب مع المصلحة الخاصة لكل دولة من دول القارة » • وقال في احدى المناسبات للسياسي المشهور مترنيخ : « ان الحياد السويسري هو في مصلحة جميع دول اوروبة » •

غير ان الاديب الفرنسي Chateaubriand (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩) كان ، من قبل ، قد اكتشف حقيقة هذا الحياد عندما قال : « ان السويسريين الذين يلتزمون الحياد خلال الثورات الكبرى التي تندلع في الدول المحيطة بهم يغتنون من مصائب غيرهم ويؤسسون مصرفا بفضل الكوارث الانسانية »•

★ ★

ولو عدنا الى المعنى اللغوي لكلمة « محايد » في اللاتينية لالفينا انها تعني « لا هذا ولا ذاك » ، اي ان المحايد « ليس احد الاثنين » • وهذا يدل على ان الحياد عمل سلبي • وبما ان سويسرا كانت تمتنع باستمرار عن اتخاذ اي موقف في الحقل الدولي ، وترفض الافصاح عن اي اتجاه ، وتذهب في بعض الاحيان الى حد انكار حقيقة المنازعات التي تمزق الشعوب ، فان احد مفكريها ، A. Gorz قد اضطر الى التأكيد على ان « سويسرا لا وجود لها » ، بمعنى ان ليس لسويسرا ، في الحقيقة ، وجود دولي محسوس •

ومع ذلك فان حكام سويسرا لا يملون من التطبيل والتهليل لحيادهم ، والحديث عن ضرورته لسلام العالم ، والتركيز على ايجابيته • واذا سئلوا عن ابرز معالم هذه الايجابية اجابوا بانها تتجلى في الوساطة • فهل تمارس سويسرا ، حقا ، هذا الدور ؟

ان دور الوساطة الذي تؤديه سويسرا ، من وقت الى وقت ، دور متواضع جدا لا يكاد يذكر · بل هو في الواقع لا يستحق هذه التسمية ، لانه ليس سوى تدبير بسيط تقوم به السلطات السويسرية ويسفر عن السماح لطرفين دوليين · متنازعين بعقد اجتماعات او اجراء مفاوضات فوق ارضها · ان العامل الجغرافي هنا يتفوق على كل دور سياسي ·

ففي عام ١٩٦٢ ، جرت في احدى المدن السويسرية مفاوضات بين الفرنسيين والجزائريين · الا ان سويسرا لم تكن ، بالنسبة الى هذا الحدث ، الا مكان لقاء للطرفين المتحاربين · ومع ان الحكومة السويسرية قد انتدبت احد سفرائها ليكون تحت تصرف الطرفين ، فانه لم يقم ابدا بمهمة وساطة ، بل قام بدور ساعي البريد · ولهذا قال المفكر Zeigler : « منذ الحرب العالمية الثانية لم تقبل الحكومة السويسرية مطلقا ، او بشكل اوضح لم يتح لها ان تمارس وظيفة وسيط حقيقية » (١٨) ·

ولعل اخطر ما ينطوي عليه الحياد السويسري في الفترة الراهنة هو رعايته لتجارة الحرب او تجارة الموت · وتعد هذه التجارة التي تنطلق من سويسرا ، الدولة التي تفاخر الدنيا بمحبتها للسلام واحتضانها للعديد من المنظمات الدولية ذات الطابع الانساني ، وصمة عار في جبين حيادها · وتكفي وحدها لنسف كل ركائز الحياد وفضائله من اساسها ·

وتجارة الحرب والدمار نشاط اساسي تتقنه الامبريالية على مختلف انواعها واشكالها · بل ان هذه التجارة تعتبر من صلب الامبريالية التي تبني مجدها ورفاهيتها على اشلاء الضحايا وجثث الابرياء · وازدهار هذه التجارة ورواجها في سويسرا دليل ساطع على تواطؤ نظامها مع الامبريالية ، وبرهان واضح بالتالي على انحراف حيادها عن الخط السليم المعلن · وتتحمل سويسرا هنا مسؤولية كبرى لانها تسمح باستخدام ارضها كمركز ومقر ومكان لممارسة هذه التجارة :

١ ـ فارضها تستخدم كمركز تجمع وانطلاق لتجار الحرب العالميين ·فهؤلاء يتخذون من سويسرامركزا لشراء الاسلحة الفتاكة وبيعها ونقلها واعادة بيعها دون ادخالها الى الارض السويسرية · ان هذه العمليات تتم بواسطة مكاتب ، موجودة في بعض المدن السويسرية المهمة ، تديرها شركات تجارة الحرب ·

٢ ـ وارضها تستخدم كمقر للشركات الكبرى ذات الجنسيات المتعددة والانتاج المتنوع · وهي من اصل اجنبي ، ولكنها تقيم في سويسرا · فزوريخ ،

مثلا ، مقر لاكبر شركة في العالم لصنع مادة النابالم • وجنيف مقر لاكبر شركة في العالم لصنع القذائف التي تستعمل ضد الاشخاص • وفي كل يوم ، وفي جميع ارجاء الدنيا ، يستعمل النابالم وتلقى القذائففيحترق الاطفال وتتمزق اجساد الابرياء ويعم الخراب • واكد تقرير رفع الى مجلس الشيوخ الاميركي ، في حزيران ١٩٧١ ، ان مليونين من اطفال فيتنام قد لاقوا حتفهم ، ما بين عام ١٩٦٨ و ١٩٧١ ، بسبب استعمال هذه « المبيدات البشرية » • وقدمت استجوابات عديدة الى المجلس الفدرالي السويسري حول هذا الموضوع فاعلن بانه لا يستطيع ان يتخذ اي تدبير ضد هذه الشركات •

٣ ـ وارضها تستخدم كمكان لانتاج الاسلحة المختلفة • ففي سويسرا ، حاليا ، عدة شركات لانتاج الاسلحة ، اشهرها اثنتان يكون كل منهما امبراطورية كبرى لانتاج ادوات الموت الزؤام : شركة Bührle ، المتخصصة في صنع الرشاشات والمدافع وابراج الدبابات • وشركة Sig-Schaffouse ، المتخصصة في صنع بنادق الاقتحام • وهذه الشركات تعمل في سويسرا ، معززة مكرمة • وهي تحظى برعاية الحكومة ودعمها لانها ، اولا ، تصنع الاسلحة للجيش السويسري ، مما يجعلها تدعي بانها تعمل لخير الوطن ، ولانها ، ثانيا ، تتمتع بنفوذ مالي كبير يتيح لها تحقيق ارباح فلكية وشراء ضمائر واقلام عديدة • وهي اليوم تستفيد من وضع او ظرف تاريخي خاص • انها لا تنتج الا القليل من الاسلحة الثقيلة ، واختصاصها يقتصر على انتاج سلاح المشاة، وبنادق الاقتحام، والمدافع المضادة للطائرات ، والالغام الموجهة ضد الافراد • وهناك شركات سويسرية تحتكر صناعة بعض ادوات الدمار في العالم ، كطائرة Pilatus المذكورة ، التي تحتاج الى مسافة قصيرة للاقلاع ، وتستطيع التحليق على علو منخفض ،وتستخدم في حرب العصابات للكشف عن الثوار المتوارين في الغابات•

ومن هو الزبون او المستهلك الاول لهذه الاسلحة ؟

انها الدول النامية التي تقبل على ابتياعها من اجل استخدامها في معاركها الحدودية التي تضاعف عددها واشتد اوارها في الآونة الاخيرة ، وفي حملاتها الداخلية الرامية الى قمع الحركات والتيارات المناهضة لانظمتها السياسية • ان هذه الدول عاجزة عن شراء الطائرات الحربية الضخمة ، ولكنها قادرة على ابتياع عدد هائل من الاسلحة الخفيفة وتدريب رجالها عليها بسرعة فائقة • ان المناضل تشي غيفارا قتل ، في ٨ ـ ١٠ ـ ١٩٦٧ ، ببندقية اقتحام من صنع سويسري •

ونلاحظ ان معظم الانظمة الدكتاتورية التي تشتري السلاح السويسري

تكرسه لقمع حركات العمال والفلاحين والطلاب فيها • ولهذا اخذت صادرات سويسرا من السلاح تسجل ارتفاعا مستمرا • ففي عام ١٩٧٤ ، بلغت قيمة هذه الصادرات ٢٣٦ مليون فرنك ، غير ان الرقم قد وصل الى ٣٦٩ في عام ١٩٧٥• واشهر زبائن سويسرا في هذا الحقل اسبانيا وايران وجنوب افريقيا (١٩) •

وعلاقة سويسرا الوثيقة بالنظام العنصري المقيت في جنوب افريقية تقضي على كل ادعاء بالحياد • فسويسرا تاتي في المرتبة الثالثة بين دول العالم التي تستثمر رساميلها في هذا البلد • وحجم استثمارات الشركات السويسرية فيه ارتفع من ١٠٠ مليون فرنك في عام ١٩٥٦ ، الى ١٣٠٠ مليون في عام ١٩٧١ • وارتفع حجم الصادرات السويسرية اليه الى ٣٣٠ مليون فرنك في عام ١٩٧٢ ، بعد ان كان ١٠٢ مليون في عام ١٩٦٢ • و٨٠٪ من ذهب جنوب افريقية ، الذي يباع في السوق العالمية الحرة ، يمر بزوريخ •

وفي عام ١٩٦٨ ، نظمت الامم المتحدة مؤتمرا دوليا في طهران حـول حقوق الانسان • وكان يمثل سويسرا في المؤتمر احد سفرائها البارزين • وقد قال في الكلمة التي القاها : «ان الشعب السويسري يديـــن السياسة العنصرية التي تتبعها جنوب افريقية» • واثيرت عاصفة ضده في البرلمان السويسري • وطالب البعض بعزله من وظيفته • وحاول وزير الخارجية ان يخفف من وقع هذه «الخطيئة» ، فلجا الى منطق غريب • لقد اعترف بمعارضة الشعب السويسري للعنصرية ، ولكنه سارع الى التاكيد بان على الحكومة السويسرية الا تعكر صفو العلاقات بينها وبين جنوب افريقية ، وذلك لسبب بسيط : لان سويسرا ، اذا امتنعت عن تمويل جنوب افريقية ، فسيكون هناك حتما دولة اخرى تقوم بهذا العمل !!

★ ★

والحديث عن الحياد يقودنا الى استعراض موقف سويسرا من النزاع العربي الصهيوني • ان جميع الدلائل تثبت (على الرغم من الفوائد الطائلة التي تجنيها سويسرا من ودائع العرب في مصارفها) **ان موقفها من هذا النزاع، او موقفها من مجمل القضايا العربية ،يتسم بالتحيز الصارخ لاعداء العرب ، ويتنافى بالتالي مع قواعد الحياد التي تعلنها** • ويكفينا الاستشهاد بثـــلاث حوادث تثبت تواطؤ حكامها مع اسرائيل ووضعهم مقدرات بلادهم تحت تصرف الجهاز العسكري الاسرائيلي :

الاولى : هي قيام مهندس سويسري يعمل لحساب العـــدو الصهيوني بسرقة تصاميم طائرة الميراج الفرنسية من احد الاجهزة الرسمية السويسرية

وارسالها الى اسرائيل · ومع ان السلطات السويسرية قد علمت بهذا الامر الخطير ، فانها لم تفعل شيئا ·

والثانية : هي مهاجمة اربعة من الفدائين العرب ، في ١٩٦٩/٢/١٨ ، لاحدى طائرات العال في مطار زوريخ ، مبررين هجومهم بوجود معدات حربية على متن طائرة مدنية · وكانت كل القرائن تثبت ذلك ، فالطائرة تتسع لـ ١٦٢ راكبا ، ولم يكن على متنها الا ١٧ راكبا · ومع ان نسبة الركاب فيها لم تكن تتجاوز عشر قدرتها القصوى على الاستيعاب ، فان وزنها آنذاك قد بلغ الحد الاقصى من حمولتها · وهذا يعني ان مستودع الامتعة فيها كان مكتظا بمعدات غير عادية ، مثل الاسلحة والذخيرة وقطع الغيار والادوات الحربية · ثم ان الطاقم العادي لطائرة البوينغ يتكون ، عندما تكون الطائرة كاملة العدد، من ثمانية افراد · ولكن طاقم الطائرة الاسرائيلية كان مكونا من ١٢ شخصا ، وكان احدهم (وهو امر مستغرب) يحمل جوازا مصريا · وبعد اطلاق النار على الطائرة تدخلت الشرطة السويسرية ، وطلبت من الفدائيين التخلي عن اسلحتهم ، فانصاعوا · وفي هذه الاثناء ، وعلى مرأى من رجال الشرطة ، قفز من الطائرة حارس اسرائيلي مسلح صوب رشاشه نحو الفدائيين واردى احدهم قتيلا · وطلب الفدائيون من السلطات السويسرية الكشف على الطائرة وتفتيشها ، او على الاقل احتجازها ، بغية اجراء التحقيقات السريعة اللازمة ، فرفضت · وطالب محامو الفدائيين ببيان عن حمولة الطائرة فتجاهلت سويسرا الامر · وبعد فترة وجيزة ، افرجت السلطات السويسرية عن الحارس الاسرائيلي بكفالة ، ورفضت معاملة الفدائيين بالمثل (٢٠) ·

والحادثة الثالثة : هي تهريب الاعتدة الحربية من سويسرا بالطائرات المدنية الاسرائيلية · ففي ٢٨ ـ ١ ـ ١٩٧٠ ، طالعتنا الصحف السويسرية بخبر مفاده ان مصلحة الجمارك في مطار جنيف قامت بتفتيش بضاعة للترانزيت تشحنها طائرة تابعة لشركة العال ، واكتشفت شحنة مهمة من العتاد الحربي كانت معدة للارسال الى تل ابيب ، وتشمل قطع غيار لطائرات الفانتوم الاميركية· وفتحت النيابة العامة الفدرالية تحقيقا ، ولكنها سرعان ما اسدلت الستار على الفضيحة ·

★ ★

وبعد وقوفنا على بعض الحقائق المرة التي ينطوي عليها [illegible] السويسري،

لا يسعنا ، في ختام حديثنا ، الا ان نبدي الملاحظات التالية :

١ ـ ان دعوة اليمين اللبناني الى اعتماد نظام الكانتونات لا يمكن ان تفسر الا برغبته في تحويل لبنان الى بلد شبيه بسويسرا ، تتحكم بمصيره طبقة اوليغارشية كلما حققت مكسبا، او كدست مبلغا ، او ابتزت شعبا ، قالت هل من مزيد ؟

واليمين يقع في تناقض فاضح عندما يقتبس من الانظمة السويسرية ما يلائم مصالحه فقط • ان سويسرا ، مثلا ، تتبنى نظام التمثيل النسبي في الانتخابات ، غير ان اليمين يرفض العمل به بحجة انه يساعد اليساريين على الوصول الى البرلمان • وفي سويسرا تعددية حزبية ، غير ان اليمين يطالب بالغاء الاحزاب في لبنان ، او بحصرها بثلاثة فقط مع وضع قيود مشددة على عمل الاحزاب اليسارية • ورئيس الاتحاد السويسري (اي رئيس الجمهورية) هو في نفس الوقت رئيس المجلس الفدرالي (اي الحكومة) • وهو ينتخب لسنة واحدة ولا يتمتع بصلاحيات خاصة ، لان سويسرا ، كما يقال ، تكره السياسيين الاقوياء • ولكن اليمين يطالب دوما بتقوية صلاحيات رئيس الجمهورية في لبنان ، وينادي احيانا بالنظام الرئاسي •

٢ ـ ان اليمين اللبناني يتجاهل عمدا مسيرة التطور التي قطعها التاريخ السياسي والدستوري في سويسرا • ان الصلاحيات الواسعة التي كانت الكانتونات تملكها في الماضي قد تقلصت وتناقصت بالتدريج • ومعظم التعديلات التي ادخلت على الدستور كانت ترمي الى تعزيز سلطة الدولة الاتحادية وتركيز الصلاحيات الاتحادية في يد الحكومة • وكل من يتابع تطور النظام الاتحادي في سويسرا يلمس ، بصورة واضحة ، ذلك الاتجاه الوحدوي الذي يتعاظم شانه جيلا بعد جيل فيدفع الكانتونات الى التقارب والانصهار عن طريق التخلي التدريجي عن صلاحياتها لصالح السلطة المركزية في الاتحاد • وفي الوقت الذي يهب فيه على سويسرا تيار التوحيد والاندماج ، يصر اليمين اللبناني على الوقوف في وجه التيار ويدعو الى اضعاف وحدة الوطن عن طريق تقسيمه الى كانتونات تتمتع بالحكم الذاتي •

٣ ـ ان اليمين اللبناني قد مني ، بعد طرحه مشروع الكانتونات ، بخيبة امل ، فلم يلق التأييد الذي كان يتوقعه • وهذا ما دفعه الى اعتماد تكتيك جديد والدعوة الى مشروع اخر ، املا ان يحظى بالقبول ويحقق له نفس الاهداف التي يعمل لها • انه مشروع اللامركزية • ولكن حديث اللامركزية يحتاج الى بحث اخر •

الحواشي :

١ ـ اللواء ، ١٩٧٦/٧/٥ ٠

٢ ـ السفير ، ١٩٧٦/٨/١٢ ٠

٣ ـ بيروت ، ١٩٧٦/٨/١٣ ٠

٤ ـ السفير ، ١٩٧٦/٨/١٤ ٠

٥ ـ نفس المرجع السابق ٠

٦ ـ السفير ، ١٩٧٦/٨/١٥ ٠

٧ ـ السفير ، ١٩٧٦/١٠/١٩ ٠

٨ ـ النهار ، ١٩٧٦/١١/١٨ ٠

٩ ـ النداء ، ١٩٧٦/١٢/١٢ ٠

١٠ ـ هذه المعلومات مستمدة من نشرة Suisse , OCDE , Etudes éco , Paris 1975

١١ ـ صدر الكتاب في باريس في عام ١٩٧٦ ، بعنوان :
Une Suisse au - dessus de tout soupçon

١٢ ـ ذكرت المجلة الالمانية Der Spiegel في ١٩٧٦/١/١٩ ، ان المهربين يتقاضون عمولة مقدارها ٧٪ ، وذلك مقابل تهريبهم بالحقائب ، العملة الاسبانية من فئة الالف بيزتا ٠

١٣ ـ في ايلول ١٩٧٤ ، امرت الحكومة السويسرية بتوزيع قسم من الممتلكات المالية الاجنبية المودعة في المصارف السويسرية منذ الحرب العالمية الثانية ٠ وقد كان للمبرات اليهودية نصيب وافر منها ٠

١٤ ـ راجع تصريح Colby ، الرئيس السابق للوكالة في مجلة «التايم» في ١٩٧٤/٩/٣٠ ، ص ٢٤ ٠

١٥ ـ راجع صحيفة «نيويورك تايمز» في ١٩٧٤/٩/٨ ٠

١٦ ـ راجع ما كتبه الدكتور ادمون رباط عن الاتحاد السويسري في كتابه «الوسيط في القانون الدستوري العام» ، الجزء الاول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٥٦٤ وما بعدها ٠

١٧ ـ Zeigler ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ و١٢١ ٠

١٨ ـ نفس المرجع ، ص ١٤١ ٠

١٩ ـ نفس المرجع ، ص ١٥٦ وما بعدها ٠

٢٠ ـ راجع كتابنا عن «خطف الطائرات في الممارسة والقانون» ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٠٢ ٠

مأزق الاقتصاد الاسرائيلي بين العمل العبري والعمل العربي

حسين أبو النمل

رغم ان هذه الدراسة ليست معنية بدراسة تاريخ ونشأة الحركة الصهيونية ، والذي هو موضوع قائم بذاته وعالجته دراسات اخرى متخصصة ، ترى من الضروري ان تؤكد انها مع وجهة النظر القائلة بان الصهيونية ، هي نتاج عصر الامبريالية ، والذي بدأ في النصف الاخير من القرن التاسع عشر · وليس مصادفة تاريخية ان يرتبط تاريخ هذه الحركة منذ قيامها الى يومنا هذا بالدول الامبريالية · وتلخص هذه المسألة رسالة هرتزل الى سيسل رودس اذ قال له «انك مدعو للمساعدة في صنع التاريخ ، ان هذا الامر لا يمكن ان يخيفك وسوف لا تهزأ منه · انه لا يدخل في الاطار الذي اعتدت عليه ، فهو لا يتعلق بافريقيا وانما بقطعة من آسيا الصغرى كما انه لا يتعلق بالانجليز وانما باليهود ·· ومع ذلك ، فان المسألة لو كانت تواجهك لكنت قمت بها منذ زمن · اما لماذا الجأ اليك والمسألة بعيدة عنك ، فجوابي انها مسألة استعمارية ·· » ·

الامر الثاني الذي لا بد من الاشارة اليه ، ان احتضان الدوائر الامبريالية الرسمية للحركة الصهيونية ، ومنذ وقت مبكر ، لا ينفصل اطلاقا عن حصيلة خبرة الدول الامبريالية في كيفية توظيف المشاكل الطائفية في خدمة مصالح تلك الدول · ولنا في حوادث لبنان الطائفية في الفترة بين ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ خير معين في تبيان تلك الحقيقة · فقد كان وقود وقطبي الصراع محليا ، الدروز والموارنة ، يحظيان بدعم قطبي الصراع دوليا على اقتسام المصالح الاستعمارية · ففي حين كانت فرنسا تدعم كاثوليك لبنان ، كانت بريطانيا تدعم الدروز ، والاطراف الثانوية في الصراع كانت تحاول ايجاد مرتكزات طائفية لها في المنطقة ، روسيا تتاجر بالارثوذكس وتركيا تتاجر بالطائفة السنية ·

ان الدول الامبريالية التي عرفت كيف توظف المشكلة الطائفية في ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ ، لتدعيم نفوذها في الامبراطورية العثمانية ، وللحصول على مكاسب جديدة غير التي كانت لها في السابق ، لم يكن صعبا عليها ادراك اهمية الحركة الصهيونية ، وتوظيفها لخلق مشكلة جديدة في المنطقة ، تلعب دور القنبلة الموقوتة التي تستطيع تفجيرها ساعة تريد ·· تلك القنبلة التي انفجرت اكثر من مرة ·· ولكن مصير اسرائيل هرتزل لن يختلف في النهاية عن مصير روديسيا سيسل رودس الذي استنجد به هرتزل ذات يوم·· وللتاريخ قوانينه الصارمة التي لا تخطىء ·

***

نصف قرن .. والحقيقة واحدة

«ينبغي ان تقال الحقيقة كاملة بالرغم من انها تحمل بين ثناياها الالم والحزن . لقد درجنا على التباهي وقرع الاجراس : (اننا) حولنا الصحراء القاحلة الى جنة عدن . (نحن) والسواعد هي سواعد احمد ومصطفى .. » (١) الكلمات لغوردون ، احد « اباء العمل العبري» (٢) الذي عاش في الفترة بين ١٨٥٦ ـ ١٩٢٢ (٣) . بعد اكثر من نصف قرن وفي عام ١٩٧٦ يعترف يسرائيل كنيغ في مذكرته الشهيرة ، وبعد نجاح اضراب يوم الارض ، .. بالحقيقة التي كان قد قالها غوردون فيقول «ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بأن حسن سير الاقتصاد يعتمد على الايدي العاملة العربية . وفي الوقت نفسه اثبت السكان العرب حيويتهم بالنسبة للاقتصاد الذي يديره يهود .. » (٤).

رغم مرور ما يزيد على نصف قرن على كلام غوردون ، لم يتبدل الوضع من ناحية المبدأ ، فاليد العاملة العربية ، التي تحدث عنها كنيغ ، هي سواعد احمد ومصطفى ، التي كان قد تحدث عنها غوردون .. الذي لم يكن يعترف بالحقيقة ، حبا بالحقيقة ، بل ، لاتخاذها وسيلة تحريضية ، لكي يقوم العمال اليهود باحتلال العمل والارض .. وكثيرة هي المبررات التي يقدمها دعاة هذه السياسة ، واحيانا « الطهارة » هي السبب ، ولذا « ينبغي ان يكون كل ما يخلق ويتكون في البلاد من صنع ايدينا : كل شجرة ، كل خضرة ، كل بيت ، كل سياج ... كل شيء ينبغي ان يكون من صنع ايدينا بعرقنا نحن فقط ينبغي ان تترطب ارضنا، وايدينا نحن هي التي ينبغي ان تعيد لها الحياة .. (٥) » .وبفعل هذه الدعوة .. و«عند بداية هذا القرن قررت الهستدروت الصهيونية اقامة غابة تحمل اسم هرتزل تخليدا لذكراه ، وكخطوة اولى شرع في غرس مشتلة اشجار ... بواسطة العمال العرب . وقد اثار هذا العمل استياء عظيما بين صفوف العمال اليهود ...» لماذا ؟ «كيف يحدث ذلك ؟ غابة لذكرى القائد الكبير ، بعمل غير عبري » . وقد اعتبروا ذلك تدنيسا لحرمة هرتزل وشرفه ... «وتعبيرا عن الاحتجاج نقرر خلع المشاتل التي لم تغرس بواسطتنا .. ومن ثم نقوم بغرسها من جديد .. » (٦) . وهذا ما كان ...

في النهاية : من يملك العمل يملك الارض

ولكن المسالة ليست مسالة صوفية ، وقضية «طهارة» و «نقاء» كما فهم البعض المسالة او عبر عنها . بل قضية سياسية تتعلق بزرع المستوطنين في الارض الفلسطينية ، وبتوازن المجتمع الاسرائيلي واستكمال تكوينه الطبقي ، وكي لا يقال « ايضا في وطن بعثنا نستطيع ان نكون فقط شعبا من التجار والباعة المتجولين والسماسرة وليس عمالا منتجين .. (٧) » . وقد كان هنالك وعي لـ « خطر يحدق بنا من العامل الاجنبي (٨) .. » وانه « اذا اصبحت فلسطين كلها تابعة لليهود الاغنياء ، وكل العمال من العرب ، فان فلسطين ستكون في الواقع بلاد العرب وليست بلاد اليهود ... (٩) » ولذا فقد اعتبر العمل العبري شرطا للبعث (القومي) ويقول غوردون بهذا الصدد «ان عملية امتلاك الارض بالاموال لا تعتبر انقاذا بالمعنى القومي ، طالما ان الارض لا تستغل بأيدي اليهود .. ان انبعاث الشعب لا يمكن تصوره بدون عمل في الارض ... (ولذا) ينبغي علينا ان نضع العمل في مركز مطامحنا وان نؤسس عليه كل بنياننا .. (١٠) ».

الادب السياسي الصهيوني حافل بالافكار المشابهة للاراء التي سبق عرضها ، والتي فيما لو جردناها من الطابع الصوفي الذي يلف معظمها لامكن لنا تبين الاسباب الاقتصادية والسياسية الكامنة وراء تلك الدعوة ٠٠ والتي لا تقفز فوق المخاطر التي يمثلها الاعتماد على الايدي العاملة الاجنبية ٠٠ ،تعبر عنها نبؤة يوسف اهارونفتش الذي قال « ان شعبا لا يمتلك هيكلا واسعا من العمال القريبين من الطبيعة ومن مواد انتاج الطبيعة ، ان شعبا كهذا نهايته التحجر في جسده وروحه ، وليس له حق الوجود حتى ولو نجح في ان يوجد لنفسه بوسائل مصطنعة امكانية الوجود ٠٠ (١١) » ٠

رغم الاسباب السياسية التي قدمها دعاة العمل العبري ، فان الغلبة في النهاية كانت للحقائق الموضوعية التي فرضت نفسها ، وسادت الافكار العملية التي عمل على اساسها تيودور هرتزل «مؤسس حركة الصهيونية العالمية المنظمة (١٢) » ، والذي كان «ابعد ما يكون عن فهم الديانة اليهودية الحقة (١٣) » ٠

لقد ادرك هرتزل الحقيقة المعروفة وهي «ان السحر والرومنطقية يلعبان دورا ضئيلا جدا في حياة البشر العاديين بمن فيهم اليهود ٠ وهكذا فانه على الرغم من ان اليهود كانوا يكررون العهد كل يوم بالا ينسوا القدس ، مغذين بذلك التوق للعودة اليها ، فان قليلين جدا منهم ذهبوا فعلا الى هناك للحج او الاستيطان حتى عندما لم تكن هناك عقبات في طريق العودة ٠٠ (١٤) » ٠ وكذلك فان عدد اليهود في فلسطين عام ١٩١٤ مجرد ٣٥ الف يهودي من بين ١٢ مليون يرددون في صلواتهم ثلاث مرات في اليوم ان لن ينسوا اورشليم والعودة الى ارض الميعاد ٠٠ (١٥) » وانه « رغم ما كتب عن المكانة التي تشغلها فلسطين في قلب الشعب اليهودي الا انها كارض للعيش لم يكن لها الا تاثير ضئيل على الفرد اليهودي ٠٠ (١٦) » واشار داعية صهيوني في رسالة له الى مجلة العالم اليهودي في ١٨٩٧/١/٢١ الى ان «اليهود هم اقل طائفة من بين الطوائف الاخرى تقصد الى فلسطين ٠٠ (١٧) » ٠

وان اليهود الذين « غادروا روسيا او بولنده والارض المقدسة على شفاههم ، كانت اقدامهم تسير ثابتة في الاتجاه الاخر : الى المانيا او انكلترا او اميركا ٠٠ (١٨) » ٠

الخرافة تندمج في سند الملكية الايديولوجية على مقاس الوضع الطبقي

الخرافة على الشفاه ، والحقيقة حيث تسير الاقدام كان هذا المأزق الذي ادركه هرتزل ٠٠ والحل كان بكيف يمكن للخرافة ان تتطابق مع الحقيقة ٠٠ الحل كان ممكنا اذا كان «يمكن للخرافة ان تندمج في سند الملكية ٠٠ (١٩) » ولذا « فقد استثار الزعماء الصهيونيون ايضا حافز الربح عند الافراد الذين يؤيدون الحركة ٠٠ (٢٠) » ووعدهم هرتزل عبر كتابه ، دولة اليهود ٠٠ «لن نخسر ممتلكاتنا التي اكتسبناها ، بل سنحولها الى نقد ٠ سيرحل فقط اولئك الذين هم متاكدون انهم بذلك يحسنون مركزهم (٢١) ٠٠ »٠ «وان الخروج سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا ٠٠ (٢٢) » ٠ وعلى الجانب الاخر ، فقد قدم كتاب «دولة اليهود» اغراء من نوع اخر الى البرجوازيين اليهود ، فبالاضافة الى « ان المسودة الاصلية لكتاب الدولة اليهودية كانت تحمل اسم « رسالةالى آل روتشيلد(٢٣)»» و«انها كانت مقصودة لاستعمال اسرة روتشيلد الخاص ٠٠ (٢٤) » ٠ وان « اول نسخة

من كتاب الدولة اليهودية قد وجهت الى عائلة روتشيلد (٢٥) » فان « النصف الاخير من الكتاب في معظمه عبارة عن نشرة تمهيدية لشركة تصف فيها مشاريعها ·· (٢٦) » · فـ «الشركة اليهودية ، ·· ستكون الى حد ما على نمط الشركات الكبرى لتطوير الاراضي ·· وستكون تحت اشراف الزمرة القيادية من رجالات المال اليهود ، وسيجني هؤلاء عائدات هائلة من استثماراتهم ·· (٢٧) » · و«المليون سيجلب خمسة عشر مليونا · والبليون خمسة عشر بليونا ·· وستؤول هذه الارباح الضخمة من هذه المضاربة بالارض الى الشركة ، فمن حقها كأي رائد اقتصادي ان تحصل على هذه المكافأة غير المحدودة مقابل تحملها المخاطرة (٢٨) » هذه الاغراءات التي قدمها هرتزل في كتابه «دولة اليهود» كانت تحاول ردم الهوة بين «الخرافة» و«الحقيقة» والتي كان يجسدها اليهود الذين غادروا روسيا او بولندا والارض المقدسة على شفاههم ، وكانت اقدامهم تسير ثابتة في الاتجاه الاخر : الى المانيا او انكلترا او اميركا ·· الفجوة ، كانت تتمثل بالمصلحة المادية لليهودي اولا ·· وبعد ذلك بمراحل تأتي الاعتبارات الاخرى ·· والحل كان بسند الملكية الذي يمكن ان تندمج فيه الخرافة ·· ذلك السند الذي يجعل المهاجر يرتقي طبقيا ، ويحسن مركزه ·· حسب تعبير تيودور هرتزل ··

ان الذي اعطى لافكار هرتزل هذه قيمة عملية كبرى هو توافقها مع البنية الطبقية والتكوين الذهني لمعظم المهاجرين من اوروبا الشرقية والذين كانوا يتوجهون للغرب ولامريكا · فمن المعروف ان روسيا القيصرية قد شهدت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر تدفقا هائلا من الرساميل الاوروبية الغربية ساهمت في رسملة ومكننة الاقتصاد الروسي ، وقد وجدت البرجوازية الاوروبية في السوق الروسي مجالا جديدا للاستثمار والربح ، مضافا لذلك الاعتبارات الاستراتيجية التي كانت تحرك البرجوازية الاوروبية للاسهام في تقدم وتصنيع روسيا القيصرية التي كانت بفعل اوضاعها الاقتصادية المتردية تشهد اوسع الحركات الثورية واعمقها والتي تمثلت بثورتي ١٩٠٥ ، وثورة ١٩١٧ الاشتراكية · من جملة النتائج المباشرة لتدفق الرساميل على روسيا القيصرية ، كان تفسخ الهياكل الاقتصادية والاجتماعية · وقد اصاب اليهود قدرا كبيرا من هذه الاثار بفعل الدور الخاص الذي كانوا يؤدونه في الحياة الاقتصادية الروسية والذي يمكن لنا اعتباره دور المرابي والحرفي · ورغم مشاركة اليهود في انشطة اخرى مثل التجارة ، واستئجار الاراضي وتشغيل صالات القمار والحانات ، فان دور المرابي والحرفي كان هو الدور الاكثر اتساعا وبروزا ·· ومن هنا فان تزايد التدفق المالي ، وبالتالي دور البنوك الاجنبية في روسيا ، وتزايد حجم التصنيع ، كان يعني توجيه ضربة قاصمة لدور المرابي، ولدور الحرفي ، والذي لم يعد قادرا على الصمود والمنافسة · الامر الذي ادى الى خسارة نسبة كبيرة من اليهود لدورهم في الدورة الاقتصادية الروسية · ووضعهم وجها لوجه امام احتمال البطالة ، او التحول الى بروليتاريا ، او الهجرة للخارج بحثا عن فرص جديدة ·· هذا مع العلم ان المشكلة لم تكن مشكلة نسبة محدودة من يهود روسيا بقدر ما كانت مشكلة الاغلبية · اذ اتضح من دراسة حول تاريخ الصهيونية ، ان نسبة عالية من يهود روسيا كانت تعتاش من استغلال عرق الاخرين اكثر من اعتمادها على دورها الانتاجي ··

واذا كان يهود روسيا قد فقدوا دورهم التقليدي في الاقتصاد ، فانهم لم يتخلصوا من ايديولوجية البرجوازية الصغيرة السائدة بين صفوفهم ، ويغذيها باستمرار مناخ العداء

لليهود الذي كان يسيطر على المواطن الروسي العادي ، بفعل سبب موضوعي ، هو كراهية الدور الربوي الذي كان يلعبه اليهود ، وانها لمسألة بالغة الدلالة ان تطالب احدى المظاهرات بحرق صكوك الرهن التي بحوزة اليهود ، اشارة من المتظاهرين الى ان عمليات الربا كانت تنتهي باستيلاء اليهود على الارض عند عجز الفلاح عن سداد القرض الذي يسلف عادة من المرابي اليهودي بارباح خيالية ، الامر الذي يوضح ان المسألة ليست مسألة بضعة افراد روس ، او بضعة مرابين يهود • وقد عرفت السلطات القيصرية كيف تستغل هذه الحقيقة لتصعيد مشاعر الكراهية ضد اليهود لاخفاء المشاكل الحقيقية في روسيا ، ولتوفير المبرر لضرب الاتجاهات الثورية تحت حجة ان محركيها هم من اليهود •• (٢٩) •

لقد حاولت الايديولوجية الصهيونية ، كما صاغها هرتزل توظيف هذا الوضع ، وذلك بان ، تقدم الاغراء الذي يدغدغ مصالح وعقلية من يريد الخروج •• الهجرة الى فلسطين، وهذا الخروج سيكون ارتقاء طبقيا ، وتحسين مركز •• بدلا من احتمال التحول الى بروليتاريا ، او الهجرة الى دولة اخرى •• مع ميزة هامة جدا هي ان المهاجر سيتحول الى ملاك بمجرد وصوله الى فلسطين وهذا بحد ذاته اغراء لا يمكن تجاهله • وبهذا اصبح ممكننا اختصار الفجوة بين الخرافة والحقيقة ، بعد ان اصبح التسليم بالخرافة يعني عملية (قبض) اكثر مما هي عملية (دفع) •• وبعد ان دمجت الخرافة بسند الملكية ••

ان خير معبر عن هذه المسألة ، الفكرة التي طرحها أحاد هعام في رده على سياسة وفلسفة العمل العبري عندما قال عام ١٩١٢ «باستطاعة اليهودي ان يكون مزارعا مجتهدا، صاحب بيت قروي ، يعيش على الفلاحة التي يتقنها ويغوص فيها ، ففي كل صباح يخرج الى حقله ، للاشراف على عماله ، الذين يحرثون او يزرعون ارضه ، الذين يغرسون او يركبون كرمته ، ولا يمتنع ايضا عن العمل بيديه مع عماله •• ان مستوطناتنا القروية في فلسطين حتى ولو اتسعت مع مرور الزمن لتصل نهاية حدود الامكانات ، ستبقى دائما مستوطنات « عليا » تابعة لاقلية متحضرة متطورة تستمد قوتها من عقلها ومالها ، بينما الجماهير القروية الفقيرة التي تستمد قوتها من عمل ايديها ، لن تكون لنا في ذلك الوقت •• (٣٠) » • ولذا فقد «كان كل مستوطن يعيل ثلاث عائلات عربية •• (٣١) » • وبكلمة اخرى فان كل مستوطن كان يستغل ثلاث عائلات عربية •• واصبح «عدد السكان العرب داخل بعض المستوطنات يفوق عدد السكان اليهود •• (٣٢) » • لماذا ؟• لانه «كان امام المستوطن اليهودي امكانيتان : الهبوط الى المستوى المعيشي لاهل البلاد العرب •• (٣٣) » • وهذا ما كان يمكن ان يحقق افضل منه في موطنه الاصلي لو اراد التحول الى بروليتاري او بان يتحول الى مستغل للعمل الرخيص ، وقد اختار المزارع الطريقة الثانية، فتعززت مزرعته ، وتحولت المستوطنات الى اقطاعيات تعتمد على استغلال العمل الرخيص كما هو الحال بالنسبة لاستغلال عمل السود في الولايات المتحدة •• (٣٤) » • وهو ما يتناسب وما وعدهم به هرتزل في كتابه دولة اليهود « بان الخروج سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا ••» •

بفعل هذا الواقع الموضوعي ، اعيد تفصيل الايديولوجية على مقاس الواقع العملي ، واصبح العمل نوعين ، نوع يشترط الطهارة ، ونوع آخر لا يستدعيها ، فـ «قص اغصان

الكرمة وتركيب اشجار الحمضيات وما شابه تعتمد على طهارة اليد العاملة اليهودية ... واما الاعمال الدنيا الشاقة مثل عزق الاعشاب ، وكل ما يحتاج الى جهد بدني فقد بقيت من نصيب الايدي العاملة العربية .. (٣٥) » .

تشذيب الايديولوجية لتأتي على مقاس الحقائق الموضوعية ، وفر الاغراء المطلوب لاستجلاب المهاجرين الجدد ، لتناسبها مع مصالحهم وايديولوجيتهم الطبقيـــة ، وكانـــت هجرتهم بحثا عن موقع طبقي جديد ، اكثر منها بفعل الاضطهاد الذي يعانون منه ، فسيل الهجرة من روسيا لم يتوقف بعد قيام الثورة الروسية ، رغم توقف الاضطهاد ، والحقوق التي كفلتها ثورة اكتوبر والغاءها لكافة اشكال التمييز ضد مواطنيها اليهود ...

وبشكل عام فلقد استمرت الحركة الصهيونية في ممارسة السياسة العملية آنفة الذكر ، ما قبل وما بعد قيام اسرائيل ، تلـــك الاستمرارية التي كانت الابن الطبيعي للظروف الموضوعية التي احاطت بنشأة ونشاط الحركة الصهيونية ، وحجتها الدائمة لخلق الحافز لدى يهود «الشتات» كي يهاجروا الى فلسطين . واذا كانت الحركة الصهيونية قد وجدت حلا للتناقض الناشيء بين الاعتبارات الايديولوجية والتي تعبر عنها خير تعبير اطروحات غوردون وغيره من اباء العمل العبري . وبين الحقائق الموضوعية ، المثلة بالتكوين الطبقي والدوافع المادية التي تلعب دورا حاسما في مسألة هجرة يهود الشتات الى فلسطين المحتلة ، فانها لم تؤمن مخرجا للمأزق الذي حذر منه ، الا وهو مخاطر احتلال الارض دون احتلال العمل ، بالمعنى السياسي لهذه المسألة وليس بمعناها الصوفي .

المراحل متعددة . والمشكلة واحدة

ولقد اختلف حجم المشكلة من مرحلة لاخرى من مراحل عمل ونشاط الحركة الصهيونية، حيث كانت المشكلة تخف ، ولكنها سرعان ما تعود للبروز من جديد . ولكنها لم تختف في اي مرحلة نهائيا ، ولم يعتمد اقتصاد اسرائيل في اي من هذه المراحل على عمل عبري بالشكل الذي يمكنها من الاستغناء عن اليد العاملة العربية . وكثيرا ما حاولت ان تعوض هذه المسألة بالاعتماد على اليهود الشرقيين ، خصوصا في فترة الخمسينات وبعد عملية التهجير الواسعة وبالمقابل عملية الاستيلاء الواسعة على اراضي العرب وذلك اثر نكبة ١٩٤٨ . فقد ازداد تكالب اسرائيل في هذه المرحلة على المهاجرين الشرقييـــن وخصوصا يهود البلاد العربية ، الذين شكلوا بالنسبة لها حلا مؤقتا لمشاكلها ، ولكنه لم يكن حلا دائما بل كان حلا محكوما ومقيدا بجملة اعتبارات لا تستطيع ان تقفـــز فوقها (٣٦) .

اذ ، وبالرغم من تخلف المجتمعات التي قدم منها هؤلاء المهاجرون ، لكنهم كانوا يمثلون شرائح طبقية متقدمة من ابناء تلك المجتمعات وتركزهم الطويل في المدنية ، وتخصصهم في بعض المهن ، وارتفاع نسبة المتعلمين بينهم بالقياس لابناء مجتمعاتهم الاصلية ، جعل من المستحيل توظيفهم ككل في قاعدة الاقتصاد الاسرائيلي وبالتالي يسدون بشكل كامل الفراغ الذي كان يعاني منه اقتصاد اسرائيل على صعيد المهن الشاقة والتي استثنيت من طهارة العمل العبري في السابق ، ولكن رغم طبيعة تكوين المهاجرين من البـــلاد

المتخلفة ، فان اسهامهم في حل هذه المشكلة كان اسهاما كبيرا ، ولا يمكن التقليل من دوره ، ولكن حرية دولة العدو على هذا الصعيد لم تكن حرية مطلقة ، بل كانت مقيدة باعتبارات اخرى لها اثر حاسم في ذهن المخطط الاسرائيلي · تلك الاعتبارات التي يمكن تلخيصها بمأزق مستوى المعيشة المرتفع باعتباره الوجه الآخر لعملية استجلاب المهاجرين الجدد ، ان لم يكن للاحتفاظ باولئك الذين هاجروا الى اسرائيل · ويعبر عن هذه المسألة خير تعبير القول انه «بدون مستوى معيشة مرتفع لا توجد هجرة وبدون هجرة لا تكون اسرائيل ·· (٣٧) » · وهذا القول ما هو الا تكرار لدعوة هرتزل في «دولة اليهود» عن الخروج الذي سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا ·· وعن المهاجرين الذين سيحسنون مركزهم ·

الاعتبار الثاني هو محاولة قيادة الحركة الصهيونية واسرائيل خلق ما يمكن تسميته بـ (السلام الاجتماعي) لتجنيب المجتمع الاستيطاني في فلسطين المحتلة هزات اجتماعية خطيرة · تلك النظرية التي دفعت اسرائيل الى اتباع سياسة اجور تفوق انتاجية العمال في بعض الاحيان · ومن المستحيل على الاقتصاد الاسرائيلي ان يتحمل في المدى الطويل مثل هذه السياسة التي تبقيها اسيرة المساعدات الاجنبية ، سواء اخذت بشكل قروض او هبات لتمويل مثل هذه السياسة وغيرها من المخططات ·

الصهيونية بين التمييز ضد ، والتمييز لصالح اليهود

الاعتبار الثالث هو ان الحركة الصهيونية ، لاكثر من سبب لا تستطيع التخلي عن نظرية التمايز كعنصر حاسم في استمرارية الحركة الصهيونية والمسألة اليهودية ، ويعبر خير تعبير قول بن غوريون عن « ان مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات يجعل من خطر الاندماج اشد ·· (٣٨) » · واذا كان بن غوريون قد استعمل هذا التعبير بمعرض حديثه من الغاء التمييز الواقع ضد اليهود ، فان مسار الامور لم يبدل من جوهر حديث بن غوريون فالتمييز قد يكون لغير صالح ، وقد يكون لصالح اليهود ، وفي كلتا الحالتين فانه يكون عنصرا ضروريا لخلق مصلحة مادية مباشرة للانسان اليهودي العادي في استمرار الحركة الصهيونية واسرائيل · والمظهر العملي للتمييز لصالح اليهود هو في ارتقاءهم طبقيا وعلى حساب الاخرين ·

هذه العناصر مجتمعة تلازمت مع ادراك قيادة الحركة الصهيونية انها لم تستطع ان تجمع في فلسطين المحتلة ، وطيلة قرن من الزمن سوى حوالي ٢٠ ٪ من يهود العالم ،وفي مواجهتها منطقة كاملة معادية لها وترفض وجودها ، الامر الذي دفعها لمحاولة تعويض التفوق الكمي بتفوق نوعي من خلال تكثيف الرساميل المستغلة وتصنيع المجتمع بشكل متسارع ، وقد اتضح هذا من خلال برامجها التصنيعية وتزايد مساهمة الصناعة في ناتجها القومي ، والتوسع في الصناعة وتكثيف الرساميل ، يعني توسعا في الحاجة الى اليد العاملة الفنية وغير الفنية · وقد استطاعت اسرائيل ان تحل مشكلة الحاجة لليد العاملة الفنية بواسطة برامجها التعليمية من ناحية ، وبارتفاع نسبة الاكاديميين والفنيين من بين المهاجرين الجدد ، هذا مع العلم ان مصادر الهجرة قد اصبحت محصورة تقريبا في بعض الدول المتقدمة ، والتي لا يمكن لها ان تقدم مهاجرين بالنسبة التي يحتاجها

الاقتصاد الاسرائيلي من اليد العاملة غير الفنية • ناهيك عن الاعتبارات التي سبق الاشارة اليها •• ومن هنا فقد كان المأزق الاسرائيلي يتمثل في تخلف وتيرة تزايد اليد العاملة غير الفنية عن السرعة التي يتزايد بها التثمير والتصنيع ، واليد العاملة غير الفنية والتي دفعت اسرائيل الى الاعتماد اكثر فأكثر على اليد العاملة غير اليهودية لضمان استمرار ونمو اقتصادها • واعادها مرة ثانية الى سياسة تجزي الطهارة التي سبقت الاشارة اليها ، بين عمل عال يستدعي الطهارة واخر لا يستدعيها •

ان الاعتماد على اليد العاملة غير العبرية في السنوات الاخيرة من الستينات لم يعد يفعل المؤثرات نفسها التي كانت في المراحل السابقة • لقد اصبحت بفعل خطة مدروسة ومنظمة وضعت موضع التطبيق العملي في النصف الاول من الستينات وما زالت اسرائيل تسير بناء عليها حتى الان • ويتضح لنا هذا من خلال القاء نظرة سريعة على اتجاه نمو الاقتصاد الاسرائيلي ، والخطط الاقتصادية الاسرائيلية كما تعبر عنها الارقام بما لها من دلالات •

وعندما نقول بفعل خطة مدروسة ومنظمة ، فاننا نعتمد على ان التوسع الصناعي الاسرائيلي هو في متناول يد السلطات الرسمية الاسرائيلية ، والتي تبرمج عملية التصنيع ، وتساهم بنسبة كبيرة منه ، وما تبقى منه تحرص على ان يكون متناسقا مع الخطة الصناعية العامة ، ولديها من الوسائل ما يكفل لها هذا الامر • كالمساعدات ، والقروض واعانات التصدير ، واسعار الصرف • (٣٩)

ان اكثر الارقام دلالة هي النسبة التي تزايدت بها المنتوجات الصناعية ، والحجم الذي بدأت تحتله في الناتج القومي الاسرائيلي • فقد تزايدت الصادرات الزراعية من ١٢٣ر١٨ مليون دولار عام ١٩٤٩ اي ما نسبته ٦ر٦٣٪ من اجمالي الصادرات مقابل ٣٧٢ر١٠ مليون دولار صادرات صناعية اي ما نسبته ٤ر٣٦٪ الى ١ر١٧٣ مليون دولار صادرات زراعية عام ١٩٧٣ ، ولكن قيمتها النسبية هبطت لتبلغ ٩ر١١٪ فقط من اجمالي الصادرات• وفي الوقت نفسه قفزت الصادرات الصناعية لتبلغ ٦ر١٢٧٥ مليون دولار عام ١٩٧٣ اي ما نسبته ١ر٧٨٪ •• (٤٠) وفيما تضاعفت الصادرات الزراعية في الحقبة بين ١٩٤٩ – ١٩٧٣ ، بـ ٥ر٩ مرة فقط ، فان الصادرات الصناعية قد تضاعفت ١٢٣ مرة ، بينما زاد اجمالي الصادرات الاسرائيلية ٨ر٥٠ مرة (٤١) •

طاقة انتاجية عاطلة ام احتياطية ؟!

ان تزايد نسبة الصادرات الصناعية في صادرات اسرائيل بالمعدلات المشار اليها ما هو الا انعكاس للبرنامج التصنيعي الذي نفذته اسرائيل ومولته بوسائل مختلفة ، من هبات وقروض وتعويضات • ان المشكلة ليست في التوسع الصناعي الذي شهدته اسرائيل، بل في الحدود التي بلغتها ، ومقدار الطاقة الصناعية التي وظفتها اسرائيل • والتي تتجاوز مقدرة اسرائيل على التشغيل ، حيث بدأت اسرائيل تعاني من الطاقة الانتاجية العاطلة في صناعتها • ففي عام ١٩٦٦ وبعد ان قطعت اشواطا بعيدة في تحطيم اقتصاد عرب الاراضي المحتلة ١٩٤٨ ، من مصادرة اراضي وغيرها من مصادر الرزق

وبعد ان حولت معظم السكان العرب الى بروليتاريا ، وبعد ان حولت القرية او المدينة هناك الى شبه فندق يصلح كمكان اقامة للعاملين في الاقتصاد اليهودي ، رغم كل هذا فقد بلغت الطاقة الانتاجية العاطلة في عام ١٩٦٦ في بعض الصناعات حوالي ٤٠٪ من الطاقة الانتاجية لتلك الصناعات (٤٢) وفي الطاقة الانتاجية العاطلة عام ١٩٦٦ سر قدرة ، واستعداد اسرائيل لاستيعاب اعداد لا بأس بها من عرب المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ ٠ الامر الذي يوضح ان تلك الامكانية قد سبق الاعداد لها منذ وقت مبكر ، وما قبل قيام حرب ١٩٦٧ ٠ ولقد استمرت استعدادات اسرائيل في استيعاب اليد العاملة العربية من المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ لتبلغ في ١٩٧٣ والفترة التي تلتها حوالي مائة الف عامل عربي ، بين عمال منظمين وشرعيين يعملون عن طريق الهستدروت واخرون غير شرعيين ،سواء اولئك العمال الذين يعملون في مشاريع انتاجية في مناطق ١٩٤٨ او في المشاريع التابعة التي انشات في المناطق المحتلة ١٩٦٧ لتموين الصناعة الاسرائيلية لحاجتها من السلع نصف المصنعة ٠

طاقة انتاجية عاطلة والتثمير مستمر

لكن وبرغم هذا ، فان التوسع الصناعي الاسرائيلي لم يتوقف ، والطاقة الانتاجية العاطلة استمرت في التزايد ، وقد اتضح من دراسة اعدها حاييم ليفي عميد كلية ادارة الاعمال في الجامعة العبرية ونشرتها جريدة هارتس في عددها الصادر يوم ١٩٧٣/١٢/١٠ ان الصناعة الاسرائيلية قادرة على زيادة الانتاجية بنسب تتراوح بين ٣٥٪ و٥٠٠٪ دون اية توظيفات جديدة ٠٠ (٤٣) ٠ وهكذا يتضح معنا ان الطاقة الانتاجية العاطلة في الصناعة الاسرائيلية في تزايد مستمر بين السنوات ١٩٦٦ ـ ١٩٧٣ بينما يتزايد الاعتماد على اليد العاملة العربية ٠ واذا جاز لنا اعتبار حرب ١٩٦٧ وما تمخض عنها من ابتلاع لمناطق عربية جديدة ، ويد عاملة عربية رخيصة ، مرتبطة اشد الارتباط بالبرامج الصناعية الاسرائيلية وبالتالي بالطاقة الانتاجية العاطلة ، وبمعنى ادق الاحتياطي في الطاقة الانتاجية الصناعية الاسرائيلية ، فانه يجوز لنا ربط التزايد في احتياطي الطاقة الانتاجية في الصناعة الاسرائيلية عام ١٩٧٣ ، وافاق المستقبل ، وطموح اسرائيل بان يوفر هذا المستقبل ، سلما اوحربا ، اليد العاملة الضرورية لتشغيل تلك الطاقة الاحتياطية٠ الامر الذي يدفعنا للجزم بان تلك الطاقة الاحتياطية ، وبالتالي الاعتماد على اليد العربية هي بفعل مخطط مسبق وواع ٠ وكانت دراسة اعدتها مؤسسة (راند) قد اشارت الى «انه اذا ما استمر الاقتصاد الاسرائيلي بالتطور على اساس نسبة نموه الحالية فيمكنه استيعاب ٣٠ر٠٠٠ عامل اضافي من المناطق المحتلة عام ١٩٧٣ و٢٠ر٠٠٠ عامل اضافي سنويا من المناطق المحتلة حتى عام ١٩٧٨ » ٠ (٤٤)

تزايد الاستثمارات ، تزايد الاعتماد على العمال العرب

ان تزايد « الموارد التي لا تزال عاطلة او متوفرة بكثرة في الاقتصاد الاسرائيلي كالآلات ورأس المال غير البشري » (٤٥) والذي اكدته النسب السابقة المعطاة قد ترافق مع ازدياد مطرد في نقص الطاقة العاملة والتي هي الوجه الآخر لتزايد الطاقة الانتاجية الاحتياطية ـ العاطلة في الاقتصاد الاسرائيلي ٠ وقد عبر عن هذا المأزق (الا وهو تفاوت

معدلات التوسع بنسب كبيرة بين نمو رأس المال ونمو الطاقة العاملة) اكثر من تصريح لاكثر من مسؤول اسرائيلي وقد سبق لاسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل ان صـــرح (١-٨-١٩٧٤) قائلا « وصلنا الى وضع اصبحت فيه الطاقة البشرية في اسرائيل تقيدنا اكثر من اي عامل اخر ٠٠ (٤٦) » وفي وقت سابق قالت مجلة هاعولام هازيه انه قد «صرف النظر عن المشروع الذي اعد لتصدير عمال عرب الى اوروبا بعد ان اتضح ان هناك طلبا في اسرائيل لكل عرض للايدي العاملة ٠٠٠ (٤٧) » ٠ وكان يوسف الموجي ، وزير العمل الاسرائيلي قد توقع في ٢٩-١٢-٧٢ «ان النقص في الطاقة البشرية سيستمر حتى فـي السنوات الخمس المقبلة ٠٠٠ (٤٨) » ٠

تركيب اليد العاملة الاسرائيلية

ان الذي زاد مشكلة اليد العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي تفاقما هو طبيعة تركيب اليد العاملة الاسرائيلية ، ووجود فائض في اليد العاملة الفنية بالقياس لامكانيات الاقتصاد الاسرائيلي على التشغيل ، فـ «نسبة الجامعيين العاملين في الاقتصاد الاسرائيلي الى جملة الطاقة العاملة تبلغ ٩ر١٤٪ بينما تبلغ في المانيا الغربية والولايات المتحدة الامريكية ٤ر١٣٪ و٢ر١٣٪ على التوالي ٠ (٤٩) وبرغم هذه النسبة المرتفعة «فان عشرات الجامعيين في مراكز الاستيعاب ليس في امكانهم ايجاد عمل ٠٠ (٥٠) » ٠ واذا كان بامكان اسرائيل ان تؤجل تشغيل طاقتها الانتاجية العاطلة ـ الاحتياطية في الآلات ورأس المال غير البشري ، فان امكانيتها في تحمل وجود بطالة او بطالة مقنعة في يدها العاملة الفنية تبقى امكانية محدودة وتحتمل مخاطر جمة ابرزها الهجرة المضادة لهذه اليـــد العاملة ، وهو امر لا تستطيع المغامرة فيه ٠

المهاجرون اليهود لا يحلون المشكلة

هذا مع العلم ان محاولتها لتعويض النقص في اليد العاملة غير الفنية بالفائض لديها من اليد العاملة الفنية يحتمل مخاطر جمة ابرزها احتمال الهجرة المضادة ٠ وكذلك فان هذه السياسة قد كانت محل معارضة مـــن باروخ باراك رئيس مصلحة الاستثمارات الاسرائيلية في الولايات المتحدة اذ صرح ابان انعقاد المؤتمر الاقتصادي الثاني الذي عقـد في اسرائيل في منتصف عام ١٩٦٩ قائلا «ان اسرائيل تبدد طاقتها البشرية ، فالمهندسون لا يزالون يوظفون كعمال تقنيين ، والعمال التقنيون كعمال مشرفين ، والعمال المهرة كعمال اشغال وتصليحات ، بدلا من ان يكونوا عمالا في مصانع الالكترونيات ٠٠ (٥١) » ولا يمكن لنا ان نفصل حديث باروخ باراك هذا عن السياسة الاسرائيلية التي اتبعتها اسرائيل لاحقا ، حيث انتصرت وجهة النظر الداعية للتوسع في تشغيل اليد العاملة العربية من المناطق المحتلة ١٩٦٧ ٠ وكذلك حديث هعولام هازيه عن صرف النظر عن مشروع تصدير عمال عرب الى اوروبا بعد ان اتضح حاجة الاقتصاد الاسرائيلي لاي عرض لليد العاملة ٠٠٠

ان هذا المأزق معرض للتزايد مع تزايد الهجرة من الخارج ، بدلا من ان توفر حلا له ٠ فـ «غالبية هؤلاء المهاجرين يتمتعون بمهارات وكفاءات انتاجية ابعد ما تكون عن تلك

المهام البسيطة ـ اي العمل غير الفني ـ وبالتالي فانها لا تكون تعويضا عن النقص الحالي في الطاقة البشرية الموجودة في اسرائيل ... (٥٢) ».

ان ما تقدم يوضح طبيعة الخطط الاقتصادية الاسرائيلية القائمة على التوسع في عملية الاستثمار الى اقصى مدى ، مستغلة وفرة رؤوس الاموال واليد العاملة والفنية ، ومن ناحية اخرى توضح طبيعة مأزق اسرائيل على صعيد اليد العاملة غير الفنية ، واستحالة حله من خلال المهاجرين الجدد ، او الطاقة العاملة الفنية العاطلة حاليا ، الامر الذي يؤكد الدور المرسوم للعمال العرب في الاقتصاد الاسرائيلي ، والذي سيزيد من اعتماده عليهم ، ليس لحل المأزق الحالي فحسب ، بل لكي يكون قادرا على تنفيذ مخططاته للمستقبل . وفي رأسها الاندماج في السوق الاوروبية المشتركة ، حسب ما نصت الاتفاقية الموقعة بالاحرف الاولى بين اسرائيل والسوق في ٢٣ ـ ١ ـ ١٩٧٥ . (٥٣) واكثر من ذلك محاولة اسرائيل لعب دور القاعدة الاقتصادية لدول السوق الاوروبية المشتركة في المنطقة، وكان عضو رئاسة السوق المشتركة قد قال في اعقاب تلك الاتفاقية « ان الهدف الرئيسي من هذا الاتفاق ليس فقط تخفيض الضرائب بل اجراء تعاون اقتصادي بين اسرائيل والسوق .. وان الاتفاق سيؤدي الى اقامة شركات ومشاريع مشتركة ... وان في اوروبا نقصا في الايدي العاملة وفي المساحات المخصصة للصناعة ونأمل ان نجد هذا في اسرائيل .. (٥٤) » وفي ضوء هذا الحديث يكتسب كلام صحيفة معاريف في تلك الفترة اهمية كبرى عندما اشارت الى ان « المفاوضات مع السوق ملزمة حتى الان بالتأثير على اتجاهات التخطيط والانماء والاستثمارات واعداد طاقة بشرية في الاقتصاد الاسرائيلي .. (٥٥) »

ولو تذكرنا ان اسرائيل تعاني من نقص كبير وخطير في الطاقة البشرية ، وكذلك الامر بالنسبة للرساميل الموظفة بها ، لادركنا على الفور ، الدور المخصص للعمل العربي في ذهن المخطط الاقتصادي الاسرائيلي ..

تجزيء الطهارة ، وتقسيم العمل طبقيا وقوميا

وبفعل هذا الوضع ، والذي هو كما اتضح معنا نتيجة لسياسة مرسومة ، عملت اسرائيل على ترتيب اوضاعها العمالية على اساس تقسيم العمل والتخصص بين عمل فني بقي حكرا على اليد العاملة اليهودية وعمل غير فني يقع عبئه بشكل اساسي على اليد العاملة العربية ، وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى سياسة اسرائيل باستيعاب اليهود الشرقيين ودمجهم اكثر فاكثر في الحياة الاقتصادية الاسرائيلية وضمهم الى الشريحة العليا من الطبقة العمالية في اسرائيل .

وفي الوقت نفسه الاستمرار في مصادرة اراضي عرب المناطق المحتلة ١٩٤٨ لتحطيم الهياكل والبنى الاقتصادية لهم وتحويلهم الى أيد عاملة رخيصة في الاقتصاد الاسرائيلي ولكي يسد النقص في الطاقة العاملة غير الفنية .

ان طبيعة تركيب اليد العاملة من عبرية وعربية في الاقتصاد الاسرائيلي تتضح من خلال الجداول التالية :

جدول رقم ـ ١ ـ

تركيب القوى العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٧٣
عدد العاملين في القطاعات الاقتصادية (عرب ، يهود)

فروع الاقتصاد	اجمالي (الف)	يهـود (الف)	نسبة اليهود ٪	العرب (الف)	نسبةالعرب المئوية
كافة الفروع	١٠٨٨ر٤٠٠	٩٨١ر١٠٠	٩٠	١٠٧ر٣	١٠
الزراعة	٨١ر٤٠٠	٦٠ر٨٠٠	٪٧٤	٢٠ر٦٠٠	٪٢٦
الصناعة	٢٦٩ر٨٠٠	٢٥٣ر٦٠٠	٪٩٤	١٦ر٢٠٠	٪ ٦
الكهرباء	١٠ر٤٠٠	٩ر٦	٪٩٥	٥ر٠	٪ ٥
البناء	٩٦ر١٠٠	٦٩ر٣	٪٧٢	٢٦ر٨	٪٢٨
تجارة، مطاعم،					
فنادق	١٣٨ر٩٠٠	١٢٤ر٩	٪٩٠	١٤	٪١٠
نقـل	٧٨ر٩٠٠	٧٢ر٠٠	٪٩١	٦ر٩	٪ ٩
تأمين	٦٨ر٠٠٠	٦٦ر٥٠٠	٪٩٨	١ر٥	٪ ٢
اعمال عامة	٢٦٥ر٩	٢٥٠ر٤	٪٩٤	١٥ر٥	٪ ٦
خدمـات	٧٥ر٧	٧٠ر٤	٪٩٣	٥ر٣	٪ ٧

(٥٦)

جدول رقم ـ ٢ ـ

تركيب القوى العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٧٣
توزيع القوى العاملة حسب طبيعة المهنة (يهود + عرب ١٩٤٨)

تصنيف المهنة	اجمالي (الف)	يهـود (الف)	عرب (الف)	نسبة اليهود ٪	نسبة العرب ٪
اجمالي	١٠٨٨ر٤	٩٨١ر١	١٠٧ر٣	٪٩٠	٪١٠
مجالات علمية					
واكاديمية	٦١ر٨	٦١	٨ر	٪٩٩	٪ ١
مهنيون وتقنيون	١٢٣ر٢	١١٥ر٠	٨ر٢	٪٩٣	٪ ٧
مديرون	٣٥ر٣	٣٤ر٥	٠ر٨	٪٩٨	٪ ٢
اعمال مكتبية					
وادارية	١٧٧ر١	١٦٨ر٣	٨ر٨	٪٩٥	٪ ٥
بائعون	٨٥ر٥	٧٨ر١	٧ر٤	٪٩١	٪ ٩
عمال خدمات	١٣٣ر٨	١٢٢ر٣	١١ر٥	٪٩١	٪ ٩
عاملون بالزراعة	٧٥ر٦	٥٩ر٨	١٥ر٨	٪٧٩	٪٢١
عمال مهرة /					
صناعة.. الخ	٣١٧ر٠	٢٧٩ر٨	٣٧ر٢	٪٨٨	٪١٢
عمال غير مهرة	٧١ر٧	٥٤ر٩	٨٦ر٨	٪٧٦	٪٢٤

(٥٧)

جدول رقم ـ ٣ ـ

تركيب القوى العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٧٣
تركيب القوى العاملة في القطاعات الرئيسية بعد اضافة عمال مناطق ٦٧

القطاع الاقتصادي	اجمالي	يهود	عرب مناطق ٤٨	عرب مناطق ٦٧	اجمالي العرب	نسبة اليهود	نسبة العرب
بنـاء	١٥٤ر٥٩٢	٩٦ر١٠٠	٢٦ر٨٠٠	٣١ر٦٩٢	٥٨ر٤٩٢	٦٢ر٢٪	٣٧ر٨٪
صناعة	٢٨٠٨٩٥	٢٥٣٦٠٠	١٦ر٢٠٠	١١ر٠٩٥	٢٧ر٢٩٥	٩٠ر٢٪	٧ر٨ ٪
زراعة	٩٣٢٣٠	٦ر٨٠٠	٢٠ر٦٠٠	١١ر٨٣٠	٣٢٤٣٠	٦٥ر٢٪	٣٤ر٨٪

(٥٨)

جدول رقم ـ ٤ ـ

تركيب القوى العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٧٣
تركيب اليد العاملة العربية (منطقة ١٩٤٨)

تصنيف المهنة	العدد (الف)	نسبة مئوية
اجمـالي	١٠٧ر٣	
مجالات علمية واكاديمية	٨ر	٠ر٧٤٥ ٪
مهنيون وتقنيون	٨ر٢	٧ر٦٤٠ ٪
مديـرون	٨ر	٠ر٧٤٥ ٪
اعمال مكتبية وادارية	٨ر٨	٨ر٢٠٠ ٪
بائعـون	٧ر٤	٦ر٨٠٠ ٪
عمال خدمات	١١ر٥	١٠ر٧٠٠٪
عاملون بالزراعة	١٥ر٨	١٤ر٧٠٠٪
عمال مهرة/صناعة ... الخ	٣٧ر٢	٣٤ر٦٠٠٪
عمال غير مهـرة	١٦ر٨	١٥ر٦٠٠٪

(٥٩)

جدول رقم ـ ٥ ـ

تركيب القوى العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٧٣
تركيب القوى العاملة اليهودية

المهنـــة	اجمالي (الف)	نسبة مئوية
مجالات علمية واكاديمية	٦١	٪ ٦ر٢
مهنيون وتقنيون	١١٥ر٠	٪ ١١ر٧
مديرون	٣٤ر٥	٪ ٣ر٥
اعمال مكتبية وادارية	١٦٨ر٣	٪ ١٧ر١
بائعـون	٧٨ر١	٪ ٧ر٩
عمال خدمات	١٢٢ر٣	٪ ١٢ر٤
عاملون بالزراعة	٥٩ر٨	٪ ٦ر٠
عمال مهرة/صناعة ... الخ	٢٧٩ر٨	٪ ٢٨ر٥
عمال غـير مهرة	٥٤ر٩	٪ ٥ر٥

(٦٠)

جدول رقم ـ ٦ ـ

تركيب القوى العاملة في الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٧٣
نسبة توزيع اليد العاملة العربية ، بالمقارنة مع نسبة توزيع اليد العاملة اليهودية

	نسبة اليهود ٪	نسبة العرب ٪	نسبة العرب لليهود ٪
مجالات علمية واكاديمية	٦ر٢	٠ر٧٤٥	٪ ١٢
مهنيون وتقنيون	١١ر٧	٧ر٦٤	٪ ٦٥
مديـرون	٣ر٥	٠ر٧٤٥	٪ ٢١
اعمال مكتبية وادارية	١٧ر١	٨ر٢٠٠	٪ ٤٧
بائعـون	٧ر٩	٦ر٨٠٠	٪ ٨٦
عمال خدمات	١٢ر٤	١٠ر٧٠٠	٪ ٨٦
عاملون بالزراعة	٦ر٠	١٤ر٧٠٠	٪ ٢٤٥
عمال مهرة/صناعة.. الخ	٢٨ر٥	٣٤ر٦٠٠	٪ ١٢١
عمال غير مهرة	٥ر٥	١٥ر٦٠٠	٪ ٢٨٣

(٦١)

ويتضح لنا من خلال الجدول رقم (١) ان نسبة العرب المئوية تبلغ ١٠ ٪ من اجمالي العاملين في الاقتصاد الاسرائيلي ، وفيما لو اعتبرنا ان متوسط توزيع العمال العرب في القطاعات الاقتصادية المختلفة يجب ان يدور حول نسبة ١٠ ٪ ، لاتضح لدينا طريقة توجيه اليد العاملة العربية ، فهنالك فرعين اقتصاديين فقط هما الزراعة والبناء تبلغ بهما نسبة العرب ٦ر٢ و ٨ر٢ مرة ضعف النسبة المقررة للعرب اي ١٠ ٪ ٠ وبالمقابل يلاحظ ان نسبة العرب في الفروع الاخرى هي دون المتوسط المقرر للعرب وتهبط لتبلغ ٢ ٪ فقط في قطاع التأمين ٠

هذا ويلاحظ نفس الشيء بالنسبة للجدول رقم (٢) وتوزيع العاملين على اساس تصنيف المهنة ، ففي الوقت الذي تبلغ فيه نسبة العرب ١٠ ٪ من اجمالي العاملين ، فان المصنفين باعتبارهم عمالا غير مهرة يبلغون ٢٤ ٪ اي ٤ر٢ مرة ضعف المتوسط العام اي ١٠ ٪ ٠ بينما لا تزيد نسبة العرب العاملين في مجالات علمية واكاديمية عن ١ ٪ اي ١٠ / ١ النسبة المقررة للعرب ٠

ان اضافة عمال المناطق المحتلة ١٩٦٧ الى عمال المناطق المحتلة ١٩٤٨ قد زاد من الخلل الذي تبينه ارقام الجدولين (١) و (٢) فبينما كانت نسبة العمال العرب من مناطق ١٩٤٨ تبلغ في قطاعات البناء والصناعة والزراعة ٢٨ ٪ و ٦ ٪ و ٢٦ ٪ على التوالي فان النسب قد زادت بعد اضافة عمال مناطق ١٩٦٧ كما هو واضح في جدول رقم (٣) الى ٨ر٣٧ ٪ و ٨ر٧ ٪ و ٨ر٣٤ ٪ على التوالي ٠

ان التوزيع الطبقي للعمال العرب واليهود ، والتوجيه المهني لكل منهما يتضح معنا اكثر فاكثر من ملاحظة الجداول (٤) و (٥) و (٦) ، حيث تتبين نسبة توزيع اليد العاملة العربية واليهودية ، كل على حدة على اساس تصنيف المهنة ، وبكلمة ادق التركيب الطبقي لكل منهما ، ومن هنا كان الجدول رقم (٦) الذي اعد للمقارنة بين التركيبين الموضحين في جدول رقم (٤) و (٥) ٠

و « تقوم فكرة الجدول رقم (٦) على اظهار التباين بين تركيب القوى العاملة اليهودية واليد العاملة العربية ، لتوضيح الوظيفة الطبقية لكل منهما في اسرائيل ٠ ولو اخذنا تركيب القوى العاملة الاسرائيلية واعتبرنا كل نسبة من نسب العاملين هي اساس القياس فالمفترض ان تكون نسب تركيب اليد العاملة العربية متقاربة مع نسب تركيب اليد العاملة اليهودية ، اي ان تساوي النسبة المستخرجة في ضوء تركيب اليد العاملة العربية ١٠٠ ٪ من النسبة المستخرجة في ضوء تركيب اليد العاملة اليهودية ، واي خلل في هذه النسبة يوضح مقدار الخلل في تركيب اي منهما ٠ وكما هو موضح في الجدول ، ففي الوقت الذي تختل فيه النسبة لصالح العرب على صعيد العاملين بالزراعة والعمال غير المهرة بثلاثة اضعاف تقريبا ، نجدهم لا يشغلون سوى ١٢ ٪ مثلا من النسبة المفترض ان يشغلوها في المجالات العلمية والاكاديمية ٠ (٦٢) » ٠

اهمية العمال العرب ٠ نسبة مئوية ام مرحلة انتاجية ؟

ان الارقام التي تقدمها الجداول السابقة واضحة في دلالاتها ، وتبين الوظيفة الطبقية لعرب المناطق المحتلة في الاقتصاد الاسرائيلي وتؤكد ان اهمية اليد العاملة العربية في

الاقتصاد الاسرائيلي ، اضافة الى انها تمون الاقتصاد الاسرائيلي بـ ١٠ ٪ من الطاقة العاملة فيه ، فانها تتركز في القطاعات الانتاجية ٠ واكثر من ذلك فان اهميتها لا تنبع من كونها ١٠٪ فقط ، وهي نسبتها الى اجمالي الطاقة العاملة ، بل من النسبة التي تمثلها من اجمالي العاملين في قطاع الانتاج ، وعلى سبيل المثال فان نسبة عمال المناطق المحتلة ١٩٦٧ والتي تبلغ « ٥ر٤ ٪ من اجمالي الطاقة العاملة تساوي ٥ر١١ ٪ من الطاقة العاملة في مجال الانتاج (٦٣) ٠ » وقد قدرت نسبة العمال العرب من مناطق ١٩٤٨ و ١٩٦٧ « لاجمالي الطاقة العاملة في مجال الانتاج بحوالي ٣٧٪ ٠٠ (٦٤) » ٠

وحتى هذه النسبة لا تعكس اهمية اليدالعاملة العربية كون النسبة محسوبة على اساس اجمالي العاملين في قطاع الانتاج ٠ ولكن تركز العرب في الاعمال غير الفنية يعطيهم اهمية نسبية جديدة تبلغ على الاقل ضعف النسبة التي يشكلونها من اجمالي العاملين في قطاع الانتاج ٠

وان الـ ١٠ ٪ التي يمثلها العمال العرب من اجمالي اليد العاملة والتي تشكل حوالي ٣٧ ٪ من اجمالي العاملين في قطاع الانتاج ، تتضاعف مرة جديدة لتبلغ نسبة تزيد على ٧٥ ٪ عندما تحسب بالمقياس الى عدد العاملين فيما يمكن تسميته المهن السوداء في الاقتصاد الاسرائيلي ، فهم لا يشغلون اكثر من ٦ ٪ من العاملين بالصناعة و ٢٦ ٪ من العاملين بالزراعة ولكن هذه الـ ٦ ٪ والـ ٢٦ ٪ ليست رقما مجردا ٠٠ انها مرحلة انتاجية بكاملها ٠ واثرها لا يمس ١٠ ٪ او ٢٦ ٪ او ٦ ٪ من الاقتصاد ، فالسيطرة على مرحلة انتاجية هي سيطرة على العملية الانتاجية بكاملها ، وعندما تحسب الاهمية على اساس المراحل الانتاجية ، تتساوى اهمية الحمال مع اهمية المهندس او المدير الذي يشرف على وينظم العملية الانتاجية ، وكما يتساوى الكاتب مع عامل المطبعة الذي ينضد الحروف في تقديم العمل للقارىء رغم فارق الاجر وطبيعة المهنة والتصنيف الطبقي لكل منهما ٠

العمل العبري بعد ثلاثة ارباع القرن

ان العرض الذي تقدم يوضح حقيقتين متلازمتين ، الاولى خرافة سياسة العمل العبري وعدم امتلاكها للمقومات المطلوبة ، والثانية الدور الحاسم لليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي ٠ ولكن رغم كل هذا فان السلطات الاسرائيلية تصر عبر تصريحات هنا وهناك على ان تشغيل العمال العرب هو من اجل توفير لقمة الخبز لهم ٠ فموشى ديان ، عندما كان وزيرا للدفاع ، كان يقول « ان الجواب الوحيد للنزاع هو التعايش مع العرب ٠٠٠ علينا ان نحولهم منلاجئين يعيشون على مخصصات السمن والارز الى اناس يعملون ، علينا ان نؤدي بهم الى وضع يمكنهم من العيش بشرف ، اننا لسنا بعيدين عن ذلك ، فخلال الاعوام الخمسة الماضية عملنا بما فيه الكثير ، ولكن يقتضي بذل المزيد من العمل ٠ ان الصرخة المطالبة بالعمل العبري تصم آذاني لانها تعني عدم توفير عمل للعرب ٠٠٠ (٦٥) » ٠

العمل العربي بين السياسة الاعلانية والحاجة العملية

ان تشغيل اليد العاملة العربية ليست للاسباب الاعلانية التي يقول بها موشى ديان ، وما

تصريحه سوى نموذج ٠٠ بل لسبب قديم ـ جديد منذ بداية هذا القرن وحتى الان ٠٠ منذ ايام هرتزل وآحاد هعام الى يومنا هذا ٠ ويوجزه قول صحيفة هآرتس « لقد قيل الكثير عن الفوائد الاقتصادية التي جناها العرب ،بيد ان الفوائد التي جناها اليهود لا تقل عنها ٠ فلولا العمل العربي لما كانت موجات الهجرة تستوعب بالسرعة التي استوعبت بها ٠٠ ان مهاجري المانيا في الثلاثينات قد استوعبوا في منازل ، اعتمد في بنائها على مواد البناء التي انتجها العرب ، وتم بناء قسم منها في القدس وحيفا ، بواسطة الايدي العربية ، كما ان عملية استيعاب مهاجري ٠٠٠ الخمسينات تمت بالاستعانة بتجنيد الايدي العربية في المناطق القديمة ٠ ان التطور المعروف لدينا ـ اي التوسع في اليد العاملة العربية ـ في الاعوام التي اعقبت حرب حزيران ليس فيه جديد ٠٠ (٦٦) » ٠ وبكلام هآرتس هذا عام ١٩٧٢ تؤكد حديث آحاد هعام عام ١٩١٢ عن ان «مستوطناتنا القروية في فلسطين حتى ولو اتسعت مع مرور الزمن لتصل نهاية حدود الامكانات ، ستبقى دائما مستوطنات عليا تابعة لاقلية متحضرة متطورة تستمد قوتها من عقلها ومالها ، بينما الجماهير القروية الفقيرة التي تستمد قوتها من عمل ايديها ، لن تكون لنا في ذلك الوقت ٠٠ (٦٧) » ٠ ولا في اي وقت اخر كما يبدو !٠ رغم ان السيد كنيغ ، في مذكرته المشهورة له رأي اخر ، فقد هزه يوم الارض وبعنف ، ولذا فقد اكتشف الوجه الاخر ، لموضوع اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي ، وتذكر انه « نتيجة لهرب العمال اليدويين اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية » (٦٨) ٠ انفتح الباب « امام العرب على مصراعيه (٦٩) » ٠ والنتيجة انه « اصبح حسن سير اقتصاد الدولة متوقفا عليها ـ اي اليد العاملة العربية ـ الى حد بعيد٠٠(٧٠)»٠ وبعد اضراب يوم الارض ، حيث اعد ملحقا لمذكرته والتي اعدت قبل ذلك ، تأكدت قناعة يسرائيل كنيغ اكثر فيقول « ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بأن حسن سير الاقتصاد يعتمد على الايدي العاملة ٠ وفي الوقت نفسه اثبت السكان العرب حيويتهم بالنسبة للاقتصاد الذي يديره يهود ٠٠ (٧١) » ، وبعد ان يعدد الفروع التي يسيطر عليها العمال العرب يقول « والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة ، اعطت شعورا بالقوة لعرب اسرائيل الامر الذي استغلته الجهات المهتمة بذلك ٠٠ (٧٢) » ويشير كنيغ في مكان اخر من مذكرته الى « ان تركيز السيطرة على قطاعات اقتصادية معينة يمكن العرب من الاضراب او عدم التعاون مما سيؤدي الى اضرار اقتصادية بالغة للدولة ، وعلى الخصوص اضرار سياسية عن طريق ابراز وزنهم كعامل مهم في اقتصاد الدولة ٠٠ (٧٣) » ٠

وفي ضوء ما تقدم يقترح : « وضع اتفاقات مناسبة مع كل ادارة مشروع او معمل خاضع « لقانون استثمار رأس المال » في المناطق الحساسة ٠٠٠ بحيث لا يزيد العمال العرب على نسبة ٢٠ ٪ (٧٤) » ٠

المازق : الضربة توجه للعمال العرب فتصيب العمال اليهود

اقتراح كنيغ ، اقتراح حسن في حدود ظواهر الارقام وذلك بتحديد النسبة ٢٠٪ ! ولكن المسالة ليست مسالة نسبة ترتفع او تنخفض ، وتمس العرب فقط ٠ فمراحل اي عملية انتاجية بمقدار انفصالها فهي متحدة ٠٠ وعندما نقول مأزق اقتراحات السيد كنيغ وبالتالي مأزق الصهيونية ففي الذهن استحالة المساس بالعمال العرب ٠٠ دون المساس بالعمال اليهود ٠ وان اراد خلق المشاكل للعمال العرب ٠٠ فهو لا يستطيع الا ان يخلق وبقدر مساو

(ان لم يكن اكثر) مشاكل للعمال اليهود ، للاقتصاد الاسرائيلي ·· واستطرادا لكـــل البنية الاجتماعية لاسرائيل ··

فالسيد كنيغ يتحدث بمعرض حديثه عن العرب عن « تركيز السيطرة عـــلى قطاعـات اقتصادية معينة ·· (٧٥) » ماذا يعني التركيز ؟ وبفعل ماذا ؟· كنيغ نفسه يعطي بمكان اخر من مذكرته السبب بانه« نتيجة لهرب العمال اليدويين اليهود من العمل في مجـــال الاشغال اليدوية ·· (٧٦) » ·

ولكن هل المشكلة هي مشكلة هرب ؟ اي ان الحل هو في منع الهرب ! المشكلة كما يقول كنيغ بسبب «الفارق **الشاسع** بين العرض والطلب على الايدي العاملـة في الاقتصاد بكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عـــام ، والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة ·· (٧٧) » ·

يمكن لنا الخروج من كلام كنيغ هذا بالحقائق التالية :

١ ــ تركز العرب وسيطرتهم على فروع اقتصادية ·

٢ ــ اعتماد الفروع الاقتصادية الاخرى على الفروع التي يسيطر عليها العرب ··

٣ ــ (هرب) العمال اليهود من الاعمال اليدوية ·

٤ ــ الفارق **الشاسع** بين العرض والطلب على الايدي العاملة · خصوصا الاعمال التي يتوجه اليها العرب ·

٥ ــ يقترح تحديد نسبة العرب بـ ٢٠ ٪ ·

رغم حديث كنيغ عن (هرب) العمال ·· وفي ضوء كل العرض الذي تقدم ، وفي ضوء الحقائق التي سجلها كنيغ نفسه ، يتضح ان المشكلة ليست في (هرب) بـــل في طبيعة الاشياء نفسها ·· فلو خفض عدد العمال العرب ، وهو امر ممكن باصدار قرار حكومي ، ولكن ما هي الخطوة التالية ؟ فتركز العمال العرب ، كما اتضح معنا يعنـــي ان نسبـــة تتجاوز ٧٥ ٪ من العاملين ، في فرع معين هم عرب وفيما لو خفضت النسبة الى ٢٠ ٪ · فستنخفض الطاقة الانتاجية بدرجة كبيرة ــ ٧٥٪ الى ٢٠٪ ــ ولكن فـروع اقتصادية اخرى تربطها بالفروع (العربية) علاقة تبعية كما يقول كنيغ نفسه ، فهل ستنخفض انتاجية الفروع (التابعة) بمقدار الانخفاض المقترح في الفروع (المتبوعة) · وهل اقتصاد اسرائيل علـــى استعداد لتحمل هزة من هذا المستوى ؟· وبالتأكيد ان السيد كنيغ عاقل لدرجة ان لا يقترح هكذا تخفيض · اذا ، وملأ الفراغ الذي يتركه العمال العرب ، سيجبر العمال اليهود الذين (هربوا) حسب تعبيره ، على الحلول محل العمال العرب المطرودين · ولكن هذا يستدعـــي من السيد كنيغ اجابة على حقيقة سجلها هو نفسه عندما اشـار الى « الفارق الشاسع » وليس الفارق فقط ، بين العرض والطلب على**اليد العاملة** · بكلمة اخرى فلو نجح في (جلب)

الهاربين ولكن اماكنهم الشاغرة من سيملأها ، خصوصا وانها وظائف ممتازة بالتأكيد والا لما (هربوا) اليها · من المؤكد ان السيد كنيغ بوصفه صهيونيا لا يمكن ان يخطر في باله ان يملأ الفراغ الناتج عن العمال اليهود (الهاربين) بالعمال العرب (المطرودين) ، وحينئذ سيكون السيد كنيغ عرضة للاتهام بأنه قد قلب مفاهيم المعلم الاكبر هرتزل والذي اراد الهجرة الى فلسطين نوعا من الارتقاء الطبقي ·· اذا سيجد السيد كنيغ ضالته في المهاجرين الجدد · لكنهم ولسوء حظه « ابعد ما يكونون عن تلك المهام البسيطة (٧٨) »· اذا ما العمل ؟· لا حل ! وهنا المأزق ·

اسرائيل والخيارات الصعبة ـ المستحيلة

خيارات اسرائيل بالنسبة لمأزق اليد العاملة تنحصر باحتمالين : العودة الى سياسة العمل العبري او الاستمرار في السياسة الحالية · وللاحتمالين نفس النتائج السياسية والاقتصادية السلبية ·

ان العودة الى سياسة العمل العبري ، حتى ولو بنسبة معينة ، تعني ببساطة شديدة اعادة النظر في هيكل القوى العاملة الاسرائيلية وطريقة توزيعها على الفروع الاقتصادية والمهن المختلفة ، لان طريقة التوزيع هذه تخضع لنسبة مزج معينة ، اي استحالة امكانية الاستغناء عن مهنة معينة دون الاستغناء عن بقية المهن ذات العلاقة الوثيقة بها ، او الاستغناء عن مرحلة انتاجية بغض النظر عن حجمها دون الاستغناء عن بقية المراحل الانتاجية ·

استحالة ضغط اليد العاملة

ورب قائل بامكانية ضغط اليد العاملة في بعض القطاعات الانتاجية ، والتوسع في احلال الآلة مكان العمل اليدوي بما يوفره هذا من يد عاملة · ولكن الثابت ان قدرة اسرائيل على هذا الصعيد هي قدرة محدودة جدا ، وان لم نقل معدومة ، نظرا لكثافة التوظيفات الرأسمالية · وعلى سبيل المثال فان كثافة رأس المال الموظف في قطاع الزراعة يفوق حاجة القطاع الزراعي ·

خسائر اعادة توزيع اليد العاملة اليهودية

ان اعادة توزيع اليد العاملة العبرية وتوجيه اعدادا منها للحلول محل العمال العرب ، سوف تؤدي الى خلق فراغ في القطاعات التي سحب منها عمال ، وبالتالي فان حجم الانتاج القومي لا بد وان يهبط بنسبة قريبة من تلك النسبة التي هبط بها حجم اليد العاملة ·

ان الخسارة في الانتاج لا يمكن ان تقاس فقط من خلال النسبة التي قلت بها اليد العاملة ، بل تتعلق ايضا في كيفية ونسبة استغلال الطاقة العاملة ، وكان هنالك من اشار الى « ان اسرائيل تبدد طاقتها البشرية ، فالمهندسون لا يزالون يوظفون كعمال تقنيين · والعمال التقنيون كعمال مشرفين والعمال المهرة كعمال اشغال وتصليحات بدلا من

ان يكونوا عمالا في مصانع الالكترونيات ٠٠ (٧٩) » ٠

واكثر من ذلك فان مهن العرب لا تقف عند حدود عمال اشغال وتصليحات ، بل اكثر سوءا وشقاء من ذلك ٠ وعندما يوظف اي عامل في مهنة دون مستواه وقدرته ، فان هـذا يعتبر خسارة مركبة ، اولا ، بالفارق بين قدرته الفعلية ، والطاقة المستغلة منها ، وثانيا ، تدني مستواه الفني وعدم اكتسابه اية خبرات جديدة ذات صلة بتخصصه الاصلي ٠ هذا ومن المتعارف عليه اقتصاديا ، اعتبار من لا يعمل في مجال تخصصه عاطلا عن العمل ٠

ان اعادة توزيع القوى العاملة وتوجيه جزء منها الى الاعمال الدنيا وذات المردود المنخفض ، سوف تؤدي ، اما الى الحفاظ على هيكل الاجور القديم ، اي ان يدفع للوظيفة الجديدة الدنيا الراتب الذي كان يدفع للوظيفة القديمة العليا ٠ وفيما لو تذكرنا ان معدل الاجور الذي يدفع للعمال اليهود يفوق انتاجيتهم لاسباب اجتماعية وسياسية متعددة لا مجال لذكرها الان وتتحمل خزينة الدولة ذلك الفارق ، لاتضح لنا حجم الاعباء المالية التي ستلقى على كاهل الخزينة العامة ٠

واما ان تدفع للوظيفة الجديدة الدنيا ، الراتب المخصص لها في هيكل الاجور ، وحينئذ سيهبط مستوى المعيشة لعدد من العاملين في وقت يحافظ فيه الباقون على مستوياتهم السابقة ، وهذا يقود حتما الى مساس سياسة اسرائيل الهادفة لخلق « سلام اجتماعي » وذلك مقدمة طبيعية لتصاعد الصراعات الطبقية للدرجة التي تخشاها اسرائيل ٠

مطلوب ازمة اقتصادية اعمق من ازمة ١٩٦٦ !!

ان المشكلة لا تنحصر في حجم الناتج القومي الذي سينخفض ، او الاعباء التي ستلقى على كاهل الخزينة الاسرائيلية ، بل في ردود فعل اولئك المدعوين (لخفض) مستواهم الطبقي والمهني ٠ وما هي الظروف التي ستدفعهم للقبول ؟ الدافع الايديولوجي ٠ سبق ان اتضح لنا حجمه عندما عرضنا اراء هرتزل وآحاد هعام وغيرهم ٠ لذا يتوقع مدير مصلحة القوى البشرية في وزارة العمل « اذا ما حدثت ازمة ـ اقتصادية ـ شبيهة بازمة ١٩٦٦ ، فانها ستمس قطاع البناء وعند ذلك سيتأثر العمال العرب المركزين في هذا الفرع ٠ واذا ما مست السياحة ، فان العمال العرب من المناطق الذين يعملون في المطاعم وجلي الصحون هم الذين سيتضررون ايضا ، وفي مقابل ذلك اذا مست الازمة الصناعية بحيث يصبح من الضروري ايقاف وتيرة النمو الصناعي ، فان المتضررين سيكونون بين العمال اليهود ، واذا ما تعمقت الازمة ، حينئذ سيحل العاطلون عن العمل من العمال اليهود تدريجيا محل العمال العرب وحتى في فروع الاعمال البسيطة ٠٠ » ٠ (٨٠)

مازق الهجرة ٠٠ والوضع الاقتصادي

اذا ، المطلوب « ازمة شبيهة بازمة ١٩٦٦ » ٠٠ واكثر من ذلك « اذا ما تعمقت الازمة » ٠٠ تحل مشكلة الاحلال ، وتوجيه العمال اليهود نحو « قطاع البناء » و « جلي الصحون » و « فروع الاعمال البسيطة » ٠ » ٠ ولكن هل من ضمان بان العمال اليهود سوف يتوجهون

نحو هذه الفروع ·· ام نحو الخارج ، فتكون بداية الهجرة للخارج وتوقف الهجرة للداخل· وهذا ليس توقعا ، بل في ضوء ما حدث ابان سنوات ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ و ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ · ففي عام ١٩٥٣ ، وحيثكانت هنالك ازمة اقتصادية ، اذ انخفض الناتج القومي بالقياس للعام السابق ، لم يهاجر لاسرائيل سوى ١٢٠٠ مهاجر فقط · وازمة ١٩٦٦ ، التي كانت اخف وطأة من ازمة ١٩٥٣ حيث تزايد الناتج القومي بنسبة ١ ٪ فقط ، ظهرت اثارها في عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ ، حيث بلغت الهجرة ٨٣٠٠ و ٤٣٠٠ مهاجر على التوالي في حين بلغت في الاعوام ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥، ٤٠٦٠٠ و٥٣٨٠٠ و٤٦٣٠٠ و٢٢٩٠٠ مهاجر على التوالي (٨١)· هذا ومن الجدير بالذكر ان الناتج القومي الاسرائيلي كان قد حقق تزايدا بنسبة ١٠ ٪ و ١٠ ٪ و ١١ ٪ و ٩ ٪ و ٩ ٪ للسنوات السالفة الذكر في حين لم يزد الناتج السنوي عام ١٩٦٦ سوى بـ ١ ٪ فقط (٨٢) ·

ان المساس بموضوع الهجرة هو مساس بالموضوع الاكثر حساسية بالنسبة لاسرائيل ، وهو موضوع متشعب الاثار والنتائج ، ويمس صلب الايديولوجية الصهيونية وسياساتها الاستيطانية ·

ان لجوء اسرائيل الى اعادة توزيع هيكل قواها العاملة ، امر سيقودها حتما الى مجموعة نتائج سلبية جدا على جملة منطلقاتها ومرتكزاتها الايديولوجية والطبقية ولن تقتصر الهزة على بنيانها الاقتصادي فحسب ، بل ستؤدي الى خلخلة وجودها السياسي ايضا ، وبعد ما يزيد على نصف قرن على حديث هرتزل عن « الارتقاء الطبقي » و«تحسين مستوى معيشة المهاجر » سوف تقلب الآية وستفشل الذبؤة ، وستفشل معها نظرية بن غوريون عن التمييز والتمايز ·· كضمان لاستمرار المسألة اليهودية ·· وسوف تتاكد مرة اخرى الحقيقة التاريخية القائلة ، ان الايديولوجية الرجعية ، مصيرها الفشل دائما ·

ان المثل العربي القائل بـ « امرين احلاهما مر » ينطبق تمام الانطباق على اسرائيل ، فكما تقدم معنا هي عاجزة عن التخلي عن اليد العاملة العربية ، والبديل الاخر هو استمرار الوضع على ما هو رغم مخاطره ·· وهذا ما اشار اليه كنيغ في مذكرته الشهيرة · اما المخاطر فقد لخصها توليدانو مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية الذي سبق له ان قال « لا يوجد حل كامل للمشكلة ··· ربما يعتقد البعض ان الوظائف والمراكز تقض على المرغبات القومية ·· انني انفي ذلك ·ان السؤال هو : كيف يمكن العيش على افضل وجه مع اقلية قومية ليس لرغباتها القومية حل في اسرائيل ·· (٨٣) » ·

« ليس لرغباتها حل في اسرائيل »ولكن لها دور في اسرائيل ·· وبين الحل والدور يكمن مأزق اسرائيل التاريخي ··

وان السؤال الذي لا بد وان يطرح في ضوء العرض الذي تقدم ، اين اصبحت وما هو مستقبل السياسة الاسرائيلية التي انتهجتها بعد عدوان ١٩٦٧ ، والتي تقول بان تحسين مستوى معيشة عرب المناطق المحتلة سوف يؤدي الى القضاء على روح المقاومة لديهم ··· (٨٤)

وان ما ينطبق على عرب المناطق المحتلة ١٩٦٧ ينطبق على عرب المناطق المحتلة ١٩٤٨ ، من ناحية المبدأ ، رغم اختلاف نظرة ومخططات اسرائيل تجاه كل منهما ·

الاوهام وتفاوت اساس القياس

يوما بعد يوم ، تتأكد صحة مقولة بنحاس سابير وزير مالية اسرائيل السابق الـــذي سبق له ان عارض وجهة النظر تلك ، قائلا بخطأ من يظن ان تحسين مستوى المعيشـــة يلغي التطلعات الوطنية • وبالفعل فانها لظاهرة ملفتة للنظر ان كافة سياسات اسرائيـــل ومحاولاتها قد انتهت بتصاعد المشاعر الوطنية وزيادة حجم وحدة المقاومة بكافة اشكالهـا على السياسة الاسرائيلية • رغم انه من المعروف تقليديا ارتبـاط الاحتجـاج والتذمر بالاضطهاد وسوء الاوضاع المعيشية •

الامثولة التي حاول سابير ان ينفيها صحيحة رغم النتائج التي انتهت اليها • والخلـل لم يكن بالفرضية ، بل باطراف المعادلة التي تقوم عليها تلك الفرضية ، والنقطة التـــي ينطلق منها ، والتي هي اساس القياس •واذا كان وضع العرب قد تحسن ، فبالقياس لماذا ؟ خطأ الصهاينة كان انطلاقهم من انوضع الفلسطينيين بعد ١٩٤٨ ، من طرد ونفي وتشريـد هو وضع طبيعي ، وبكلمة ادق يفترض هذا التسليم بصحة قيام اسرائيل وبالتالي صحـة الوضع الذي انتهى اليه الفلسطينيون • اي ان هنالك عرب لا يملكون شيئا ، ومن هنـــا فعليهم ان يقبلوا شاكرين اي شيء يقدم اليهم ، لان اي شيء هو اكبر من الصفر ، والـذي هو النقطة التي ينطلق منها الصهاينة ، وكذلك الامر بالنسبة للاجئين في المخيمات مـن غزة والضفة الغربية ، والذين يعتاشون على مساعدات الامم المتحدة ومخصصات السمن والارز التي تحدث عنها موشي ديان • وبالتالي فان تقديم فرص العمل اليهم هو امرجيد ، وافضل من وضعهم الحالي •• لذا فان الفرضية الصهيونية حول تحسين مستوى المعيشة هي فرضية صحيحة • ولكن ، الفرضية الصحيحة قد ادت الى نتائج معاكســـة لتلك التـــي توقعتها الفرضية • السبب • هو ان اساس القياس ونقطة انطلاق العرب لا تبدأ في مرحلة ما بعد ١٩٤٨ •• المرحلة التي اصبح بها الفلسطينيون معدمين •• بل تبدأ في مرحلة ما قبل ١٩٤٨ حين كانوا ملاكا لارضهم •• التي تمنحهم الان اسرائيل فرصة عمل فيهـــا فقط •• فرصة عمل توفر دخلا لهم وتحسن معيشتهم •• لكنها لاتضاهي اطلاقا ما يقدمه لهم امتلاكهم للارض • وذلك اللاجيء بعد ان عري من ملابسه كاملة ، (سيفرح) قطعا ، عندما ترمي لـه قطعة صغيرة تستر عورته •• لكن هذه الفرحة لا تلغي قناعته بانه كان مالـــك البذلـــة بكاملها • وما يمنحه الرضى ويعيد له توازنه ، استعادة كامل بذلته •• بلدته ••

ان الارقام التي قدمت لتبيان حجم ودور اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي ، والتي تؤكد ان تخوف كنيغ كان في محله ، تؤكد ان العرب يملكون في ايديهم امكانية التاثير على مفصل مؤلم جدا •• مفصل حساس ، متشعب التاثير والانعكاسات • يملكون سلاحـا يستطيعون بواسطته شل دولة العدو ، وتعريضها لهزات قاتلة ، وقدرة اسرائيـــل علـــى المجابهة قدرة محدودة جدا •• فـ « حسن سير اقتصاد الدولة متوقف عليها ، الى حد بعيد (٨٥) » • وسيطرة العرب هذهتمكنهم من « الاضراب او عدم التعاون مما سيؤدي الـــى اضرار اقتصادية بالغة للدولة •• (٨٦) • »

حسن سير الاقتصاد يتوقف على العرب : اذا ما الذي ينتظره هؤلاء لتخريـــب سيـــر الاقتصاد ؟ ! هذا السؤال التحدي مطروح علـــى الجميـــع • فهل نقبض الفرصـــة ونوجهها ؟! •••

هل ينقذ العرب اسرائيل ؟

اسرائيل تعيش مأزقا تاريخيا ·· والايديولوجية الصهيونية كايديولوجية رجعية تواجه خيارات مغلقة · السؤال : هل نمنحها فرصة الحياة ؟!

وفي ضوء كل ما تقدم اليس التفكير بتحرير كل فلسطين هو تفكير عاقل · يستند على امكانية علمية ·· وفي متناول اليد ·· وفي المدى التاريخي المنظور ·· وليس صوفية وطنية ونوعا من العدمية ·· نحن لم نقلها ·· هم قالوها بلسان كنيغ وقالوها قبل ما يزيد على نصف قرن · او ليس صهيوني هو القائل بانه « اذا اصبحت فلسطين كلها تابعة لليهود الاغنياء وكل العمال من العرب فان فلسطين ستكون في الواقع بلاد العرب وليست بلاد اليهود ·· (٨٧) » و « ان شعبا لا يمتلك هيكلا واسعا من العمال القريبين من الطبيعة ومن مواد انتاج الطبيعة ··· هو شعب ليس له حق الوجود حتى ولو نجح في ان يوجد لنفسه ، بوسائل مصطنعة ، امكانية الوجود ·· (٨٨) » · و ···

علينا نحن ان لا نكون تلك الوسائل المصطنعة ···

الحواشي :

١ ـ شؤون فلسطينية ـ العدد ٢٤ . سياسة العمل العبري بين الامس واليوم· عبد الحفيظ محارب ـ ص ١٣٣ ·

٢ ـ المصدر نفسه ص ١٤١ ·

٣ ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل ـ نيويورك ـ مطبعة هرتزل ١٩٧١ ـ ص ٤٠٢ ·

٤ ـ شؤون فلسطينية ـ عدد (٦٠) ص ١٨٢ راجع شؤون فلسطينية عدد ٦١ ص ١٨٩ الحاشية · ونشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية العدد (٩ ـ ١٩) من ١ـ٥ـ الى ١ـ١١ـ١٩٧٦ · الترجمة المنقحة والمدققة لوثيقة كنيغ·

٥ ـ موشي بارسليغسكي · الحركة العمالية في ارض اسرائيل · الجزء الاول ١٩٦٦ · ص ٨٣ـ٨٤ · ذكرها عبد الحفيظ محارب · مصدر سابق ـ ص ١٤٢ ·

٦ ـ تسفى بن شوشان ، تاريخ حركة العمال في ارض اسرائيل ـ المجلد الاول · الطبعة الثانية · ١٩٦٣ · ص ١٢٨ ـ ١٢٩ · اشار اليها عبد الحفيظ محارب في شؤون فلسطينية عدد ٢٤ ـ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ·

٧ ـ يوسف اهارونفتش ، الشعب والبلاد ـ ١٩٧٠ · ص ٨٣ ذكرها مقال ، العمل العبري بين الامس واليوم ، شؤون فلسطينية عدد ٢٤ ـ ص ١٤١ ·

٨ ـ يوسف اهارونفتش · المصدر نفسه · ص ٨٣ وعبد الحفيظ محـارب · مصدر سابق · ص ١٤١ ·

٩ ـ شلومو ريخف · كتابات مختارة · ١٩٦٦ · ص ٢٢٢ · ذكرها عبد الحفيظ محارب · مصدر سابق · ص ١٤٣ ·

١٠ ـ غوردون : كتابات غوردون · المجلد الثالث المكتبة الصهيونية ١٩٥٤- · ص ٥١ · ذكرها عبد الحفيظ محارب · مصدر سابق ص ١٤١ ·

١١ ـ اهارونفتش · مصدر سابق · ص ٨٣ · وعبد الحفيظ محارب · مصدر سابق · ص ٨٣ ·

١٢ ـ المختار من مجلة الدراسات الفلسطينية ـ عدد (١) الصادرة عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ ١٩٧٤ : الجذور الطبقية في العقيدة الصهيونية : ستيفنن هلبروك · ص ٣٢ ·

١٣ ـ ج·ب· جانسن ـ الصهيونية واسرائيل وآسيا ـ مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٣٠ ·

١٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٢ ·

١٥ ـ المصدر نفسه ص ٢٣ ·

١٦ ـ بي هوروفيتش ، المسالة اليهودية والصهيونية ، لندن ، ١٩٢٧ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ · اشار اليها ج·ب· جانسن مصدر سابق · ص ٢٣ ·

١٧ ـ ج·ب· جانسن ، مصدر سابق · ص ٢٣ ·

١٨ ـ اليهودية والقومية الاخرى ، هـ·ر ترفر ـ رويد · لندن ـ ١٩٦٢ · ص ١٣ ـ ١٥ اشار اليها كتاب الصهيونية واسرائيل وآسيا ـ مصدر سابق ص ٢٥ ·

١٩ ـ المصدر نفسه ·

٢٠ ـ الصهيونية واسرائيل وآسيا · مصدر سابق · ص ٦٣ ·

٢١ ـ تيودور هرتزل ـ دولة اليهود · راجع الصفحات ٣٠ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٨٥ · ذكرها ج·ب· جانسن · مصدر سابق · ص ٦٣ ·

٢٢ ـ المصدر نفسه ·

٢٣ ـ الجذور الطبقية في العقيدة الصهيونية ، مصدر سابق ص ٢٥ ·

٢٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٥ ·

٢٥ ـ المصدر نفسه ص ٣٢ ·

٢٦ ـ ج·ب· جانسن · مصدر سابق · ص ٦٣ ·

٢٧ ـ الجذور الطبقية ··· مصدر سابق · ص ٣٤ ·

٢٨ ـ المصدر نفسه ص ٢٥ ·

٢٩ ـ لمزيد من التفاصيل راجع صبري جريس ، مخطوطة «تاريخ الحركة الصهيونية ، ١٨٦٢ ـ ١٩١٨ » ، الجزء الاول ·

٣٠ ـ ذكرها عبد الحفيظ محارب · مصدر سابق ، شؤون فلسطينية عدد ٢٤ ، ص ١٤٢ ·

٣١ ـ موشي بارسليغسكي · الحركة العمالية في ارض اسرائيل ، الجزء الاول ١٩٦٦ ص ٨٤ · ذكرها عبد الحفيظ محارب · مصدر سابق · ص ١٣٩ ·

٣٢ ـ المصدر نفسه ·

٣٣ ـ يتسحاق تبنكين · مجموعة مقالات · ص ١٠٢ · ذكرها عبد الحفيظ محارب مصدر سابق · ص ١٣٨ ·

٣٤ ـ المصدر نفسه ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ·

٣٥ ـ يوسف أهارونفتش ٠ الشعب والبلاد ، ١٩٧٠ ـ ص ٨٦ ٠ ذكرها عبد الحفيظ محارب ٠ مصدر سابق ص ١٤٨ ٠

٣٦ ـ راجع : بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ـ مركز الابحاث ـ بيروت ١٩٧٥ المقدمة والصفحات ٢٢ ـ ٢٨ ٠

٣٧ ـ بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ٠ مصدر سابق ٠ ص ٧ ٠

٣٨ ـ شؤون فلسطينية عدد ٥٠ ـ ٥١ ٠ ص ٤٠٨

٣٩ ـ بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ، مصدر سابق ، ص ١٠٠ ٠

٤٠ ـ راجع شؤون فلسطينية عدد ٤٨ ، مقالة الحوار العربي ـ الاوروبي ، اوروبا الغربية والعرب واسرائيل ٠

٤١ ـ المصدر نفسه ٠ ص ٦٧ ٠

٤٢ ـ الدكتور عمرو محي‌الدين ـ الاقتصاد الاسرائيلي ـ جامعة بغداد مركز الدراسات الفلسطينية بغداد ١٩٧٣ ٠ ص ٥٢ ٠

٤٣ ـ هارتس ١٠ـ١٢ـ١٩٧٣ ٠

٤٤ ـ بناء امبريالية جديدة ٠ اسرائيل والضفة الغربية ـ شؤون فلسطينية عدد ٢٨ ص ٩٦ ٠

٤٥ ـ الدكتور يوسف شبل ٠ تجارة اسرائيل الخارجية ٠ مركز الابحاث ـ بيروت ص ٩٦ ٠

٤٦ ـ ر٠١٠٠ رقم ٥٩٦ ٠

٤٧ ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٠ السنة الاولى ٠ نشرة رقم ١٥ ٠ ص ٢٨٧ ٠

٤٨ ـ ر٠١٠٠ عدد يوم ٢٩ـ١٢ـ٧٢ ذكرها بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي مصدر سابق ٠ ص ٥٣ ٠

٤٩ ـ ر٠١٠٠ رقم ١٥٤ تاريخ ٣ـ١ـ١٩٧٣ ٠

٥٠ ـ المصدر نفسه ٠

٥١ ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٠ ملحق العدد ٩ ، ١ ايار ١٩٧٣ ٠

٥٢ ـ هآرتس عدد ١٥ ـ ٥ ـ ١٩٦٩٠ذكرتها شيلاربان ٠ مصدر سابق ص ٩٢٠

٥٣ ـ لمزيد من التفاصيل عن الاتفاقية ٠ راجع شؤون فلسطينية عدد ٤٤ ونشرة ر٠ا٠ـ ٧ ايار ١٩٧٥ ٠

٥٤ ـ شؤون فلسطينية عدد ٤٤ ، ص ٥٢ ونشرة ر٠ا٠ رقم ٧١٧ تاريخ ٢ـ١ـ١٩٧٥ ٠

٥٥ ـ معاريف ١٢ـ١ـ١٩٧٣ ٠

٥٦ ـ بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ، مصدر سابق ص ١٩٧ ٠

٥٧ ـ المصدر نفسه ٠ ص ١٩٨ ٠

٥٨ ـ المصدر نفسه ص ٢٠٢ ٠

٥٩ ـ المصدر نفسه ص ١٩٩ ٠

٦٠ ـ المصدر نفسه ص ٢٠٠ ٠

٦١ ـ المصدر نفسه ص ٢٠١ ٠

٦٢ ـ المصدر نفسه ص ٢٠١ ٠

٦٣ ـ المصدر نفسه ص ٩١ ٠

٦٤ ـ المصدر نفسه ٠

٦٥ ـ معاريف ١٩ـ٦ـ٧٢ ٠ ذكرت في شؤون فلسطينية عدد ٢٤ ، ص ١٣٦ ٠

٦٦ ـ هآرتس ٢٤ـ٥ـ٧٢ ٠ ذكرت في شؤون فلسطينية عدد ٢٤ ، ص ١٣٥ ٠

٦٧ ـ العمل العبري بين الامس واليوم ، مصدر سابق ٠ ص ١٤٢ ٠

٦٨ ـ مذكرة كنيغ ـ نشرت في شؤون فلسطينية عدد ٦٠ ٠

٦٩ ـ المصدر نفسه ٠

٧٠ ـ المصدر نفسه ٠

٧١ ـ المصدر نفسه ٠

٧٢ ـ المصدر نفسه ٠

٧٣ ـ المصدر نفسه ٠

٧٤ ـ المصدر نفسه ٠

٧٥ ـ المصدر نفسه ٠

٧٦ ـ المصدر نفسه ٠

٧٧ ـ المصدر نفسه ٠

٧٨ ـ شيلاربان ٠ مصدر سابق ٠

٧٩ ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ملحق العدد ٩ ، ايار ١٩٧٣ ٠

٨٠ ـ معاريف ١٢ـ٥ـ١٩٧٢ ٠

٨١ ـ بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ٠

٨٢ ـ المصدر نفسه ص ١٠٣ ٠

٨٣ ـ معاريف عدد ٢٠ـ١١ـ١٩٧٤ ذكرها حبيب قهوجي في كتاب «عـرب فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ، انتماء وصمود» ٠ مؤسسة الارض ٠ دمشق ١٩٧٦ ٠ ص ٢١ ٠

٨٤ ـ هذه الفكرة يمثلها خير تمثيل موشي ديان وزير دفاع اسرائيل السابق ٠

٨٥ ـ يسرائيل كنيغ ٠ مصدر سابق ٠

٨٦ ـ المصدر نفسه ٠

٨٧ ـ العمل العبري بين الامس واليوم ، مصدر سابق ـ ص ١٤٣ ٠

٨٨ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٤١ ٠

غاب راشد حسين

للشعر لون العاصفة · ومن التقى راشد حسين ذاق طعم الفرح وذهب في العاصفة · كنت في الرابعة عشرة حين كان راشد يتأجج · كان طرفة بن العبد ـ لا ادري لماذا ـ يطل في الذاكرة القروية كلما اطل راشد حسين من على صفحات الجرائد ومن عيون الصبايا · ولم تكن قريتي آنذاك تعرف الخيول ، فجئته من حقول القمح في مرج بن عامر الى الناصرة · وكانت الناصرة عكاظ ·

ضعت في موجات الزحام امام المدرسة الثانوية ، ابحث عن اخي الاكبر · وككل القرويين كنت احمل خبزا وزيتونا وقصائد · وانجرفت في مظاهرة الاحتجاج على الاعتداء الصهيوني على مستشفى غزة ، ، فاضعت اخي والتقيت راشد حسين ·· ذلك الفتى القروي ، مديد القامة ، الاسمر ، الحامل في كفه دما وقصيدة ، الزارع جنين العاصفة ·

لم اكلمه · ولكن قصيدته اخذتني من يدي ورمتني في المظاهرة ، الى ان فرقتنا هراوات الشرطة العسكرية والغاز المسيل للدموع · كانت هذه هي المرة الثانية التي يجرفني فيها مثل هذا الحشد الهائل من البشر · كانت الاولى تجرفني بعيدا عن فلسطين في عام النكبة · وكانت الثانية تؤسسني في صميم فلسطين · بكيت في الاولى وهتفت في الثانية ·

·· ولم يأت اخي غازي في تلك الليلة الى البيت القديم الذي كان يسكنه وراشد حسين في حي الروم في الناصرة · ولم يأت راشد ايضا · وحين طرق الباب في منتصف الليل كانت الشرطة العسكرية تقف خلفه · لم يأخذوني ·· بل اخذوا سلمان · وعرفت ان راشد واخي لم يعتقلا ، ثم التقينا والتقينا ·

وحين انتقلت في العام الدراسي التالي الى مدينة الناصرة سكنت البيت القديم ذاته مع شقيق العاصفة احمد حسين · وكان راشد قد اصبح جزءا من هموم الناس ، وجزءا من فلسطين الصغيرة الكبيرة · يتحدث عنه الفلاح والعامل ويعيش الطلبة على قصيدته القادمة ، وعلى مقاله الاسبوعي الساخن · كان الوطن العربي يهب ويغلي ويثور ، وكانت الناصرة مظاهرات ودما يسيل على الشوارع ، وراشد حسين ينشد للنيل والاوراس وبردى ولبافا والقدس · وكانت القصائد تتحول الى حجارة نقاوم بها الاحتلال والحصار ·

٠٠ وان تمتطي العاصفة معناه انك تسير نحو الشمس ، او الى الهاوية ٠ وكان راشد حسين يمتطي العاصفة ، ويغوص في الجرح ٠ ثم غاب عن الناصرة ، واقام في تل ابيب ليواصل زراعة العواصف ٠ كنت التقيه هناك ، ونتحدث عن قرية مصمص وعن الناصرة ٠ وكان دائما يبتعد عنها ليقترب من الشمس ٠ وكان راشد لا يزال صغيرا على الشمس ، فخفنا عليه ٠

وغاب ٠ عدت الى حيفا ، وكانت العاصفة التي زرعها راشد تبشر بولادة اعصار ٠ وفي حيفا التقيت محمود درويش ، واقمنا في شقة واحدة ٠ وذات يوم جاءنا راشد وكان ينوي السفر ٠ سهرنا الليل كله ، وحاول محمود درويش ان يثنيه ، ولكن راشد حسين كان يصمت ٠ تغيب عيناه في الكأس، ويغالب الحنين الى العاصفة ٠ ضاقت به الناصرة ، ضاقت به يافا وتل ابيب واجتاحه الشوق الى المغامرة ٠ وقال في الصباح وداعا ، وغاب ٠

ايام وسنين ٠ ولم ار راشد ولم اسمع عنه الا من محمود درويش حين التقيته ، بعد غياب ، في القاهرة وبيروت ٠ واليوم مات راشد حسين ٠ كنت جالسا ومحمود حين جاءنا الخبر ٠ اية مصادفة مفجعة ٠ كنا معا حين ذهب في الوداع الاول ٠ وكنا معا حين ذهب في الوداع الاخير الاخير ٠

وحين طلب محمود درويش الى موظف الارشيف ان ياتيه بصورة راشد حسين ، سأل الموظف بعفوية قاتلة : « ماذا كان يعمل ؟ » ؛ غصصنا وقال محمود بمرارة : « كان ذلك كافيا لان يقتله » ٠

توفيق فياض

كان ما سوف يكون

(في ذكرى راشد حسين)

محمود درويش

في الشارع الخامس حيّاني · بكى · مال على السور الزجاجيِّ ، ولا صفصاف في نيويورك · ابكاني · اعاد الماء للنهر · شربنا قهوة · ثم افترقنا في الثواني ·

منذ عشرين سنةْ
وانا اعرفه في الاربعينْ
وطويلا كنشيدٍ ساحليّ ، وحزينْ
كان يأتينا كسيف من نبيذٍ · كان يمضي كنهايات صلاهْ
كان يرمي شعره في مطعم « خْريسْتو »
وعكا كلها تصحو من النومِ
وتمشي في المياه

كان اسبوعا من الارض ، ويوما للغزاة
ولامي ان تقول الان : آه !

ليديه الوردُ والقيدُ · ولم يجرحْهُ خلف السور الا جرحُهُ السيِّدُ · عُشّاقٌ يجيئون ويرمون المواعيدَ · رفعنا الساحل الممتدَّ · دشَّنا العناقيدَ · اختلطنا في صراخ الفيجن البريِّ · كسرنا الاناشيدَ · انكسرنا في العيون السود· قاتلنا · قُتلنا · ثم قاتلنا · وفرسان يجيئون ويمضونَ

وفي كل فراغْ
سنرى صمت المغني ازرقاً حتى الغيابْ
منذ عشرين سنة
وهو يرمي لحمه للطير والاسماك في كل اتجاه
ولامي ان تقول الآن : آه

ابن فلّاحين من ضلع فلسطينَ
جنوبيٌّ
شقيٌّ مثل دوريّ
قويٌّ
فاتحُ الصوتِ
كبير القدمين

واسع الكفِّ · فقير كفراشه
اسمرٌ حتى التداعي
وعريض المنكبين
ويرى ابعد من بوابة السجن
يرى اقرب من اطروحة الفن
يرى الغيمة في خوذة جنديٍّ
يرانا ، ويرى كرت الاعاشة

وبسيط ·· في المقاهي واللغةْ
ويحب الناي والبيرةَ
لم يأخذ من الالفاظ الا ابسط الالفاظ
سهلا كان كالماء
بسيطا ·· كعشاء الفقراء

كان حقلا من بطاطا وذره
لا يحب المدرسةْ
ويحب النثر والشعر
لعل السهل نثرٌ
ولعل القمح شعرٌ ·

ويزور الاهل يوم السبتِ
يرتاح من الحبر الالهيِّ
ومن اسئلة البوليسِ ··
لم ينشر سوى جزئين من اشعاره الاولى
واعطانا البقيه

شوهدت خطوته فوق مطار اللد من عشر سنين
واختفى ··

كان ما سوف يكونُ
فضحتني السنبلة
ثم اهدتني السنونو
لعيون القتلة

·· شاحبا كالشمس في نيويورك :
من اين يمر القلب ؟ هل في غابة الاسمنت ريش لحمام؟
وبريد فارغ · والفجر لا يلسعُ ·
والنجمة لا تلمع في هذا الزحام ·

ومسائي ضيّقٌ · جسم حبيبي ورقٌ · لا احد حول مسائي
« يتمنى ان يكون النهر والغيمةَ » ·· من اين يمر القلب ؟ مَنْ
يلتقط الحلم الذي يسقط قرب الاوبرا والبنك ؟ شلّالُ دبابيسَ
سيجتاح الملذات التي احلمها ·

لا احلم الآن بشيء
اشتهي ان اشتهي
لا احلم الان بغير الانسجام
اشتهي
او
انتهي
لا · ليس هذا زمني

شاحبا كالشمس في نيويورك
اعطيني ذراعي لاعانقْ
ورياحي لاسير ·

ومن المقهى الى المقهى · اريد اللغة الاخرى
اريد الفرق بين النار والذكرى
اريد الصفة الاولى لاعضائي
واعطيني ذراعي لاعانق
ورياحي لاسير
ومن المقهى الى المقهى

لماذا يهرب الشعر من القلب اذا ما ابتعدت يافا ؟ لماذا تختفي يافا اذا عانقتُها ؟ لا · ليس هذا زمني ·

واريد الصفة الاولى لاعضائي
واعطيني ذراعي لاعانق
ورياحي لاسير

·· واختفى في الشارع الخامس ، او بوابة القطب الشماليّ · ولا اذكر من عينيه الا مدنا تأتي وتمضي · وتلاشى ·· وتلاشى ···

والتقينا بعد عام في مطار القاهرة
قال لي بعد ثلاثين دقيقة :
« ليتني كنت طليقا
في سجون الناصرة »

نام اسبوعا · صحا يومين · لم يذهب مع النيل الى الارياف ·

لم يشرب من القهوة الا لونها
لم ير المصريَّ في مصرَ
ولم يسأل سوى الكتاب عن شكل الصراع الطبقيّ
ثم ناداه السؤال الابديُّ الاغتراب الحجريّ

قلت : من اي نبيٍّ كافرٍ قد جاءَكَ البعدُ النهائيُّ ؟

بكى من كَسَل في نظراتي · هل تغيرتَ ؟
تغيّرتُ · ولم تذهب حياتي
عبثا ·

مال الى النيل وقال : النيل ينسى ؟
قلت : لا ينسى كما كنا نظن
وتذكَّرنا معا ايقاعنا الماضي
وموجاتِ السنونو فوق كف تقرع الحائطَ
والارضَ التي نحملها في دمنا كالحشرات
وتذكرنا معا ايقاعنا الماضي وموتَ الاصدقاءْ
والذين اقتسموا ايامنا ، وانتشروا
لم يحبونا كما كنا نشاء
لم يحبونا ولكن عرفونا ...

كان يهذي عندما يصحو . ويصحو عندما يبكي
ويمشي كخيام في البعيد العربيّ
ذهب العمر هباء
وفقدت الجوهريّ

واختفى قرب غروب النيل
اعددتُ له مرثية اخرى وجنّاز نخيلْ

يا انتحاري المتواصلْ
اوقف العمر لكي نبدأ من اي رحيلْ
وتأجَّجْ كنباتات الجليل
وتوهَّجْ كقتيل

يا انتحاري المتواصل
قف على ناصية الحلم وقاتلْ
فلك الاجراس ما زالت تدقُّ
ولك الساعة ما زالت تدقُّ

وتلاشى مرة اخرى
وخانتني الغصونُ
كان ما سوف يكونُ
فضحتني السنبلة
ثم اهدتني السنونو
لسيوف القتلة

كانت نيويورك في تابوتها الرسمي تدعونا الى تابوتها · في الشارع الخامس حيَّاني · بكى · مال على نافورة الاسمنتِ · لا صفصاف في نيويورك · ابكاني · اعاد الظل للبيت · اختبأنا في الندى · هل مات منا أحَدٌ ؟ كلا · تغيَّرتَ قليلا ؟ لا · هل الرحلة ما زالت هي الرحلة والميناءُ في القلب ؟ · نعم ·

كانَ بعيدا وبعيدا ونهائيَّ الغيابْ
دَخَّنَ الكأسَ ··
تلاشى
كغزالٍ يتلاشى
في مروج تتلاشى في الضبابْ
ورمى سيجارة في كبدي وارتاحَ
لم ينظر الى الساعةِ

لم يسرقْهُ هذا الشجرُ الواقفُ تحت الطابق العاشر في منهاتنَ · ألتفَّ بذكراه ·· تغشَّاه رنينُ الجرس السريّ · مَرَّتْ بين كفينا عصافيرُ عصافيرُ وموتٌ عائليٌّ · ليس هذا زمني · عاد شتاءٌ آخر · ماتتْ نساءُ الخيل في حقل بعيد · قال إنَّ الوقت لا يخرج مني · فتبادلتُ وقلبي مُدُناً تنهار من أوَّل هذا العمر حتى آخر الحلمِ ··

أَنبقى هكذا نمضي الى الخارج في هذا النهار البرتقالي
فلا نلمس الا الداخل الغامضَ ؟

من اين اتيتَ ؟
اخترقتْ عصفورةٌ رمحًا
فقلتُ اكتشفتْ قلبي

انبقى هكذا نمضي الى الداخل في هذا النهار البرتقاليِّ
فلا نلمس الا شرطةَ الميناء ؟

يهذي خارج الذكرى · انا الحامل عبء الارض ، والمنقذ
من هذا الضلال · الفتيات انتعلت روحي وسارت · العصافير
بنت عشا على صوتي وشقَّتْني وطارت في المدى ··

لم يتغيَّر ايُّ شيء
والاغاني شردتني شردتني

ليس هذا زمني ·لا، ليس هذا وطني ·لا ليس هذا بدني ·

كان ما سوف يكونُ
فضحته السنبلة
ثم اهدته السنونو
لرياح القتله ··

تجارب من الارض المحتلة

زراعة النجوم على ارض فلسطين

عبد الجواد صالح

لقد ظهرت واضحة ابعاد واهداف الاحتلال الصهيوني العنصري منذ ايامه السوداء الاولى بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ · وهي بالطبع نفس الابعاد والاهداف لاحتلال عام ١٩٤٨ · على انها اصطدمت بواقع جديد فرضه تواجد اكثرية الجماهير الفلسطينية على ارضها بالرغم من استخدام وسائل كثيرة لتهجير الشعب وحثه على مغادرة ارضه بواسطة مكبرات الصوت التي دارت في شوارع المدن والقرى طالبة من الناس الهجرة ، ومعلنة عن وجود وسائل النقل المجانية تنتظرهم على ابواب المدن المقهورة ، فان الاغلبية فضلت الانزراع في ارضها ·

امام اصرار شعبنا العنيد على التجذر في ضمير ارضه، اتخذت سلطات الاحتلال سياسة مفضوحة في تنفيذ مآربها ، فازالت قرى من الوجود ، ونسفت البيوت على رؤوس اصحابها كما فعلت في قرى عمواس ويالو وبيت نوبا · وبدأت في مصادرة الارض واستملاكها بقوانين جائرة · على ان هذه السياسة بقيت محصورة في بعض المناطق الهامة كالقدس وما يحيط بها · ولكن عندما تم ضرب الثورة الفلسطينية ، في ايلول الاسود ، فتحت الاضواء الخضراء امام اطماع الصهيونية العنصرية ، فبدأت مشاريع الاستيطان التوسعية تأخذ مداها حيثما وجدت الارض الصالحة للزراعة · حتى بيارات الغور التي لم يقتربوا منها عندما كانت مسرحا للعمل الفدائي ، قاموا بمصادرتها وتدمير اكثر من اربعماية محرك لضخ المياه، وتدمير الاف المساكن التي كانت تضم المزارعين بين جدرانها ·

واتخذت الهجمة الصهيونية المسعورة شكلا اخر اخطر من المصادرة القسرية وذلك هو التدمير النفسي والقومي للانسان الفلسطيني عامة ، والجيل الناشيء خاصة · ليس فقط بمحاولة تحييده عن طريق فتح مخيمات الصيف المشتركة بين الشباب والشابات الصهاينة وبين الشباب والشابات العرب ، حيث يحاضر فيهم خبراء في غرس مفاهيم خاطئة ·ولا عن طريق تشجيعهم على العمل في المؤسسات الصهيونية ، حيث الاغراءات المالية فحسب ، بل وفتح مجالات الضياع والانحراف

الجنسي والادمان على المخدرات • لقد نجحت بلدية البيرة ـ مثـلا ـ في منع اي مدرسة من مدارس البيرة من المشاركة في هذه المخيمات ، وذلك باستخدام كـــل وسيلة تحت اليد ، بالاضافة الى الاتصال الشخصي مع المعلمين والمعلمات ، بشكل خاص ، اذ كان مدير التربية وبعض المدراء لا يجدون غضاضة في المشاركة في مثل هذه النشاطات الصيفية •

وجابهت المدينة غزوة من نوع جديد وعلى ارض حديقة بلدية البيرة التي تحتل اكثر من اربعة وعشرين دونما ، تحيطها اشجار الصنوبر والسرو المرتفع ، وتغطي الارض احواضا من الورد جعلها فريدة من نوعها بين الحدائق العامة في كثيـــر من البلاد العربية وغير العربية • ومع ان المجلس البلدي قد قرر عنـد بدءالاحتلال ولمدة سنتين عدم فتحها حتى لا تستقبل المحتلين ، فان الحاجة المادية واستمرار الاحتلال اجبرت المجلس البلدي على اعادة فتحها وتلزيم مقصفها باكثر من ثلاثـة الاف دينار سنويا • وهذا المبلغ يشكل دخلا هاما في ميزانية ظروف الحـــرب بالاضافة الى ان مجلس مدينة البيرة من بين البلديـات القليلة التي رفضت اخـذ اية قروض من سلطات الاحتلال •

لقد اتخذت الصهيونية شكلا منحطا وذلكباباحة ممارسة الجنس المكشوف وامام المواطنين وخاصة الشباب منهم • في اكشاك كانت مخصصة للعائلات ، تغطيهـا شجيرات « الساعة » وهي مدادة تثمر زهرا مستديرا يرشف الصغار عصيرهـا العسلي الذي يتكون في منتصف الزهرة • فامرت البلدية بهدم هذه الاكشاك ، ونشر يافطات ثابتة في ارجاء الحديقة تحرم ارتكاب اية مخالفات مخلة بالاداب •

ولكن ذلك لم يثمر ففي احد ايام صيف مدينة البيرة الجميل ، وهي تعتبر مـــن اجمل واهدأ مصايف فلسطين ، دق جرس التلفون في مكتب رئيس البلدية :

قال المتحدث ، الحقنا الشرطة اعتقلت معظم العاملين في المقصف •

× لماذا ، هل وقع انفجار في الحديقة ام اغتيل احد العملاء •

× لا ابدا ، جاء احد العاملين بالغداء الى بعض الزبائن فوجدهم يمارســون الجنس ، وعندما احتج ، دعوه لممارسة الجنس مع احداهن ، وامام ذلك ضرب الاربعة بالسدر وحمولته فنشبت معركة ، واتصل احدهم بالشرطة ، فجـــاءت سياراتهم واعتقلوا معظم العاملين •

فاغلقت سماعة الهاتف وتوجهت رأسا الى مخفر الشرطة ، وفي الطريـــق تذكرت انني السبب وراء ورطة هؤلاء المساكين ، اذ امرتهـم بمنع هذه المخالفات

ولو بالقوة • وقد قاموا بذلك عدة مرات ولم تحصل اية مضايقات ، ولكن في هذه المرة يظهر ان الزبائن من نوع ممتـاز •

وقابلت قائد الشرطة الصهيوني في غرفته في الطابق العلوي من مخفر شرطـة المدينة ، واثناء صعودي الدرج سمعت صراخ العاملين بعد ان استفردوا بهـم ضربا داخل حجرات المخفر •

× مطلوب يا حضرة القائد وقف الضرب حالا ، والافراج عن كافة العاملين رأسـا •

● لقد اعتدى عمال البلدية على رجال الشرطة وهذا يشكل جريمة تتطلب محاكمتهم عسكريا •

× انهم ليسوا شرطة ، بل يرتدون زيا مدنيا ، وارتكبوا مخالفة بل حماقة في مكان عام ، انها جريمة يعاقب عليهـا القانون •

● السيد رئيس البلدية نسي انه في اسرائيل ، قالهـا هازئا ومبتسمـا ببرود وموجها حديثه الى مساعده •

× بل انهم في البيرة ، ولنا تقاليد يجب ان تراعى •

● السيد رئيس البلدية يعتقد انه ما زال يعيش قبل عـام ١٩٦٧ • ونسي ان المواطن الصهيوني يملك مطلق الحرية في ان يعمل ما يشاء حيثما يشاء (موجها كلامه مرة اخرى لمساعـده) ، ثم التفت الي وقال : حيثما وجد هذا العلم يرفرف (واشار الى العلم الذي يحمل النجمة السداسية ويحتل منتصف طاولته الكبيرة التي ورثها عن قائد المقاطعة الاردني) ، فان القانون الاسرائيلـي هو المعمول به•

× اني ابلغك رسميا بانني ما دمت لا املك الحرية في ادارة شؤون حديقة عامة في حدود البلدية التي ترأسها فانني اقرر اغلاقها ، وساعلن رسميا في الصحـف سبب قراري هذا • وخرجت بدون انتظار الاجابة • ووصلت مكتبي بسرعة لـم ادرك مدتها ، وبينما كنت اطلب من كاتب المدينة دعوة المجلس البلدي لجلسـة طارئة ، وصل كافة العاملين الذين اعتقلوا الى مكتبي •

واستكمالا لمخطط تدمير الانسان العربي في فلسطين المحتلة اتخذوا وسيلة نشر استخدام المخدرات وتشجيعها ، مستخدمين مقهى صغيرا ، في بيت درج لعمارة لم يكتمل بناء طابقها العلوي • وبدأت افواج من النساء تتوافد الـى ذلك المقهى ،

وادرك المجلس البلدي انه لا بد من مؤامرة تنسج خيوطها في هذا المكان ضد شبابنا · وبالفعل تأكد لنا ان شبكة شبه رسمية لتوزيع المخدرات تعمل من هذا المكان الذي يقع بين مدرسة بنات البيرة الثانوية والمدرسة الهاشمية الثانوية للاولاد وقريبة من الكثير من الكراجات حيث يتجمع العمال · كانت مصيدة خطيرة حيث يسهل الايقاع بالقرب · وبعد محاولات فاشلة دامت عدة اشهر ، استخدم المجلس البلدي كافة القنوات الرسمية ، لجانا الى الاتصال مع بعض عناصر الشرطة العرب الشرفاء الذين قبضوا على صاحب المقهى بالجرم المشهود ، وبالضغط على احد القضاة حكم على صاحب المقهى بالسجن ثلاث سنوات واغلاق المقهى · وفوجيء المجلس البلدي بالافراج عنه بعد اقل من ثلاثة اشهر والسماح له باعادة فتح المقهى بأمر من ديان مباشرة ، وقد حرم صاحب المقهى من استقبال الزبائن الصهاينةاو استخدام الحشيش بعد ان انهالت عليه انذارات حركة المقاومة ·

نموذجان من الغزوة على سبيل المثال لا الحصر ، ولكن بدا واضحا ان نتائج الغزوة بدأت نتائجها تظهر في المستشفيات وعند الاطباء الذين لفتوا انظارنا الى ظاهرة ازدياد امراض الزهري وغيرها بين الشباب · ودقت اجراس حرب غير معلنة بين الطرفين ·

ولكن الشعوب تملك اقوى سلاح وجد على هذه المعمورة وهو الانسان · وبدأ البحث عنه ، وخلقه من جديد ، واعادة تكوينه ليقف على ارض صلبة ليتمكن من الصمود امام التحدي الذي يهدد وجوده ومن ثم ينطلق ليحرر ارضه ونفسه ·

وبدون الحديث عن العقبات التي وضعها بعض اعضاء المجلس البلدي ، بعضهم عن جهل ، وعضو معين ، كان في يوم من الايام حزبيا سقط في السجون ، واستمر سقوطه حتى الدور الاسفل اثناء الاحتلال الاسرائيلي ولنطلق عليه اسم ابو حسن · كان ابو حسن هذا يضع العقبات خدمة للاسرائيليين ·

وما زال يعمل حتى الان بوضع العراقيل امام احدى تجارب الارض المحتلة التي نحن في صدد تسجيلها ·

بدأت الحرب من جانبنا ، فدعونا خيرة رجال التربية في معاهد مدينتي البيرة ورام الله وجامعة بيرزيت وبعض سيدات ورجال الجمعيات الخيرية والنوادي الرياضية للاجتماع في مجلس بلدية البيرة · وتحدثنا بشكل عام وخاصة حول ضرورة انشاء معسكرات عمل للطلبة اثناء الاجازة الصيفية لمنع انحراف اجيالنا الصاعدة · وانبرت العقبات امام الفكرة وخاصة بين الذين يحسنون ضغط قوانين التربية الحديثة والقديمة ، ولكنهم يفتقدون الالتزام بقضية شعبهم · وهذا خطأ

وقعنا فيه ، ولم نعد نخطىء فيه مرة ثانية ، اذ لا ضرورة للعمل مع من يكون فتيا على اطلاع واسع ويفتقد الايمان بالعمل من اجل شعبـــه • بل ثبت بالعكس ان امتلاك الايمان بالشعب والعمل من اجله مع معرفة اساسية لمجال اختصاص الخبير اجدى من النوعية الاولى •

وبدأت اثارة التساؤلات من قبل هذه النوعية •

انكم تفترضون وضعا مثاليا عندما تعتقدون ان الطلبة سينضمون الى معسكرات العمل هذه بينما يستطيع الطالب ان يتقاضى ثلاثة دنانير مقابل عمل تافه في احدى المـزارع الصهيونية •

× ويتساءل شخص اخر من نفس العينة ، هل اخذتم موافقة الحاكم العسكري المسبقة لاشتراكنا • وهل خصص المجلس البلدي ميزانية لهذا الغرض •

× ويسأل ابو حسن ، عضو المجلس البلدي ، لماذا لم يدع مدير التربيـــــة والتعليم لحضور هذا الاجتماع !!

× ويتساءل اخر • هل تعتقدون انه يمكن لنا ان نتفرغ طوال الاجازة الصيفية ونحرم انفسنا من عمل سيغطي جزءا كبيرا من نفقات الاولاد والزوجات •

وكان الجواب على كل التساؤلات : نعم ان الانسان (ولم اذكر الفدائي) الذي يضحي بحياته من اجلكم سنجد مثيله بين الطلاب والذي سيكون لديه الاستعداد للانضمام الى معسكر للعمل لخدمة بلده • ثم فان العمل للعناية بابنائنـا وشبابنا لا يحتاج لموافقة اي كان • وبدت ظاهرة في ذلك الاجتماع ان المرأة كانت نسبيـــا اكثر حماسا وتجاوبا من الرجل ، ربما لاثبات وجودها وموقفها النضالـي ضـد الاحتلال • وربما ساعدها في ذلك ان قدرتها وبكارتهـا النضالية لم تمس سابقـا من قبل اجهزة القمع كما حصل بالنسبة للرجل ، وربما نتيجة وضعها الاقتصادي وعدم تحملها مسؤولية العائلة • وربما لهذه الاسباب مجتمعة كان موقف المـرأة الفلسطينية النضالي ضد الاحتلال ايجابيا •

اثناء مشاركة الجميع في وضع برامج معسكرات العمل ، بما فيها النشاطـات الثقافية ، والفلكلورية ، التي تجمع كل ما يحتاجه الشباب لبناء ذاتهم وربطهم بارضهم وقضيتهم ، ثار مدير التربية والتعليم في المنطقة (سياتي الحديث عن دوره كعميل في تجربة قادمة) لعدم دعوته • وحرض الحاكم العسكري الذي لا يحتاج الى مزيد من التحريض • فاستدعى الحاكم العسكري جميع الذين شاركوا في الاجتماع وانذرهم بعدم التعاون مع رئيس البلدية في هذا الشأن وهدد الحاكـــم

العسكري بعض المعلمين والمعلمات الذين وقفوا موقفا صامدا بالابعاد او الاعتقال. وكان لا بد من التوقف عن تنفيذ المشروع مؤقتا لايجاد منفذ جديد للعمل من خلاله .

كان يمكن ان ننفذ المشروع لو شاركنا مدير التربية والتعليم ، واخذنا اذنا مسبقا من الحاكم العسكري . ولكن المشروع في هذه الحالة ، سيصبح تحت سيطرة الحكم العسكري وخبرائه من الصهاينة ، وبالتالي نفقد الغرض من وراء الهدف الذي كنا نهدف اليه . بالاضافة الى ان المجلس البلدي اتخذ سياسة عدم التعاون في كافة المجالات مع سلطات الاحتلال الصهيوني منذ ان وقع عدوان ١٩٦٧ وذلك من منطلق مبدأ ان من سيتعاون مع اية سلطة محتلة لا يحوز على ثقة شعبه.

وكان لا بد من العمل من اجل الانسان العربي الفلسطيني المهدد تحت نير الاحتلال العنصري . وبدأ العمل في اتجاهين مكملين لبعضهما البعض . بدأنا سلسلة محاضرات ولقاءات عن دور المثقف في المجتمع ، انطلاقا من وجهة نظر ملخصها ان المواطن المثقف هو الذي يلتزم بقضايا شعبه ، ويعرف كيف يتعامل مع المشاكل التي تجابهه كفرد وكمجتمع ويعمل على حلها .

ولقد عينا منطقتين في المدينة تشكلان مواقع تعاونية مع الاحتلال العنصري ، احداها جبل الطويل وهو اسم على مسمى لمنطقة مرتفعة تشرف على مدينتي البيرة ، ورام الله وتطل في نفس الوقت على البحر الميت ، وهي منطقة كانت مخصصة لمشروع سياحي ، شقت طرقها وتم تعبيدها في نفس اليوم الذي وقع فيه الاحتلال . وبدأت مطامع السلطات المحتلة تتوجه الى هذا الجبل ، فكانت بين الحين والاخر ، وما زالت ، تعسكر فيه مؤقتا وتضع اجهزة الرادار عليه لارتفاعه. فشرحنا للطلبة والطالبات اهمية المنطقة من الناحية الاستراتيجية، وكيف ان شجرة يزرعها الانسان على هذا الجبل ستصبح جزءا من حياته . وان اي اعتداء عليها وحرمان من زرعها ان يتظلل بظلالها سيتحول الى اعتداء شخصي على حياته . ولقد كان هذا الاستنتاج في محله . وكان واضحا بين الاطفال الذين لم تتعد اعمارهم الست سنوات. فعندما قامت سلطات الاحتلال بانشاء معسكر لها على هذا الجبل، بدأ الاطفال يواجهون هذا التحدي بالعنف . اذ بدأوا بقطع خطوط التلفونات عنهم، وقص الاسلاك الشائكة التي كانت تحيط بالمعسكر ، وكلما كانت سيارات جيش الاحتلال الصهيوني تمر من داخل مدينة البيرة متوجهة للجبل ، كانت تتحول الى اهداف لقالع الاطفال يرمونها بالحجارة .

وقد طلب الحاكم العسكري من المجلس البلدي ايقاف هذه العمليات والا اتخذ اجراءات انتقامية ضد المدينة باسرها . وكان الرد في منتهى البساطة ، انكم تحرمون هؤلاء الاطفال من نعمة الاستمتاع بما زرعوه ، فلو قمنا بمنعهم لضربونا

بالحجارة · والحل الوحيد امامكم اخلاء هذا الجبل ·

ولقد ادى اشتراك الاطفال الى نتيجة ايجابية اخرى ، فاقت كل وسائل التهديد والضرب للاطفال الذين كانوا دوما يشكلون عائقا لزراعة اشجار الزينة حـــول شوارع المدينة ، فلقد كان الاطفال يتلذذون بخلع الاشجار بعد زراعتها من العمال، اما بعد تجربة اشتراكهم الفعال ، وقيامهم بانفسهم بعملية الزراعة وخاصة فـــي حمل ونقل الاشجار من قمة الجبل الى سفوحه ليناولوها للكبار لزراعتها ، لقد كانوا كحيوانات الكنغارو يقفزون بحماس من صخرة الى صخرة ، يحتضنـــون الشجرة بين ايديهم وعلى صدورهم حماية لها · فاصبحوا بعد المشاركة هـــذه، وبذل الجهد ، حراسا امناء على الاشجار في المدينة ·

والمنطقة الثانية التي اخترتها لتكون مسرحا للتفاعل بين الانسان الجديـــد والارض منطقة تقع شمالي المدينة ، وعلى مقربة من قيادة المنطقة الغربية للجيش الاردني ، التي تحولت الى قاعدة صهيونية للتدريب ، فعلى مقربة من هذا المعسكر تقع احدى السهول القليلة في مدينة البيرة الجبلية ، التي كان يحولها العدو الـــى مواقف للسيارات التي كانت تشارك في المسيرة السنوية التي تقيمها السلطـــة المحتلة كوسيلة لتعريف زبائنها على « ارضهم التي حررت » ·

انتقلنا الى الموقع في ثلاث باصات تبرعت بها شركة باصات المدينة ، وكان جميع الطلبة من المدرسة الهاشمية الثانوية ، التي اكتسبت سمعة نضالية مشرفة ، وفي نفس الوقت تميزت عن معظم المدارس الثانوية بنتائجها العلمية وتفوق طلابها · واثناء العمل جاء مراسل البلدية ليخبرنا بان الحاكم العسكري يطلب الينـــا ان نغادر الارض ونكف عن العمل فيها ·

ـ قل له انني لم اجد رئيس البلدية ·

وجاء مرة ثانية وثالثة ونادينا الطلبة ، بينما تابع سائق تراكتور البلدية شـــق الارض التي اصبحت كالصخر نتيجة وقوف السيارات الصهيونية عليها ·

ما رأيكم ، هل نتوقف عن العمل ؟

وصاح الجميع ، لا ، فلنستمر بالعمل ، وليضربوا رؤوسهم بالصخر ·

اذا استمروا ·

ودب الحماس ، وكان التحدي تحول الى طاقة مذهلة · وبعد دقائق جاءت

سيارة جيب عسكرية ، ونزل منها الميجر بنز ، مساعد الحاكم العسكري للمنطقة.

● الحاكم العسكري يطلب اليكم ان تتوقفوا حالا عن العمل في هذه المنطقة .

ـ لا لن نتوقف .

● بل يجب ان تتوقفوا .

ـ لا توجد سلطة على وجه هذه الارض تمنعنا من تشجير ارضنا .

وتجمع الطلاب وشكلوا دائرة ليستمعوا الى النقاش الدائر ، والموقف الذي سيسفر عنه . انسحب الميجر بنز ، وبمجرد ركوبه سيارة الجيب ، صفق الطلاب بشكل عفوي .

وقمنا بعد ذلك بتجربة متقدمة نوعا وهدفا وذلك بانشاء معسكر عمل لحفر اساسات مقر انعاش الاسرة . على ارض تبرع بها مجلس بلدية البيرة ، في وسط المدينة القديمة ، والتي كانت تضم اعشاشا وبيوتا قديمة . قمنا بهدمها بعد التعويض على اصحابها . لقد اخترنا هذا الموقع بالذات ليكون على مقربة من المواطنين المسحوقين الذين يجب ان تهيأ لهم فرص الاستفادة من مشاريع الجمعية المتعددة ، من مكافحة الامية الى فرص التدريب والعمل في الاقسام المهنية المختلفة.

لقد كان المعسكر مختلطا يجمع بين الشباب والشابات من مختلف المهن والنشاطات . كان يضم معلمين ومعلمات ،طلبة وطالبات ، عمالا وعاملات ، كشافة ومرشدات ، مواطنين ومواطنات من البيرة ورام الله ونابلس والقدس . كان الزوار يأتون من مختلف المدن والقرى ليعملوا جنبا الى جنب مع المتطوعين الدائمين . ووصل الامر بمعظم ازواج كافة اعضاء الجمعية للعمل في نهاية كل اسبوع . ولوضع المعسكر الجغرافي في محيط متخلف نوما ما ، حرصنا اشد الحرص على تجنب اي تجاوز او سوء ادب يمكن ان يثير شعور المواطنين من حولنا .

وعندما يمر المواطنون بجانب ورشة العمل ، كان يدور مثل هذا الحوار :

● يعطيهم العافية ، الشباب

ـ الله يعافيكم ، اذا سمحت يا عم باجس ، تعال قليلا .

● تأمر يا اخ

ـ هل تعرف ماذا نعمل ومن اجل ماذا ؟

ـ لا ، لا اعرف هو انا بقرأ البخت !!

● سنبني هنا مقر انعاش الاسرة ، وستجد زوجتك فرصة العمر لمكافحة اميتها وستستطيع غدا ان تقرأ رسالة ولدها المغترب ، وستجد بنتك فرصة العمل المنتج ٠

ـ الله يطول عمركم ويخللينا اياكم ٠

● ولكن لا يكفي هذا ، تعال شاركنا العمل يا عم باجس ؟

ـ ولم لا ، يشمر عن ساعديه ويأخذ قزمة كبيرة ويبدأ بالعمل جنبا الى جنـــب مع الشباب بحماس ٠ ويكتشف العم باجس ان الصبية التي تملأ من ورائه قفتها بما حفره جاره ، قادرة على المشاركة ٠

ويصيح العم باجس ٠

ـ والله انها قادرة « تلحق علي » وتمر بنته الصبية ، فينادي عليها ٠

ولك يا فاطمة اعملي ابريق شاي وهاتيه لهنشاما ، وتأتيه بابريق الشاي ، ثم يطلب منها ان تعمل مع الشباب ٠

وفي المساء ، يلتف الجميع حول النار ، وتبدأ تمثيلية قصيرة تتحدث عن الارض، تتخللها اناشيد عن الفلاح ، تحث الشباب للرجوع الى الارض ليعيدوا الربيع على ارض فلسطين ٠ وعلى هدير الصوت وعلى ضوء النار يتجمع الاهالي رجـــالا ونساء واطفالا ويشترك الجميع في ترديد اغاني الارض المحتلة :

هات السكة وعد المنجل / اوعى في يوم عن ارضك ترحل / شجرات بلادي عم تدبل / وشبابنا قاعدة مرتاحة / والخضر عنشجري بيرحل / م الهجرة عيونو نواحة / الحجل بييجي ع البيدر / ما بيلاقي لولادو قمحة / والارض ان عطشت يا بوسالم / بتنادي الغربا تفلحها / قوم يا محمد واسقي الزرع / ازرع واجمع عيد المجد / احصد زرعك واجمع قمحك / وصحي فـــارس ويونس وسعـــد ٠

بابوري رايح رايح / بابوري جاي / صامد على ارضي وفوقـي سماي / صامد على ارضي ٠٠ وارض ابوي / واهبها دمي ٠٠ ودم اخـــوي مهما / الزمان يلف ويدور / بتظلي ارضي وفوقي سماي / نذرن علي لازرع برقوق / واخلي شعبي يصحي ويفوق / واقول لفارس صحي مرزوق / يسهر علـــى ارضه ويرويها مي / جبالك وديانك عهد علي / ازرعها ورود واكسيها في /

والشمس ان غابت خد نور عيني / واوعى يا ترابي تزعل علي / ارضـــي لازرعها ، ازرعها زتون / وخلي كل شي صعب يهون / انا بهواها يانـــاس مفتـــون ٠

ثم يدور بعد ذلك نقاش حول عدة مواضيع ، ويشترك المتفرجون في النقاش ، وتسأل ام صلاح ، كيف تجمعون بين الرجال والنساء في عمل واحد ، اليس هـذا ضد تقاليدنا ؟!

منذ متى اصبح لعمل المشترك ضد تقاليدنا ٠ المرأة في الربوع الفلسطينيـــة تعمل جنبا الى جنب مع الرجل وهي دوما « مشتلة » تحفر بفأسها ، وتبذر الحـب الطيب ، وتحصد ما زرعته يداها ، ومن ثم تبيعه بنفسها في الاسواق العامة حيث يتواجد الرجال بكثرة ٠ اننا عندما تركنا العمل في الحقل ، والعمـــل المشترك ، استطاع الغزاة احتلال ارضنا ٠ وتقتنع ام صلاح ، وتنهي نقاشها بالله معاكم ٠

وتمتد السهرة ، وبامتدادها تزداد الرابطة وثوقا بين المتطوعين والرجـال والمتطوعات والنساء وتتكرر التجربة ، ويزداد اصدقاء المعسكر ، واثره في المنطقة، وتتحدث المدينة عن التجربة ٠ ويجن جنون معسكر الاعداء والعملاء ٠ فيتطوع رئيس بلدية سابق لاثارة المواطنين ضد الفكرة وضد المشروع ، ويفاجأ برأيوأضح من اولئك المزارعين البسطاء الذين بدأوا يشاركون يوميا في العمل ، وفي النقاش الذي يدور مساء ٠

ثم حفر الاساس الضخم لبناء جمعية انعاش الاسرة وبانتهائه بدأت ملامـــح درب العمل التطوعي في المدينة والذي انتشر فيما بعد ليشمل كل الضفة الغربية، بدأت ملامح درب هذا العمل تتبلور ، وفوائده تثمر لا على المجتمع فحسب بل وعلى الانسان نفسه ٠ واروع ما في الامر ان الدافع الجديد لم يبن برفعالشعارات بل باطلاق عجلة العمل الجماهيري الخلاق ٠

لقد خرجنا من هذه التجارب المتناثرة بحصيلة غنية من العبر ، واهم من ذلـك بعدد غير قليل من الشباب والشابات من عمال ومثقفين وطلاب ٠ ممن يستطيعون قيادة العمل التطوعي وتنميته وتطويره ٠ لقد اصبحت الصورة واضحة في اذهاننا ونضج الهدف في تصوراتنا ٠ ولذلك رأينا انه لا بد من العمل لتحويله الى نشـاط دائم ، ففي استمراريته ضمان لتجذيره ونجاحه في تحقيق اهدافه ٠ لم نعد نقتنـع فقط بدرء الخطر عن شبابنا وشاباتنا ، بل ازدادت طموحاتنا في ان نخلق حركة للشباب تعمل على بناء الطلائع القيادية من ابنائنا لتسليمهم القدرة والكفـــاءة لخوض معركة وجودهم وتحررهم ضد العدو الصهيوني العنصري ٠

بعد اختمار الفكرة ، رأينا انه لا بد من عملية اخراج جديدة تختلف في اسلوب

تنفيذها عن التجربة التي فشلت نتيجة الدعوة الموسعة للخبراء والفنيين من رجال التربية والتعليم في المنطقة · وابتدعنا حيلة ثبت نجاحها · فقمنا بدعوة الصفوة من الذين برزوا في اختبارات الشهور الاخيرة لاجتماع في المجلس البلدي ·وتحدثنا طويلا حول المشروع وكيفية تنفيذه ·واتفقنا على ان ينضم الجميع كاعضاء فيمكتبة بلدية البيرة ، ويقيمون مدرسة ليلية لتقوية ومساعدة طلبة وطالبات التوجيهية والاعدادية ، وتمت نفس الخطوة في مكتبة بلدية رام الله · وكان الطلبة يحجون الى المكتبتين العامتين في المدينتين ليجدوا خيرة الاساتذة في مختلف المواضيع يقدمون لهم العون المجاني · وسارت التجربة بنجاح · وانطلق العمل التطوعيمن المكتبات ، ورأينا من المناسب ان نقوم باعمال مركزة في المدينتين حتى يشعر المواطن العادي ، والمجلس البلدي ، باهمية هذا العمل وجدواه ويلمس نتائجه الايجابية حتى يصعب ضربه او توقيفه · فأخذنا على عاتقنا تنظيف سوق الخضار في مدينة البيرة وتنظيفه بعملية القش بالماء والصابون ·

ولقد اعطى العمل في هذه المنطقة دعاية ضخمة للعمل التطوعي في كافة قرى المنطقة وبدأ الحاكم العسكري يتطلع اليه بخوف · وبدأ بارسال دورياته لتحيط بالعاملين لارهابهم وكنا نتجاهلهم ، ونعمل ونحن ننشد اناشيد الارض والحرية التي بدأت تنطلق من شعراء الارض المحتلة · ولجأ العدو الى اسلوب استدعاء الاعضاء والتحقيق معهم ولكن احدا لم تخيفه هذه التهديدات ·

وامتد نشاط فريق العمل التطوعي الى القرى المجاورة ومخيمات النازحين· وفي المخيمات ساهمنا ايجابيا في محاولة القضاء على روح التواكل التي حاولت غرسها وكالة غوث اللاجئين· وكنا ونحن نساعدهم على تعبيد ورصف طرقات المخيم نقنعهم بمشاركتنا · وتمت مشاركة الجميع رجالا ونساء من سكان المخيمات ·

لقد برزت لنا نتائج ايجابية لم نكن نحلم او نفكر اننا سنحققها من خلال العمل التطوعي بين مختلف فئات شعبنا · وهذا باعتقادي ميزة وقيمة العمل الثوري عن التحشيش الفكري · ان الارتباط العملي بالجماهير ، والعمل من اجلها وبينها مدرسة تتيح فرص التعليم اكثر بكثير من اهم الجامعات في العالم · وقد استفدنا من تجربة التعلم من الجماهير ، من العمال والفلاحين والبسطاء من شعبنا · ما لم نستفده من بطون الكتب · وجلسات التقييم التي كنا نعقدها بين الجماهير، ونناقش فيها انفسنا ونقيم عملنا ، ونتبادل الاراء مع هذه الجماهير معين لاينضب من الايجابيات في دعم تحركنا · وهذا ميزة العمل الثوري الذي يفجر طاقات الانسان وجماهير الثورة بشكل لا يستطيع ان يتنبأ به انسان مهما بلغت ثوريته·

وكنا نطرح في مثل هذه الجلسات ، التي كانت تعقد اما في بيت من بيوت المخيم

او في احد الازقة الضيقة التي كنا نعمل فيها ، ويدور حوار حول خطورة العمل في مؤسسات العدو · ويجري الحوار بعيدا عن صيغة الخطابة وبهذه الطريقة :

● اين تعمل يا ابو محمد

– في مزرعة احدى المستعمرات الصهيونية ·

وبالتالي فانه يمكن للعدو من تجنيد صهيوني على الجبهة · يعلق اخر من الفريق ويتساءل اخر ·

– وكيف ؟

● يجيب ثالث ، طبعا لو ان ابا محمد لم يعمل في هذه المزرعة ، عليهم ان يدبروا صهيونيا ليعمل فيها بدلا من ابي محمد وبالتالي فانهم سيضطرون الى سحب مجند من الجبهة ؟

– ولكنني اريد ان اعيش ، يرد العامل ، ان اليوم الذي لا نعمل فيه فاننا ننام بدون عشاء ·

● ولكن يا اخ ابا محمد ، انك تعمل مع العدو ، ومعنى ذلك انك اليوم تعطيه القوة ليقتلك غدا ، ويدمر بيتك ، انك تستطيع ان تعمل في مؤسساتنا · تعلق احدى المتطوعات ·

– هل سمعتم قبل مدة ان جماعة ملثمة ومسلحة قد اوقفت باص ايجد قرب قرية صفا واحرقته ثم انذرت العمال بعدم العمل في المؤسسات الصهيونية والا اتخذت اقسى الاجراءات ضدهم ، يتدخل اخر ويقولها بمكر ودهاء ·

ويطول النقاش ولكنه يؤتي ثماره ، فكنا نسمع بعض العمال يقسمون بالحرام من زوجاتهم ان هم ذهبوا مرة اخرى للعمل في مزارع العدو او مصانعه ·

لقد كان امتداد نشاط فريق العمل التطوعي بعد مرحلة اثبات وجوده وراء تلبية حاجات الجماهير ومتطلبات المصلحة الوطنية · ولقد شعرنا جميعا ان الفلاح الفلسطيني مهدد بالفناء ، فلقد وقع في فخ المصيدة الصهيونية في اجتثاثه من ارضه، ليسهل عليها ترحيله من وطنه ، وذلك بفتح المجال له بالعمل المأجور المغري ،الذي يفوق انتاج ارضه · حتى الفلاح الذي صمد في وجه هذا الاغراء ، لم يعد لديه القدرة للصمود امام المنافسة الصهيونية التي تدير المزارع على اسس حديثة ، وتقوم الدولة بدعمه بشتى وسائل الدعم واهمها شراء انتاجه بسعر معين بغض النظر عن حاجة السوق · وعليه فقد اتخذ قرار بمد يد العون الى الفلاح ·وبدأت حملات قطف الزيتون والمشاركة في الحصاد ·لقد شعر الفلاحون في المناطق انهم اذا

ما صمدوا في ارضهم فلا بد من الايدي الخيرة ان تمتد للمشاركة معهم في تحمـــل هذا العبء ، ولقد تعرفنا في عملنا في القرى على اعماق حياة الفلاح وحياة الشقاء التي يعيشها • مما اثار شعورا في المسؤولية تجاه ضرورة تغيير بيئة المجتمـــع الاقتصادية لمصلحة هؤلاء المسحوقين • وفتح لنا العمل افاقا واسعة ، في التعرف على هؤلاء البسطاء ودورهم التاريخي في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ وعلى مواقـــع هذه الثورة •

لقد كنا نشتهي ان نجد في المكتبة من الرواد ما يزيد عن اصابع اليد الواحدة ولكنها اصبحت خلية نحل ، زاد روادها عن زبائن سوق الخضار • لقد اضطررنا لضيقها ان نخصص اياما محددة للاطفال • وفي احدى الامسيات الثقافيـــة دار الحوار التالي مع عامل بلاط يحمل شهادة التوجيهية :

● اليست مصيبة ان تكون رفوف مكتبة البلدية مليئة بالكتب الصفراء ،وخاصة تلك التي تبث الدعاية الامريكية المسمومة • ان ذلك يحتاج الى توضيح •

ـ ربما نسيت اننا افتتحنا المكتبة بتاريخ ٢٨ـ٥ـ٦٧ وبميزانية لا تتعـــدى خمسماية دينار كان علينا ان ندفع منها معاش امين المكتبة ، واجرة مقرها • ولا ننسى انه بعد اقل من سبوع وقعت الهزيمة • كما يجب ان نعلم ان معظم هـــذه الكتب شحدتها من مواطنين !!

● ولكن هذا لا يبرر بقاء هذه الكتب •

ـ ما هـــو المطلوب •

● حرق هذه الكتب وازالتها حالا من على الرفوف •

وتحققت اول ثورة ثقافية ، واحرقت كل الكتب التي لا تخدم قضية شعبنا او التي تسيء الى اصدقائنا ، واعيد تنظيم المكتبة ، واصبح فريق العمل التطوعـــي ليس مسؤولا عن شراء الكتب بنفسه فحسب بل وعن تصنيفها وتنظيمهـــا وحتـــى تنظيف المكتبة • ونتيجة حفظهم تضاعفت ميزانية المكتبة اكثر من اربعة اضعاف • وادخلت الموسيقى الكلاسيكية فيها ، ووسائل الطباعة الاساسية لنشر المقالات التي كانت موضوع البحث الاسبوعي لفريق العمل التطوعي والتي كانت توزع علـــى اعضاء الفريق قبل ايام لمناقشتها • لقد تحولت المكتبة الى نموذج ثوري فريد ، ونتيجة لذلك تضاعف عدد المشتركين فيها حتى اصبحت تضاهي اقدم المكتبـــات العامة في فلسطين المحتلة اذا صحت المقارنة •

وكان لا بد من ان يتخذ فريق العمل التطوعي لنفسه اسلوبا عمليا للقضاء على كل امراضنا المسؤولة عن تأخرنا وهزيمتنا ، فالقيادة الجماعية اصبحت تقليدا لا يمس ٠

فقرار العمل ومكانه ونوعيته يجب ان يتخذ في الاجتماع الاسبوعي العام الذي كان يضم جميع الاعضاء ، والعمل اليدوي كان وسيلة للقضاء على الشخصية الفهلوية ٠ ان بناء غرفة في مدرسة قرية كدير كان امتحانا شاقا لكل الاعضاء ٠ ان اتخاذ قرار ما سهل جدا ولا يتعب احدا ، اما تنفيذه عمليا فهو الصعب ٠ وتعلمنا جميعا انه عندما نتخذ قرارا ما ، علينا ان ننفذه ٠ لم يعد هناك شيء اسمه المستحيل ، ولكن في نفس الوقت كان القرار يدرس من كافة جوانبه ، والظروف الموضوعية لتحقيقه ، والاستعداد الذاتي للفريق ٠ اما بناء الطلائع القيادية ،وهو هدف رئيسي من اهداف العمل التطوعي ، فكان وسيلة تحقيقه بالاضافة الى البناء الثقافي للافراد ، يتخذ شكل وضع المسؤولية على عضو من الاعضاء في ادارة الجلسات ، وقيادة الفريق في احدى مهماته او نشاطاته ، وكنا باستمرار نحاول تقييم هذه القيادة مع ذكر سلبياتها وايجابياتها ، بالنقد والنقد الذاتي ، نحاول ان نصل الى الوضع الامثل ٠ ان من يستطيع ان يقود فريقا لحصاد حقل من القمح وتنظيم العملية يستطيع في المستقبل ان يقود فصيلا في معركة التحرير ٠ والعمل وحده هو المقياس العملي للحكم على العضو وعلى القائد على حد سواء ، وليست اية معايير تقليدية ٠ هذه بعض الشعارات التي لا مجال لتبنيها الا اذا طبقت عمليا ٠

لقد اصبح العمل التطوعي جزءا لا يتجزأ من حياة مدينتي البيرة ورام الله ومعاهدهما العلمية ٠ فأصبح من ضمن متطلبات التخرج من جامعة بيرزيت ودار المعلمين ومعهد المعلمات ومركز التدريب المهني ولا يمكن لطالب ان يتخرج الا اذا قام بعمل ساعات معينة ومحددة من ضمن المنهاج ٠ وانتشرت لجان العمل التطوعي في كثير من القرى ٠ وقد ادى ذلك الى اجتذاب عدد كبير من الشباب والشابات في المدن الاخرى للعمل مع فريق العمل التطوعي لكسب الخبرة والالمام بالتجربة عن قرب ٠ فزادت طموحات الفريق التطوعي في مدينتي البيرة ورام الله للقيام بأيام عمل في كافة مدن الارض المحتلة ، كالقيام بتنظيف شوارع هذه المدن او الاماكن العامة فيها ٠ ومن خلال هذه النشاطات شكلت لجان عمل تطوعية من جنين شمالا حتى الخليل جنوبا ، ولا يهدأ بال لهؤلاء الشباب حتى تنتقل التجربة الى القطاع والارض الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨ ٠

مع انتشار العمل التطوعي وازدياد الدعم له تنوعت نشاطات العمل التطوعي، وكان اخرها وابرزها بادرة الالتفات نحو من فقدوا نعمة البصر من ابنائنا ٠ فقام

الفريق بتسجيل الكتب لمكتبة المكفوفين في بيت حيفا فلقد وجد بعض اعضاء الفريق ان مكتبة المكفوفين لا تحوى الا على كتب من نمط واحد يفقد هؤلاء المكفوفين الاطلاع على مجريات الفكر الحديث • فحول الفريق اشرطه التسجيل الى كتب ناطقة تشكل جزأ هاما من مكتبة المكفوفين •

ويظهر ان السلطات المحتلة بدأت تشعر بخطورة هذه الاعمال ، ففي احدى المناسبات قام الحاكم العسكري للمنطقة باقتحام مكتبة بلدية البيرة بينما كان الجميع يستمعون ويناقشون بحثا عن الصهيونية • وبالرغم من تواجده فوق رؤوسهم استمر النقاش عن الحركة العنصرية النازية الجديدة مما اثار نقمة السلطات ، فزادوا من عمليات استدعاء الاعضاء والتحقيق معهم • ولجأوا الى اسلوبين اخرين في محاولة ضرب العمل التطوعي وشله ومن ثم القضاء عليه •

اولها ، دور رئيس مجلس الامناء الجديد الذي بدأ بحملة ارهاب ثقافية على اللجنة • اذ قام بالاشتراط على فريق العمل التطوعي ان لا يقيم امسية ثقافية او بحثا في موضوع قبل عرضه على مجلس بلدية البيرة وحدد عدد المشتركين في اية امسية ثقافية بما لا يزيد عن عشرة اشخاص وكأنه يطلب منهم وقف هذه الامسيات ، وبالفعل كان ذلك •

ثانيها ، قامت حملة من الفئات المتعصبة دينيا وخاصة من نقابات حزب التحرير والاخوان المسلمين الذين لم يكن لهم دور طوال فترة الاحتلال الا انتقاد الثورة والكفاح المسلح • ومن بينهم احد اعضاء هيئة التفتيش في مديرية التربية والتعليم. الذي لا يمكن ان يتفوه بكلمة الا بالاشارة من مدير التربية والتعليم المعروف بولائه لسلطات الاحتلال • فقام هؤلاء بحملة تحريض ضد العمل التطوعي ، مدعين ان الجمع بين الجنسين خطر على الاخلاق • بينما هؤلاء لم ينطقوا بكلمة واحدة ضد عمل المرأة في بعض المناطق في المؤسسات الصناعية والزراعية وما يترتب على ذلك من اثار اجتماعية •

والتجأ فريق العمل التطوعي الى قلعة وطنية اخرى ، الى مكتبة بلدية رام الله ، التي يقف رئيسها اليوم الى جانب الجماهير في الارض المحتلة ليرعى هذا العمل الجبار •

وستستمر تجربة العمل التطوعي بالرغم من كل الصعوبات ، وبالرغم من الاحتلال وزبانيته •

ستستمر المسيرة بالرغم من سقوط ماهر شهيدا وبالرغم من سقوط ياسين شهيدا •

وبالرغم من اعتقال زكريا سنة برسم التعذيب في اقبية النازية الجديدة ٠

وبالرغم من طرد المعلمة فلور جاك لحام من عملها ٠

وبالرغم من الارهاب والتحقيقات المستمرة مع كل اعضاء الفريق التطوعي ٠

وبالرغم من كل ما يفعله العدو لوقف مسيرة العمل التطوعي فستستمر المسيرة لانهم نجحوا في زراعة النجوم على ارض فلسطين ، وكلما سقط نجم ، كلما تضاعف عدد النجوم على ارض فلسطين ، كلما زاد نورها لتضيء درب التحرير٠

مقدمات نظرية حول مسألة تحرر المرأة

غازي الخليلي

« ان الراي الزاعم ان المراة كانت عبدة للرجل في بداية تطور المجتمع هو من اسخف الآراء التي تركها لنا عصر الانوار في القرن الثامن عشر »

« انجلـــز »

[١]

تعتبر* مسألة تحرر المرأة من اهم المسائل في حياة المجتمعات الحديثة،ويتوقف مدىتحرر وتقدم اي مجتمع ، على الكيفية التي تحل بها هذه المسألة ، فكلما نالت المرأة المزيد مـــن حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما قطع المجتمع شوطا اكبر في طريق تحرره وتقدمه ، وكلما اعاق المجتمع نيل المرأة لحقوقها وابقاها اسيرة اغلال المجتمع القديم ، كلما اخر واعاق عملية تحرره وتقدمه · «فتحرر اي مجتمع يقاس بمدى تحرر المرأة فيه» و«توسيع حريات النساء هو المبدأ العام لكل تقدم اجتماعي » (١) ذلك ان تطور المجتمعات الحديثة وما يفرضه هذا التطور من ضرورة تشغيل كل القوى المنتجة في المجتمع، لم يعد تيلاءم والواقع المزري الذي تعيشه المرأة منذ الاف السنين ، قوة غير منتجة ، يبلد العمل المنزلي حسهـــا ويقتل ذكاءها ، تعيش حبيسة بين جدران اربعة ، تابعة وملحقة بالرجل ، لا تعدو كونها اداة بيده يمارس عليها اضطهاده ، ولعبة يلهو بها لاشباع نزواته ·

وعلى الرغم من الحقوق السياسية وغيرها ، التي نالتها المرأة مع بداية القرن الحالـي في العديد من بلدان العالم ، وبشكل خاص في البلدان الاشتراكية ، حيث نالت الكثير مـــن حقوقها وفتحت امامها مجالات العمل المختلفة (٢) ، فانها لا تزال في معظم البلدان وبشكل خاص في البلدان الرأسمالية والبلدان النامية ، كائنا تابعا لا يملك غير حريات جزئية وتحتل مكانة ادنى بكثير من مكانة الرجل وذلك لاسباب كثيرة ، منها : ان مسألة تحرر المرأة لا يمكن ان تصل الى مداها الكامل الا في مجتمع اشتراكي متطور ، وما نالته المرأة من حريـــات في المجتمعات الرأسمالية ، تظل حريات ناقصة في مجتمع لا يقوم الا على الاستغلال · فالمرأة في المجتمعات الرأسمالية تحولت الى سلعة في سوق العمل الرأسمالي ، والى مظهر من مظاهر العهر البورجوازي الذي تعيشه هذه المجتمعات ولا تزال مجرد ذلك الجسد الذي يستغل في الخدمة بالبيت او يستغل خارج البيت في الاتجار بالجنس · ومنها ، ان تحرر اي مجتمع من التقاليد والافكار القديمة عملية صعبة ومعقدة وتحتاج الى زمن طويل ، ولا سيما فيما يتعلق بالمرأة · ذلك ان « المجتمع القديم يترك اثاره في المجتمع الجديـــد على صعيـــد

★ هذا هو الفصل الاول من كتاب «المرأة الفلسطينية والثورة» الذي سيصدر قريبـــا عن مركز الابحـــاث ·

الايديولوجيا والحياة اليومية ، حتى بعد حقبة طويلة من تقويض الاسس الاقتصادية والسياسية لذلك المجتمع · ولا تتجلى آثار المجتمع القديم كما تتجلى في مجال الموقف من المرأة وتحريرها من التبعية الاقتصادية للرجل بأن تصبح عضوا منتجا في المجتمع ، فالشرط بالبنى التقليدية لهذه المجتمعات فقط ، ولكن ايضا ، والى درجة كبيرة ، بفعل عدم توفر السلطة السياسية الثورية التي تؤمن بهذه المسألة وبمركزيتها في النضال من اجل بناء المجتمع الجديد · ان مسألة تحرر المرأة لا يمكن ان تجد طريقها الى الحل باصدار بعض القوانين او التشريعات التي تنص على مساواة المرأة بالرجل في هذا المجال او ذاك ، دون النضال الحازم والجاد من قبل المجتمع ضد كل المعيقات التي تحول دون المرأة وممارستها لابسط حقوقها · فاصدار المراسيم والتشريعات والوقوف عندها دون النضال الجاد والحازم لوضعها موضع التطبيق الفعلي قد يوفر للمرأة بعض الحريات الجزئية ـ على الصعيد القانوني ـ لن يستفيد منه في احسن الاحوال الا عدد ضئيل جدا من النساء ، الا ان هذه الحريات الجزئية لن تحررها من ربقة التقاليد والعادات السائدة ، التي تكبلها وتجعلها خاضعة للرجل وملحقة به · فالمساواة بين الرجل والمرأة لا تتم الا باعتراف المجتمع بمساواتها بالرجل وبحقها في التمتع بكل الحريات التي يتمتع بها الرجل ، واتاحة الفرصة امامها لان تتحمل مسؤوليات مماثلة ، والاعتراف باستقلالها الذاتي عن الرجل سواء كان ذلك الرجل هو الاب او الزوج ·

وكمقدمة ضرورية للوصول الى مساواة كاملة لا بد من الغاء الاسس الاقتصادية لاضطهاد المرأة وتحريرها من التعبية الاقتصادية للرجل بأن تصبح عضوا منتجا في المجتمع ، فالشرط الاول لتحرر المرأة هو عودة جنس النساء بكليته الى الانتاج الاجتماعي (٤) ، و « لن يصبح تحرر المرأة ممكنا الا متى استطاعت ان تشارك على نطاق اجتماعي كبير في الانتاج ، ومتى اصبح العمل البيتي لا يأخذ من وقتها الا قدرا ضئيلا » (٥) ·

ما المقصود بتحرر المرأة ؟

ان الكثيرين يتصورون ان المطالبة بتحرر المرأة هو دعوة للاباحة الجنسية ، هو دعوة لان تتصرف المرأة بجسدها كما تشاء ، دون ضابط او منظم للعلاقات الجنسية في المجتمع · ولذا فان الكثيرين ، انطلاقا من هذا التصور الخاطىء والمغلوط ، يعارضون بشدة تحرر المرأة ، ويعتقدون ان المرأة يجب ان تبقى حبيسة الجدران الاربعة ، امية ، جاهلة ، مبلدة الذهن والحواس ، خاضعة لسيطرة الرجل وتحت مراقبته ، لا تمارس حريتها ـ وان نص عليها القانون ـ الا في الحدود التي يسمح بها هو نفسه ـ الرجل ـ ، وذلك حتى لا تقع في مهاوي الرذيلة ، وحتى لا تجلب العار الى الاسرة · وقد لعب هذا الاعتقاد الخاطىء دورا كبيرا في معارضة دعوة بعض المصلحين في البلدان العربية لسفور المرأة وتعليمها · فووجهت كتابات قاسم امين ورفاعة رافع الطهطاوي (٦) ، الداعية لسفور المرأة وتعليمها المبادىء الاولية في القراءة والكتابة وبعض العلوم ، بعداء شديد في العالم العربي ، واتهم قاسم امين حينها بالفجور والخروج على تعاليم الدين · ولكن كما نرى فان افكار قاسم امين الاصلاحية انتصرت في النهاية ، فالحجاب لم يعد عنوانا للفضيلة كما كان سابقا ، ومعظم الاسر تصر على تعليم بناتها ، والكثير من الاسر ترفض زواج البنت قبل ان تكمل تعليمها ، وتصبح قادرة على اعالة نفسها بنفسها · كذلك فان نزع الحجاب وتعليم الفتيات لم يؤديا الى انتشار

الرذيلة كما كان يدعي الكثيرون من رجال دين رجعيين وغيرهم ★ · فالفتاة لا تتعلم حتى تصبح قادرة على « مكاتبة عشيقها » كما كان يدعي المعارضون لتعليم البنات ·★★ بل نرى ان الفتاة المتعلمة والمثقفة اصبحت اكثر ثقة بنفسها ، واقدر على ان تحول دون استغلالها من قبل الرجل · ولكن هل يقتصر تحرر المرأة على مجرد نزع الحجاب والتعليم وكفى ؟ ان نزع الحجاب والتعليم يشكلان مقدمة ضرورية لاخراج المرأة من العزلة المفروضة عليها ، يشكلان البداية او الخطوة الاولى في مسيرة طويلة شاقة وصعبة ، يجب على المجتمع قطعها حتى يصل الى مرحلة متقدمة في حل مسألة تحرر المرأة · ذلك ان مسألة تحرر المرأة مسألة اشمل واكبر بكثير من نزع الحجاب والتعليم · انها بالاساس مسألة انهاء اضطهاد الرجل للمرأة ، وجعل المرأة عضوا منتجا في المجتمع ، لها شخصيتها المستقلة . ولها كيانها الخاص المستقل ، مثلها مثل الرجل · تتمتع بكافة الحقوق التي يتمتع بها ، وتقوم بكافة الواجبات التي يقوم بها · وبدون ذلك يبقى اي حديث عن تحرر المرأة حديثا يدور في حلقة مفرغة ، ويبقى اي توجه نحو تحررها ، توجها يصطدم بعقبات ومعيقات كثيرة· وهذا يقودنا الى البحث في اسباب اضطهاد الرجل للمرأة ، في الاسباب التي ادت الى عبودية المرأة ·

اضطهاد الرجل للمرأة كيف نشا وبفعل اي عوامل ؟

هل صحيح ان المرأة خلقت ضعيفة وبعقل ناقص حتى تكون خاضعة للرجل وتحت سيطرته؟ وهل صحيح ان المرأة اقل ذكاء من الرجل ، وبالتالي فانها يجب ان تكون دون الرجل منزله ؟ قال شوبنهاور « ان المرأة لا تصلح الا لحفظ النسل وتدوير الساعة وغسل الصحون » وقال نيتشه « لقد خلق الرجل للحرب والقتال ، واما المرأة، فانه ليس ثمة لديها شيء سوى الحب والطفل ·· وتبعا لذلك فان سعادة الرجل هي ـ انا اريد ـ واما سعادة المرأة فهي ـ هو يريد ـ » ·

وقال جان جاك روسو « ان الرجل فطر بالطبيعة للحياة الخارجية ، بينما المرأة مكانها داخل الاسرة ، المرأة بالتعريف هي جزء من الطبيعة ، والمفروض في تربيتها ان تعهدها لكي تكون السند المعنوي للرجل وخادمته من دون ان تكون لها ارادة خاصة بها »·

ان هذه الاقوال وكثير غيرها وعلى شاكلتها ، تقوم على اساس التمييز بين الرجل والمرأة ، وعلى اساس ان المرأة اقل منزلة من الرجل ، وبالتالي يجب ان تكون خاضعة له ·

★ تذكر نوال سعداوي في كتابها «المرأة والجنس ، طبعة ثانية ص ١٠١» ان الاحصاءات والبحوث اثبتت وجود تناسب عكسي بين عدد المشتغلين بالدعارة في مجتمع ما ، وبين تحرر النساء في هذا المجتمع ·

★★ يذكر قاسم امين في كتابه «تحرر المرأة ص ٧٢» ان الفكرة التي كانت سائدة في مجتمعاتنا حول تعليم الفتاة هي ان المرأة التي تعرف القراءة والكتابة تحيد عن الطريق المستقيم وتخاطب حبيبها بالرسائل الغرامية · في حين يؤكد امين العكس ويقول : ان المرأة التي تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة وغير المتعلمة · المصدر نفسه · ص ١٠١ و ١٠٢ ·

وهي تعبير عن الفكر السائد والذي يقوم على اساس اضطهاد المرأة والنظر اليها نظرة دونية★ وتتفق هذه الاقوال مع كثير من التقاليد التي كانت سائدة في المجتمعات القديمة ، ففي الصين القديمة مثلا ، كانت افكار كونفوشيوس عن المرأة هي السائدة ، وهي افكار ترسم صورة دونية جدا للمرأة ، وتفرض عليها ان تكون غبية وجاهلة · فكونفوشيوس يرى ان المرأة الموهوبة ليست امرأة فاضلة · ويقول مثل صيني قديم « الغباء هو فضيلة النساء اليتيمة » · ونجد امثالا مشابهة لهذه الامثال او الاقوال لدى كل المجتمعات القديمة · فالمرأة هي مصدر الشرور كما قال فيثاغورس ، حيث ميز « بين مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور **والرجل** ، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات **والمرأة**» ، واعتبر ارسطو ان «الانثى انثى بسبب نقص معين لديها في الصفات» وجاء في سفر الجامعة « لقد وجدت المرأة اشد مرارة من الموت » وقال يوحنافم الذهب « ليس هناك بيسن كل وحوش الارض المفترسة من هو اشد اذى وضررا من المرأة » ويقول مثل ايطالي « المرأة عاقلة حين لا تفكر، غبية حين تفكر » وفي الامثال الروسية جاء « ليس فرخ الدجاجة طيرا ، وليست الفلاحة كائنا انسانيا » و « اضربوا نساءكم ظهرة وعشية » و « ليست المرأة جرة ، ولن تتحطم اذا لطمتها بين الحين والآخر » وتذكر شيلا روبتهام حول حياة المرأة في روسيا قبل الثورة فتقول « جرت العادة ان يقوم والد العروس بتسليم الزوج الشاب سوطا جديدا حتى يمكن استخدامه في ممارسة سلطانه وفرض هيبته اذا حلا له الامر ، وكان السوط الذي يعلق فوق الفراش الزوجي يرمز الى انتقال السلطة من والد الفتاة الى بعلها » (٧) · ان هذه الاقوال والامثال نجد ما يشابهها في امثالنا العربية حول المرأة · فمن الامثال الدالة على دونية المرأة ونقص عقلها قولهم « المرأة تظل عوجاء لانها خلقت من ضلع اعوج » و « شاوروهن وخالفوهن » و«لا تدع المرأة تضرب صبيا لانه اعقل منها» ومن الامثال الدالة على اضطهاد المرأة قولهم « لا تشتري حمارة واهلها في الحارة » اي لا تتزوج امرأة تسكن بذات الحي فتكثر زيارتها لاهلها وزيارة اهلها لها · والمهم هنا ليس دلالات المثل الاجتماعية فقط ، ولكن تشبيه المرأة بالحمارة ★ وقولهم كذلك « النساء عي وعورة ، فداووا العي بالسكوت والعورة بالبيوت » وهناك امثال كثيرة عربية وغير عربية تدور كلها حول دونية المرأة والصاق الكثير من الصفات السيئة بها · مثل السلبية ونقص الذكاء والكيد والغواية ··· الخ · والسؤال الذي يجب طرحه هنا هو : هل هذه الصفات طبيعية في المرأة ، اي جزء من طبيعتها ، كما يدعي البعض منالرجال ، ام انها **صفات مكتسبة ، نتجت عن الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي تعيشه المرأة** ؟ لدى الاجابة على هذا السؤال نجد اكثر من وجهة نظر · فالتقدميون ودعاة تحرر المرأة ، يؤكدون ان ما يسمى بطبيعة المرأة ما هو الا شيء اصطناعي للغاية ، هو نتيجة كبت اجباري في بعض النواحي وتحفيز غير طبيعي في نواحي اخرى · في حين ان الرجعيين والسلفيين ، يؤكدون على ان هذه الصفات هي من طبيعة المرأة ، وليست مكتسبة · وعباس محمود العقاد ، الذي اقحم كل العلوم لاثبات الوضع

★ تقول مرغليت فولر : ان دونية المرأة منقوشة في اللغة ، فالطاقة والابداع والخلق مرادفة للرجولة ، والنبل فضيلة مذكرة في المقام الاول · وحين تكون امرأة من النساء موهوبة جدا ، يكال لها الثناء بتشبيهها بالرجال · الثورة وتحرر المرأة ص ٥٠ ، شيلا روبتهام ، دار الطليعة ، بيروت ·

★ الحمارة هي الاتان انثى الحمار ·

التقليدي للمرأة ، يعد من ابرز الامثلة على هؤلاء الرجعيين والسلفيين ، فهو يرى ان المرأة خلقت حتى تكون مسخرة للرجل « فما كان للرجال ، جملة ، ان يسخروا النساء جملة في جميع العصور وجميع الامم لولا رجحانهم عليهن ، وزيادتهم بالمزية التي يستطاع بها التسخير ، ولو كانت مزية القوة البدنية دون غيرها» (٨) ، وكثيرون على شاكلة العقاد ينفون اي تأثير للظروف الاجتماعية على ما توصف به المرأة من صفات في مجتمعاتنا الحالية ويؤكدون ، ان الظروف الاجتماعية للمرأة ليست علة اخيرة بقدر ما هي نتيجة لطبيعتها بالدرجة الاولى ، وحجتهم انه «لو كانت النساء في الاصل بمثل ذكاء الرجال وبمثل انانيتهم لما رضين ان يستعبدهن الرجال » (٩) · ولكن هل هذا صحيح ؟ ان الذين يقولون بوجهة النظر هذه ــ وهم كثيرون للاسف ــ يرون ان المرأة انفعالية بطبعها - وما تتصف به من صفات كالاغراق في العاطفة ونقص في عقلها وميلها الى الغواية والكيد ··· الخ يعود الى طبيعتها الانفعالية · ويجعلون من الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة سببا كافيا للتمايز الاجتماعي بينهما ولسيادة الرجل على المرأة وخضوعها له ·

وفيما يتعلق بانفعالية المرأة يؤكد ج· هانيس في كتابه « سيكولوجية المرأة » ★ الطابع الانفعالي للمرأة ، ويعيد اليه كل ما تتصف به المرأة من صفات في مجتمعاتنا الحالية ، ويرفض كل محاولة لتعليل طبيعة المرأة بالظروف الاجتماعية التي تحيط بها · اما لماذا المرأة انفعالية ؟ وكيف تولدت عندها هذه الانفعالية ؟ فهذا ما يغيبه هانيس كليا مشيرا فقط الى ان المرأة وجدت هكذا ، اي انفعالية بطبعها · ولكن الا يوجد رجال انفعاليون ؟ هانيس يؤكد ذلك ، وان كانت نسبة الرجال الانفعاليين اقل من النساء الانفعاليات كما يقول او كما يستنتج من بحثه · كذلك الا يوجد نساء غير انفعاليات ؟ هانيس يؤكد ذلك ، وان كانت نسبتهن اقل من الرجال كما يستنتج من بحثه ايضا · اذن المسألة لا يمكن ان تكون انفعالية المرأة وعدم انفعالية الرجل ، طالما ان مثل هذا الطابع يوجد لدى الطرفين وان بنسب مختلفة · وهو اختلاف ناتج ــ بتقديرنا ــ عن الظروف الاجتماعية المختلفة التي يعيشها كل طرف · اضافة الى اننا لو اخذنا بالطبيعة الانفعالية كاحد العوامل التي تفرض تمايز الرجل عن المرأة اجتماعيا ، فانه لا بد من الوصول الى العوامل التي ولدت هذه الانفعالية، لانه لا يمكن الاستناد على « هكذا خلقت المرأة » وكفى · فالطبيعة الانفعالية للمرأة او الرجل، لم تأت من فراغ ، بل تولدت عن عوامل معينة · فما هي هذه العوامل ؟ هل هي الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة ، ام الظروف الاجتماعية التي تحيط بكلا الطرفين ؟

المعارضون لتحرر المرأة، وان اختلفوا بدرجة معارضتهم، يرون ان العامل البيولوجي اساسي في تمايز الرجل عن المرأة، ويؤكدون وجود بعض الاختلافات السيكولوجية بين الذكر والانثى عموما وبين الرجل والمرأة من الآدميين بوجه خاص نتيجة لوجود اختلافات بيولوجيه اساسية بين

★ ج· هانيس ، كاتب هولندي ، قام باجراء بحث استقصائي حول سيكولوجية المرأة ، وخرج بنتائج منه مؤكدا ان المرأة انفعالية بطبعها ، انظر « سيكولوجية المرأة » سامي الدروبي « مترجم » ·

الجنسين ★★ ، مما يترتب على ذلك وجود اختلاف جذري · فالدكتور زكريا ابراهيم يقول «حقا اننا لا نفهم الوقائع البيولوجية الا في ضوء سياق وجـود اقتصادي ، نفسي ، اجتماعي ، ولكننا لا ننسى ان تكوين المرأة البيولوجي هو الذي يجعلها منذ البداية فريسة لصراع نفسي عميق بين اهتمامهـا بذاتها وخدمتها للنوع البشري ، ما دام هو الذي يقضي عليها بأن تكون اداة النوع في التكاثر ··· ان معظـم المتاعب النفسية التي سنلتقـي بهـا لـدى الكثيـر مـن النساء انمـا هـي فـي العـادة وليدة هذا الصراع الكامن لدى المرأة بين الفـرد والنوع » (١٠) ، ويضيف مشيرا الى كون المرأة عاطفية اكثر مـن الرجل « ربما كان من الصواب ان يقال ان وظيفة الامومة قد اقتضت ان تكون المرأة اكثـر حساسية من الرجل واسرع استجابة للمؤثرات الوجدانية » (١١) · وحول العلاقة بيـن سلبية المرأة وتكوينها البيولوجي ، يقول « لسنا نزعم ان السلبية المطلقة هي الصفـة الاصلية التي تفرضها على المرأة طبيعة تكوينها البيولوجي ، وانما نحن نرى ان هذه السلبية وان كانت نسبية الا انها داخلة في صميم تكوين المرأة البيولوجي باعتبارها مخلوقا يتجه معظم نشاطها نحو الداخل» (١٢) ·

اننا لا ننكر وجود بعض الفروق البيولوجية بين الجنسين ناتج عن الفرق في الوظيفـة الجنسية لدى كل منهما · ولكن هل تشكل هذه الفروق اساسا للتمايز الاجتماعي بيـن الرجل والمرأة ، وتفسر اضطهاد الرجل للمرأة هذه الحقبة الطويلة من الزمن ؟ وهل هذه الفروق البيولوجية هي التي حالت دون بروز النساء في النشاطات العديـدة ولا سيما العقلية التي برز فيها الرجال ؟ ام ان ذلك يعود الى ما ساد من مفاهيم حول دونية المرأة

★★ يؤكد مثل هذا الموقف بعض علماء النفس ، استنادا الى عدد من التجارب التـي قاموا بها حول هذه المشكلة · ومن اهم هذه التجارب تلك التي قام بها كاجان « kagan » عن الاطفال ، حيث لاحظ وجود اختلافات في استجابة الذكر والانثى من الاطفال الصغار لبعض المؤثرات الخارجية · ومن هذه التجارب ايضا ، تلك التي قام بها عالم التحليـل النفسي اريك اريكسون في دراساته لمرحلة الطفولة · حيث اشار الى وجود بعض الاختلافات الهامة بين الجنسين تظهر بوضوح في طريقة اللعب واستخدام الدمى · وملاحظاتنـا على تجارب كهذه ان علماء النفس البورجوازيين بمنهجهم الشكلي ، لا يعطون اهمية لما يلتقطـه الطفل ــ حتى وهو في اعوامه الاولى ــ من ظواهر سلوكية معينة في البيت تؤثر على كيفية استجابته للمؤثرات الخارجية ، ويذكر جيروم كاغن « إن الطفل الذي لم يبلغ السنة والنصف بعد يأخذ في ادراك جنسه من اللغة التي يخاطب بها ممن حوله من الناس فيستدل منها انـه (هو) او (هي) ، وحتى قبل سن التكلم يكون لحركات وطريق التحدث والتدليل ممن حـول الطفل تأثير لا يستهان به في اشعاره بجنسه » · اضافة الى ذلك ، فانه مما لا شك فيـه ان معتقدات الوالدين والاهل ومفهوم الثقافة للجنس من حيث هو مذكر او مؤنث تلعب دورهـا بالايحاء والتوجيه بما هو مناسب او غير مناسب لكل من الجنسين ، فيما يتعلق بالاخـلاق والسلوك والاهتمامات والمركز والقيمة والحركات والتعبيرات · وبهذا الخصوص فانني اذكر حادثة طريفة تؤكد ما اوردته هنا · كنت في زيارة احدى العائلات ، وسألتني طفلة لا يتعدى عمرها الاربع سنوات ان كنت متزوجا ام لا،فلما قلت لها انني غير متزوج· قالت باستغراب: اذن من يعد لك الطعام ويغسل لك الثياب ويكويها · فلما اجبتها بانني انا نفسي اقوم بهـذه الاعمال استغربت وقالت الرجل لا يقوم باعمال كهذه بل المرأة · وهذا يدل على مدى تأثيـر البيئة في تكوين مفاهيم معينة عند الاطفال · للمزيد من التفصيل حول هذه المشكلة انظرعالم الفكر ، عدد خاص عن المرأة ، المجلد السابع ، العدد الاول ١٩٧٦ ص ٦ ــ ١٠ ·

وضرورة تجريدها من كل امكانية للابداع ؟ واذا كان الامر يعود للفروق والاختلافات البيولوجية بين الجنسين ، فلماذا فاقت المرأة الرجل ابداعا وقدرة على الابتكار في المجتمع الامي – نسبة الى الام – عندما لم تكن مستلبة ، وعندما كانت تتمتع بسلطة ونفوذ في المجتمع · والمرأة بحكم وظيفتها الاجتماعية في المجتمع الامي كانت هي اول من اخترع الزراعة بتدجين الحبوب واستنباتها ، وكانت هي الساحرة ، وهي واهبة الحكمة· وهذا يدل على انها كانت تتمتع بنبوغ وقدرة على الخلق والابتكار · ولكن ما ان ساد الرجل وسيطر ، حتى فرض قيوده على المرأة باشتراطاته ومواصفاته كي يضمن بقاء سيطرته عليها ·

اما الاختلافات البيولوجية من الناحية الجسدية ، فهي ايضا لا يمكن ان تؤدي الى هذا التمايز الذي نلحظه بين الرجل والمرأة · ولا يمكن ان تكون دليلا على قوة الرجل وضعف المرأة · لقد جرت العادة ان يزهو الذكر ويفتتن بقوته الجسدية امام المرأة · فهو القوي وهي الضعيفة · هو الذي يقوم بالاشغال التي تتطلب جهدا عضليا ، وهي لا تقوم الا بالاشغال التي لا تتطلب مثل هذا الجهد · هو الذي يمارس الرياضة العنيفة ، اما هي فلا تمارس الا رياضة خفيفة ، وربما تمنع في كثير من الاحيان من ممارسة اي نشاط رياضي · الرجولة قوة وسطوة ، اما الانوثة فضعف وخضوع · ونحن لا ننكر ان المرأة اضعف جسديا من الرجل ، ولكننا نراه ، ضعفا بحدود ، هي الحدود التي يفرضها دور المرأة في حفظ النوع ، وهو ضعف لا يفرض اي تمايز اجتماعي بين الطرفين ، ذلك ان مظاهر الضعف المزعوم لدى المرأة ، تقترن بمظاهر قوة تعوضها الى حد كبير · فاحتمال اصابة المرأة بالمرض نتيجة عدوى اقل من الرجل ، وقدرتها على احتمال الالم اعظم بكثير من قدرة الرجل · كذلك فان ما يشاع عن ضعف المرأة الجسدي ، انما يعود في معظمه الى التربية الاجتماعية للمرأة ، بدليل اننا لا نعدم بين الشعوب الزراعية ولدى الاجناس البدائية ، ان لم نقل في بعض المجتمعات الحديثة نفسها ، نساء ممتازات يستطعن القيام بالكثير من الاعمال العضلية العنيفة · فمثلا ، ان المرأة في ريفنا العربي ، تبدو جسديا اقوى من كثير من الرجال في المدن، لان المرأة التي تحرث الارض وتزرعها وتعيش حياة المريف القاسية في بلادنا تقوم باعمال شبه شاقة لا يقوى عليها الرجال الذين اعتادوا حياة الترف والدعة في المدينة · كذلك فقد اثبتت التجارب انه حتى اذا لم يكن في مقدور المرأة ان تنافس الرجل في مضمار الرياضة البدنية ، فان اقبالها على ممارسة الكثير من الالعاب الرياضية قد ساهم الى حد كبير في تقوية بنيتها الجسمية ، فكثيرا ما استطاعت نساء اليونان – قديما – ان يتغلبن على الرجال في ميدان المصارعة وذلك عندما كان يتاح للمرأة التدرب على المصارعة – كما كان الحال في اسبارطة – · اما حيث يظل نشاط المرأة مقيدا محصورا ، فان مثل هذه المقدرة الجسمية لا بد من ان تكون اضعف واقل ·

اضافة الى ذلك فان الحقائق العلمية تنفي المفاهيم الاجتماعية السائدة حول قوة الرجل وضعف المرأة · تذكر د· نوال سعداوي : «ان علم الجنيات والكروموسومات يثبت ان الضعف والسلبية اللذين ينسبهما المجتمع الى طبيعة المرأة ليس لهما اساس علمي ، بل انه يتضح ان تكوين المرأة من الناحية الجسمية يعطي المرأة فرصا اكبر من الرجل من حيث متانة التكوين او الايجابية في الحياة ، وبالتالي فان فكرة سيادة الرجل على المرأة لانه الجنس الاقوى او الايجابي ليست الا من صنع المجتمع » (١٣) وتؤكد د · سعداوي

«ان سلبية المرأة ليست صفة طبيعية في المرأة ، ولكنها صفة غير طبيعية نتجت عن ضغوط المجتمع وكبته لنموها ، وكذلك ايضا جميع الصفات الاخرى التي الصقها المجتمع بالمرأة والانوثة ، كلها صفات غير طبيعية دخيلة على طبيعة المرأة السوية » وتؤكد هنا قول سيمون دي‌بوفوار «ان صفات الانوثة نتاج صناعي لوضع المرأة السفلي في المجتمع» (١٤)· وتؤكد مرغريت ميد ، الدور الاساسي الذي تلعبه الشروط الاجتماعية في تكوين سلوكية الفرد ، اي فرد ، ذكرا كان ام انثى ، فهي دراسة اجرتها لعدد من المجتمعات البدائية ، خلصت الى نتيجة ضمنتها كتابها ، «الاعراف والجنس في اوقيانوسيا» جاء فيها « اننا مضطرون الى الاستنتاج بان الطبيعة البشرية قابلة بيسر عظيم للعجن والتغيير وخاضعة بامانة للاوامر الصادرة اليها من الهيئة الاجتماعية · واذا كان فردان اثنان ينتمي كل منهما الى حضارة مختلفة لا يتشابهان فيما بينهما ، فهذا يرجع الى انهما تعرضا الى شروط مختلفة ولا سيما في سنيهما الاولى · والحال ان المجتمع هو الذي يقرر طبيعة هذه الشروط ، وتكوين شخصية كل جنس خاضع هو الاخر لهذه القاعدة ، فهذه الشخصية هي من صنع مجتمع حريص على ان يكون كل جيل مذكر كان ام مؤنثا ، مطابقا للنمط الذي فرضه عليه هذا المجتمع » (١٥) · فمثلا الغندرة ، والتي هي صفة من صفات الانوثة كما هو سائد في مجتمعاتنا ، هي لدى الشعوب البدائية (ولدى الحيوانات العليا) متوفرة في الذكر اكثر من الانثى ، (١٦) مما يدل على ان المجتمع هو الذي سهل وجودها لدى المرأة ، فالرجل الذي استعبد المرأة ، وجعلها متاعا لارضاء شهواته ، يشجع هذه الظواهر لدى المرأة وينميها خدمة له ولمتعته · وبهذا الخصوص تقول د · سعداوي « ان افراغ المرأة من مسؤوليتها افراغ لشخصيتها من لب الانسان وجوهره وتميزه عن سائر المخلوقات · وبهذا الافراغ لم يعد للمرأة الا قشرتها الخارجية الظاهرة امام الاعين، ولم يعد امامها الا ان تنشغل بهذا الغلاف الجسدي ، فهي تدلكه ، وهي تنعمه ، وهي تزيل الشعر من فوقه كلما نما،وهي تعريه تارة، وتخفيه تارة،وهي تنفق عليه‌كل ما يقع تحت يدها من مال،وكل ما تجد عندها من وقت،ويؤكد المجتمع من حولها هذه الحقيقة» (١٧) فالمرأة تخاف من الشيخوخة لانها تعلم ان الرجل يجذبه الشباب والفتنة الجسدية ، ومن هنا كان جهدها الدائم الذي يستغرق كل تفكيرها لكي تكون مشتهاة · صحيح « ان الحاجة الى التأنق والتجمل حاجة طبيعية لدى الانسان ، ولكن في الظروف الراهنة لمجتمعاتنا تمثل هذه الحاجة شكلا خطيرا من اشكال استلاب المرأة وتحويلها عن النشاطات التي يمكن ان توفر لها تلبية اعمق واكثر دواما » · (١٨)

ان استلاب المرأة وعزلها عن المجتمع وعن التفاعل بمحيطها الواسع ، عوامل اثرت على قدرة المرأة ونمو ذكائها ، ويقول سلامة موسى مخاطبا المرأة : « ان الرجال يتهمونك بأنك غير ذكية، غير شجاعة ، غير سخية، غير بصيرة ، لم تتفوقي في الاختراع او الاكتشاف، ولم تبرزي في العلوم او الفنون ، وكل هذه التهم صحيحة ، ولكنها صحيحة لانك تمضين حياتك محبوسة بين اربعة جدران في البيت ، ولو قدر لنا نحن الرجال ان نحبس كذلك في البيت ، لكنا في هذه الحال التي تتهمين انت بها · ذلك ان الذكاء والشجاعة والسخاء والتبصر والاختراع والاكتشاف ، كل هذه الاشياء هي بعض النشاط الاجتماعي الذي يدعونا اليه المجتمع ، ويبعث فينا حين نختلط به ونتفاعل معه، تلك العواطف التي تحثنا على النشاط الذهني او الجسمي ··· انما يتربى الذكاء والفهم والعبقرية بالاشتباكات الاجتماعية ومصادمة المشكلات في المجتمع ومحاولة حلها ، ولا ذكاء ولا عبقرية لانسان

ينفصل عن المجتمع » ، (١٩) فاذا حرمنا انسانا الاختلاط بالمجتمع والانتاج للمجتمع ، فاننا بذلك نحرمه الاحساس الاجتماعي بكل ما يحمل هذا الاحساس من مسؤولية وفضيلة وشرف وانسانية · ان العزل والكبت والاضطهاد كلها عوامل حددت من قدرة المرأة واثرت على بنيتها الجسدية ونموها العقلي ، فحين نحدد نشاط المرأة بالبيت نحدد ذكاءها · يقول لينين حول اثر العمل المنزلي على نشاط المرأة وقدرتها « ان المرأة ما تزال العبدة البيتية رغم جميع القوانين التي نصت على تحريرها ، اذ ان الاعمال المنزلية الصغيرة ما تزال تثقل كاهلها ، وتخنقها ، وتخبلها ، وتذلها اذ تقيدها بالمطبخ وغرفة الاولاد، وتبدد جهودها في عمل غير منتج بصورة فاضحة ، في عمل حقير ، مثير للاعصاب ، مخبل ، مرهق » · (٢٠) ومشكلة المرأة كما يقول سلامة موسى أنها « لا تزال بقوة التقاليد والعادات الاجتماعية تقيم هي لنفسهاحدودا داخلية تمتنع بها عن الكثير من النشاط الاجتماعي وبذلك تحد من ذكائها · وفي نظمنا الاجتماعية تخاف المرأة اكثر من الرجل ، وهذا الخوف يشل تفكيرها ، ويجعلها تحجم وتتراجع في حين يقدم الرجل ويجرؤ» ، (٢١)، ذلك ان المرأة التواقة الى الخروج من واقعها ، لا بد وان تصطدم بحائط النماذج الاجتماعية التي يرسمها المجتمع مسبقا عن المرأة · فاذا اندمجت في معترك العمل بكل ابعاده وجميع ميادينه يرفضها المجتمع ويتهمها بانها تخلت عن انوثتها واصبحت مسترجلة مما يسبب لها العذاب والالم ، وان انسجمت مع ما هو سائد في المجتمع ، تتنكر لانسانيتها وحقها في ان تكون عضوا منتجا في المجتمع لها استقلالها وارادتها المستقلة ·

يتضح مما قدمناه ان العامل البيولوجي لا يشكل اساسا علميا للتمايز الاجتماعي بين الرجل والمرأة ، يفسر اضطهاد جنس الرجال لجنس النساء هذه الحقبة الطويلة جدا من السنين ، كما يتضح ايضا ، ان ما يلصقه المجتمع الحالي او المجتمعات السابقة من صفات معينة في المرأة ، ليست من طبيعة المرأة ذاتها ، او انها موجودة فيها بحكم طبيعتها الخاصة كانثى ، بل على العكس من ذلك ، نجد ان هذه الصفات ان هي الا نتيجة الشروط الاجتماعية التي خضعت لها المرأة منذ الاف السنين وقولبتها بقالب معين ، والا فكيف يمكن تفسير اختلاف منزلة الرجل والمرأة ـ قانونيا واجتماعيا وسياسيا ودينيا ـ من بلد لاخر ومن حقبة لاخرى ؟ وعليه ، **فان السؤال كيف نشا اضطهاد الرجل للمرأة وبفعل اية عوامل لا يزال قائما ؟**

[٢]

الاساس المادي لاضطهاد المرأة

يتميز الانسان عن عالم الحيوان بنشاطه العملي الاجتماعي ، فما من حيوان بقادر على القيام بالنشاط الهادف ، وما من حيوان يستطيع اعداد حتى اكثر ادوات العمل بساطة · بعكس الانسان الذي كيف مواد الطبيعة المحيطة به لخدمة حاجاته ، وحول الادوات التي اوجدتها الطبيعة من حجارة وعصي ، والتي كانت تقع صدفة في متناول يده الى ادوات عمل استخدمها في صراعه مع الطبيعة ، وخاصة الانسان هذه ، التي لعبت دورا حاسما في مجمل تطوره لم تظهر دفعة واحدة وانما كانت نتيجة لعملية طبيعية مديدة على مر

العصور · وعليه ، فقد مر المجتمع البشري بعدة اطوار قبل ان يصل الى الطور الحالي ، والعامل الاساسي الذي كان يحدد الانتقال من طور الى اخر ، هو تطور القوى المنتجة ، التي كان يستخدمها الانسان في انتاج حاجياته ، وما يستتبعه هذا التطور من تطور خبرة الانسان في استخدام هذه الادوات · ومع كل طور من اطوار المجتمع البشري ، كانت تسود علاقات اجتماعية معينة تتلاءم مع ما وصلت اليه قوى الانتاج من تطور · ففي الطور الاول من المجتمع البشري حافظ الناس الاقدمون على نمط الحياة القطيعي، لانه كان يتلاءم مع مستوى القوى المنتجة المنخفض الى اقصى حد · « كان الانسان المسلح بادوات عمل بدائية يضمن بقاءه باتحاده مع جماعة كبيرة من الناس ، ومثل هذا الاتحاد كان ضروريا حتى عند جمع الاعشاب والاثمار وذلك للدفاع المشترك ضد الوحوش البرية · وعندما انتقل الانسان الى الصيد النشيط ، كان التوحيد الجماعي لجهود الناس ـ الرجال والنساء ـ يجلب لهم النجاح ويؤمن لهم وسائل العيش · وكان العمل يؤثر تأثيرا متزايدا ابدا في تطور نمط الحياة الجماعي ·وكان النشاط الانتاجي باكمله يتطلب توحيد الناس في جماعات » (٢٢) ان نمط الحياة القطيعي لم يستدع او لم يتطلب اي تفريق بين عمل الرجل وعمل المرأة · كانت المرأة تشارك الرجل في جمع الثمار واحيانا في الصيد الذي كان محدودا بفعل المستوى المنخفض جدا للادوات التي كان يستخدمها الانسان في الصيد · ومع اختراع الادوات الجديدة ـ الرمح والنشابة وغيرها ـ دخل الانسان في مرحلة الصيد النشيط مما « اتاح الفرصة لتقسيم جماعة الناس من اجل القيام بمختلف الاعمال· واصبح بوسع قسم واحد من الجماعة تأمين حاجات افرادها كافة الى منتوج معين وتحرير القسم الاخر للقيام باعمال اخرى · وهكذا جرى التقسيم الطبيعي للعمل بين الرجل والمرأة» فالرجال الذين لا تثقل كاهلهم الولادة وتربية الاطفال قد اخذوا ينصرفون الى الصيد ويضمنون جميع افراد الجماعة باللحم والجلود ، «اما النساء والشيوخ والاطفال فقد انصرفوا الى جمع مختلف اشكال الاطعمة التي تقدمها الطبيعة : الجذور الصالحة للاكل ، الاثمار البرية ، ثمار الحقل ، الرخويات الصالحة للاكل وما اليها ، وكذلك الى صيد السمك والقيام بالاعمال البيتية ، الابقاء على النار ونظافة المنزل» · (٢٣) لقد استتبع تطور القوى المنتجة هذا تغييرا في المجتمع البشري « فحلت محل القطيع البشري البدائي جماعة انتاجية اكثر متانة هي المشاعة العشيرية او العشيرة ·وكان يربط اعضاء المشاعة العشيرية فيما بينهم العمل المشترك والتقسيم الطبيعي للعمل بين الرجال والنساء والواجبات المشتركة داخل الجماعة » · (٢٤) لقد ابرز تقسيم العمل الطبيعي بين الرجال والنساء دور النساء النشيط اقتصاديا في حياة المشاعة « فكان نشاط النساء الاقتصادي مصدرا مضمونا ومنتظما لمقومات الحياة ، اما الصيد الذي كان يقوم به الرجال فغالبا ما كان رهنا بالصدف ولم يكن بوسعه ان يزود الناس على الدوام بالمأكولات الضرورية » · (٢٥) ونتيجة لهذا الدور الاقتصادي حظيت المرأة بمركز مرموق في المشاعة ـ العشيرة ، ان انتقال المجتمع البشري من مرحلة القطيع البدائي الى المشاعة ، استتبع بالضرورة تنظيم ملائم للعلاقات الجنسية ، ففي حين كانت العلاقات الجنسية في القطيع البشري البدائي أباحية غير منظمة ولا ضابط لها ، فان نظام المشاعة فرض نوعا من التنظيم لهذه العلاقات بتحريم زواج الاقارب من درجة معينة ، فحرم في البداية الزواج من الآباء والاولاد وكذلك بين الاخوة والاخوات من ام واحدة ، وكانت دائرة الزواج تضيق باستمرار مع تطور المجتمع وتقدمه · وقد اتخذ الباحثون ذلك علامة ومحكا لقياس مدى تقدم المجتمع ·

ان ضيق دائرة الزواج في نظام المشاعة ادى الى سيادة شكل من اشكال الزواج هو الزواج الجماعي* ، وهو اول شكل منظم للعلاقات الجنسية في المجتمع البشري بعد مرحله القطيع البشري البدائي · وفي هذا الزواج لم يكن ممكنا معرفة والد الطفل بدقة ، في حين كان ممكنا معرفة امه بدقة ، فكل ام تميز اولادها بالذات عن الباقين · ولذا ، فانه في الزواج الجماعي لا يمكن اثبات الاصل الا من ناحية الام ، ولا يمكن بالتالي الاعتراف الا بنسبة الاولاد الى امهم ·

لقد عززت نسبة الاولاد الى امهم مركز المرأة القيادي في المشاعة ـ العشيرة «فكانت المرأة ـ الام تعتبر الرئيسة الوحيدة للعشيرة ، وكانت السيدة في مشكن المشاعة : والمركز الذي يتجمع حوله اعضاء المشاعة ، الاقارب عن طريق الام ··· واخذت المرأة ـ الام تلعب دورا قياديا في المشاعة ، وقد سميت هذه مشاعة الامومة ، وسمي النظام الاجتماعي نظام الامومة » · (٢٦)

ومع نمو انتاجية العمل بفعل تطور وسائل الانتاج وتطور خبرة الانسان في استخدامها والاستفادة منها في سد حاجاته المعيشية ، بدأ نظام المشاعة بالانحلال تدريجيا · فقد ادى اكتشاف النحاس والبرونز والحديد واستخدام هذه المعادن بدلا من الحجارة او العصي كأدوات انتاج ، الى نمو انتاجية العمل ، فتطورت الزراعة وبشكل خاص لدى المجتمعات التي كانت تسكن المناطق السهلية او القريبة من مصاب الانهار ، ومع تطور الزراعة ، ازدادت اهمية تربية المواشي ، فأخذ الانسان يهتم بتدجين الحيوانات وتربيتها · وساعد اكتشاف الفخار والخزف على حفظ ما يبقى عن حاجة الانسان اليومية من الطعام ، ومع نمو الخبرة المستفادة في حفظ الطعام وما يزيد عن حاجة الانسان، بدأ يتشكل فائض انتاجي اخذ الناس يدخرونه لمواجهة الظروف الصعبة او الاوقات التي تقل فيها امكانات الحصول على غذاء بفعل الظروف الطبيعية · لقد ادى تطور الزراعة وتربية المواشي الى ظهور اول تقسيم اجتماعي للعمل بين الرعاة والصيادين ، فمجتمعات الرعاة اتجهت نحو الزراعة وتربية المواشي بشكل اساسي ، في حين ان مجتمعات الصيادين استمرت في ممارسة الصيد لسد حاجاتها الغذائية · ومع ظهور هذا التقسيم الاجتماعي للعمل ، بدأت المرأة تفقد مركزها ، وبدأ شأن الرجل بالبروز على حساب مركز المرأة ودورها القيادي · ذلك انه «مع اقتناء قطعان الماشية وغير ذلك من الثروات الجديدة حدثت ثورة في العائلة ، فتحصيل اسباب المعيشة كان دائما من شؤون الرجل ، وكان هو الذي يصنع الوسائل اللازمة لهذا الغرض ، وكان هو مالكها ، وكانت القطعان وسائل جديدة لتحصيل اسباب المعيشة · وكان من شأن الرجل تدجينها اولا ثم حراستها ورعايتها ثانيا ·ولهذا كانت الماشية تخصه،

---

* الزواج الجماعي Group Marriage ، هو زواج عدد من الرجال لا تقوم بينهم اي رابطة بعدد من النساء لا تقوم بينهن اي رابطة مسبقا ايضا ، بحيث يكون لهؤلاء الرجال دون غيرهم الحق بالاتصال جنسيا باي امرأة في تلك الجماعة المحددة· هذا ولا يزال شكل من اشكال هذا الزواج الجماعي سائدا في بعض المجتمعات البدائية الموجودة حاليا حيث يتزوج فيها عدد من الاخوة امرأة واحدة او عددا من الاخوات لضرورات اجتماعية واقتصادية ·

وكانت تخصه ايضا البضائع والعبيد التي يحصل عليها مقابل رؤوس الماشية، واخذت الفوائض التي توفرها الان تربية الماشية تعود للرجل · كانت المرأة تشارك في استهلاك هذه الفوائض ولكن لم تكن لها حصة في ملكيتها · لقد كان المتوحش (المحارب والصياد) يكتفي في البيت بالمرتبة الثانية بعد المرأة · اما الراعي (الوديع) فقد احتل المرتبة الاولى متبجحا بثروته ، وازاح المرأة الى المرتبة الثانية · ولم يكن بوسعها ان تتذمر وتتشكى ، فان تقسيم العمل في العائلة كان قد حدد واشترط تقسيم الملكية بين الرجل والمرأة · وقد بقي تقسيم العمل كما كان عليه، ولكن قلب الان كليا العلاقات البيتية السابقة ، وذلك لسبب واحد هو ان تقسيم العمل خارج العائلة قد تغير · ان السبب نفسه الذي كان قد ضمن من قبل للمرأة السيادة في البيت ـ اي قيامها بالاعمال المنزلية فقط ـ ان هذا السبب نفسه قد ضمن الان للرجل بصورة محتمة السيادة في البيت · لقد فقد الان عمل المرأة البيتي اهميته بالقياس الى عمل الرجل المنتج ، ان عمله كل شيء ، بينما عملها مجرد ملحق تافه ··· ومع توطد سيادة الرجل الفعلية في البيت سقطت اخر الحواجز امام سلطته المطلقة · وهذه السلطة المطلقة وطدها وخلدها سقوط الحق الامي وتطبيق الحق الابوي » · (٢٧)

لقد احدث تطور القوى المنتجة ايضا انقلابا في العلاقات الجنسية التي كانت سائدة في المشاعة · فعلاقات الزواج الجماعية اخذت تستحيل عمليا مع ضيق دائرة الزواج بين الرجال والنساء من افراد العشيرة المرتبطين بصلة القرابة او الدم من خط الام ، فاستبعد بادىء ذي بدء الانسباء الاكثر قرابة ، ثم الانسباء الاكثر بعدا واخيرا حتى الانسباء بالمصاهرة ، ولم يبق في اخر المطاف الا زوج من اثنين تجمع بينهما علاقات زواج غير متينة · (٢٨) فظهر الى جانب الزواج الجماعي الذي كان في طريقه الى الانحلال بفعل ضيق دائرة الزواج ، شكل معين من التزاوج الثنائي او العائلة الثنائية ، تقوم على التجامع بين شخصين لمدة قد تطول او تقصر وقد شكلت العائلة الثنائية المرحلة الوسيطة في الانتقال من الزواج الجماعي الى احادية الزواج · ويقول انجلز « ان الانتقال الى الزواج الاحادي قد تحقق اساسا بفضل النساء ، فبقدر ما كانت العلاقات بين الجنسين المتوارثة من قديم الزمان تفقد طابعها البدائي الساذج مع تطور ظروف الحياة الاقتصادية ، وبالتالي مع تفسخ وانحلال الشيوعية البدائية وتزايد كثافة السكان ، بقدر ما كانت هذه العلاقات تبدو للنساء مذلة ومرهقة ، وما كان لا بد لهن من السعي بالحاح مشتد الى نيل الحق في العفاف او في الزواج المؤقت والدائم من رجل واحد فقط ، بوصفه سبيلا للخلاص · ولم يكن من الممكن ان يحصل هذا التقدم بفضل الرجال ، وذلك لاسباب عديدة منها ، انه لم يخطر لهم قط في البال ، حتى في ايامنا هذه ، ايضا ، التخلي عن ملذات الزواج الجماعي العملي ، وبعد ان تحقق الانتقال الى الزواج الثنائي بفضل النساء ، بعد ذلك فقط استطاع الرجال ادخال نظام وحدة الزواج الصارم ـ وطبعا بالنسبة للنساء فقط » · (٢٩)

لقد اخذ الزواج الجماعي بالانحلال مع انحلال نظام المشاعة بفعل ما حصل من تطور في قوى الانتاج · ومع انحلال نظام المشاعة تراجع دور المرأة الاقتصادي وبرز دور الرجل الذي يملك قطعان الماشية ، فقد « ادى تدجين الحيوانات وتربية القطعان الى خلق مصادر للثروة لم يسمع بمثلها من قبل ، والى نشوء علاقات اجتماعية جديدة تماما · فحتى الطور الادنى من البربرية ، كانت الثروة الدائمة لا تتألف تقريبا الا من المساكن والالبسة والحلي

الخشنة والادوات للحصول على الطعام وتحضيره · وكان ينبغي الحصول على الطعام من جديد ، يوما بعد يوم ، اما من الان وصاعدا فان شعوب المرعاة اخذت تتقدم اكثر فاكثر » · (٣٠) لقد انتهت سيادة النساء بالقضاء على الاقتصاد البيتي الشيوعي الذي كان يعطي للمرأة مركزا قياديا وسيادة في البيت · وسدد بروز دور الرجل الاقتصادي ضربة قوية الى المجتمع المؤسس على الزواج الثنائي والعشيرة الامية (نسبة الى الام)· ويتكريس سيادة الرجل انتصر الزواج الاحادي على الزواج الثنائي او العائلة الثنائية · وقد وصف انجلز انتصار الزواج الاحادي بانه «احدى العلائم على بداية عصر الحضارة » (٣١) على الرغم من الهزيمة التاريخية التي الحقها بجنس النساء « لقد كان الزواج الاحادي تقدما تاريخيا كبيرا ، ولكنه يدشن في الوقت نفسه ، الى جانب العبودية والثروة الخاصة ، تلك المرحلة التي لا تزال مستمرة حتى ايامنا ، والتي يعني فيها كل تقدم تراجعا نسبيا ، والتي يتحقق فيها ازدهار وتطور البعض بآلام البعض الاخر وقمعه » · (٣٢)

طرح بروز دور الرجل الاقتصادي والثروة التي اخذت تتجمع بين يديه من قطعان ماشية وعبيد ، مسألة اساسية ، وهي : لمن تؤول هذه الثروة بعد وفاة الرجل ؟ كان الابناء في مشاعة الاموة لا يعرفون الا بخط الام ، ولم يكن الرجل يملك ادوات او ثروة ذات قيمة يجب توريثها بعد وفاته ، ولذا لم يثر اي اعتراض على نسبة الابناء لامهم ، ولا سيما ان الزواج الجماعي الذي كان سائدا في المشاعة لا يجعل من الممكن معرفة الاب بدقة كما هي الحال بالنسبة للام ، والزواج الثنائي او العائلة الثنائية ، التي شكلت مرحلة وسيطة بين الزواج الجماعي والزواج الاحادي ، لم تلغ ما كانت تتمتع فيه المرأة من سيادة ، فالعائلة الثنائية « كانت على درجة كبيرة من الضعف وعدم الاستقرار ، بحيث انها لا تجعل من الضروري او حتى المرغوب فيه قيام اقتصاد بيتي خاص ، لا تقضي اطلاقا على الاقتصاد البيتي الشيوعي الموروث من مرحلة سابقة » · (٣٣)

لقد بدا الرجل مالك قطعان الماشية والعبيد يكون حريصا على : لمن تؤول ثروته بعد وفاته ؟ « فبموجب الحق الامي ، اي طالما كان النسب لا يحسب الا تبعا لحبل النسل النسائي وكذلك بموجب نظام الوراثة البدائي في العشيرة ، كان العضو المتوفي في العشيرة يرثه انسباؤه في العشيرة · وكان ينبغي ان يبقى الارث في العشيرة · وبما ان الاشياء التي يتألف منها الارث كانت زهيدة ، فقد كانت على الارجح تنتقل بالفعل منذ غابر الازمان الى اقرب الانسباء ، اي الى الاقرباء بالدم من ناحية الام · ولكن اولاد الرجل المتوفي

---

* ظهرت العبودية اي استرقاق الانسان واقتناء العبيد مع ازدياد قوة عمل الانسان لدرجة انتاج ما يفيض عن حاجته بفعل تطور قوى الانتاج · وفي البداية كان المصدر الوحيد للعبيد اسرى الحروب من رجال ونساء · حيث كانت العشيرة او القبيلة المنتصرة تستعبد جميع افراد العشيرة او القبيلة المهزومة · في حين انه عندما كانت قوة عمل الانسان لا تعطي بعد اي فائض ملحوظ فان المنتصرين كانوا يقتلون اسراهم او يأخذون كأخوة لهم في قبيلتهم ، وكانوا يأخذون النساء زوجات لهم او يضمونهم كذلك بوسيلة اخرى الى قبيلتهم مع اولادهم السالمين · انظر انجلز ، اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ص ٦٧ ·

كانوا لا ينتمون الى عشيرته ، بل الى عشيرة امهم ، فكانوا يرثون امهم بادىء ذي بدء مع سائر اقربائها بالدم ، وفيمابعد ، في المقام الاول اغلب الظن · بيد انه لم يكن بوسعهم ان يرثوا والدهم لانهم كانوا لا ينتمون الى عشيرته · فكان ينبغي ان يبقى ملك الاب في هذه العشيرة · ولذا بعد وفاة صاحب القطعان ، كان ينبغي ان تنتقل قطعانه في المقام الاول الى اخوته واخوانه والى اولاد اخواته او حتى الى ذريات اخوات امه · اما اولاده بالذات فكانوا محرومين من ارثه ، وهكذا بقدر ما كانت الثروات تتنامى ، كانت من جهة تعطي الزوج مركزا اهم من مركز الزوجة ، وكانت من جهة اخرى تولد السعي الى الاستفادة من هذا المركز المترسخ لاجل تغيير نظام الوراثة التقليدي في مصلحة الاولاد · ولكنه لم يكن من الممكن ان يتحقق هذا طالما كان النسب يحسب تبعا للحق الامي · ولهذا كان ينبغي الغاء هذا الحق ، فالغي · ولم يكن ذلك صعبا بالقدر الذي نتصوره الان · فان هذه الثورة التي كانت من اهم الثورات التي عرفتها البشرية لم تكن بحاجة الى مس اي من اعضاء العشيرة الاحياء · فقد كانفيوسعهم جميعهم ان يبقوا كما كانوا بالامس · كان يكفي اتخاذ قرار بسيط يقضي بان تبقى ذرية اعضاء العشيرة الرجال في المستقبل ضمن العشيرة ، وبأن تخرج ذرية اعضاء العشيرة النساء منها وتنتقل الى عشيرة والدها · وهكذا الغي الانتساب حسب حبل النسل النسائي وحق الوراثة حسب خط الام ، واقر الانتساب حسب حبل النسل الرجالي وحق الوراثة حسب خط الوالد » · (٣٤) وباسقاط الحق الامي اخذ الزوج دفة القيادة في البيت ، وحرمت الزوجة من مركزها المشرف ، واستذلت وغدت عبدة رغائب زوجها · وامست اداة بسيطة الانتاج الاولاد · (٣٥) وما ان اقرت سلطة الرجال على هذا النحو ، حتى اخذ مفعولها يتبدى في شكل انتقالي ظهر آنذاك هو شكل العائلة الابوية التي تميزت بالسلطة الابوية ، وبضم العبيد الى العائلة · وكانت العائلة الرومانية هي النموذج النهائي الكامل لهذا الشكل ، وقد شكلت هذه العائلة الدرجة الانتقالية من العائله التي انبثقت من الزواج الجماعي وقامت على الحق الامي الى العائلة الفردية في العالم الحالي (٣٦) ·

[٣]

شرط تحرر المرأة

لم تحظ المرأة بمركز مرموق الا في المجتمع الشيوعي البدائي ، اما في مجتمعات العبودية والاقطاع والرأسمالية ، فقد حظي الرجل بهذا المركز المرموق وجعل المرأة تابعة له وملحقة به · وهذا يعود الى ان دور المرأة الاقتصادي في المجتمع الشيوعي البدائي كان ضربا من النشاط الاجتماعي الضروري للمجتمع ، في حين تحول هذا الدور في مجتمعات العبودية والاقطاع والرأسمالية الى الرجل الذي اصبح يملك الثروة ويسيطر على قوى الانتاج الاساسية في المجتمع · لقد كرست الديانات والتشريعات القديمة هذه الهيمنة للرجل ، ففي حين قدمت لنا ميثولوجيا العصور البدائية المرأة بصفتها الآلهة المسؤولة عن التناسل والخصب او المانحة الذكاء ، او العرافة التي تقرأ المستقبل او واهبة الاسرار والمعجزات ، مما يدل على مكانتها المرموقة آنذاك ، نجد ان المرأة بعد ان فقدت مكانتها هذه في المجتمعات اللاحقة ، تحولت الى انسان تابع للرجل وملحق به ، فشريعة مانو في الهند لم تكن تعرف للمرأة حقا مستقلا عن حق ابيها او زوجها او ولدها في حالة وفاة

الاب او الزوج ، فاذا انقطع هؤلاء جميعا وجب ان تنتمي الى رجل من اقارب زوجها في النسب ولم تستقل بامر نفسها في حال من الاحوال ! وفي شريعة حمورابي كانت تحسب المرأة في عداد الماشية · وكانت عند اليونان الاقدمين ــ باستثناء اسبارطة* ــ مسلوبة الحرية والمكانة في كل ما يرجع الى الحقوق الشرعية ، فقد كان في وسع الاب او الوصي ان يفرضا عليها الزوج الذي يشاءان ، وكان من حق الزوج ان يقايضها او يهبها ، واذا كانت عقيمة فان عدم هجرانها يعد جريمة بحق الآلهة (٣٧) · وبينما كان الرجل يكرس حياته لممارسة واجباته المدنية ، كانت المرأة تعيش في عزلة مطلقة بدون اي اتصال بالعالم الخارجي ، فكانت تحل في المنازل الكبيرة محلا منفصلا عن الطريق قليل النوافذ محروس الابواب · ولم تعترف القوانين الرومانية للمرأة بارادة مستقلة ، فكانت المرأة الحرة في القانون الروماني تخضع للسلطة الابوية اي لسلطة رب الاسرة اذا لم تكن متزوجة ، وتخضع لسلطة زوجها وسيادته اذا كانت متزوجة · اما المرأة الرقيق فتخضع لسلطة سيدها او معتقها وترتبط به برابطة الولاء والخضوع · ولم تكن المرأة ــ حرة ام رقيقا ، متزوجة ام غير متزوجة ــ تتمتع بأية اهلية · ولم تكن لها اية شخصية قانونية وانما كانت تخضع لوصاية صاحب السلطة عليها · ذلك ان الانوثة كانت تعتبر احد الاسباب الرئيسية لانعدام الاهلية في القانون الروماني مثلها في ذلك مثل الصغير والمجنون · (٣٨)

وفي العصور الوسطى كانت المرأة تعتبر ملكا للرجل ، وكانت جزءا من الاقطاعة ، ومصيرها بيد صاحب الاقطاعة · وكان من حق «الفارس» ان يسيء معاملة زوجته وان يضربها وان يعاقبها عقابا «معقولا» وان يهبها ويورثها لغيره ، وحتى ان يبيعها · وضمانا لوفائها كان يحبسها في «حزام العفة» اذا ما اضطر للسفر · ولم يكن للام اي سيطرة على ابنها منذ بلوغه السابعة من عمره ، وكان من حقه ان يعلن نفسه راشدا او وصيا على امه بالذات اذا توفي والده · ولم تكن زوجة القن اكثر من دابة ركوب ، بائسة ، محتقرة ، جاهلة مسحوقة تحت وطأة الاقطاع · (٣٩)

لقد ظلت المرأة منذ ان فقدت مركزها المرموق في المجتمع الشيوعي البدائي تعاني من اضطهادين ، اضطهاد ضمن اطار المجتمع واضطهاد ضمن اطار الاسرة ، ولم تطرح مسألة تحررها على بساط البحث الا في العصر الحديث مع بداية عصر النهضة وانحلال المجتمع الاقطاعي القديم · لقد طرحت مسألة المرأة في العصور السابقة بوصفها مسألة اخلاقية بالدرجة الاولى ، اثارها اناس كانوا يشعرون بأن المسألة هي في المقام الاول ، مسألة علاقات انسانية بوجه عام ، ولكن بوصفها مسألة اجتماعية عينية لم تطرح الا في عصر الرأسمالية وفي مجرى الصراعات الطبقية · (٤٠) فلقد ادى تطور الصناعة الى اجتذاب النساء للعمل واخراج جماهير نسائية واسعة من البيوت الفردية لتحويلهن الى عاملات · «ولم يكن العمل يمثل اي تجديد في شرط المرأة · فالواقع ان النساء لم ينقطعن

★ حظيت النساء في اسبرطة بمركز مشرف اكثر بكثير مما عند اليونانيين الآخرين ، وكانت النساء الاسبرطيات هن الوحيدات في اليونان اللواتي كان الاقدمون يتحدثون عنهن باحترام ويعتبرون اقوالهن جديرة بالاستشهاد بها ·

عن العمل على مدى العصور ، لكنهن كن يعملن بصورة مغفلة ان جاز التعبير في الملكية العائلية ، في بيت الاب او الاخ او الزوج ، ملاك المزرعة ، ممثلي نمط الانتاج العائلي، رؤساء الاسرة والبيت · لكن التجديد كان كامنا في واقع ان النساء قد اصبحن يشغلن من الان فصاعدا وظائف (استخدامات) ويتقاضين مقابل عملهن اجرا شخصيا مهما يكن زهيدا · وكان التجديد يتمثل ايضا في ان وظيفتهن تؤدي خارج البيت ، خـــارج الاســرة» · (٤١)

وهذا التجديد في وضع المرأة الاقتصادي ، اي انتقالها من نمط الانتـــاج العائلي والصناعات المنزلية الى العمل في المصانع الكبيرة وخارج البيت والاسرة ، دخل في نزاع حاد مع وضعها في الاسرة والمجتمع · فالتطور الصناعي بقضائه على نمط الانتاج العائلي والصناعات المنزلية عمل على تحطيم نمط العلاقات البطريركية (الابوية) التي كانت سائدة في العلاقات السابقة للرأسمالية ، والتي لم تكن تتخطى اطار العلاقات البيتية ، العائلية الضيق · ولم يكن ممكنا ايقاف هذا التطور بمنع عمل النساء كليا في الصناعة ، فكان لا بد من العمل على تحرير النساء من كل قيود الماضي التي تكبلهن وتحول بينهن وبين الاشتراك بفعالية في الانتاج الاقتصادي والاجتماعي · **فكيف يكون ذلك ؟** لقد طرحت المجتمعات الرأسمالية مسألة تحرير المرأة على اساس ان هذه المجتمعات بحاجة الى جهود النساء في الانتاج ، في المصانع والمعامل ، فالانتاج الكبير والصناعات الآلية بحاجة الى عمل النساء · لقد شجع الرأسماليون انجذاب النساء الى الصناعة لانهم كانوا يقدمون لهن اجورا اقل من تلك التي كانوا يقدمونها للعمال من الرجال ، وحتى الان ، لا تزال اكثر المجتمعات الرأسمالية تقدما تميز في الاجور بين الرجل والمرأة ، ولا تـــزال تميـز بين تلك الاعمال التي تعطى للرجال وتلك التي تعطى للنساء على الرغم من ان مبدأ الاجر المتساوي لقاء العمل المتساوي منصوص عليه في دساتير معظم البلدان البورجوازية · ففي المانيا الاتحادية تتقاضى العاملات ٦٠٪ فقط من متوسط الاجر الذي يأخذه الرجال لقاء العمل ذاته ، وفي فرنسا يقل متوسط اجر النساء عن الرجال بنسبة تتراوح بين ١٤ر٣ الى ٣٥ر٧٪ وفي الولايات المتحدة تساوي اجور النساء ٥٨٪ من اجور الرجال · (٤٢) اضافة الى ذلك فان المرأة في المجتمعات الرأسمالية تحولت الى سلعة في سوق العمل الرأسمالي والى اداة للدعاية والاثارة الجنسية ، تبيع جسدها كما يبيع العامل قوة عمله لقاء اجر · لقد استلبت المجتمعات الرأسمالية المرأة ، وابقتها على الرغم من كل القوانين التي سنتها عن المساواة بين الرجال والنساء ، اسيرة المفاهيم التقليدية السابقة ، اداة انجاب واداة متعة ، يقول لينين «ان الديموقراطية البورجوازية تعد ، قولا ، بالمساواة والحرية · اما فعلا ، فان اية من الجمهوريات البورجوازية ، حتى اكثرها تقدما ، لم تمنح نصف البشرية النسائي ، بحكم القانون ، المساواة التامة مع الرجال ، ولا الحرية من وصاية الرجال واضطهادهم · ان الديموقراطية البورجوازية هي ديموقراطية التعابير المفخمة ، والاقوال المهيبة ، والوعود الطنانة ، والشعارات المفخمة عن الحرية والمساواة ، ولكنها تخفي ، بالفعل ، انعدام الحرية والمساواة للنساء ، انعدام الحرية والمساواة للشغيلة والمستثمرين» (٤٣) فالمرأة في المجتمعات الرأسمالية تعاني من استغلالين، الرجل واضطهاده لها ، واستغلالها من قبل اصحاب العمل، فهي في الوقت الذي خرجت فيه الى العمل ، لم تتحرر بعد من ربقة التقاليد التي تجعلها تحت وصاية الرجل ، «فالرجل في العائلة هو البورجوازي بينما المرأة تمثل البروليتاريا» ، (٤٤) وما لم يتغير وضع

المرأة في الاسرة ، فستظل تعطي الاولوية لوضعها كامرأة ، واي امل «بانعتاق المرأة يغدو مستحيلا ضمن نطاق تلك البنية العائلية القائمة على حماية الملكية الخاصة وعلى توارثها ، نظرا الى ان مصالح رجال الطبقات السائدة كانت مرتبطة بتلك البنية» (٤٥) وتحرير المرأة لا يتم الا بتحريرها من الاضطهادين ، اضطهاد الاسرة واضطهاد المجتمع ، اي تحريرها من استغلال الرجل واضطهاده لها ، ومن الاستغلال الرأسمالي «فالعمالة والفلاحة يضطهدهما الرأسمال ، وفضلا عن ذلك لا تتمتعان بكل الحقوق حتى في اوفر الجمهوريات البورجوازية ديموقراطية ، اذ ان القانون لا يؤمن لهما نفس الحقوق التي يؤمنها للرجل ، ثم ــ وهذا هو الامر الاساسي ــ انهما تظلان تحت وطأة (العبودية البيتية) فهما (عبدتان بيتيتان) يرهقهما العمل الاكثر حقارة وكرها وثقلا وتخبيلا ، عمل المطبخ ، وبوجه عام اقتصاد البيت والاسرة المنفرد» (لينين بصدد تحرير المرأة ص ٩١)٠

اضافة الى ذلك فان المرأة لا تزال تواجه الكثير من العنت والاضطهاد في معظم البلدان الرأسمالية ، فعلى الرغم من ان المرأة هناك تشارك في معظم نواحي النشاط الاجتماعي والاقتصادي ، فان بعض مجالات العمل تكاد تكون قاصرة على الرجال دون النساء ، كما هو الحال في بعض فروع الطب كالجراحة او في العلوم البحتة مثل العلوم الفيزيائية والكيماوية ٠ وفي الولايات المتحدة الاميركية لا يزال عدد النساء المشتغلات بالعلوم اقل من ١٠٪ من مجموع العلماء المشتغلين بالعلم هناك ٠ وهذا يعود الى ان نظرة المجتمع اليها ، لا تزال تلك النظرة التي لا تثق بامكانياتها وكفاءتها في اداء بعض الاعمال ٠

يعود الفضل الى كارل ماركس وفريدريك انجلز* في طرح مسألة تحرر المرأة طرحا علميا خاليا من الاوهام والخيالات ، عندما ربطا تحرر المرأة بتحرر المجتمع برمته من كل الوان الاضطهاد والاستغلال اي بالثورة الاجتماعية ٠ «فلا يمكن ان تكون حرية ، ولم تكن قط ، ولن تكون يوما حرية حقيقية ، طالما لم تتحرر المرأة من الامتيازات التي يكرسها القانون للرجل ، طالما لم يتحرر العامل من نير الرأسمال ، طالما لم يتحرر الفلاح الكادح من نير الرأسمال والملاك العقاري والتاجر» (٤٦) و«حيث تدوم الملكية الخاصة ، للارض ، الملكية الخاصة ، المعامل والمصانع ، حيثتدوم سلطة الرأسمال ، هناك تبقى الامتيازات للرجال» ٠ (٤٧) لقد اكد انجلز ان تحرر المرأة «لن يصبح امرا ممكنا الا متى استطاعت ان تشارك على نطاق اجتماعي كبير في الانتاج ، ومتى اصبح العمل البيتي لا يأخذ من وقتها الا قدرا ضئيلا» (٤٨) فتحرر المرأة يقتضي ان تحرر من تلك الاعتبارات الاقتصادية التي تجعلها خاضعة للرجل في تحصيل اسباب معيشتها ، وحتى تتحرر من تلك الاعتبارات اي تصبح قوة منتجة وتشارك في الانتاج ، يجب ان تتحرر من عبء الاعباء المنزلية ٠ «فالتفاوت في الحقوق بين الطرفين ــ الرجل والمرأة ــ الذي ورثناه من

★ تظهر كتابات ماركس عن المرأة في مخطوطاته الاقتصادية ــ الفلسفيـــــة لعام ١٨٤٤ وفيها يطور موضوعة العلاقة بين تحرر المرأة وتاريخ المجتمع ٠ وقد قام الياس مرقص بترجمة هذه المخطوطات الى العربية باسم «كارل ماركس ــ مخطوطات ١٨٤٤ : الاقتصاد السياسي والفلسفة» ٠ وتظهر آراء انجلز عن المرأة في كتابه «اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » الذي كتبه عام ١٨٨٤ استنادا الى قراءاته وملاحظات كان وضعها ماركس عـن كتاب العالم الاميركي مورغان «المجتمع القديم» وفي هذا الكتاب ــ اصل العائلة ٠٠٠ ــ يسلط انجلز النور على تطور العائلة من مواقع المادية التاريخية ٠

العلاقات الاجتماعية السابقة ، ليس سبب اضطهاد المرأة في المضمار الاقتصادي ، بل نتيجته · ففي الاقتصاد البيتي الشيوعي القديم الذي كان يشمل عددا كبيرا من الازواج مع اولادها ، كانت اداة هذا الاقتصاد المعهود بها الى النساء ، ضربا من النشـــاط الاجتماعي الضروري للمجتمع · شأنها شأن حصول الرجال على وسائل العيش · ولكن الوضع تغير منذ ظهور العائلة البطريركية ، وبالاحرى منذ ظهور العائلة الفردية الاحادية الزواج ، فقد فقدت ادارة الاقتصاد البيتي طابعها الاجتماعي · ولم تعد لها علاقـــة بالمجتمع · واصبحت خدمة خاصة ، وصارت الزوجة الخادمة الرئيسية واقصيت عـن الاشتراك في الانتاج الاجتماعي · ان الصناعة الكبيرة في ايامنا هي التي فتحت امام المرأة ــ المرأة البروليتارية فقط ــ السبيل الى الانتاج الاجتماعي ، ولكن اذا قامت بواجباتها الخاصة في خدمة العائلة ، بقيت خارج الاطار الاجتماعي وعجزت عن تحصيل اي اجر مستقل ، واذا ما شاءت ان تشترك في العمل الاجتماعي وان تحصل على اجر مستقل ، عجزت عن اداء واجباتها العائلية» (٤٩) · **فكيف تحل هذه المعضلة** حتى يتم اشتراك المرأة في الانتاج الاجتماعي دون ان تثقلها الاعمال المنزلية التي لا يزال الرجال يعتبرونها شأنا من شؤون المرأة ، حتى ولو كانت المرأة عاملة وتحصل على اجر يساوي او قد يفوق اجر الرجل نفسه في بعض الاحيان ؟ ان العمل المنزلي ، ليس عملا يسلب وقت المرأة فقط ، ولكنه ايضا ، عمل غير منتج لا يدخل في نطاق التعامل الاقتصادي ، لانه عبارة عن خدمة خاصة ، يبدد طاقات المرأة ويبلد ذهنها ، ويحصرها ضمن مطبخ او ضمن جدران اربعة لا يتيح لها العمل المشترك وما ينتج عنه من تفاعل انساني ، من فرح انساني من تبادل الافكار ··· الخ · ويقول لينين «ان الاعمال المنزلية الصغيرة تثقل كاهل المرأة وتخنقها وتخبلها وتذلها اذ تقيدها بالمطبخ وغرفة الاطفال ، وتبـــدد جهودها في عمل غير منتج ، بصورة فاضحة ، في عمل حقير مثير للاعصاب ، مخبل مرهق» · (٥٠) ولعل هذا السبب في وصفنا لاحاديث النساء بالسخف والتفاهة،وان احاديثهن في الغالب لا تعدو كونها احاديث عن انواع الطعام وعن اخر اخبار الموضة ، او اخر اشاعة في البلد · فالعمل المنزلي يحد كثيرا من طاقات المرأة ، ويحرمها من ان تنمي ثقافتها ومواهبها ، مما يجعلها باستمرار وبشكل عام ، اقل ثقافة وذكاء من الرجل · ولجعل المرأة مساوية للرجل ، تتمتع بكافة الفرص والامكانات المتاحة للرجال ، يجب ان نعطيها اعتبارها كأداة انتاج بتحريرها من الاعباء المنزلية والواجبات العائلية ، بحيث تكون هذه الاعباء والواجبات من مسؤولية المجتمع · ومن هنا برزت فكرة المؤسسات العامة من دور حضانة ورياض اطفال ومطاعم شعبية ومغاسل عامة · فوجود مثل هذه المؤسسات يخفف كثيرا من مسؤولية المرأة في الاعمال المنزلية ، وكلما تعممت هـــذه المؤسسات واصبحت في متناول جميع افراد المجتمع ، كلما تم الدفع الى الامام بدرجة اكبر بمسألة تحرر المرأة · لقد برزت فكرة هذه المؤسسات اول ما برزت في المجتمعات الرأسمالية ، ولكنها لم تعمم ، وظلت محدودة جدا ، اضافة الى انها كانت اما مشروعات تجارية تستهدف تحقيق اقصى درجة من الربح ، لا يقدر عليها الا ذوو الدخل المرتفع ، وتكون قاصرة عن تلبية حاجات الجمهور الواسع من المواطنين من العمال وذوي الدخل المحدود ، واما نوعا من مؤسسات الاحسان البرجوازي ، المليئة بالنفاق والرياء ، والتي لا تلبي الا حاجات قلة قليلة من افراد المجتمع · ولذا فان تعميم هذه المؤسسات وجعلها في متناول جميع افراد المجتمع ، يجب ان تكون من مسؤولية المجتمع والدولة ، وهذا لا يمكن ان يتم الا في ظل نظام اشتراكي · وهي مهمة لن تتحقق دفعة واحدة ، او خلال

فترة قصيرة ، بل تتطلب وقتا وصبرا · فحتى المجتمعات الاشتراكية الحالية ، على الرغم من كل المؤسسات العامة من هذا النمط الموجودة في هذه المجتمعات ، فان هـذه المعضلة لم تحل حلا نهائيا بعد ، ولا زالت المرأة هناك تواجه عبء القيام بعملها الانتاجي مثلها مثل الرجل ، وعبء القيام بجانب من الواجبات العائلية* · وقد يثير البعض اعتراضات على فكرة المؤسسات العامة من دور حضانة ورياض اطفال ··· الخ ، بدعوى انها فصل للنساء عن تربية اطفالهن واستلاب لامومتهن ، ومثل هـذه الاعتراضات ـ بتقديرنا ـ لا اساس لها وهي نوع من الرياء البورجوازي · لان المطلوب هو كيف نجعل النساء قادرات على الجمع بين العمل النافع اجتماعيا وتربية اطفالهن ، ويقول كارل ماركس «ان انتاج الحياة ، حياة المرء ذاته من خلال العمل ، وحياة اخر من خلال انجاب طفل ، تبدو في الحال كعلاقة مزدوجة ، علاقة طبيعية من جهة وعلاقة اجتماعية من جهة اخرى» · (٥١)

يبقى ، ان على الرجال المتنورين ان يساهموا في حل هذه المعضلة للمرأة ، طالما ان المجتمع لم يصل الى حلها بشكل جذري ونهائي ، وهذا يقتضي مشاركة الرجال في الاعباء المنزلية · والكثيرون من الرجال ـ وحتى التقدميين منهم ـ يهزأون من ذلك ، ويرون ان من العار ان يقوموا بعمل يعتبرونه عمل نساء · وهذا يعود الى انانية الرجل ، والى كون الرجل كمضطهد ـ بكسر الهاء ـ يتمتع بامتيازات لا يمكن ان يتخلى عنها بسهولة· يقول بيبل « ثمة اشتراكيون يعارضون انعتاق المرأة بمثـل الشراسة التي تعارض بهـا الرأسمالية الاشتراكية · ان كل اشتراكي يميز حالة تبعية الشغيل تجاه الرأسمالي ، ولا يفهم كيف يمكن لاخرين ، وبالتحديد الرأسماليين ، رفض التسليم بذلك · لكن هذا الاشتراكي عينه لا يميز في كثير من الاحيان حالة تبعية المرأة تجاه الرجال ، لان هـذه المسألة تمس اناه الصغير عن كثب · فما داعي الرجال الى وضع حد لتبعية المرأة ما دامت هذه التبعية لا تعود عليهم الا بالفوائد » · (٥٢) ·

[٤]

تحرر المرأة والجنس

تثار باستمرار اعتراضات كثيرة على مسألة تحرر النساء وانعتاقهن بدعوى ان تحررهن سيؤدي الى انفلات الضوابط التي تنظم العلاقات الجنسية في المجتمع ، وتدفع المجتمع

★ تذكر شيلا روبتهام في كتابها «الثورة وتحرر المرأة» ص (١٥٦ ـ ١٥٧) ان استقصاء اجري في لينغراد مع ١٦٠ اسرة وضح ان الزوجة هي التي تقوم باعمال البيت في ٦٩ اسرة ، وفي ٢٦ اسرة الجدة ، وفي ١٧ اسرة الزوجة والاولاد ، ويشارك الزوج في ٤٨ اسرة في الاشغال المنزلية · وتذكر : دل تحليل الاستقصاءات المماثلة التي اجريت قبل سنة ١٩٦١ ، ان المرأة المسؤولة عن اسرة تعمل في المتوسط ثلاث ساعات في اليوم زيادة عن زوجها ، وانها تنام اقل منه بساعة ونصف ساعة ، ولمواجهة مثل هذه الحالة ، وحتى لا يكون القيام بالاعباء المنزلية على حساب المرأة وتنميتها لقدراتها ، فقد اقرت كوبا قانونا جعلت الرجال بمقتضاه ملزمين بان يشتركوا مع زوجاتهم في القيام باعباء المنزل ·

الى فوضى جنسية باسم الحرية والتحرر · ان هذه الاعتراضات والتي ترددها الكثرة من الرجال ـ حتى التقدميين منهم ـ ان هي الا اعتراضات زائفة ومحاولة مكشوفة للهروب من الواقع الجديد الذي بدأ يفرض نفسه على كل مجتمع · هذا الواقع الذي يجعل من المستحيل أبقاء المرأة اسيرة العلاقات التقليدية الزائفة ، رهينة البيت ، ملحقة وتابعة للرجل ، غير مسموح لها ان تقرر بنفسها ما يتعلق بحياتها ، يوجد دائما من يفكر عنها ويقرر بالنيابة عنها ، سواء في نوع العمل الذي يجب ان تقوم به ، او في اختيار شريك حياتها · ان هذه الاعتراضات الزائفة لا تمت بأدنى صلة الى ما ندعو اليه من ضرورة تحرر النساء وانعتاقهن من الواقع المزري الذييعشن فيه منذ الاف السنين ، ولا سيما ان مسألة تحررهن لم تعد مسألة شخصية او فردية ، خاضعة لمزاج هذا الرجل او ذاك ، بل اصبحت مسألة اجتماعية تفرض نفسها على الجميع ، وهي مسألة ـ شاء الرجال ام ابوا ـ ستجد طريقها الى الحل الثوري والناجع مع النهوض الثوري في المجتمع · ان الاختباء وراء اقنعة الحرص على الشرف ومحاربة الرذيلة للوقوف ضد تحرر النساء وانعتاقهن امر لم يعد ممكنا ، ذلك ان الرجال هم الاقدر على محاربة الرذيلة اذا شاؤوا ، ليس بفرض القيود على النساء ، ولكن بمنع انفسهم من ارتكاب الرذيلة ، بمنع انفسهم من استغلال النساء وابتياع حاجة بعض النساء المادية بنزوة او علاقة عابرة · ان بعض الرجال في الوقت الذي يفرضون فيه العفاف المطلق على زوجاتهم مثلا فانهم يبيحون لانفسهم ارتكاب النزوات مع نساء اخريات · ومتى تم القضاء على مثل هذا التمييز اللااخلاقي بين الرجل والمرأة ، ومتى تم تخليص العلاقة بين الرجل والمرأة من كل اشكال الاضطهاد والقسر ، من كل اشكال العلاقات التجارية ومن الكذب والرياء ، واصبحت علاقة لا تقوم الا على الحب المتبادل ، يمكن القضاء على الرذيلة والبغاء اللذين تزخر بهما المجتمعات البورجوازية · فالعلاقة بين الرجل والمرأة هي مقياس انسانية الانسان ، اي انسان ، رجلا كان ام امرأة يقول كارل ماركس «العلاقة المباشرة ، الطبيعية الضرورية بين الانسان والانسان ، هي العلاقة بين الرجل والمرأة ··· في هذه العلاقة يظهر بشكل محسوس ، محولا الى واقعة عيانية ، القدر الذي فيه ، بالنسبة للانسان ، اصبحت الماهية الانسانية هي الطبيعة ، او القدر الذي اصبحت فيه الطبيعة هي ماهية الانسان الانسانية · انطلاقا من هذه العلاقة يمكن اذن ان نحكم على كل مستوى ثقافة الانسان ، من طابع هذه العلاقة ينجم القدر الذي اصبح به الانسان لذاته موجودا نوعيا ، انسانيا ، وادرك نفسه على هذا الشكل ··· في هذه العلاقة يظهر ايضا الى اي حد اصبحت حاجة الانسان انسانية ، وبالتالي الى اي حد ، الانسان الاخر بوصفه انسانا اصبح بالنسبة له حاجة، الى اي حد في وجوده الاكثر فردية هو في الوقت نفسه موجود اجتماعي» · (٥٣)

كثيرون من الرجال لا يجدون في مسألة تحرر المرأة الا هذا الجانب الجنسي منها ، وينسون او يتناسون ، ان المسألة ليست بهذا الشكل ابدا ، فمسألة العلاقة بين الرجل والمرأة ، وان كانت تشكل جانبا ليس بسيطا من مسألة تحرر النساء وانعتاقهن ، الا انها ليست هي كل المسألة ، اضافة الى انها ـ العلاقة بين الرجل والمرأة ـ لا تكون فوضى جنسية او نوعا من الرذيلة اذا تم تخليصها من الرياء والكذب ومن عوامل القهر والقسر ، بل تأخذ شكلها الانساني الاسمى باعتبارها علاقة انسانية وليست مجرد تعبير عن حاجة «فعديمو الادراك اخلاقيا وحدهم الذين يمكنهم ان يتغنوا بتلك (النزعة المادية) التي لا تميز بين تلبية الجوع وتلبية الغريزة الجنسية ، فموضوع الحاجة الاولى

موضوع خامد ، وموضوع الحاجة الثانية كائن انساني قادر على التمتع والتألم» (٥٤) وهذا ما يجعلنا نؤكد ان تحرر النساء وانعتاقهن هو الذي سيعطي لهذه العلاقة انسانيتها، ويجعل الانسان قادرا على انسنة مشاعره الحيوانية • فعندما تتخلص المرأة من اعتبارات العوز المادي ، ومن اعتبارات ان هناك رجلا ، ينفق عليها ومسؤول عن اعاشتها والاولاد، تتحرر علاقتها بالرجل من اي اعتبارات الا اعتبارات الحب المتبادل ، ذلك ان تحرر المرأة من التبعية الاقتصادية التي تنوء بعبئها في ظل نظام الملكية الخاصة سيفتح الطريق امام انسانية حقه •

ما كانت الدعوة لتحرر المرأة بالمفهوم الثوري للتحرر ، تعني فوضى جنسية او اباحة العلاقات الجنسية دون ضابط او منظم لها • فتحرر المرأة ، في الوقت الذي يعني اشتراك المرأة في الانتاج على نطاق واسع وجعلها عضوا منتجا في المجتمع ، وليست مجرد خادمة خاصة في البيت للرجل وجارية له ، فانه يعني اعادة صياغة العلاقات الجنسية في المجتمع بما يكفل توفر حرية وارادة الطرفين التامتين في اقامة هذه العلاقات ضمن ضوابط جديدة ينظمها المجتمع ، ولكن ليست ضوابط مجتمعات ما قبل الرأسمالية او المجتمعات الرأسمالية، فلا يمكن مثلا «للحرية التامة في عقد الزواج ان تتحقق بصورة تامة وعامة الا بعد ان يقضي الغاء الانتاج الرأسمالي وعلاقات الملكية التي خلقها الانتاج الرأسمالي على جميع الاعتبارات الثانوية ، الاقتصادية التي لا تزال تؤثر الان تأثيرا كبيرا في اختيار الزوج والزوجة ، وآنذاك لن يبقى اي دافع غير دافع الميل المتبادل» (٥٥) ذلك ان الزواج القائم على الحب هو وحده الزواج الاخلاقي • لقد عارض ماركس بقوة افكار الشيوعيين السوقيين الذين كانوا يريدون سحب الملكية المشاعية على النساء • واكد انجلز «ان مشاعية النساء علاقة لا يعرفها الا المجتمع البرجوازي ، وهي تتمثل حاليا في البغاء» والانحلال» • (٥٦) وابدى معارضته لفكرة الحب الحر في رده على انتيس آرمان ، واوضح لينين «ان الانفلات في الحياة الجنسية ظاهرة بورجوازية وعلامة على التفسخ ووصفها بأنها «ليست بمطلب بروليتاري وانما بورجوازي» (٥٧) وتذكر كلارا زنتكين في كتابها «ذكريات عن لينين» ان لينين كان خصما لدودا لنظرية الحب الحر وقال لها «انا لا اثق بأولئك الذين يستغرقون على الدوام وبعناد في مسائل الجنس كما يستغرق الفقير الهندي في تأمل سرته ، يبدو لي ان هذا الفيض من نظريات الجنس التي هي بمعظمها فرضيات ، بل فرضيات اعتباطية في احيان كثيرة ، ينبع من الحاجات الشخصية ، وعلى وجه الضبط من سعي المرء الى ان يبرر امام قواعد الاخلاق البورجوازية حياته الجنسية غير العادية او المتطرفة ، ويطلب التساهل حياله ، ان هذا الاحترام المموه لقواعد الاخلاق البورجوازية ، انما امقته بقدر ما امقت الانهماك عن حب في قضايا الجنس» • (٥٨) ورفض لينين بشدة تلك الفكرة التي كانت ترى ان تلبية الرغائب الجنسية وحاجة الحب امر بسيط كشرب كأس من الماء ، وقال «انا اعتبر ان نظرية(كأس الماء) الشهيرة ليست ماركسية اطلاقا ، ناهيك عن انها مناقية للمجتمع • ففي الحياة الجنسية لا يتبدى ما اعطته الطبيعة فحسب ، بل يتبدى ما ادخلته الثقافة ايضا ••• ان شرب الماء مسالة فردية فعلا • ولكن اثنين يشتركان في الحب وتظهر حياة ثالثة جديدة ، هنا تكمن المصلحة الاجتماعية ، وينبثق الواجب حيال الجماعة» • (٥٩) •

فالمسالة اذن ، ما كانت ، ولا يمكن ان تكون ، تلبية رغبات جنسية بدون ضوابط

يضعها المجتمع ، وان المسألة هي تحرير النساء وانعتاقهن من اطار المفاهيم البورجوازية التي تجعل منهن مجرد اجساد تشتهى ، ومجرد دمى واماء للموضة ، تحرير العلاقة بين الرجل والمرأة من كل عوامل القهر والقسر والاستلاب ، بجعلها تقوم على الاختيار الحر والحب المتبادل ، تحرير المجتمع من البغاء ، الذي هو صفة من صفات المجتمع البورجوازي «فما دامت العبودية المأجورة قائمة ، فان الدعارة ستظل قائمة» • (٦٠) لقد كان للنساء الفضل الاول في انتقال المجتمع من الزواج الجماعي الى الزواج الاحادي • وما ان حقق الرجل هذه الخطوة ، حتى استغلها في فرض التحريم الكامل على المرأة ، واباح لنفسه تعدد الزوجات والتسري بالجواري والاماء ، وجعل من المرأة مجرد عبدة شهواته ونزواته• والزواج البوزجوازي الحالي ، كله نفاق ورياء ، ولا يقوم الا على المصلحة الخاصة فهو عملية تجارية ، وصفقة تجارية تحسب فيها حسابات الربح والخسارة قبل اي حسابات اخرى • والمرأة في كثير من الاحيان ليست بعيدة عن هذا المفهوم التجاري للزواج ، والذنب في ذلك ليس ذنبها ، بل ذنب الرجل اساسا • فالمرأة تربى على اساس ان تكون مشتهاة وتكون جسدا ، تربى على اساس ان تكون زوجة تعرف كيف تلبي رغبات زوجها ، واذا اعطيت حرية الاختيار ، فانها قد تقع في خطأ الاختيار لانها لم تعط الفرصة ، ولا الثقة الكاملة بنفسها حتى تحسن الاختيار • وعندما تصبح المرأة اداة انتاج ، عاملة ومنتجة ، وعندما تنشأ وتربى باعتبارها انسانا ، وتعطى الفرصة الكافية مثلها مثل الرجل ، في تنمية مواهبها وقدراتها ، في الاحتكاك بالمجتمع ، في التصادم بالمشكلات وحلها ، فانها ستحسن الاختيار والتصرف • ولن تكون مكرهة او مضطرة لعلاقة لا تقوم على الحب المتبادل •

وللوصول الى وضع كهذا ، الى مجتمع تملك فيه النساء حريتهن وينعتقن من اسار المفاهيم التي تستلب منهن انسانيتهن ، لا بد من نضال مرير ، تخوضه المرأة مع الرجل لتحرير المجتمع من كل اشكال الاضطهاد والاستغلال •

[٥]

المرأة والثورة

مع اشتراك جماهير واسعة من النساء في العمل المأجور نتيجة التطور الصناعي الذي شهدته بلدان اوروبا الغربية ، طرحت مسألة تحرر المرأة بشكل جدي ، وكما لم تطرح في اي فترة سابقة • فالتطور الصناعي كان يجذب المزيد من النساء الى العمل خارج البيت، في حين ان تقاليد المجتمع كانت تحد من هذا الاشتراك الواسع للنساء في الانتاج • اضافة الى ذلك فان المرأة العاملة في ظل استمرار التقاليد السلفية ، كان كاهلها ينوء تحت عبء مثلث لا يطاق ، عبء العمل ، وعبء الاعمال المنزلية وعبء رعاية اطفالها ، اضافة الى استغلال صاحب العمل لها ، مثلها مثل الرجل ــ العامل في هذا المجال • وحيث انهليس بالامكان مواجهة هذه المسألة بمنع النساء منالعمل وعودتهن الى البيت ــ كما كان يطالب بعض المثاليين ــ لان التطور الصناعيكان يفرض جذب المزيد من اليد العاملة الى العمل ، رجالا كانوا ام نساء ، فكان لا بد من ايجاد حل لهذه المسألة ، وكان لا بد للنساء من ان يناضلن نضالا مريرا للحصول على حقوقهن واعتراف المجتمع بمساواتهن

بالرجال · ولقد تعددت اشكال نضالات المرأة واساليب عملها التنظيمية للحصول على حقوقها وانتزاع حق مساواتها بالرجل ·

في البداية ، منذ عصر النهضة وبدايات الرأسمالية ، كان الشكل الغالب بل الوحيد على نضالات المرأة ، هو الحركات النسوية المحضة ، وهي حركات بوجروازية ، كانت تطالب بانصاف المرأة ومساواتها بالرجل ، دون ان تتطرق الى ربط مسألة تحرر المرأة بتحرر المجتمع · ولذلك كانت هذه الحركات قاصرة عن اجتذاب جماهير النساء العاملة· واقتصرت على البورجوازيات والمثقفات من النسوة ، اضافة الى ان العديد من هذه الحركات كانت تتسم بسمة سلبية وهي احتقار الرجل · (٦١) وتذكر شيلا روبتهام في كتابها «الثورة وتحرر المرأة» ص ٢٨ حول تأثير بدايات الرأسمالية على الحركة النسائية فتقول «لم يكن تأثير بدايات الرأسمالية في جميع النساء واحدا ، فقد تنوعت عواقبها وتفاوت وقعها بحسب اختلاف الاوساط النسائية · وبوجه العموم ، عملت على تشتيت المصالح والآمال اكثر مما اثارت وعيا نسويا وحدويا · وكانت النسوية في ذلك الطور الاول تتطابق مع اصوات ومطامح افكار قليلة من النساء ، وكانت عاجزة عن تشكيل حركة ، وكان من الصعوبة بمكان الانتباه الى الترابط بين النسوية وفكرة تحويل شامل للمجتمع» · ولكن منذ اواسط القرن التاسع عشر ومع بروز التنظيمات والاحزاب الاشتراكية دخلت مسألة تحرر المرأة طورا جديدا ، عندما جرى التأكيد على عدم اعتبارها مسألة نسوية ، وانها مرتبطة بتحرر المجتمع اي بالثورة الاجتماعية · ولم يكن الوصول الى هذا الموقف بالامر السهل · فالعمال من الرجال لم يكونوا ليتقبلوا بسهولة فكرة تحرر المرأة بحكم ما كانوا يحملونه من افكار سلفية حول دونية المرأة وضرورة خضوعها للرجل، اضافة الى ذلك ، فقد كانوا يجدون في النساء قوة منافسة لهم في العمل ، حيث كان اصحاب الاعمال يلجأون الى تشغيل النسوة لكسر اضرابات العمال ، او لان النسوة كن يتقاضين اجرا اقل من الرجال · (٦٢) ولذلك كان العديد من النقابات العمالية يقفل ابوابه في وجه النساء ، وكان بعض الاحزاب الاشتراكية يرفض انضمام النسوة اليه· (٦٣) وفي مواجهة هذا الموقف كان عدد من النسوة يؤكد ان لا امل يرتجى من الرجال كفئة لتحرير النساء ، ويؤكد على ضرورة تنظيم النساء لانفسهن للنضال من اجل انعتاقهن · ومن هؤلاء اليانور ابنة كارل ماركس ، التي اكدت في كتابها «المسألة النسائية : وجهة نظر اشتراكية» ان لا امل يرتجى من الرجال ، وقالت «على الطبقات الرازحة تحت الاضطهاد وعلى النساء ، وعلى منتجي الخيرات ، ان يفهموا ان انعتاقهم ، لا يمكن ان يتأتى الا من جهودهم بالذات · وسوف تجد النساء حلفاء لهن بين ذوي القدر والشأن من الرجال، مثلما سيجد الرجال لهم في شخص الفلاسفة والفنانين والشعراء · ولكن ليس للنساء ان يأملن شيئا من الرجال كفئة ، كما انه ليس للعمال ان يأملوا شيئا من الطبقة المتوسطة كطبقة» · (٦٤) غير ان هذه الافكار اخذت بالزوال عندما اعطت الاحزاب الاشتراكية ، اهمية واعتبارا لمسألة تحرر المرأة ، وعندما بدأت هذه الاحزاب تؤكد في برامجها وفي مجمل سياساتها على هذه المسألة ، باعتبارها مسألة تدخل في صلب الثورة ، وتعد احدى اسس تحرر اي مجتمع برجاله ونسائه من الاستغلال والاضطهاد بكل اشكالهما والوانهما · ولكن على الرغم من حسم هذه المسألة لدى العديد من الاحزاب الاشتراكية ، فقد برزت بعض الاختلافات في وجهات النظر حول بعض المسائل النظرية في مسألة تحرر المرأة وحول الاشكال التنظيمية لنضال المرأة السياسي · وفي ما يتعلق بالمسائل النظرية فقد عالجناها في الفصول السابقة ، وكانت معظمها تدور حول ارتباط مسألة تحرر

المرأة بالحب الحر او التحرر الجنسي · وكان لينين واضحا في هذا المجال ، عندما ادان افكار الشيوعيين السوفيين حول الارتباط الحر بين الرجل والمرأة ، كما كان واضحا في تأكيده على ان المسألة الاهم والتي تحظى بالاولوية في تثقيف الجماهير النسوية ، هي كيف يجري ربطهم بالثورة وليس كيف يحبون ؟ ففي حديث له مع كلارازنتكين قال حول هذه المسألة رافضا اشغال فكر العاملات بمسألة الحب على حساب الثورة : «ان الامور ، مرهونة باوقاتها ، فقولي لي من فضلك ، هل الوقت الان ، وقت اشغال فكر العاملات شهورا كاملة كيف يحببن وكيف يكن محبوبات ، كيف يغازلن وكيف يقابلن المغازلة ··· الان يجب ان تكون جميع افكار العاملات موجهة نحو الثورة البروليتارية ، فهي تخلق كذلك الاساس لاجل تحديد شروط الزواج والعلاقات بين الجنسين بصورة فعلية » · (٦٥)

وفيما يتعلق **بالاشكال التنظيمية** فقد كان الخلاف يدور حـــول وجهتي نظر اساسيتين ، **الاولى** : كانت ترفض الاقرار بوجود وضع خاص للمرأة مما يفرض وجود اشكال تنظيمية خاصة بها اضافة الى انضمامها الى الحزب ومشاركتها في العمل الحزبي والتنظيمي ، **والثانية** : كانت تؤكد وجود وضع خاص للمرأة يفرض ايجاد اشكال تنظيمية خاصة بها تكون تحت اشراف الحزب وايديولوجيته ، اضافة الى اشتراك المرأة العام في عضوية الحزب ومشاركتها في مجالات عمله المختلفة السياسية والتنظيمية والعقائدية · ولقد انتصرت وجهة النظر الثانية ، والتي اكدها لينين بقوله «ومن مفهومنا الايديولوجي تنبع كذلك الاجراءات التنظيمية · لا منظمات منفردة خاصة للشيوعيات ، فان الشيوعية هي عضو في الحزب مثل الشيوعي وبنفس الواجبات والحقوق ، وفي هذا لا يمكن ان تكون اي خلافات · ولكن يجب ان لا نغمض عيوننا عن الوقائع ، ينبغي ان تكون عند الحزب ، هيئات ، فرق عمل ، لجان خاصة ، لجان اقسام ، او حسبما يسمونها هناك ، تكون مهمتها الخاصة ايقاظ جماهير النساء الغفيرة ، وربطها بالحزب وابقاؤها تحت نفوذه ··· ان انكار ضرورة الهيئات الخاصة لاجل عملنا بين الجماهير النسائية الفقيرة هو احد مظاهر الموقف المبدئي جدا والراديكالي جدا الذي يقفه ــ اصدقاؤنا الاعزاء ــ من حزب العمال الشيوعي ، فبرأيهم انه يجب ان يقوم شكل واحد فقط للتنظيم هو الاتحاد العمالي ··· فنحن لا يسعنا ان نقيم ديكتاتورية البروليتاريا بدون ملايين النساء ، نحن لا يسعنا ان نقوم بالبناء الشيوعي بدونهن · يجب علينا ان نفتش عن الطريق اليهن ، يجب علينـــا ان ندرس الكثير ونجرب الكثير مرارا لكي نجد هذا الطريق» · (٦٦) واكدت الكسندرا كولونتاي وجهة النظر هذه ايضا ، فهي ترى «ان نوعية المرأة العاملة وبعث الحياة في ارادتها لا يكون الا باعتماد اسلوب خاص في مخاطبتها ، الا باستخدام اساليب متخصصة للعمل بين النساء» ذلك ان تكوين المرأة النفسي يختلف عن تكوين الرجل تحت تأثير عبودية القرون ، فالرجل اكثر استقلالا وحزما وشعورا بالتضامن · ثم ان افقه اوسـع لانه ليس سجين العلاقات العائلية الضيقة · وتوضح كولونتاي مهمة اللجان الخاصة او مكاتب النساء الملحقة بالحزب ، بأنها (١) الاضطلاع بعمل تحريضي متخصص متلائم مع مستوى مشاكل جمهور النساء ذي الوعي المتدني ، وتنمية وعي العاملات ورفعه الى مستوى وعي الاعضاء الحزبيين ، ودفع النساء الى حلبة الصراع الثوري · (٢) تمكين العاملات من طرح المطالب الخاصة بهن بوصفهن نساء والدفاع عنها : الامومة ، رعايـة الاطفال ، الحد الادنى للاجور لعمل الاطفال والنساء ، مكافحة البغاء ، تخفيف اعباء العمل المنزلي ، وغيرها · (٦٧) ·

وهذا لا يعني ان هناك شكلا تنظيميا محددا ووحيدا لجذب النساء الى العمل السياسي وحلبة الصراع الثوري ، فما يحدد طبيعة الشكل التنظيمي هو الظروف الموضوعية القائمة في كل بلد ، والمدى الذي بلغته حركة تحرير المرأة فيه • فكلما كانت جماهير النساء اقل وعيا ، واقل انجذابا للعمل الثوري ، وكلما كانت مسألة تحرر المرأة في مراحلها الاولى، كلما كانت الحاجة ملحة الى اشكال تنظيمية خاصة للنساء اضافة الى العمل الحزبي التنظيمي ، والعمل النقابي • وكلما تقدمت مسألة تحرر المرأة ، كلما قلت الحاجة الى مثل هذه التنظيمات الخاصة • ذلك انه خلال مراحل النضال المختلفة ، لا تطرح فقط مسألة وعي المرأة ـ العاملة والفلاحة ـ المتدني بفعل تراكمات قرون العبودية ، بل وايضا لا بد من النضال من اجل تحقيق عدد من المطاليب الخاصة بالنساء ، وهي مطاليب الامومة ، رعاية الاطفال ••• الخ • لا بد من النضال من اجلها في كل مجتمع بورجوازي ، او في مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية ، وحتى في المرحلة الاولى من الثورة الاشتراكية • حيث يتخذ النضال هنا ، وفي هذه المرحلة من الثورة الاشتراكية ، نضالا ايديولوجيا ضد المفاهيم السلفية الرجعية ، ولاستئصال وجهة النظر الاستعبادية القديمة من آخر واصغر جذورها ، وهو نضال ، اضافة الى انه يستهدف توعية النساء بقضيتهن ، فانه يتضمن بالدرجة الاولى نوعا من العمل التربوي بين الرجال الذين لا يزالون اسرى افكار المجتمع القديم • وهي مطالب يجب على الاحزاب والحركات الثورية ان تضمنها برامجها وان تناضل من اجلها ، وهي تناضل في سبيل التغيير الشامل والعام للمجتمع • ولكن كما يؤكد لينين ، فان النضال من اجل هذه المطالب النسوية يجب ان لا يكون على حساب الثورة وخطها العام بل بالارتباط الدائم مع المصالح العامة للثورة «ومفهوم انه لا يجب علينا في دعايتنا ان نستعمل مطالبنا لاجل النساء كمسبحة للصلاة كلا ، فتبعا للظروف القائمة ، يجب علينا ان نناضل تارة من اجل هذه المطالب ، وطورا من اجل تلك ، وان نناضل طبعا ، بالارتباط الدائم مع المصالح العامة للبروليتاريا •»(٦٨) وثمة كثيرون من الثوريين لا يرون بوضوح كاف هذا الارتباط الدائم بين النضال من اجل تحقيق بعض المطالب النسوية والمصالح العامة للثورة فيجري في بعض الاحيان تغليب المطالب النسوية على المصالح العامة للثورة ، ويجري في احيان اخرى رفض اي نضال او توجه من اجل تحقيق بعض المطالب النسوية ، بحجة ان الوضع الثوري لم ينضج بعد، او ان هناك ما هو اهم من ذلك • وكلا الموقفين خاطىء • لان الموقف الثوري هو الذي يقوم على تأكيد هذا الترابط ويعمل على توطيده خلال النضالات اليومية بين اوسع الجماهير ـ رجالا ونساء ـ فتحقيق بعض المطالب النسوية الخاصة في مجرى النضال ، هو دعم للثورة لانه يساعد على تحرير بعض طاقات المرأة ويدعم قدراتها النضالية • كما ان اي تقدم في وضع الثورة العام ، يصب في المجرى العام لتحرير المرأة •

الحواشي

(١) اقوال لشارل فوريه ، اكدها كارل ماركس وفريدريك انجلز ، وفوريه مفكر اشتراكي خيالي ، كان من الاوائل الذين دافعوا عن المرأة وطالبوا بتحررها •وعبر عن آرائه هذه في كتابه « نظرية الحركات الاربع » • الا ان فوريه شانه شان سائر الاشتراكيين الخياليين ـ باستثناء السان سيمونيين الذين عارضوا تحرر المرأة ـ خلط بين تحرر المرأة والاباحة الجنسية ، وهو لم يدرك ان تحرر المرأة رهن بالتطور التاريخي ، بل كان كل ظنه ان هذا التحرر مرهون بحرية العواطف والعلاقات

الجنسية وحدها ٠

(٢) تشكل النساء في الاتحاد السوفياتي ٥ر٤٥ بين كل العاملين في الصناعة و٥٣ ٪ بين الاختصاصيين من ذوي التعليم العالي و٣٦ ٪ بين الشغيلة العلميين ٠ وفي جمهورية القرغيز بلغ عدد النساء العاملات في الصناعة ٤٠ / من مجموع العاملين ، وفي جمهورية التركمان بلغت ٥٠ ٪ ، وفي جمهورية اوزبكستان ٤٥ ٪ ، انظر المرأة والاشتراكية ص ٢٣٠ و٢٣٥ ٠ ولكن على الرغم من هذا الشأن المتطوّر الذي بلغته المرأة في الاتحاد السوفياتي ، فان آثار النظرة الاقطاعية الى المرأة لم تمح كليا بعد وبشكل خاص في جمهوريات آسيا الوسطى٠ المصدر نفسه ٠ ص ٢٣٥ ٠

(٣) طرابيشي ، جورج « مترجم » المرأة والاشتراكية ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٣ ص ٢٣٥ ٠ وبهذا الخصوص ، تذكر فيرابلشاي في مقال لها « المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية » ـ المصدر نفسه ـ انها حضرت جلسة لمحكمة سمرقند الشعبية ، انعقدت بناء على طلب زوجة رفعت دعوى للطلاق ضد زوجها لانه كان يرغمها على وضع الحجاب ويمنعها من العمل في الكولخوز ويضربها ٠

(٤) انجلز ، فردريك ، اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، دار التقدم ٠ موسكو ٠ الطبعة العربية ص ٩٤ ٠

(٥) المصدر نفسه ٠

(٦) قاسم امين كاتب ومصلح اجتماعي مصري ، كان من اوائل المصريين الذين دعوا الى تحرير المرأة ودعا الى سفورها وتعليمها ٠ عرض اراؤه في كتابيه ـ تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ـ وقد ووجهت دعوته بمعارضة شديدة من شيوخ الازهر ٠ اما رفاعة رافع الطهطاوي ، فهو مصلح اجتماعي مصري ايضا دعا الى تعليم المرأة ، واصدر كتابا ، « المرشد الامين في تعليم البنات والبنين » حض فيه على تعليم الفتيات وقد منع كتابه من التدريس في المدارس المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، لانه كان يدعو لتعليم البنات ٠ ويذكر سلامة موسى في كتابه « المرأة ليست لعبة الرجل » ص ١٠٣ « ان الناظرة الانجليزية لمدرسة السنية الابتدائية كانت تحتم على تلميذاتها اتخاذ البرقع» ٠

(٧) روبتهام ، شيلا « جورج طرابيشي مترجم » الثورة وتحرر المرأة ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٥ ص ١٣٠ ٠

(٨) العقاد ، عباس محمود ، المرأة في القرآن ، القاهرة ، دار الهلال ص ٨

(٩) انظر سيكولوجية المرأة ، ج ، هانيس ٠ د٠ سامي الدروبي « مترجم » دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ٢٣٨ و٢٣٩ ٠

(١٠) د٠ ابراهيم ، زكريا ، سيكولوجية المرأة ، القاهرة مكتبة مصر ص ١٧ ٠

(١١) المصدر نفسه ص ٢٩ ٠

(١٢) المصدر نفسه ص ٤٦ ٠

(١٣) د٠ سعداوي ، نوال ، المرأة والجنس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، طبعة ثانية ، بيروت ١٩٧٢ ص ٧٠ ٠

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٥٢ و٥٣ ٠

(١٥) المرأة والاشتراكية ص ١٢٣ ٠

(١٦) سيكولوجية المرأة ج٠ هانيس ص ٢٤٢ ٠

(١٧) د٠ سعداوي ، نوال ، المـــرأة والجنس ص ١٤٩ ٠

(١٨) المرأة والاشتراكية ص ١٣١ ٠

(١٩) موسى ، سلامـة المـرأة ليست لعبة الرجل ،سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة ، ص ١١ و١٢ ٠

(٢٠) لينين بصدد تحرير المـرأة ص ٠٦٧ وتقول شيلا روبتهام « الثورة وتحرر المرأة ص ٤٧ « ان الانجاب المتواصـل والمرض والبطالة والبؤس مزروعة امـام المرأة كرأس ميدوزا ، اضافة الى ذلـك صراخ وجلبـة اربعـة او خمسة اولاد يدورون حولها في حجرة ٠ ولا بـد للمرء ان يكون ملاكا حتى لا يتبلد ذهنه بفعـل ذلك كله » ٠

(٢١) انظر موسى ، سلامة ، « المـرأة ليست لعبة الرجل» ص ٦٣ ٠

(٢٢) عرض اقتصادي تاريخـي ، دار التقدم موسـكو ، الطبعة العربيـة ج ١ ص ٢٧ و٢٨ ٠

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ٠

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩ ٠

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣ ٠

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٣٤ ٠

(٢٧) اصل العائلة والملكية الخاصـة والدولة ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ٠

(٢٨) للمزيد حول الزواج الجماعـي وانحلاله لضيق دائرة الزواج انظـر : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولـة مصدر سابق ـ ص ٤٥ـ٦١ ٠

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٦٥ ٠

(٣٠) المصدر نفسه ص ٦٦ ٠

(٣١) المصدر نفسه ص ٧٧ ٠

(٣٢) المصدر نفسه ص ٨٢ ٠

(٣٣) المصدر نفسه ٠ ص ٥٩ ٠

(٣٤) المصدر نفسه ص ٦٩ـ٧٠ ٠

(٣٥) المصدر نفسه ص ٧١ ٠

(٣٦) انجلز ، مصدر سابق ص ٧٣ ٠

(٣٧) المرأة والاشتراكية ، ص ١٩ ٠

(٣٨) نصار ، حسني ، حقوق المرأة في التشريع الاسلامي والدولي المقارن ، دار نشر الثقافة ، الاسكندرية ، طبعة ثانية ص ٥٠ ٠

(٣٩) المرأة والاشتراكية، مصدر سابق ص ٢٠ ٠

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ و٢٠٢ ٠

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ ٠

(٤٢) مندنسي ، كاترينا ، الطريـق الحقيقية الى المساواة الحقيقية ، مجلـة الوقت ، عـدد اكتوبر ١٩٧٤ ص٠ ٦٧ ٠

(٤٣) لينين ، بصدد تحرير المـرأة ص ٧٩ ٠

(٤٤) اصل العائلة ص ٩٤ ٠

(٤٥) المرأة والاشتراكية ص ١٢٣ ٠

(٤٦) لينين بصدد تحرير المرأة ص ٨٠ ـ٨١ ، ٤٧ ، المصدر نفسه ص ٧١ ٠

(٤٧) اصل العائلة ٠٠٠ ص ٢١٤ ٠

(٤٨) اصل العائلة ٠٠٠ ص ٢١٤ ٠

(٤٩) اصل العائلة ص ٩٣ ٠

(٥٠) لينين ، بصدد تحرير المرأة ص ٦٧ ٠

(٥١) منديس ، كاترينا ... مصدر سابق ص ٦٦ .

(٥٢) اوغست بيبل « المرأة في الماضي والحاضر والمستقبل » باريس ١٨٩١ نقلا عن الثورة وتحرر المرأة ص ٧٤ .

(٥٣) كارل ماركس ، مخطوطات ، ١٨٤٤ : الاقتصاد السياسي والفلسفة ، الياس مرقص « مترجم » منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧٠ ص ٢١٢ .

(٥٤) الاشتراكية والمرأة ص ٦٥ .

(٥٥) اصل العائلة ص ١٠٤.

(٥٦) لينين بصدد تحرر المرأة ص ١١٨ .

(٥٧) المرأة والاشتراكية ص ٧ ٨.

(٥٨) لينين بصدد تحرر المرأة ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٥٩) المصدر نفسه ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٦٠) المصدر نفسه ص ٢٩ .

(٦١) انظر : الثورة وتحرر المرأة ص ٢٤ . هذا ونجد اعادة لامثال هذه الحركات في المجتمعات الرأسمالية وبشكل خاص في الولايات المتحدة الاميركية ،وهي التي تعرف باسم حركات التحرر النسائي women's Lib وهي حركات لا تخلو من المبالغة والمغالاة والتطرف ، ولكن احتقارا للرجل ، وللاسف فان افكار هذه الحركات الفوضوية تلقى انتشارا لا باس به في اوساط بعض النساء المثقفات في عالمنا العربي .

(٦٢) انظر : الثورة وتحرر المرأة ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٦٣) انظر : كولنتاي ، الكسندرا ، تحرير المرأة العاملة ، فواز طرابلس و... « مترجم » « دار الطليعة » ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٢ ص ٨٦ .

(٦٤) الثورة وتحرر المرأة ص ٧٨ .

(٦٥) لينين بصدد تحرر المرأة ص ١١٢ و١١٣ .

(٦٦) لينين بصدد تحرير المرأة ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٦٧) كولنتاي ، الكسندرا ، تحرير المرأة العاملة ص ٥٨ و٥٩ .

(٦٨) لينين بصدد تحرير المرأة ص ١٢٥ .

التركيب الاقتصادي لشرق الأردن
مقدمات التطوّر المشوّه (١٩٢١/١٩٥٠)

هاني حوراني

القسم الاول :ـ

شكلت الحرب العالمية الاولى منعطفا تاريخيا حاسما بالنسبة لمعظم بلدان المشرق العربي ، تقررت فيه شروط تطورها الاقتصادي ـ الاجتماعي لمصلحة الامبريالية والاقتسام الامبريالي · فمن جهة ادى التقاسم الغربي (البريطاني ـ الفرنسي) للمنطقة ، الى عزل اجزائها المختلفة عن بعضها البعض والى حرمانها من فرص وامكانيات التطور الشامل والمتكامل ، واخضعها من جهة اخرى الى درجات وانماط مختلفة من التطور التبعي (الكولونيالي) ، غير المتساوي خلال حقبة كاملة ، الامر الذي ضاعف من صعوبات اعادة توحيدها ·

كان الاقتصاد المحلي قبيل الحرب الاولى في كل من « بلدان » المشرق العربي ، وخاصة فيما يعرف بسورية الطبيعية يتطور باتصاله الوثيق بالاقتصاديات المحلية للاجزاء الاخرى · وعلى الرغم من التخلف العام للمنطقة وتفسخها الاقطاعي في ظل نظام السيطرة العثمانية ، الا ان اساس وحدتها وشروط تطورها الموحد والشامل كان متوفرا ، بدلالة نهوضها القومي والنضالي ضد الاستبداد العثماني منذ نهاية القرن الماضي ، وبدلالة تبلور حركتها القومية من اجل التحرر والاستقلال والوحدة قبيل الحرب الاولى · لكن الاقتسام الامبريالي ـ البريطاني ـ الفرنسي للمنطقة ، حرم اجزائها المختلفة مزايا وافضليات التطور والنهوض الواسع والممركز والمترابط · الامر الذي اضعف فرص تراكم رأسمالي سريع وامكانيات تجديد الانتاج بشروط افضل ·

ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل ادى الاقتسام الامبريالي الى تعطيل سير التطور الاقتصادي الوطني وفق القوانين والشروط الداخلية لكل بلد · حيث كبح او عطل مفعول الشروط الطبيعية للتطور الوطني المستقل ، وحكم تطور هذه البلدان قانون التطور التبعي (الكولونيالي) · هذا القانون الذي ادى الى احتجاز

تطور القطاعات الاقتصادية التقليدية من جهة ، والى تشويه التركيب العام للاقتصاد الوطني من جهة ثانية ، فتحت تأثير الشروط الخارجية (حاجات الامبريالية وسياستها الاقتصادية ، والصلة الناشئة مع السوق الرأسمالي) قامت قطاعات اقتصادية جديدة موازية للقطاعات التقليدية • ولم يكن تطور وقيام هذه القطاعات الحديثة يعكس حاجات التطور الاقتصادي الوطني ، بل بالعكس يعكس حاجات البلد المستعمر • وكان نمو هذه القطاعات بوتيرة سريعة تحت تأثير الاخيرة الى جانب ضمور القطاعات الاقتصادية التقليدية ، يفقد الاقتصاد الوطني في كل بلد على حدة ، طابع التوازن والانسجام ، بل ويعطي الاقتصاد الوطني اكثر فاكثر صفة التطور القطاعي او التطور وحيد الجانب •

في ظل السيطرة الكولونيالية والتطور التبعي ، كانت اقطار المشرق العربي تفقد شيئا فشيئا مقومات النهوض الاقتصادي الوطني المستقل والمتوازن ، وتبرز صفات تشوهه وتطوره وحيد الجانب ، حيث تطورت بالاساس فروع القطاع الثالث (التجارة والخدمات والامارة والدفاع) •• بالاضافة الى فرع انتاجي واحد (ولا سيما ستخراج البترول وتصديره) •

وكان مركز الثقل ينتقل من فروع الاقتصاد الوطني التقليدية نحو واحد او اكثر من هذه القطاعات الجديدة • فهو اما يكون قد انتقل الى قطاع التعدين واستخراج الخامات وتصديرها ، او الى التجارة ، او يكون قد انتقل الى جهاز الدولة والدفاع ، كجهاز متمول من الخارج ومشغل رئيسي لقوة العمل المحلية ، كما هو الحال مع شرقي الاردن •

كانت البقعة التي عرفت بعيد الحرب الاولى باسم شرقي الاردن اكثر اجزاء سورية الطبيعية تخلفا ولهذا السبب ، ولاسباب متعلقة بالنمط الخاص من السيطرة الكولونيالية كان شرقي الاردن البلد الاكثر تاثرا من عواقب الاقتسام الامبريالي • فقد استفادت الكولونيالية البريطانية من التأخر الفادح للقوى المنتجة في شرق الاردن ومن عدم مواتاة الشروط الاجتماعية والاقتصادية او المقدمات الموضوعية لتطور القوى المنتجة وللنهوض الوطني ، من اجل فرض نمط او نموذج خاص من السيطرة والتطور التبعي ، الذي ادى بدوره الى اضعاف قيام هذه المقدمات الموضوعية التي من شانها ان تعجل انجاز التحرر والاستقلال الوطني •

ومن وجهة النظر الخاصة بشرقي الاردن ، كانت جماهيرها اكثر تضررا ومعاناة من الاقتسام الامبريالي •واكثر «شعوب» المنطقة مصلحة فيربط تطورها (اي شرقي الاردن) الاقتصادي ـ الاجتماعي بباقي الاجزاء السورية • اذ كان من شان ذلك اتاحة

فرص اكبر لهذه المنطقة ، التي تعاني من تدني مضاعف في تطور قواهـا المنتجة، لتعويض هذا الضعف والتاخر بالاعتماد على تطور القوى المنتجة في المناطـــق الاخرى من سورية • مع ما يفتح ذلك من فرص امام تطوير وسائـل الانتـــاج وعلاقات الانتاج المحلية ، ولذلك فانه ليس عرضا ان ترتبط اكثر القوى الاجتماعية تطورا ونضجا في البلاد بالنضال الوطني المعادي للامبريالية وللاقتسام الامبريالي وبالاحزاب الوطنية السورية بعيد الحرب الاولى مباشرة ، والتي كانت في مقدمة اهدافهـا تحرير سورية من الانتداب الفرنسي •

اعتمادا على المستوى المتدني جدا من تطور القوى المنتجة في شرقـي الاردن ، امكن توطيد نمط خاص من السيطرة الكولونيالية ، ومن التطور التبعي والمشوه ، كان عماده الرئيسي الانفاق والمساعدات الخارجية على جهاز الدولة والجيش ، هذا الجهاز الكولونيالي ، المغلف بغلاف محلي • لقد تكفل هذا النمط الخاص من التطور التبعي باضعاف القطاعات المنتجة التقليديـة وبتضخيـم القطاعـات الثالثية (الخدمات الحكومية والخاصة) بشكل مفرط ، وبتحويل غالبية القـوى المنتجة الى فئات رثة ، غير منتجة ، الامر الذي صبغ الاقتصاد الوطني بسمـات فريدة وخاصة الى حد كبير ، حتى اليوم •

وحتى نتمكن من دراسة هذا النمط الخاص من التطور التبعي الذي خضـــع له شرقي الاردن وقبل دراسة التركيب الاقتصادي في السنوات (١٩٢١ /١٩٥٠) لا بد من القاء بعض الضوء على المقدمات والظروف التي افسحت المجال امـام رسوخ وتوطن هذا النمط من التطور التابع ، الفريد نوعا عن سمات التطـــور الكولونيالي في غالبية الاقطار التابعة والمتخلفة •

١ ـ الملامح الرئيسية للتركيب الاجتماعي ـ الاقتصادي لشرقي الاردن قبيـل الحـرب الاولى •

دخل شرقي الاردن كوحدة سياسية منفصلة عن سورية ، عالم المستعمـرات كبلد متعدد النماذج الاقتصادية • وكانت معظمها تعكس مستوى متدن من التطور، فهي جميعا مراحل مختلفة من النماذج ما قبل الراسمالية ، حيث قامت في مناطق البلاد المختلفة النماذج الرئيسية التالية :

١ ـ النموذجين المشاعي الرعوي ، والمشاعي الرعوي ـ الزراعي (نصـف المتنقل) وهذان النموذجان كانا يضمان نصف السكان تقريبا (٧ر٤٥٪ مـن السكـان) •

٢ ــ النموذج الاقطاعي وشبه الاقطاعي والى جانبه النموذج البضاعي الصغير. وهما النموذجان اللذان يضمان النصف الاخر من السكان (في الريف والبلدات الصغيرة) (١) .

وهذا يعني ان البلاد كانت ذات مستوى منخفض من حيث تطور القوى المنتجة ، وتتميز بسيطرة قوية للطبيعة ، وببدائية وسائل وتكنيك الانتاج ، وانخفاض انتاجية العمل لدى السكان وخضوع هذه الانتاجية الشديد للطبيعة والمناخ . تكمن سمة الاقتصاد الطبيعية ــ الاكتفائية او المعيشية في ان القسم الاعظم من الانتاج كان يستهلك من قبل المنتجين انفسهم ، وفي محدودية التبادل البضاعي آنذاك . فقد كانت الحرف والصناعات محدودة للغاية ومرتبطة بالزراعة بشكل رئيسي .

ان انخفاض تطور القوى المنتجة والخضوع الشديد للطبيعة والمناخ يفسر ضعف الفائض واحيانا انعدامه.وفيما عدا مناطق محددة في شمال ووسط وغرب البلاد ، التي كانت تفلح في تجديد انتاجها ، ويزداد الحيز البضاعي من انتاجها، كانت الاقسام الاخرى (ولا سيما الشرق والجنوب ومناطق في الوسط) من البلاد لا تكاد تحقق اعادة الانتاج البسيط كل عام . مما كان يعرض السكان للمجاعات والامراض والكوارث . وهو ما كان يتسبب في تجدد موجات الغزو والهجرة ، ودمار القوى المنتجة ووسائل الانتاج ، اثناء الغزوات والمناوشات والحروب القبلية (٢) .

ان واقع التصاق المناطق الزراعية والحضرية بما بات يشكل شرقي الاردن بالصحراء من جهة الشرق والجنوب ، بل وكون القسم الغالب من مساحة شرقي

---

(١) ــ تقدير اعتمد على توزيع السكان حسب انماط معيشتهم وانتاجهم الاساسية . راجع جدول رقم (١) عن عدد سكان القرى والبلدات ، والعشائر في عام ١٩٢٢ ، في هذه الدراسة .

(٢) في النواحي الشمالية للبلاد نشأت بعد سقوط المماليك ما يشبه الدويلات ،« كانت كل واحدة منها تحت سيطرة رئيس قوي الشكيمة يتولى قيادة القرويين في صد الغارات البدوية عن منطقته والدفاع عن حوزتها وكيانها » . (...) ورؤساء هذه النواحي يتوسطون ما بين سكانها وبين السلطة ، وليس من المحتم ان تنتقل الزعامة فيها من الاب الى الابن ، لكنها تبقى غالبا في نفس العائلة ولا تخرج منها . وحين لا يرث الابن اباه في الزعامة ينتخب الرئيس او الشيخ انتخابا : راجع فردريك بيك : تاريخ شرقي الاردن وقبائلها (القدس ١٩٣٤) ، ص ١٦٥ .

الاردن اراضي صحراوية او شبه صحراوية (٣) · فضلا عن تدني معدل هطول الامطار وخصب الاراضي في غالبية المناطق الاردنية ، هذا الواقع ، اي مجمل الظروف والشروط الطبيعية غير المناسبة قد جعل مناطق شرقي الاردن تعاني اضعافا مضاعفة من الدمار والتخريب الذي حمله نظام السيطرة العثماني الى المنطقة عموما · وبالاجمال عانت « شرقي الاردن » اكثر مما عانت بقيـة الاجزاء السورية من نظام السيطرة العثماني ، ففضلا عن اشكال النهب والتخريب الذي حملته هذه السيطرة للمنطقة باسرها ، بما فيها شرقي الاردن ، كان الجزء الاخير يتعرض لتدهور متزايد في الشروط الطبيعية اللازمة لتجديد الانتاج ولتطور القوى المنتجة · والى موجات متزايدة الضغط من الهجرة البدوية الغازية التي احالت المناطق الخصبة الى مجرد مراع ، ودفعت الفلاحين الى هجرة قراهم والى تقهقر عام للريف ، حتى كاد يشمل هذا التقهقر في نصف القرن الماضي المناطق الجبلية الشمالية بكاملها · وهي المناطق التي كانت اكثر مناطق البلاد تطورا على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، واقدرها على تنظيم الدفاع عن نفسها (٤) · وكانت موجات الهجرة والغزو البدوي تفيض عن شرقي الاردن الى فلسطين وجنوب سورية ، بل وتصل الى شمال سورية وتهدد الزراعة والاستقرار الزراعي بالدمار الواسع · (٥)

ان تخلف النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي العثماني ، ورجعية وسائله في السيطرة والنهب ، ثم تفسخه الاقطاعي فيما بعد ، قد جعلت من شرقي الاردن مرتعا للفوضى ولانعدام الاستقرار وللسيطرة البدوية · وحتى في اوج

---

(٣) ـ احتلت البوادي والصحاري مساحة ٧٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دونم من اراضي البلاد البالغة ٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دونم · اي حوالي ٨٠٪ من المساحة الكلية للبلاد ، بعدما ثبتت حدود امارة شرقي الاردن · راجع :

A. Konikoff ; Trans Jordan,an Economic Survey , (Jerusalem 1946) Table v , P. 107 .

(٤) ـ قامت في نواحي المرتفعات الشمالية ما يشبه الدويلات الصغيرة او الكومونات الفلاحية ، بزعامة شيوخ العشائر والاسر الاقطاعية النافذة ، وكانت هذه تنظم دفاعاتها ضد الغزو البدوي وكان من وطأة الغزو والسيطرة البدوية (ولا سيما من بني صخر) ان ضعفت قدرة القرى على رد الهجمات البدوية في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤١ ـ ١٨٥١) واعتزم الاهالي على هجرة قراهم · والنواحي الوحيدة التي صمدت في وجه التهديد البدوي : جبل عجلون ، الكورة ، الكفارات · راجع : منيب الماضي وسليمان موسى : « تاريخ الاردن في القرن العشرين » ، عمان ١٩٥٩ ، المقدمة الخاصة بالعهد العثماني · كذلك راجع : فردريك بيك : المصدر المذكور انفا ، ص ١٦٥ و ١٨١ ·

(٥) ـ راجع بصدد التهديد البدوي للريف الفلسطيني وزراعته : نبيل بدران : الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الاولى ، شؤون فلسطينية ، العدد السابع (اذار ١٩٧٢) ·

صعـود النظام العثماني ، اي منذ فتح السلطان سليم الاول لسورية (١٥١٦م) ، لم يقم سليم الاول باي اجراء من شأنه الحد من السيطرة البدوية في الصحراء السورية (وكان يقدر عددهم بعشر السكان) اذ كان هؤلاء البدو يغيـرون باستمرار على المدن والقرى ، ينهبون ويسلبون محاصيلها ويحولون اراضيها الزراعـية الى مراع لقطعانهم • فاشادت كل قبيلة قوية لنفسها في مناطق الحضر شبه اقطاع ، حيث تتولى القبيلة البدوية الدفاع عن الفلاح ضد القبائل الاخرى المغيرة مقابل فريضة معلومة يدفعـها لها • وهكذا ابقى سليم الاول عـلى نظـام السيطرة البدوية الذي كان قائما منـذ عـهد المماليك • فترك لهم نظمهـم التقليدية في السيطرة • وكان يأخذ بعين الاعتبار اهمية اشغـال بكـوات السناجق بحظر البدو عن الثـورة او التمرد والانفصال (٦) • وطوال العـهد العثماني لم تقم في شرقي الاردن سيطرة مركزية ثابتة للدولة او هيمنة مطلقـة تحد من الفوضى التي تثيرها الهجمات والغزوات البدوية والمنافسات بين القبائل البدوية عـلى السيطرة عـلى المنطقة • وهكذا كان الغـزو البدوي للمناطـق الزراعـية يبدو كعاقبة حتمية لسيطرة الطبيعـة على القبائل الرعوية المتدنية فـي درجة تطورها ، والتي تعمم ، عن طريق غزوها التدميري ، نفـوذ الطبيعـة المطلق ، لا عـليها فقط وهي القبائل الرعـوية ، التي تعجز كثيرا عـن تجديـد انتاجها البسيط كل عـام فتضطر الى الترحال والغزو ، وانما على المناطـق الزراعية والحضرية التي قطعـت القوى المنتجة فيها اشواطا من التطـور الانتاجي • وكان الفائض السكاني المتزايد الذي تدفعـه الهجرات من الجزيـرة العربية الى شرقي الاردن ــ بوابة سورية الجنوبية ــ يتدفق اما عـلى شكـل قبائل مهزومة عـلى يد قبائـل اكثر فتوة وقوة تنجح الاخيرة فـي طردها مـن ديارها ، او عـلى شكل توسع وامتداد للقبائـل المندفعة نحو توسيـع نطـاق نفوذها ومراعـيها (٧) •

لكن ينبغي ان نأخـذ في الاعتبار سببا جوهريا آخر للتنازع والصـراع

---

(٦) راجع د • ليلى صباغ : اقتصاد سورية في العهد العثماني •

(٧) راجع في « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » ، الجزء الثاني ، فردريك بيك ، وصفا لكيفية دخول القبائل البدوية الى شرقي الاردن : دخول بني خالد في القرن التاسع عشر الى شرق الاردن بعد نزاع مع بني نعيم ، قدوم بني صخر من شمال الجزيرة وصراعهم مـع السردية (التي برزت كسيدة مطلقة من دمشق الى البلقاء بعد منتصف القرن السابـع عشر) وتنقل بني صخر بين اطراف المنطقة (جنوب سورية ، شرقي الاردن ، بئر السبـع وغزة) ، خروج عنزة من الجزيرة العربية وسيادتها في مطلع القرن الثامن عشر قـي الصحراء السورية ثم طردها • صراع الحويطات وبني صخر في النصف الثاني للقـرن التاسع عشر ••• الخ •

البدوي على شرقي الاردن ، وللتهديد البدوي للمناطق الزراعية والحضرية · وهو ان شرقي الاردن قد شكلت الطريق الرئيسي للحج الشامي وللتجارة مع الجزيرة العربية ، فضلاً عن انها كانت في الجنوب معبرا رئيسيا للحج المصري الى الجزيرة · وكانت للسيطرة على هذا الطريق ، اهمية اقتصادية بالغة الاهمية لجملة من القبائل التي تهيمن على امتداد الطريق ، او تتصارع للهيمنة على الطريق باكمله · ومن الوقائع التاريخية يمكن استخلاص مدى الاهمية الاقتصادية لهذه الهيمنة ، اذ مع فشل السلطات العثمانية في السيطرة على طريق الحج والتجارة الى الجزيرة ، ومع تسليمها حماية هذه الطريق للقبائل ، او القبيلة الاقوى ، كانت السلطات العثمانية مضطرة الى دفع اعطيات سنوية تتراوح بين ٦٠ الف و١٠٠ الف ليرة عثمانية لقاء حماية القوافل (٨) ، كما كانت القبائل المسيطرة تفرض اتاوات على هذه القوافل لقاء مرورها في مناطق نفوذها ، والى الانتفاع من تأجير دوابها وابلها كوسائل نقل لهذه القوافل ، مما كان يعود على القبائل المهيمنة بفوائد كبيرة · ولهذا السبب كان صراع السيطرة على هذه المنطقة يأخذ طابع الحرب (٩) ، وساعدت الدخول

---

(٨) راجع منيب الماضي وسليمان الموسى : تاريخ الاردن في القرن العشرين ·

(٩) مبدئيا يهمنا الاشارة الى فساد وقصور التصور الذي يبحث عن تفسير ظاهرة الغزو في حقل العادات الاجتماعية والسيكولوجية للبدو · فخلاف هذا الاعتقاد المثالي نجد مفتاح تفسير الغزو في الحقل الاقتصادي ، فمن جهة واحدة ينتج الغزو عن محدودية الموارد الطبيعية ومحدودية تجديد انتاجها قياسا بوتيرة تجديد النوع والسكان ، في ظروف تدني مستوى تطور القوى المنتجة وبدائيتها · الامر الذي يفسح المجال امام نشوب الصراع على الارض والمياه والموارد الاخرى (الثروات الطبيعية ووسائل الحياة) · كان هذا هو اساس الهجرات البدوية من الجزيرة العربية الى شمالها ولا سيما الى سورية وفلسطين · وهي هجرات متواترة تاريخيا (يراجع في هذا الصدد تاريخ شرقي الاردن وقبائلها ، المصدر المشار اليه آنفا ص ٢١٣ ـ ٢١٩) ·

ومن جهة ثانية نجد ان البحث في الاساس الاقتصادي للغزو يتطلب دراسة تطور القبائل المعنية ، فهناك الغزو الذي تدفعه الحاجة ، وهناك الغزو الذي يفسره السبب السابق : محدودية الموارد والقدرة على تجديد الانتاج البسيط ، كأن ترحل القبيلة المغزوة والمنهوبة لتغزو القبيلة الاضعف او تغزو القرى الفلاحية ، كي تستعيد ما فقدته وكي تواصل حياتها ·

وهناك القبيلة التي يدفعها الى الغزو ومد نطاق نفوذها ، تنامي مطامح شيوخها للاستئثار بفوائض انتاج الفلاحين والقبائل الاخرى او بانتاجهما الضروري · هذه العملية تعكس غالبا صيرورة شيوخ القبيلة فئة متميزة ، اي انفصالها عن القبيلة من حيث تمتعها بصفة الملكة الخاصة لوسائل الانتاج (قطعان الماشية والابل ، اراضي زراعية) الامر الذي يمهد لانتقالها الى زعامة شبه اقطاعية او حتى انتقالها فعليا الى الزعامة شبه الاقطاعية · الغزو ها هنا يكتسب طابع الحرب ، اي صفة طبقية · وغالبا ما تكون هذه الحروب مغلفة ومموهة بغلاف العادات والتقاليد القديمة ذات الاصل المشاعي ـ الرعوي ·

الناشئة عن هذه السيطرة القبيلة المسيطرة على فقدان طابعها المشاعي شيئا فشيئا ، وعلى فرز فئاتها العليا الممتازة ، والتي اكتسبت طابع الزعامة القبلية شبه الاقطاعية (١٠) ٠

في مختلف مراحل السيطرة العثمانية على البلاد ، سواء في فترة فتوتها او في فترة انحدارها وتفسخها ، كانت البلاد معرضة باستمرار للتهديد والهيمنة البدوية ٠ الامر الذي يفسر عدم تطور اقطاع محلي في مناطق شرقي الاردن ، بما في ذلك المرتفعات الشمالية ، تطورا متسارعا ومتكاملا ، كما هو الحال في سورية الشمالية او لبنان او فلسطين ، ولماذا كانت الاسر الاقطاعية في شرقي الاردن مضطرة ، من مواقع ضعفها ، للاعتماد في تمردها ضد السلطات العثمانية على الحكومات الاقطاعية المجاورة ، ولا سيما في فلسطين ، ومن ثم للخضوع لها (١١) ٠ ان تواتر موجات الغزو البدوي وفي فترات متعاقبة ، قد عرقل تكون المجموعات الآيلة نحو الاقطاعية او احبطتها كليا ٠ فضلا على ان الصراع بين الجماعات القروية المتجه نحو التكون الاقطاعي ، والاستعانة والتحالف مع البدو في

---

(١٠) لنلاحظ ان الغزو الذي يعكس السعي للاستئثار بفوائض الانتاج (الفائض الداخلي للفلاحين او الفائض الخارجي من التجار والعابرين على طريق الحج ، قد تعاقب وشكل ظاهرة قائمة منذ زمن بعيد وسبق الفتح العثماني للمشرق العربي ٠ ولنلاحظ ان عملية تحول زعماء القبائل الى اقطاعيين ، وتحول القبيلة الى الاستقرار والزراعة لم تحالفها ظروف مناسبة للتطور باتجاه صاعد ، بل كانت دائما مهددة بغزو قبائل فتية اكثر (بمعنى اقل تطورا) وبالتالي كثيرا وغالبا ما اخفقت القبائل الكبرى في الاستقرار في مناطق نفوذها وفي تحول زعاماتها او شيوخها الى اقطاعيين ٠ هذا هو حال قبيلة السرحان اقوى قبائل حوران في القرن السادس عشر ، التي تزعمت حلفا قبليا كبيرا « اهل الشمال » ، والتي اضطرت تحت وطأة هزيمتها امام السردية للرحيل جنوبا ٠ وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر استعادت القبيلة قوتها وسادها شيء من التحضر الزراعي ، ففي الجون وهو مركزها الرئيسي برزت سمات السيطرة القبلية ـ شبه الاقطاعية : بناء الحصون والقلاع والحدائق والمزارع ٠ لكن تحولها هذا هدده قدوم قبيلة عنزة من الحجاز ، التي دحرت ليس فقط السرحان وبني صخر وانما السردية وسائر حلف اهل الشمال ٠ الامر الذي عكس نفسه تفككا وضعفا على مجموع البلاد حتى اوائل القرن التاسع عشر حين تولى بني صخر زعامة هذا التحالف القبلي ٠ راجع فردريك بيك ، المصدر المذكور آنفا ، الجزء الثاني ، ص ٢١٧ ٠

(١١) كانت الزعامات الاقطاعية المتمردة على السلطات العثمانية في البلاد ترتبط مع الحكومات الاقطاعية المجاورة في [illegible]

صراعاتها كان يتسبب في اضعافها ككل في وجه البدو (١٢) ٠

واخيرا ، لا يمكن تجنب واقع ان الاساس الطبيعي للانتاج ، اي جملة الظروف الطبيعية والبيئية ، او ما يسميه ماركس الثروات الطبيعية بوسائل الحياة لم تكن ملائمة لنهوض مختلف الجماعات السكانية وتطورها الاقتصادي باتجاه صاعد ٠ فاذا اخذنا بالاعتبار انها جميعا ذات انماط متدنية التطور ، طبيعية ، فان تاثرها بهذه الظروف والشروط كان شديدا جدا ويتسبب بالحد من وتائر تطورها وانتقالها الصاعد ٠ وكان المظهر المباشر لهذا التاثير السلبي هو عجز المجموعات الاكثر تدنيا في تطورها (الجماعات الرعوية) عن تجديد انتاجها لسنوات بسبب الجفاف والقحط ٠ في حين كان الفائض لدى المجموعات الاعلى (الجماعات الزراعية) محدودا ، وبالكاد يكفي لتجديد قوة العمل ولتحسين الانتاج ٠ ومن ثم افتقدت الشروط الطبيعية المناسبة لتطور القوى المنتجة ، وللارتقاء باساليب العمل ، التي يتيحها وجود وفرة معينة من الفائض ٠ ان الصلة الجدلية بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي كانت تظهر غالبا في شكل انحطاط متزايد وتدهور متفاقم ٠ فالتاثير الاجتماعي في الطبيعة كان سلبيا وتدميريا ٠ ومظاهر ذلك ان المناطق الزراعية والجبال كانت تتعرض للتعرية والتربة للانجراف والسدود وانظمة الري القديمة جدا للدمار ، والاراضي الزراعية تتحول الى مراع او الى امتداد للصحراء (١٣) ٠

---

(١٢) استخدمت القوة القتالية للبدو من قبل الجماعات الحضرية في التمرد على السلطات العثمانية ، مثلما استخدمت السلطات العثمانية البدو في تهديد الزعامات الاقطاعية المتمردة في مناطق نفوذها ٠ واستخدمت الاخيرة البدو في نزاعاتها الداخلية ٠ اما العثمانيون فقد لجأوا من اجل اضعاف القبائل الكبيرة الى اثارة المنازعات فيما بينها (بني صخر والعدوان مثلا) او في دعم احد الافخاذ ضد فخذ اخر من نفس القبيلة (تحريض الزبن وهي من بني صخر على زعامتها وهي من الفايز ٠٠) راجع فردريك بيك ، المصدر السابق ص ٢١٩ ، و « في ربوع الاردن » ٠

(١٣) يعود التدهور الاقتصادي للمنطقة الى حقب تاريخية بعيدة ٠ فالمناطق المحيطة بنهر الاردن ونهر الزرقاء كانت تعرف ازدهارا كبيرا في الزراعة وفي نظم الري وفي المدن ٠ فمنذ ٥٠٠ عام قبل الميلاد ، كانت هناك نظم ري لجميع الاودية حوالي الانهر التي تصب في نهر الاردن ، تلاها تطورات اخرى في العهد الروماني ، حيث اتسعت مساحة الاراضي المزروعة وكذلك حياة القرى والمدن وابتدات تجارة المنتجات الزراعية الى الاسواق الخارجية ٠ واثر انحطاط الامبراطورية الرومانية تدهورت الزراعة في المنطقة ، ولم تجد في العهد الاموي والعباسي عناية كافية ، فانهارت مشاريع الري تدريجيا ثم نهائيا وتقلصت مساحة الاراضي المزروعة ، واصبحت المدن والقرى اصغر فاصغر ، وبعضها اختفى تماما ، وحل محل الزراعة المستقرة نمط معيشة نصف بدوي

الاسباب الاجتماعية ـ الاقتصادية لتدهور الفائض الانتاجي ٠

نجد تفسيرا للتدهور المتزايد لاوضاع الفلاحين في شرقي الاردن في العهد العثماني في الاجابة التي عرضها احد الفلاحين ردا على سؤال بيركهارت : « لماذا لا تزرعون ؟ » ٠ اجاب الفلاح : « نزرع لمن ، للاغراب ام للاعراب»؟ (١٤) ، ففي هذه الاجابة نجد تفسيرا للأفاق المغلقة لتطور القوى المنتجة في ظل التحكم ونظام الاستغلال العثماني ٠ وحتى لا نضطر للاسترسال في عرض الاوضاع الاقتصادية للريف في شرقي الاردن ابان الحكم العثماني نقتصر هاهنا على البحث عن مصائر توزيع الفائض بل وجانب كبير احيانا من توزيع الناتج الضروري ٠ وسوف نتجنب عرض الاشكال المختلفة من الضرائب وتطورها ٠

هناك اولا ذلك الحيز من الفائض الذي يقتطع لحساب الدولة ، بوصفها المالكة للارض ٠ واهم جزء فيه ما تعارف عليه السكان باسم «الميري» او «العشر» ، ويصف بيركهارت طريقة تحصيلها بقوله ان الفلاح يدفع كيسين من القمح عن كل خمسة افدنة ٠ وتدفعها القرية بالكامل كما هي مسجلة في دفاتر الباشا ، سواء بقي سكانها فيها ام هاجر بعضهم ، وعندها فان الباقين يدفعون المطلوب ، ويظهر التأثير المدمر للاقتطاعات العثمانية في ان الاراضي المشاعية للقرى كانت اكثر من الراغبين في فلاحتها ٠ وبكلمات اخرى كان هناك احجام عن زراعة الارض لضآلة الحيز الباقي للفلاح من ثمار عمله ٠ فالفلاح يدفع الميري نقدا او عينا حسبما يرغب الباشا ٠ ولما كانت الميري تقع على القرية بكاملها ، وبغض النظر عمن بقي فيها ، فان الفلاح لا يعرف مقدار الضريبة المفروضة عليه ٠ فيمكن ان تزداد الضريبة اذا زاد السكان في القرية ٠ لكنها لا تنقص مهما نقص عدد السكان (١٥) ٠

من الزراعة ٠ الذي يتسم بالزراعة المتقطعة والاعتماد الاكبر على رعي الماشية ٠ وفي القرن التاسع عشر وبعد قرون من الحكم العثماني اختفت الزراعة في بعض المناطق وتغيرت مجاري الانهار ليصب معظمها في البحر الميت ٠ راجع : مسح وادي الاردن ، دائرة الاحصاءات العامة الاردنية ، (بالانجليزية) ، ص ١٣٣ـ١٣٤ ٠ كذلك راجع : Neuson Glueck , The River Jordan New Haven , 1946 , P. 73.

(١٤) راجع بيركهارت : رحلات الى سورية والارض المقدسة ، ترجمة انور عرفات المعنونة بـ «رحلات بيركهارت : الجزء الثاني ، في سورية الجنوبية» (عمان ، ١٩٦٩) ، ص ٤٥ ٠

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ٠

يفترض ان تحصل ضريبة العشر بنسبة ١٠ ٪ على الحبوب او المحاصيل الزراعية • ثم زيدت الى ٥ر١٢ ٪ ، لكن الحكومة المركزية في فترة تفسخها بشديد (ولا سيما في نهاية القرن التاسع عشر) لم تكن تجبيها مباشرة، بل تعهد بها الى الملتزمين • ويقول اوليفانت الذي زار شرقي الاردن عام ١٨٧٩ ان الحكومة كانت تطرح في المزاد العلني قيمة الضريبة التي تترتب على قرية من القرى ، فيبادر المضاربون للمزايدة ، ويأخذون على عاتقهم دفع مبلغ معين عن مجموعة من القرى • وعندما يحصل الملتزم الضريبة من الفلاحين يحصل على ما يساوي ٣٠٪ من قيمة المحاصيل بدلا من قيمة ١٠٪ وهو مقدار الضريبة الحقيقي • ووصف اوليفانت هؤلاء الملتزمين بانهم من اصحاب النفوذ لدى الحكام الاتراك المحليين الذين يشركونهم في اقتسام الغنائم • ويعينون عددا من رجال الضابطة لمرافقة الملتزم اثناء التحصيل « فيهبط على القرى كما تهبط الطيور الجوارح على الفريسة » (١٦) • هكذا . فهناك حصة هامة اخرى من الناتج تتحول الى جيوب الملتزمين •

فضلا عما مر تتحقق عمليا عدة اقتطاعات اخرى تتفاوت وتتنوع اشكالها واسماؤها تبعا للمنطقة والظروف فهناك حيز من الفائض يذهب لاطعام الجنود ولعلف خيولهم • ويقول بيركهارت ان شيخ القرية يجبي لنفسه حصة خاصة من كل فلاح حسب مساحة ارضه للانفاق على ضيافة الجنود • واذا ما زاد عددهم عن قدرة المضافة يوزعون على دور الفلاحين• فيرهقونهم بطلب ذبح الذبائح وينهبون ما يحلوا لهم من بيوت مضيفيهم (١٧) ويشير بيركهارت الى ضريبة الطوارىء ، هذه الضريبة التي يتقاسمها الباشا وحكام المناطق وشيوخ القرى فتعتصر الفلاح الى درجة تضطر معها امراته لبيع اقراطها واساورها او يضطر هو لبيع ماشيته وبذاره (١٨) •

هناك اراض واسعة في غور الاردن كانت تقع تحت اسم الاراضي المدورة وكانت من قبل اراضي اميرية ينتفع بزراعتها الفلاحون ، الا ان تعرضها لهجمات البدو واجتياح مزروعاتها دفع سكانها الى نقل املاكهم الى املاك السلطان العثماني لحمايتها من تعديات البدو واصبحوا بمثابة شركائه في الارض• المهم بالنسبة لنا هو ان اصحاب هذه الاراضي كانوا مضطرين الى دفع

---

(١٦) راجع لورنس اوليفانت : «ارض جلعاد» ، الترجمة المقتبسة من سليمان موسى في «في ربوع الاردن ، من مشاهدات الرحالة ١٨٧٥ ـ ١٩٠٥» ، (عمان ، ١٩٧٤) ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ وص ١٥١ ـ ١٥٢ •

(١٧) راجع بيركهارت ، المصدر المشار اليه انفا ، ص ٤٦ •

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٤٦ •

العشر عن المحاصيل ، بالاضافة الى عشر آخر بصفتهم اصحاب املاك اميرية • اي انهم كانوا يدفعون الخمس من المحاصيل (١/٥) • وهذا شكل آخر من الاقتطاع الاضافي للناتج (١٩)

هناك من جهة اخرى الريع المدفوع من الفلاحين المعدمين (المحرومين من الارض) للملاك الاقطاعي • ووفقا لبيركهارت كان الفلاح المحاصص يحصل على الارض من المالك مقابل ثلث المحصول (٢٠) •

تم هناك القسم المقتطع من الناتج والمدفوع للقبائل الرعوية المهيمنة والمعروف باسم الخاوة ويدفعها الفلاح مقابل امتناع الاعراب عن الاعتداء على محاصيل القرى ومواشيها • ويقول بيركهارت ان لكل عشيرة بدوية عدة قرى تأخذ منها هذه الخاوة وبذلك يتعهد شيخها بحماية اهالي القرى من النهب والسلب • ويشير الى ان هذه الخاوة كانت تميل الى الزيادة سنويا • ويورد اشهر القبائل التي كانت تقتطع الخاوة من الفلاحين (في مطلع القرن التاسع عشر)مثل العجيلي ، السردية ، السرحان ، بني صخر ، عنزة • ويلاحظ ان للولاة العثمانيين حصصا معلومة من هذه الفرائض الضريبية (الخاوة) ويشير الى ان عشيرة العجيلي كانت تدفع للباشا عشرين كيسا من الحبوب وعشيرة السردية اثني عشر كيسا ، مقابل اطلاق يدهم في جباية الخاوة من القرى (٢١)•

ويصف عودة القسوس في مذكراته (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥) جملة من الضرائب التي كانت تفرضها في النصف الاول من القرن الماضي قبائل الغمر على اهالي الكرك في جنوب البلاد فيقول انها كانت تمنع زفاف العروس الى زوجها وتمنع دفن الموتى ما لم تستوفى ضريبة على ذلك ، وكان يأتي احد افرادها الى المزارع الكركي اثناء حرثه ارضه ويبلغه انه شريك له فيما يزرع ولا يعود ثانية الا بعد موسم الحصاد ليأخذ حصته من الناتج (٢٢) ويصف في مكان آخر ان اهالي الكرك كانوا مضطرين الى عقد اتفاقيات مع بعض مشايخ البدو من اجل حمايتهم من مثل هذه الاعتداءات مقابل جعل مقطوع يدفعونه سنويا لهؤلاء الشيوخ • ويشير الى انه تم عقد اتفاقيات كهذه مع شيخ عربان بني صخر وشيخ عرب المناعين واستمرت نافذة المفعول حتى

---

(١٩) راجع سعيد حمادة : النظام الاقتصادي في فلسطين (بيروت ١٩٣٩) ، الفصل الخاص بحيازة الاراضي (موسى دوخان) ، ص ١٠٨ •

(٢٠) بيركهارت : المصدر السابق ، ص ٤٤ •

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٦ •

(٢٢) عودة القسوس ، مذكرات مخطوطة • القسم الخاص بالفترة التي تسبق انسحاب ابراهيم باشا من البلاد •

اواخر القرن الثامن عشر (٢٣) · كما اتفق اهل الكرك مع شيوخ عشيرة العمر على ان يقطعوهم ـ اي الاخيرين ـ الاراضي التي استولوا عليها من بني حميدة مقابل ان يدفع اهل الكرك مدين من الحبوب التي تزرع في تلك الارض سنويا عن كل فدان باسم قطاع ، على ان يقوم بجمع هذه الحبوب شخص من المزارعين ، ثم يقدمها لشيخ العشيرة · ولهذا المزارع ان يأخذ نصف كمية الحبوب المزروعة باسم « مباشرة » · ويعدد عودة القسوس الاراضي التي كانت تزرع على هذه الصورة (٢٤) ·

يتبين بوضوح انه كان على الفلاحين ،وهم القوة المنتجة الرئيسية في البلاد ، ان يواجهوا تحديات هائلة للصمود في الارض ومتابعة الاستقرار والانتاج الزراعي ، فالاقتطاعات والاتاوات المقدمة للسلطة العثمانية على شكل ضرائب رسمية وغير رسمية ، ونهب الملتزمين والعشارين لهم ، وخاوات القبائل البدوية كانت تذهب لا فقط بالفائض ، بل باقسام هامة من الانتاج الضروري لمواصلة العيش · فضلا على ان نظام المحاصصة كان يبقي الفلاحين المحرومين من الارض في حالة زرية للغاية · وفي ظروف كهذه ، يصبح واضحا ان فرص تطور الانتاجية والقوى المنتجة ذاتها كانت ضئيلة للغاية واحيانا معدومة · وبالكاد تمكن سكان بعض المناطق في البلاد من حماية انفسهم وزراعتهم واستقرارهم ، واقتصر هذا على مناطق محددة في الشمال الجبلي · وحتى في قرى شمال البلاد فانها مع توفر ظروف اكثر سلمية لها ، كانت تهجر ويذكر اوليفانت (١٨٧٩) ان ١٥ قرية من مجموع ٧٥ قرية قد هجرها اهلها · وان عدد سكان القرى الستين لم يزد عن ٢٠ الف نسمة ، كانوا يدفعون سبعة الاف ليرة عثمانية سنويا كضرائب (٢٥) ، والواقع ، ان جملة لظروف التي احاطت بالسيطرة العثمانية ، تفسر واقع تركز القرى في المناطق الجبلية في شمال البلاد ، قلة عدد القرى في الوسط (البلقاء) والجنوب (الكرك) ·

لقد ساهم ايضا في تدهور القوى المنتجة في البلاد ، فضلا عن انعدام الامن والسيطرة القوية للسلطة ،وسائل المواصلات والخدمات العامة وجملة المرافق الاساسية للبناء التحتي ، واضعف كل هذا فرص تطور العلاقات البضاعية التجارية الداخلية ·

●●●

---

(٢٣) المصدر نفسه ، الصفحات الخاصة بعربان بني حميدة ·

(٢٤) المصدر نفسه ، القسم المعنون بـ «الحالة بعد خروج ابراهيم باشا من الكرك» ، اي في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ·

(٢٥) راجع «في ربوع الاردن» مصدر مذكور انفا ، ص ١٣٧ ·

منذ بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر بدأت السلطة العثمانية تستعيد سيطرتها شيئا فشيئا على مراكز البلاد الاساسية · فبعد هزيمة ابراهيم باشا واندحار قواته من سورية الى مصر (١٨٤١) مرت البلاد بعقد كامل من الفوضى العامة ومن الهيمنة البدوية وذلك حتى عام ١٨٥١ ، حين شرعت السلطة العثمانية في اعادة ربط البلاد اداريا بالوحدات المجاورة في فلسطين والشام · وهكذا ربطت سنجق عجلون (الذي كان يضم نواحي الكورة ، بني جهمة ، السرو ، الوسطية ، بني عبيد . الكفارات ، جبل عجلون وجرش) بمتصرفية نابلس ، والرمثا وقراها بسنجق حوران ، واتبعت منطقة غور الاردن الشمالية بقائمقامية طبريا · وفيما بعد الحق سنجق عجلون برمته بمتصرفية حوران · اما قضاء البلقاء ومركزه السلط فقد تبع متصرفية نابلس من ١٨٨٢ وحتى١٩٠٥، ثم الحق بعد ذلك بمتصرفية الكرك · وكانت الاخيرة ، اي متصرفية الكرك الوحدة الادارية الاقل ارتباطا بالسلطة العثمانية المركزية قد استعيدت السيطرة عليها عام ١٨٩٤ ، بعد أن دخلتها حملة عسكرية طوعتها بدون قتال وربطت المتصرفية بوالي دمشق (٢٦) ·

رغم ان السلطات العثمانية استعادت سيطرتها على مراكز المناطق الادارية المختلفة من شرقي الاردن في النصف الثاني من القرن الماضي، الا ان هذه السيطرة لم تكن كاملة ابدا · واحيانا رمزية · فهي مقتصرة على بعض المدن والمراكز التي تواجدت فيها القوات العسكرية ، فيما كانت بقية المناطق تعاني من غياب الامن ومن السطو والغزو والاحتراب القبلي ، وحتى الصراع بين العشائر الفلاحية في القرى (٢٧) ، مع ذلك يمكن القول ان شيئا من الاستقرار والهيبة قد توفرت ومهدت السبيل للاستقرار الزراعي وللحد من الهيمنة المطلقة للقبائل البدوية · وفي هذه الفترة بالذات كانت القبائل البدوية الكبرى تسيطر على اراض زراعية خصبة ، وتشهد ميول زعمائها لاستثمار الارض والتحول الى اسياد اشباه اقطاعيين ، وكانت البداية المبكرة على ايدي شيوخ قبيلة العدوان،

---

(٢٦) حول التقسيم الاداري لشرقي الاردن في نهاية العهد العثماني راجع «تاريخ الاردن في القرن العشرين » ، مصدر سابق ، · وحول اعادة ربط الكرك بالسلطة المركزية ، راجع مذكرات عودة القسوس ·

(٢٧) راجع «في ربوع الاردن» ، مصدر سابق · مواقع متعددة من الكتاب ·

ثم لحقها جزئيا بعض شيوخ بني صخر (٢٨) ٠

لكن عودة السيطرة المركزية للعثمانيين على شرقي الاردن ادت بالمقابل ، وفي ظروف ازدياد تفسخ وفساد الامبراطورية ، وازدياد اعبائها الحربية الى مضاعفة النهب والانهاك الاقتصادي للفلاحين ٠ الامر الذي ضاعف من نقمة الفلاحين والسكان المحليين عموما وتسبب في نشوب انتفاضتين فلاحيتين في الشوبك (١٩٠٥) وفي الكرك (١٩١٠) ٠ وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت السلطات العثمانية تجبي الضرائب لا فقط من القرى والفلاحين وانما من البدو ايضا ٠

(٢٨) حدث قبيلة العدوان من تنقلها الواسع النطاق (بعد ان كان رجالها ينتشرون على مساحة لا تقل عن الف ميل مربع) واستقرت سيطرتها على وادي الاردن وجبل جلعاد حتى نهر الزرقاء ، وجنوبا حتى وادي زرقاء ماعين وشرقا حتى قلعة الزرقاء (في العقد التاسع من القرن التاسع عشر) ، واستثمر شيوخها اراضيهم الخاصة في هذه المناطق (الكفرين ، نمرين تلال جلعاد ٠٠) معتمدين بصورة رئيسية على الفلاحين الغوارنة والبدو «الاقل شانا» وامتلك شيوخها قطعان البقر والاغنام والماعز ٠ وكانت العدوان اول القبائل الكبيرة استقرارا في البلاد ، مقارنة مع الحويطات وبني صخر الذين بدأوا الاستقرار متأخرين ٠

وحتى مطلع القرن الحالي ، كان شيوخ العدوان يتحولون الى زعماء اقطاعيين ، كما تحولت القبيلة من ورائهم نحو الزراعة والرعي المجدود ٠

راجع : بيك بصدد الميول المبكرة لشيوخ العدوان نحو الزراعة في «تاريخ شرقي الاردن وقبائلها» ، الجزء الثاني ٠ كذلك راجع القسم الخاص بمؤاب وبلاد الحثيين د ٠ كلود كوندر (١٨٨١ ـ ١٨٨٢) « في ربوع الاردن » ، مصدر سابق ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

اما بني صخر فقد ظلت حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى ، قبيلة بدوية رعوية بشكل رئيسي ، رغم ان القبيلة امتلكت اراض زراعية شاسعة ٠ اما ثروتها الرئيسية فقد كانت من الابل ، (نهاية القرن الماضي) ٠ بدأت ميول الاستقرار الزراعي لدى بني صخر على يد شيوخها ، ولا سيما سطام بن فايز (النصف الثاني من القرن الماضي) الذي اعتنى باراضيه في البلقاء ٠ وقد زرعت اراضيه بالاعتماد على الفلاحين والمرابعين ٠ اما بقية القبيلة فقد واصلت نمطها الرعوي مستفيدة من المساحات الشاسعة من الاراضي التي تسيطر عليها ٠ اما الزبن والهقيس وهما فخذان من بني صخر فقد ابتدأوا متأخرين بالاهتمام بالزراعة ، «ولكن بعد فوات الفرصة ، لان اغنى الاراضي كانت قد تسربت الى ابن الفايز ٠٠» ٠ كما يقول فردريك بيك (ص ٢١٩) ٠

اما الحويطات فقد حافظت على طابعها نصف الرعوي ـ نصف الزراعي ٠ وكانت ايضا تستغل اراضيها الزراعية في سهل الشراة في جنوب البلاد بالاعتماد على الفلاحين المرابعين ، حينما تتحول الى التجوال بحثا عن المراعي والدفء ومصادر المياه لقطعانها٠

وفي نهاية القرن الماضي كانت العديد من القبائل تتحول الى الزراعة ، بعد الحاق هزيمة بها ومع فقدان ثرواتها من الماشية : بني حسن ، عجرمة ، عباد ، بني عطية «الشمال» ٠٠٠ الخ ٠راجع :

Eliahu Epstein : The Bedouin of Trans Jordan : Their Social and Economic Problems . Royal Central Asian Society Journal vol. 25. April 1938 P.P. 228-236.

بل لقد كانت تباع اراضي كل عشيرة تقاعست عن دفع الضرائب بالمزاد العلني ، وعن هذا الطريق تمكن عدد من التجار واصحاب الاموال من الحصول على مساحات كبيرة من الاراضي · وعن طريق التشريعات والقوانين الجديدة تمكنت الدولة والسلطان العثماني من سلب مساحات كبيرة من الاراضي · فقد استولى السلطان عبد الحميد على مساحات كبيرة من الارض بلغت جميعها حوالي مليون فدان كانت موزعة بين وادي الاردن والحولة بالاضافة الى الخليل وغزة · ووفقا لاوهافن فان ٢٠ الى ٣٠٪ من اراضي سورية الشمالية بقيت حتى عام ١٩٠٧ بيد الفلاحين · وتتفاوت هذه النسبة من مكان الى آخر ، اما في شرقي الاردن فقد بقي ١٥٪ منها في ايدي الفلاحين (٢٩) ·

وعلى الرغم من المحدودية والعفوية اللتين وسمتا التحركين المناهضين للعثمانيين (الشوبك ١٩٠٥) والكرك (١٩١٠) ، الا ان هاذين التحركين اتخذا طابعا شعبيا ومضمونا فلاحيا · وكانت خلفية الانتفاض الفلاحي النقمة والسخط اللذين سببتهما الضرائب واشكال النهب المختلفة واعمال السخرة والتجنيد الاجباري ، والتمهيد لفرض ضرائب جديدة (عن طريق احصاء الممتلكات والاراضي والنفوس) · ولقد اتسم قمع الانتفاضتين بالقسوة والقتل بلا رحمة وبنهب الممتلكات والتخريب (٣٠) ·

مثلما برهنت انتفاضة الكرك عن عدم قدرة قواها المحركة ولا سيما زعامتها الاقطاعية على التحول الى ثورة عامة تنشر لهيبها في المناطق المجاورة وتقيم سلطتها الخاصة ، جاءت هذه الانتفاضة والتململ العام من السيطرة العثمانية لتمهد الطريق امام تقدم قوات الشريف حسين نحو شرقي الاردن ابان الحرب الاولى بدون عقبات تذكر · فقد كانت الظروف الموضوعية مهيأة للتحرك المناهض للسلطة العثمانية ·

---

(٢٩) راجع نبيل بدران : المصدر السابق ·

(٣٠) التفسير السطحي لانتفاضة الشوبك عام ١٩٠٥ هو تسخير جنود حامية قلعة الشوبك الاتراك لنساء القرية في نقل الماء · بيد ان الضرائب والعسف العثماني كانت تكمن وراء الانتفاضة · راجع « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ · كذلك راجع «تاريخ الاردن في القرن العشرين» ص ١٦ ، اما ثورة الكرك (١٩١٠) الاوسع تحولا والاكثر اهمية فيعزى قيامها في التاريخ الى مصادفات واحداث عرضية والى احصاء النفوس · لكن مضمونها الاجتماعي العميق يظهر واضحا من مراجعة مذكرات عودة القسوس ومن الاغاني الشعبية الرائجة انذاك · فهي قد نشبت بسبب الضرائب والسخرة واشكال النهب المختلفة والتجنيد · راجع بصدد قمع انتفاضة الكرك مذكرات عودة القسوس ، كذلك فردريك بيك ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ·

تطور العلاقات السلعية والنقدية في شرقي الاردن :

رغم اتسام اقتصاديات شرقي الاردن حتى فترة الحرب العالمية الاولى بطابعها الطبيعي ـ المعيشي ورغم ان اقل بقليل من نصف سكانهـا كانوا من البدو الرحل وانصاف الرحل • ورغم محدودية الاقتصاد البضاعي والتبادل البضاعي • فان جميع الجماعات السكانية ذات الانماط الطبيعية (الرعوية والزراعية) كانت على صلة وطيدة بالتجارة وبالتبادل التجاري مع الخارج • (ويروي لنا صلاح ميريل Selah Merril (١٧٧٥) عن مشاهداته للتجار القادمين من الهند لشراء الخيول او الجمال (٣١) ، والواقع ان تجارة القبائل مع الخارج كانت قويـة منذ فترة بعيدة ، ونعني هنا القبائل الكبيرة ذات السطوة والنفوذ ، التي كانت قادرة لا فقط على تجديد انتاجها بفضل مراعيها الواسعة وهيمنتهـا على المناطق الخصبة ومصادر المياه ، وانما بفضل اقتطاعها الفائض من الفلاحين من جهـة ومن القوافل التجارية وقوافل الحجيج • وبفضل الفائض ذي المصدر الخارجي وبفضل ظروف اقتصادها الرعوي الجيدة ، كان شيوخ هذه القبائل اشبه بالسادة الاقطاعيين ، ويستحوذون على قطعان خاصة منفصلة عن القبيلة • وكانت هذه القطعان موضوعا للتبادل مع الخارج ، لقاء حاجياتهم الاستهلاكية ولقاء سلـع البذخ والرفاه • وهذا هو حال القبائل الكبيرة المتعاقبة ، السرحان ، السردية ، عنزة ، بني صخر والعدوان ••• الخ • لقد كانت تجارة المـدن السوريـة والفلسطينية والمصرية مع البدو تجارة مزدهرة • لكن اقتصاد هذه القبائـل ذاته ، اي علاقاته لم تكن بضاعية ، بل طبيعية ، شبه مشاعية •

اما اقتصاد الريف الشمالي ، فقد اتسم بسيطرة علاقات الملكية الاقطاعيـة والبطريركية من جهة ، وكان لهذا الاقتصاد صلات متزايدة مع السوق الخارجي ولا سيما مع فلسطين والشام من جهة ثانية ويبدو ان فترة نهاية القرن التاسـع عشر كانت فترة ازدهار الاقتصاد البضاعي والعلاقات البضاعية الداخلية • اذ كانت الظروف الاجتماعية والطبيعية مهيأة لمثل هذا التطور • وكانت الزراعـات ذاتها ذات طابع سوقي ـ بضاعي : بساتين فواكه وثمار وخضروات • وكانـت

---

(٣١) «يبيع البدو جمالهم وماشيتهم كي يشتروا الحبوب والقهوة والارز والسكر ورؤوس الرماح ، والاقمشة القطنية ، وتستورد مصر اكثر الجمال من سورية والبادية السورية ، وتقوم الجمال بنقل كل اصناف التجارة فيما بين ساحل البحر الابيض المتوسط وحوض الفرات (•••) لكن البدو لا يبيعون الجمال الا بقصد شراء اشياء اخرى يحتاجون اليها (•••) وقد شاهدت قطعان كبيرة من الشياه والحملان ، تعد بالالاف ، وهي في طريقها من سهول البلقاء والكرك الى اسواق القدس او المدن الساحلية •••»
راجع ، صلاح ميريل : الى الشرق من الاردن (١٨٧٥) ، « في ربوع الاردن » ص ٨٣ •

المنتجات تنقل على ظهور الدواب لتسوق في السلط ، المدينة الاكثر بضاعية واكثر تطورا في العلاقات البضاعية ـ النقدية (٣٢) · وقبيل الحرب الاولى كانت شرقي الاردن مصدرا رئيسيا لتصدير الحبوب الى فلسطين ، هذا ما يلاحظه المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل في تقريره الى اللورد كرزون وزير المستعمرات البريطاني آنذاك (٣٣) ·

اما في جنوب البلاد ، فقد شهدت الكرك وعشائرها بعيد خروج ابراهيم باشا من بلاد الشام فترة صعود وتطور اقتصادي بارز · اذ استفاد اهالي الكرك من النزاعات البدوية من حولهم التي اتاحت لهم فرصة رص صفوفهم ثم تحالفهم (سكان الكرك) مع عشائر العمر في مواجهة بني حميدة ، وبذلك تمكن الكركيون من استغلال اراضي العشيرة الاخيرة الواقعة شمال الكرك بعد ان اقطعتهم اياها عشائر المر (٣٤) وامكن فيما بعد اجلاء بني حميدة عن المنطقة · وفي حوالي منتصف القرن الماضي حاول بنو حميدة ، وقد كادوا يخرجون نهائيا من اراضي الكرك ، استعادة نفوذهم واراضيهم فخاضوا عدة معارك في هذا السبيل · لكن هذه المعارك (وابرزها معركة شيحان) كانت تنتهي بعقد صلح ينتهي بتخلي بني حميدة عن جانب من الاراضي الواقعة شمال الكرك (٣٥)· وكان الاخيرون جريا على القسمة التقليدية بين عشائرها يقسمون الاراضي الجديدة الى ثلاثة اقسام، اي بعدد فرق عشائرها : « عشائر الشراقا ، عشائر الغرابا ، العشائر المسيحية » · وقد انتهزت عشائر الكرك هجوما شنته بني حميدة على حلفائها العمر ، وتمكنوا (في واقعة قدومة) من دحر بني حميدة كليا عن الاراضي المحيطة بالكرك فكان هذا فاتحة عهد تحول عشائر الكرك الى قوة كبيرة يحسب حسابها في جنوب البلاد (٣٦) ·

وهكذا تحولت الكرك الى مركز هام لزراعة المحاصيل الزراعية في بلاد مؤاب والشراة وحتى الحجاز (٣٧) ، وزاد من بأس اهالي الكرك انهم عقدوا بضعة معاهدات مع اكبر العشائر الى الجنوب وهي بني عطية ومع اهالي معان الشامية

---

(٣٢) راجع : مسح وادي الاردن ، مصدر مذكور آنفا ، ص ١٣٥ ·

(٣٣) راجع : تأسيس الامارة الاردنية ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ ، مصدر ذكور آنفا ، ص ٧٤ ·

(٣٤) المصدر : مذكرات عودة القسوس ·

(٣٥) المصدر نفسه ·

(٣٦) المصدر نفسه ·

(٣٧) المصدر نفسه ·

والشوبك وبني صخر والحجايا والسلايطة • ولقد اثار هـذا التطور الملموس في مكانة ووضع عشائر الكرك مخاوف الحويطات القبيلـــة البارزة الى الجنوب والجنوب الغربي من الكرك ، فشنت الاخيرة حربا على اهالي الكرك ، لكـــن الحويطات وحلفائها لم يلبثوا ان اندحروا منسحبين الى مواقعهم التقليدية فـــي وادي موسى • وظل العداء المتبادل والغزو يحكم علاقات اهالي الكرك مـــع الحويطات الى عام ١٨٩٠ حين عقد صلح بين الطرفين (٣٨) •

في هذه الظروف تطورت الزراعة في الكرك وفي مناطق اخرى من الجنوب تطورا ملموسا • ويبدو ان النصف الثاني من القرن الماضي قد شهد تفسخ العلاقـــات المشاعية التي تحكم الزراعة وملكية الاراضي • اذ كانت الاراضي الزراعيـــة مقسمة ، كما اسلفنا بين ثلاث فرق من العشائـــر ، وكانت كل ارض تكتسب في الصراع مع القبائل والقرى المجاورة تقتسم بنسبة الثلث لكل فرقة من عشائـــر الكرك • لكن الاطماع التي كانت تنتاب عشائر الفرق القوية ، كانت تمنع احيانـا من اقتسام الاراضي وفق التقليد السابق • ولذا كان هذا يؤدي الى التنازع على الاراضي ، والى هجرة العشائر المغلوبة والغاضبة من الكرك ولا سيما عشائـر المسيحيين ، وكان هذا مدخلا لاستزراع واستيطان مادبا وماعين ومناطق اخرى ابتيعت من بني صخر او غيرها من القبائل (٣٩) • كما يبدو ان التمايز الطبقـي قد بلغ في اواخر القرن التاسع عشر في الكرك مداه ، اذ كانت الاسر والعشائـــر النافذة تستقطع الضرائب على التجارة ، ولا سيما على المحاصيل المخارجة منها • كما كانت تعتدي على اموال وممتلكات العشائر الاضعف • لكن قبيل دخـــول العثمانيين الى الكرك ، واثر هزيمة لحقت بعشائرها على يد احدى عشائر بنـي صخر « الزبن» كانت الكرك قد ضعفت فاصبحت تتعرض لغزوات عشيرة الزبن وتنهب مواشيها ومحاصيلها ، دون ان تستطيع ان ترد على هذا التحدي (٤٠) •

بعد ان دخلت القوات العثمانية الى الكرك سلميا (١٨٩٤) عينت مجلسا لادارة البلدة من شيوخها النافذين تحت رئاسة المتصرف العثماني • وفرضـت عليها ضريبة الويركو ، وكانت تقطـع مـن كـل السـكان العشر (او العشا) وتقتطع من الفلاحين • وكانت تحصل بنسبة الثلث من كل فرقة من عشائرهـا •

---

(٣٨) المصدر نفسه ، القسم الخاص «بحرب الحويطات واهالي الطفيلة ومعان ووادي موسى» •

(٣٩) المصدر نفسه ، «كيف نزحت عشيرة الهلسا الى البلقاء ، نزوح اهالي مادبا من الكرك ، كيف استوطن اهل قرية ماعين فيها ؟» •

(٤٠) المصدر نفسه : «حرب عشيرة الزبن من بني صخر» •

وتقوم العشيرة بتوزيع الضرائب على افرادها بنسبة الخانات (٤١) ٠

دخلت العلاقات السلعية طورا جديدا من التطور بعد سيطرة العثمانيين على الكرك ، ويبدو ان التجارة والحرف كانت مقصورة من قبل على المسيحيين ، وهي في معظمها بيدهم ٠ واستنادا الى رواية عودة القسوس فان المتصرف العثماني حسين حلمي باشا كان يعمل على تشجيع « الاغراب » للعمل في البلدة فقدم اليها بعض التجار من الشام وفتحوا لهم فيها مخازن وكانت تجارتهم تتألف من انواع البقالة (٤٢) ، وفي السنوات الاخيرة من القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي ، اخذت القرى تظهر كمراكز ثابتة للفلاحين وسط اراضيهم الزراعية ، وجرى شق بعض الطرق ، وبناء المخازن والمحلات والمساجد والاديرة٠ كما اقيمت محاكم نظامية ٠ ويسرد عودة القسوس تفاصيل فساد المتصرفين المتعاقبين على الكرك في هذه الفترة الوجيزة ، وعن تلقي معظمهم الرشوة علنا ٠

المدن والبلدات كمراكز للتبادل البضاعي :

كانت السلط منذ فترة مبكرة البلدة الاكثر اتساما بطابعها البضاعي والتجاري في البلاد ٠ فقد كانت تعد نحو ٢٠ الف نسمة بعد الحرب الاولى (١٩٢٢) في حين تراوح عدد سكان القرى والبلدات الاخرى بين ٤٠٠ر٢ نسمة و٠٠٠ر٦ نسمة (٤٣)، لقد تطورت السلط بفضل صلاتها التجارية مع البدو من جهة ومع فلسطين من جهة ثانية ، ومن اتخاذها مركزا اداريا للعثمانيين في النصف الاخير من القرن الماضي ٠ ولقد وصف الرحالة المتعاقبون طابعها الزراعي ـ الحرفي ـ التجاري المبكر ٠ ويصف بيركهارت (١٨١٢) اقتصاد السلط فيقول ان القسم الاكبر منهم مزارعون وقلة منهم حائكو ثياب ، ويوجد حوالي عشرين حانوتا تبيع بالجملة بضائع لتجار الناصرة ودمشق ونابلس والقدس ، كما تزود البدو باصناف اللباس والاثاث ، اما المحصول الزراعي فهو يتألف من القمح والشعير ، حيث تباع المحاصيل الفائضة عن الحاجة الى البدو ، وتزرع كميات كبيرة من العنب الذي يجفف ويباع في القدس كما يجمع اهالي السلط اوراق السماق الذي يجففونه ويبيعونه لمدابغ الجلودفي القدس ٠ حيث يصدر سنويا ما يزيد على خمسماية حمل جمل من اوراق السماق بسعر ١٥ الى ١٨ لكل ١٢٠ رطل انجليزي

---

(٤١) المصدر نفسه : «دخول العثمانية بلاد الكرك» ٠

(٤٢) المصدر نفسه : «طريقة حسين حلمي باشا (المتصرف) في الحكم » ، «بعد حسين حلمي باشا» ٠

(٤٣) تقرير نيابة العشائر (١٩٢٢) راجع الجدول رقم (١) في هذه الدراسة ٠

(٦٠ كغم) ٠٠٠ الخ (٤٤) ٠ كما يستثمر القلى المستخدم في صناعة الصابـــون وتصدر منه كميات كبيرة الى نابلس ، توازي حمل حوالي ثلاثة الاف بعير فـــي السنـــة (٤٥) ٠

في عام ١٨٧٩ قدر اوليفانت عدد سكان السلط بـ ٦٠٠٠ نسمة ، حيث اصبـــح فيها مركز حكومي للسلطة العثمانية ، وعدد من المدارس ولكنه لاحـــظ ضآلـــــة الاراضي المستغلة بالنسبة لمساحة الاراضي الصالحة للزراعة (٤٦) ٠ امـــــا جودريش ـ فرير Goodrich Freer فيصف تطور السلط عام ١٩٠٣ اذ بلغ عدد سكانهـــا ١٠٫٠٠٠ نسمة وهي مركز القائمقام ، وفيها مكتب للتلغراف (٤٧) وبعيد الحرب وصف تقرير المندوب السامي البريطاني في فلسطين السلط والبلقاء فاشار الى وجود مدارس للارساليات المسيحية في المدينة وان التعليم الحكومـــي في البلقاء شبه معدوم لصعوبة العثور على معلمين واشار الى توفر اشكال متواضعة من الخدمة الطبية في المدينة (طبيب واحد في السلط وآخر في عمان) ، ويعمـــل التلغراف من عمان الى السلط والقدس ، ويرسل رجـــــال الدرك البريد مرة في الاسبوع من المدينة الى القرى الاخرى (٤٨) ٠

كانت عمان المركز الثاني المهم للتبادل البضاعي بعد السلط قبيل الحرب الاولى ٠ تطورت عمان من مجرد نبع ماء تروي القبائل المجاورة (بيركهارت ١٨١٢) (٤٩)، الى قرية صغيرة ذات نشاط زراعي قام على اكتاف المهاجـــــرين الشركـس (اوليفانت ١٨٧٨) (٥٠) ، ثم الى سوق محلي للمبادلة ذات النمط المشاعـــــي (المقايضة) ، ثم الى سوق تجاري قام بفضل انتقال عدة اسر من الشام وفلسطين

---

(٤٤) بيركهارت : مصدر مذكور آنفا ، ص ٧٩ ٠

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٨٢ ٠

(٤٦) راجع «في ربوع الاردن» ، ص ١٤١ ٠

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦١ ٠

(٤٨) راجع «تاسيس الامارة الاردنية» ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

(٤٩) بيركهارت : المصدر نفسه ، ص ٨٢ ٠

(٥٠) «في ربوع الاردن» ، ص ١٤٦ ٠ ويصف د٠ عبد الكريم غرايبة عمان الماضي ص ٠٠٠ : ولم تكن عمان مشكرنة في ذلك الوقت بل ٠٠٠
٠٠٠ الا كبير عل ٠٠٠

اليهـا (٥١) ٠ وكانت البلدات والقرى التالية مواقع للانتاج والعلاقات البضاعية (البدائية والمتطورة ـ النقدية) : ـ اربد والرمثا وكفرنجة وسوف في الشمال ، الكرك والطفيلة ومعان في الجنوب ، وادي السير ومادبا في الوسط (انظر جدول رقم (١) ، الخاص بتعداد السكان لعام ١٩٢٢) ٠

جـــدول رقم (١)

عدد سكان البلدات والقرى والعشائر في شرقي الاردن (٢٣ آب ١٩٢٢)

١ ـ لواء البلقاء : يضم ١٥ بلدة وقرية وعدد سكانه ٣٩ر٦٠٠ نسمة ٠

عدد سكان اهم البلدات والقرى

السلط : ٢٠ر٠٠٠ نسمة

عمـــان : ٣ر٤٠٠ نسمـــة

وادي السير : ٣ر٢٠٠ نسمة

مادبـا : ٢ر٤٠٠ نسمـــة

٢ ـ لواء عجلون : يضم ١٠١ بلدة وقرية وعدد سكانه ٦٩ر٣٣٠ نسمة ٠

عدد سكان اهم بلداته :

اربـــد : ٣٥٠٠ نسمة

الرمثـا : ٤٥٠٠ نسمة

كفرنجـة : ٣٢٠٠ نسمـــة

ســـوف : ٣٢٠٠ نسمـــة

---

(٥١) كان عدد سكان عمان عام ١٩١٢ لا يتجاوز ١٨٠٠ نسمة كما يشير احد الذين مروا بها ، ويصف خير الدين الزركلي عمان حين اقام فيها عام ١٩٢١ : « لم تكن عمـــان في ذلك الحين اكثر من قرية قليلة السكان ضئيلة المباني مظلمة السبل ٠٠٠ ولا يدل على امكانية الحياة فيها غير توسطها بني صخر وبني عباد والعدوان يردون عليها بين الفترة والفترة ويبيعون فيها بعض ما تنتجه ماشيتهم ويبتاعون ما يكتسبون ، فللتجارة فيهـا شبه سوق ٠ ولولا ذلك لانفرد بسكنها جماعات من الشراكسة نزحوا اليها حوالي ١٢٩٠ للهجرة ، كما انفردوا بكثير مما حولها من قرى ومزارع هم اصحابها اليوم غير منازعين، ولكن ابتغاء الربح وطلب الكسب هما اللذان حملا الى عمان تجارمن دمشق ونابلس افتتحوا فيها حوانيت صغيرة يقصدها اهل الخيام والاكواخ من البداوة الضاربين حولها والمقيمين في ما جاورها من القرى واصبح لها شيء من الشأن » ٠

٣ ـ لواء الكرك : يضم ٨ قرى وبلدات وعدد سكانه ٥٠٠ر١٣ نسمة

عدد سكان اهم بلداته :
الكـرك : ٠٠٠ر٣ نسمة
الطفيلـة : ٢٥٠٠ نسمـة

مجموع عدد سكان البلدات والقرى في الالوية الثلاث ٤٣٠ر١٢٢ نسمـة

٤ ـ تعـداد العشائـر

القبيلة	عدد النفوس	عدد بيوت الشعر
بني صخر	٥٠٠ر٢٧	٥٠٠ر٥
العدوان وعشائر البلقاء	٠٠٠ر٥٢	٤٠٠ر١٠
بنو حميده وحجايا وصليـط	٥٠٠ر٧	٥٠٠ر١
عشائر الكرك والطفيلة	٩٥٠ر١٥	٥٩٠ر٣
المجمـــوع	٩٠٠ر١٠٢	٥٩٠ر٢٠

(×) لم يشمل التعداد منطقة معان ـ العقبة ، ولا العشائر الضاربة فيهـا ، واهمها الحويطات حيث لم تضم هذه المنطقة الى امارة شرقي الاردن عام ١٩٢٥٠

المصدر : تقرير نيابة العشائر ، راجع : سليمان موسى : « تأسيس الامـارة الاردنية ١٩٢٥/٢١ » (عمان ، حزيران ١٩٧١) ص ١٧٨/١٧٧ ٠

ساهم في تطوير العلاقات البضاعيـــة والانتاج البضاعي في مطلع القـــرن العشرين ، انشاء الخط الحديدي الحجازي (١٩٠٠ ـ ١٩٠٨) الذي شق البلاد من الشمال الى الجنوب وربطها بسورية وتركيا شمالا وبالجزيرة العربية جنوبا٠ وقد كان هذا الحدث احد الدوافع الهامة لجملة من التطورات الايجابية بالنسبة لشرقي الاردن ، اذ الحق ضربة قاسمة بالهيمنة البدوية وبتهديدها للقرى الزراعية واضفى مزيدا من الامن على المنطقة وشد أوصال مناطق البلاد الى بعضهـــا البعـض وساعد على تطور الاستقرار الفلاحي (وحتى البدوي فيما بعد) ، وعلى امتداد الخط في الاراضي الاردنية نشأت العديد من البلدات والقرى ، التي ظهرت اولا كمحطات (قامت ١٩ محطة ٠ بالاضافة الى مستودعين في عمان ومعان والى مصنع صغير للترميم والصيانة في معان) (٥٢) ٠ قاومت القبائل الهيمنة العمليات

(٥٢) راجع «تاريخ الاردن في القرن العشرين» ، مصدر سابق ٠

الانشائية للخط الحديدي وهاجمته مرات عديدة (٥٣) ، فقد كان انشاؤه يمنع عنها الاعطيات السنوية والرسوم واجور تأجير الدواب وغير ذلك من الدخول • لقد ساعد انشاء الخط الحديدي الحجازي على انتعاش العلاقات البضاعية والنقدية وعلى ربط البلاد بالسوق الخارجي ووسع نطاق التجارة ، وكون ظروف مناسبة لتطور الاسواق المحلية • لكن من جهة اخرى قوى قدرة السلطة المركزية على القمع والبطش بالسكان المحليين وعلى تشديد استغلالهم • ولقد تبدى هذا بوضوح في سنوات الحرب العالمية الاولى وقبلها ، فاستخدم الخط (الذي كان يتزود بوقوده من الاخشاب المقطوعة من الغابات والاحراش ، التي اتلفت اتلافا شديدا) في نقل المحاصيل والمواد التموينية والحيوانات المصادرة من السكان ، وفي نقل المكلفين بالجندية (٥٤) •

ومن التطورات الهامة من حيث اثرها على الاقتصاديات المحلية وعلى التبادل البضاعي ، ان الحكومة العثمانية امرت باستبدال العملة الذهبية بالعملة الورقية، ودفعت مقابل المواد والمحاصيل المصادرة اثمانا بخسة بهذه العملة الورقية ، ولم تبق للمزارعين سوى كمية من البذار واخرى لاستهلاكهم الخاص (٥٥)•

كما ان الحصار الذي ضرب على الموانىء العثمانية ، ادى من جهة ثانية الى فقدان المواد التموينية الاساسية الاخرى كالارز والسكر والمحروقات وارتفعت اسعار الاقمشة (٥٦) ، فكان الجو مؤاتيا للتجار الذين استفادوا من حاجة

---

(٥٣) ابتدأ العمل في الخط الحديدي الحجازي من دمشق في نيسان ١٩٠٠ وقام بالعمل بصورة دائمة نحو ثلاثة الاف رجل و٢٠٠ مهندس واعتمد العمل على الجيش التركي (من الفيلق الخامس) • وقد شن البدو على عمال ومهندسي الخط ومنشآته هجمات قوية ومزعجة بقصد احباط المشروع • راجع «تاريخ شرق الاردن وقبائلها» ، مصدر سابق ، ص ١٩٠ • اما اكبر المضايقات التي تعرض لها الاتراك قبل الشروع في مد الخط الحديدي فهي في جنوب البلاد ، حيث اصطدمت القوات التركية بالحويطات في مناطق معان والطفيلة والشراة وفي الصحراء شرقا ، ونتيجة للهجمات البدوية هذه سقط من القوات العثمانية ما يزيد على ٣٠٠ جندي • وقد تميزت السنوات الاخيرة من القرن الماضي بصراعات قوية بين الحويطات والسلطات العثمانية حسمت عام ١٨٩٦ لصالح الاخيرة ، غير ان الصراع ظل يتجدد مع مطلع القرن الحالي • راجع عدنان العطار : «الحويطات من كبرى قبائل العرب» ص ٧٤_٧٦ •

(٥٤) راجع : «تاريخ الاردن في القرن العشرين» •

(٥٥) المصدر نفسه •

(٥٦) المذكرات المخطوطة لعودة القسوس • القسم الخاص بـ «الحرب العظمى» •

المواطنين الى هذه المواد والسلع ، فكانوا يبيعونها باضعاف ثمنها • بالاضافة الى زيادة اعتماد السكان على المبادلة البضاعية والسوق بعد حصولهم على العملة الورقية بدلا من محاصيلهم الفائضة وبدلا من العملة الذهبية •

٢ ـ البنى الاجتماعية في شرقي الاردن في مطلع القرن العشرين •

١ ـ التركيب الاجتماعي للريف الاردني •

من الصعب النظر الى الريف الاردني قبيل الحرب الاولى كريف متجانس التركيب الاجتماعي ، فهو كما بينا يجمع ما بين انماط اقتصادية متعددة : المشاعي والاقطاع الشرقي والبضاعي الصغير • وفي معظم المناطق كان نمط الانتاج الاقطاعي يتطور ويترسخ ولا سيما في نهاية الحكم العثماني • والى جانبه كان نمط الانتاج البضاعي البسيط ، كنتيجة لتفسخ الملكية المشاعية وتطور العلاقات البضاعية •

نجد ان جذور الاقطاعية الشرقية قوية في مرتفعات الشمال وحتى ما قبل قرن من هذه الفترة ، حينما زار بيركهارت شرقي الاردن عام ١٨١٢ ، كانت الملامح العامة للتكون الاقطاعي بارزة على الرغم من التقهقر الاقتصادي العام (٥٧) ، ويبدو النمط الاقطاعي للانتاج في البلاد ، ثمرة لطريقين ، طريق تطور الشيوخ العشائريين الى اقطاعيين ، حيث تنفصل القمة او الاسرة النافذة عن باقي القبيلة او العشيرة وتتحول الى اسرة اقطاعية تحظى باقتطاع الريع من فلاحيها ، وهي غالبا ما تكون بمثابة المتعهدة للوالي بجمع الضرائب ، سواء اكان الوالي تابعا للسلطة العثمانية المركزية او متمردا عليها • او يكون النموذج الاقطاعي مزروعا عن طريق الدولة العثمانية نفسها ، اي الاقطاعيات العسكرية التي تمنح في البداية ثم تورث لاسرة الاقطاعي العسكري المتوفي ، بيد ان النموذج الاقطاعي في شرقي الاردن تطور بشكل رئيسي وفق الطريق الاول وليس الطريق الثاني ، لاسباب متعلقة بطبيعة البلاد وكثرة التغييرات وانعدام الامن وضعف السيطرة العثمانية ذاتها •

من الصعب احيانا تمييز نمط الملكية والانتاج الاقطاعي عن نمط المرحلة الاخيرة من المشاعية ، اي المرحلة التي تشهد تمايز الارستقراطية عن باقي السكان بملكيتها الشخصية للارض • اذ يبدو ان السمات القبلية للشيخ تظل حية لدى الزعيم الاقطاعي ، ولا سيما في المجال الاجتماعي ، لكن الشواهد المختلفة خلال القرن

---

(٥٧) بيركهارت ، ص ٣١ ـ ٣٢ •

الماضي اظهرت ان التحول نحو الاقطاعية هي عملية جارية في كل بقعة زراعية في البلاد (٥٨) ٠

هكذا نجد ان الاسر الاقطاعية في مناطق الشمال تتوارث الارض والسلطة السياسية في مناطقها ٠ كما نجد ان العملية نفسها قد نشأت بشكل او باخر في وسط البلاد وفي الجنوب ٠ وقد ترك لنا بيركهارت وآخرون (ولا سيما فردريك بيك) نبذة عن الاقطاعية في شرقي الاردن والقرى التي تتبع سيطرتهم ٠ وغالبا ما يشكل كبار الملاك الذين يملكون نفوذا عشائريا في مناطقهم مجالس ادارة برئاسة حاكم عثماني (٥٩) ٠

ولا تقتصر مصادر ريع الاقطاعي على حصته من انتاج الفلاح عينا (وهي توازي الثلثين كما يصف بيركهارت) وانما تكمن ايضا في نظام التحصيل الضريبي العثماني الذي يتيح هامشا واسعا من اقتطاع الناتج عن طريق الاحتيال او الجبر ، ولا سيما عن طريق الالتزام ٠ الى جانب النموذج الاقطاعي الشرقي يتواجد دوما النموذج البضاعي الصغير والقائم على الملكية الصغيرة ٠ وكان المنتجون القرويون في حالة متردية جدا في اغلب الاوقات ٠

ويتحدد التركيب الاجتماعي في القرى ذات التقاليد الزراعية الراسخة بوجود اسرة اقطاعية ذات نفوذ عشيري او قبلي قديم ، وهي غالبا ما لا تكتفي بالمعايير المادية للنفوذ القائم على الثروة ، كعدد الفدادين والحيوانات التي تملكها ، بل تحرص على تمايز اصولها القبلية ، وتدعي انتماءها الى احفاد قبائل عربية والى احفاد صحابة النبي محمد (٦٠) ٠

ويندرج في عداد الفئة المحيطة بالقمة الاقطاعية رجال الدين والقضاء وكبار

---

(٥٨) ابرز الاسر والعشائر التي اخذت تتكون اقطاعيا في شمال البلاد : الفريحات في جبل عجلون ، العبيدات في الكفارات ، الشريدة في الكورة ، النصيرات في بنو عبيد، العزام في الوسطية ، الروسان في السرو، البطانية في بنو جهمة ، الزعبية في الرمثا ، راجع فردريك بيك ، ص ١٦٥ ٠

وفي البلقاء وغرب البلاد كان شيوخ العدوان يتحولون الى اقطاعيين ٠ شيوخ الفايز من بني صخر ، شقوا الطريق نفسه ، كذلك شيوخ المجالي والعشائر النافذة في الكرك وقراها ٠٠٠ الخ ٠

(٥٩) عام ١٨٩٢ قام مجلس ادارة متصرفية الكرك من الشيوخ النافذين في الكرك ٠ برئاسة المتصرف العثماني ٠

(٦٠) راجع فردريك بيك ، الجزء الثاني ، الخاص بقبائل شرقي الاردن ٠

الموظفين والتجار ، وهم غالبا ليسوا من اهل البلاد • في حين يشكل قاعدة الهرم الاجتماعي للريف ، الفلاحون اساسا والحرفيون واصحاب الدكاكين الصغيرة ، في البلدات والقرى الكبيرة ، اما باقي القرى فغالبا ما تخلوا من هذه الحرف ، حيث تقوم الصناعات المنزلية وتلبى الحاجات ذاتيا •

يلعب الانتماء القبيلي والعشيري دورا هاما في تشكيل نظام التراتب الاجتماعي والسمعة الاجتماعية ، حيث تنقسم القرية الى حارات او احياء تسكنها الاسر المنتمية الى عشيرة واحدة •وهكذا هناك احياء بعدد العشائرالمتواجدة في القرية الواحدة (٦١) ، ولا حاجة للتأكيد على ان التراتب والتمايز على اساس عشيري يطمس في مجال الوعي عملية ادراك التمايز الاجتماعي النامي في الريف ، وتلعب المعايير والقيم القديمة دورا في بث العزاء لدى الفلاحين الفقراء على وضعهم ،اما الزعماء الاقطاعيون فغالبا ما يطمسون هذا التمايز بتوجيه الانظار الى التناقضات الخارجية ، كالتناقضات العشيرية بين القرى وداخل القرية الواحدة ، والى خطر الغزو البدوي ، او الى الدولة المركزية •

يعطي الوضع عشية الحرب الاولى صورة اجمالية لريف شرقي الاردن قوامها تعزز تبلور الاقطاعية ذات بقايا الزعامة القبلية في الشمال والوسط والجنوب ، واتجاه الارستقراطية القبلية (زعامات القبائل الرعوية) للتحول الى اقطاعيين ملاكين للاراضي • ومن اكبر القبائل التي قطعت شوطا في هذا المجال ، العدوان التي امتلك شيوخها اراض شاسعة في وادي الاردن (٦٢) •

٢ ـ التركيب الاجتماعي الملازم للنموذج الاقتصادي المشاعي ـ الرعوي :ـ

يتسم التركيب الاجتماعي لهذا النموذج بالبساطة المتناهية ، فهو مبدئيا يمكن حصره في وجود قمة الارستقراطية قبيلة او عشيرة وقاعدة القبيلة نفسها ، وتتكون هذه القمة من الاسر الاكثر نفوذا في العشيرة او القبيلة والتي تحظى

---

(٦١) راجع على المحافظة : «تاريخ الاردن المعاصر» (عمان ، ١٩٧٣) ، الباب الثالث : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عهد الامارة •

(٦٢) في الواقع كفت العدوان عن اتسامها بالطابع البدوي المترحل منذ فترة طويلة تعود الى الربع الاخير من القرن الماضي • واخذت صفة الاستقرار في الارض والتحضر• واتجه شيوخها وجهة التطور الاقطاعي • « ان شيوخ العدوان اكتسبوا مساحات واسعة من الاراضي الخصبة في وادي الاردن وهضاب البلقاء واستخدموا الفلاحين والمرابعين للعمل في اقطاعاتهم الواسعة ، ان نظامهم الاقطاعي الذي اسسوه هناك ما زال باقيا حتى يومنا هذا» •• راجع الياهو ابشتاين ، مصدر مذكور آنفا •

بتعاقب او توارث القيادة السياسية والعسكرية للقبيلة ، وحيث تتحكم في هـــذا التعاقب جملة من الشروط : علاقات الدم (القرابة) ، ذبل المحتـــد والملكيـــة الشخصية ، والشروط الاخرى التي لا بد منها في المجتمع القبلي للزعامة، كالخبرة والحكمة وفن القيادة السياسية والعسكرية ، اي السمات المبنية على الكفاءة ٠

هكذا نجد في التركيب القبلي الملازم لهذا النموذج قمة ارستقراطية قبليـــة وقاعدة قبلية ، اي سائر الافراد العاديين ، اي ان التمايز الاجتماعي او التراتب الرئيسي ينحصر مبدئيا في انفراز القمة القبلية القائـــدة ، شيوخ العشيرة او القبيلة ، واساس هذا الانفراز هو تحول هذه القيادة الى حكر اجتماعي لاسرة او بضع اسر ، اي تحول القيادة الاجتماعية الى وظيفة ثابتة ، الى احتراف يبـرر الحصول على فائض ما ، ويبرر وجود قطعان خاصة بالشيوخ كملكية خاصـة ، عن قطعان بقية القبيلة او العشيرة ٠ نجد ايضا لدى هذه الفئة في القمة ملكيـة خاصة مبكرة للارض حيث يبدأ الشيوخ بالاستحواذ على الارض وزراعتهـــا واستخدام الفلاحين كمحاصصين قبل ان تتحول القبيلة باسرها الى زراعـــة الارض ولو جزئيا ، هذه الحقيقة مشهودة لدى العديد من القبائل في مراحـــل مختلفة ٠

لكن في الحقبة التي نحن بصددها ، كانت القبيلة الرئيسية التي تمثل هـــذا الوضع هي بني صخر التي ما زالت قبيلة رعوية فيما يمتلك شيوخهـــا الارض ويستثمرونها بشكل اقطاعي او شبه اقطاعي (محاصصة مع الفلاحين) (٦٣)٠

لا يقتصر التركيب الاجتماعي لدى القبيلة الرعوية على هذا التمايز ما بين قمة ارستقراطية قبلية وقاعدة رعوية مشاعية ، بل يوجد تراتب متعدد المستويات داخل القبيلة نفسها ، بيد ان شكل ومستوى هذا التراتب يتعلق بالوضع الملموس لكـل قبيلة او عشيرة ، لذا لا نستطيع ان نكرس تراتبا نموذجيا ثابتا بل نشير فقط الى التمايز القائم على الوظائف الاجتماعية ـ الاقتصادية والعسكرية ٠ فمثلا نجـد ضمن القبائل الرعوية مستوى معين من تقسيم العمل يكرس بدوره تمايـزا بيـن فئات العمل في الانتاج « الوضيع » ، وما بين الانتاج « المحترم » وهناك تقسيـم متعلق بالافراد المقاتلين والاخرين المعنيين بالانتاج السلمي (٦٤) ٠

---

(٦٣) «ترك بنو صخر الفلاحين المنتزعي الملكية في اراضيهم ، لكنهم جمعوا منهم بانتظام الاتاوات ، فيما استمروا ـ اي بني صخر ـ في حياة التجوال في الصحراء ، يرعون الابل والاغنام ، متنقلين من مرعى الى اخر (٠٠٠) ان اول شيخ لبني صخر كان مهتما بالزراعة هو الشيخ سطام بن قايز ٠٠٠ (الذي) اشرف شخصيا على ادارة اراضيه في ام العمد الى الشمال الشرقي من مادبا ٠٠٠» راجع الياهو ابشتاين ، المصدر نفســـه ٠

(٦٤) راجع على المحافظة ، مصدر سابق ، المدخل ٠

هناك ايضا تراتب معين اخر فيما بين القبائل الرعوية عموما ، ما بين رعاة الابل ورعاة الاغنام ، ورعاة الماعز ورعاة البقر (٦٥) ، ان التراتب الاجتماعي بين هذه القبائل له اساس اقتصادي معتمد على نوع الحيوان الذي تعتاش القبيلة على رعايته ، يحدد كفاءتها وقدرتها على الحركة ، وبالتالي على القتال هجوما او دفاعا عن النفس ، الامر الذي يقرر قابلية سيطرتها على الاخرين او خضوعها للاخرين ، كما يحدد هذا التقسيم درجة استقرارها ومقدرتها على الغزو ورد الغزو • ان هذا النمط من التراتب يساعد على فهم المكانة التي حظيت بها بني صخر عند بداية تاسيس الاردن كقبيلة كبيرة من رعاة الابل ذات بأس وسطوة عسكرية غاشمة قادرة على فرض سيطرتها على القبائل الاخرى ، في حين انها بمعيار التقدم الاجتماعي والاقتصادي التاريخي كانت في اخرقائمةالقبائل المحلية، فلا تقارن مثلا بالعدوان التي سبقتها بمراحل طويلة في التحضر الاقتصادي والاجتماعي •

٣ ـ التركيب الاجتماعي الملازم للنموذج المشاعي الرعوي الزراعي ، اي المرتبط بالتنقل المحدود والزراعة المحدودة :ـ

وهذا النموذج يشكل درجة تطور اعلى من وجهة نظرانتقال البدو الى الاقتصاد الزراعي والى الاستقرار ، والذي يعني قدرة اكبر في السيطرة على الطبيعة وينضوي ضمن هذا النموذج اقتصاد بضعة قبائل انتقلت في فترات مختلفة الى الاستقرار التدريجي والى الحد من التنقل الواسع ، وتاريخيا نجد عملية الانتقال هذه قد تمت باشكال مختلفة وبفضل اسباب مختلفة فمثلا انتقلت قبائل عجرمة ، عباد ، بني حسن ، الى الاستقرار في الارض لاسباب اضطرارية كالانكسار في معركة وفقدانها ديارها ومراعيها واحيانا مواشيها وابلها ••• الخ (٦٦) ، اما قبائل مثل العدوان ، وفيما بعد بني صخر ، الحويطات ، فقد استقرت في الارض في ظروف سلمية ونتيجة لتطورات موضوعية ـ طبيعية اذا جاز التعبير (٦٧) •

---

(٦٥) المصدر نفسه •

(٦٦) ابشتاين ، المصدر نفسه •

(٦٧) تحول شيوخ بني صخر فيما بعد الى اشباه اقطاعيين وملاكين كبار للاراضي، وكانوا بعد الحرب الاولى يملكون ٤٢٦،٠٠٠ دونم من الاراضي القابلة للزراعة (راجع ابشتاين ، المصدر نفسه) •

اما الحويطات التي اختلف موقفها من الزراعة دائما عن المواقف المتوقعة من بقية القبائل بانهم لم يظهروا اي دراية في الزراعة واستخدموا كل الاراضي الخصبة التي في حدودهم • ان اهتمامهم ازداد كثيرا منذ حوالي ١٧٠ سنة ، عندما غنموا سهل الشراة من قبيلة النعيمات • وفي هذا السهل كما في المناطق التي اتصلت بالحويطات من قبل ، اسسوا اقتصادا مختلطا : رعاية الاغنام والماعز وقليل من الجمال بالاضافة الى زراعة الارض ، راجع ابشتاين ، المصدر نفسه •

في هذا النموذج نلاحظ تحولات اقتصادية متنوعة جدا تبعا للظروف العامة المحيطة بعملية الاستقرار هذه ، نجد مثلا القبائل التي زرعت الارض حبوبا باساليب غالبا ما تكون بدائية في اشهر معينة من السنة ثم عاودت الانتقال مع قطعانها في الاشهر الباقية بحثا عن الدفء والمراعي والمياه ، ثم عادت لتحصد محاصيلها ، كما نجد ان انتقال بعض القبائل الزراعية كان عبر انتقال فئتها العليا ، شيوخها ، نحو استثمار الارض اعتمادا ، لا على القبيلة وانما على الفلاحين او البدو والآيلين الى الزراعة مع استمرار باقي القبيلة في ممارسة طابعها الرعوي الصرف ، وانتقال القبيلة تدريجيا وفي آخر المطاف نحو الزراعة، اثر مرحلة مديدة نسبيا · العدوان مثال على ذلك وكذلك بني صخر ، ان قبيلة بني صخر لم تنتقل الى الزراعة الا تدريجيا واكثر من ذلك ارتبط استقرار زعيمها واهتمامه بالزراعة بانقسام القبيلة الى بطنين وبالانشقاق على الزعامة نفسها (٦٨) ·

مهدت عملية استقرار البدو في الارض نصفيا او كليا لانفراز الفئة العليا عن باقي القبيلة وتحويلها الى زعامة شبه اقطاعية مالكة للارض وان ظلت لفترة طويلة محافظة على اسس الزعامة القبلية ، لكن سرعان ما كان هذا الانتقال نحو زراعة الارض يبذر بذور التفكك في النظام المشاعي وفي الملكية المشاعية ، هذا التفكك الذي يستمر طويلا حتى يفرز نفسه على صعيد الوعي الايديولوجي والبناء الفوقي عامة ، في مستوى جديد من العلاقات والنظرات والاعتقادات · يطرح هذا النموذج مستوى اعلى جديد من تقسيم العمل بين الرعي والزراعة ثم بين الزراعة والاعمال المرتبطة بها ، حيث تظهر اعمال حرفية مجاورة ·

لكن الاستقرار في الارض لا يعني دائما افتقار القبيلة لقدرتها العسكرية القتالية، بشكل يجعلها معنية بمواصلة حياتها الجديدة في ظروف سلمية تامة،اذ ان ضيق المساحة قياسا بحاجات السكان وازمة الاقتصاد البدوي نفسه ، اي عدم قدرته دائما على تجديد انتاجه البسيط بفعل الجفاف وانحباس الامطار ، يجعل الصراع من اجل الارض والمياه ، اي الغزو ورد الغزو عملية دائمة ، لذا فان القبيلة التي تستقر نصفيا ، ثم كليا في الارض ، مدعوة دوما للحفاظ عليها في وجه الغزو المحتمل في اي وقت ،وغالبا اثر كارثة طبيعية · عدا عن ان تدن تنامي المصالح الخاصة لزعماء القبائل يستثير فيهم الغزو سواء كانوا رعويين صرف او نصف زراعيين ، هذا ما يبرزه مثلا الوضع في جنوب البلاد (الكرك) والمناطق

---

(٦٨) راجع فردريك بيك ، ص ٢١٩ ·

المحاذية لسكة الحديد الحجازي غربا ، اي المناطـــق التي شهدت الاستقـــرار النصفي (٦٩) ٠

لذلك لا يتحتم دائما ان يرتبط الاستقرار النصفي للقبائل البدوية اي انغماسها في الزراعة بتطور صاعد ، فهذه النماذج الانتقالية مهددة دائما وليس نـــادرا بانتكاسات نحو الوراء ٠ وقد شهد تاريخ القبائل الحديث عمليات الاستقـــرار الصاعدة وعمليات الارتداد نحو البداوة الصرفة والمثـــال الكلاسيكي هـــو الحويطات ٠ اي ان هذا النموذج هو الذي يعكس مرحلة تطور غنية في التواءاتها، حيث الانتقال منها نحو مرحلة الاستقرار الزراعي الكامل يمر عبر شروط متفاوتة تبعا للزمان والمكان ، وشروط داخلية وخارجية متداخلة ومترابطة بقوة (٧٠) ٠

يفسح النموذج نصف المشاعي ونصف الزراعي المجال نصفيا لاتساع مـــدى التبادل البضاعي البسيط مع الجوار حيث يكثر الارتباط مـــع السوق المحلي ولا سيما الاسواق الاسبوعية مع الجوار حيث يكثر الارتباط الفائض فيها ، وهنـا يبرز حيز اوسع للتبادل الذي يتسم بطابعه العرضي والمحكوم بشـروط الانتـاج المشاعي نفسه ، اي وجود فائض من جهة ووجود حاجة للمبادلة ، ان المبادلـــة في النموذج المذكور متزايدة اكثر مما في النموذج المشاعـــي الرعوي الصـرف (بسبب الاستقرار من جهة ، وبسبب تطور نمط الانتاج وتنـــوع الحاجـــات الاجتماعية) ٠

ان درجة اعلى من تطور هذا النموذج اي تحول الفئة العليا من القبيلة الـــى ملاكين عقاريين للارض يفسح امام مبادلات متطورة اكثر وهي تقترب من شكـل المبادلة ذات النمط الاقطاعي ويزداد ارتباط هذا النموذج بالتجـــارة ولذلـــك يصبح ارتباط زعماء القبيلة التي تنضوي ضمن هذا النموذج بالتجارة وبالاسواق البعيدة نسبيا وبعواصم الاقاليم قويا ، وحيث تصدر المنتجـــات الحيوانيـــة والزراعية وتستورد السلع الاستهلاكية والترفيه اكثر مما في اي نموذج سابق ٠

---

(٦٩) راجع عودة القسوس بصدد تنامي مطامح عشائر الكرك النافذة لانتزاع حصص العشائر الاصغر من الارض ٠

كما ان القبائل ذات الزراعة البدائية في وادي الاردن (الاغوار) كانت معرضة دائما لتهديد ومنافسة القبائل الاكبر ٠ راجع مسح وادي الاردن ، مصدر سابق ٠

(٧٠) بمعنى ان نجاح هذا الاستقرار والاتجاه نحو الزراعة كنمط رئيسي ، كان يعتمد على الوضع الامني وعلى قوة القبائل الرعوية المحيطة وعلى قدرة القبائل المتجهـــة نحو الزراعة على الصمود في وجه الغزو ٠٠٠الخ ٠

ينبغي القول ان التركيب الاجتماعي لهذا النموذج يشكل درجة اعلى من التعقيد بالمقارنة مع التركيب الاجتماعي للنموذج المشاعي الرعوي كما تنطوي دراسته على صعوبات متعلقة بطبيعته الانتقالية • ونظرا لتفاوت المجموعات الاجتماعية (وهي غالبا قبائل وعشائر آيلة نحو الزراعة) في درجة تحولها من نمط الانتاج الرعوي الى اخر زراعي • ونحن سنحاول مضطرين لصياغة تركيب اجتماعي نموذجي قياسي على الحالات الغالبية في هذا النموذج الاقتصادي •

نجد هذا النموذج غالبا في المناطق المحاذية للصحراء اي الى الغرب من خط الحديد الحجازي حيث جرت عملية الاستيطان في الاردن منذ ضعفت فرص الاستمرار في الاقتصاد الرعوي المتنقل ، بعيد اقامة الخط الحديدي الحجازي وبعيد قيام السلطات العثمانية بتعزيز اجراءات الامن في اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ، كما نجد ان استقرار المجموعات الرعوية قد جرى في المناطق المجاورة في وسط البلاد وفي شمالها وفي جنوبها ، هذا الاستقرار الزراعي النصفي يشمل غالبا العشائر التي ترعى المواشي من غير الابل اي رعاية الحيوانات التي لا تحتاج الى تنقل واسع وتحتاج الى حماية طبيعية لها ، واذا كانت هذه الحاجات تدفع العديد من العشائر الرعوية الى اللجوء الى الزراعة البدائية لبعض الشهور منذ زمن قديم فلقد ظهرت حاجات اكثر رسوخا دفعت نحو جعل الزراعة مهنة ثانية للعديد من العشائر بسبب ظروف موضوعية قوية ، كاستتباب السيطرة العثمانية اكثر فاكثر في البلاد وضعف القدرة على منافسة القبائل الاخرى على المراعي البعيدة ، وضعف فرص الغزو عموما بسبب مناعة الريف اكثر فاكثر وبسبب تعزز سيطرة العثمانيين ، وقدرتهم على قمع الغزو انذاك بسهولة اكبر (٧١) •

ادى الاستقرار في الارض وزراعتها ولو بضعة اشهر في السنة الى زيادة انفصال وتمايز القمة القبلية عن باقي القبيلة من حيث الملكية الخاصة ، فغالبا ما كانت لشيوخ مجموعات العشيرة والقبيلة فرص اكبر للعناية بالارض وزراعتها • ان شيوخ العشائر المستقرة نصفيا في الارض قد آلوا اكثر فاكثر الى اكتساب سمات ملاك الارض الاقطاعيين ، او شبه الاقطاعيين • لكن سماته

---

(٧١) في الربع الاخير من القرن الماضي زادت هيبة السلطات العثمانية في البلاد • ويضرب فردريك بيك مثلا على ذلك ان قبيلة بني صخر لم تجسر على القيام بثورة عام ١٨٧٧ عندما قام متصرف حوران بسجن زعيمها فندي الفايز واعدام ابنه لانه حاول تخليص والده ، ويشير الى انه مع حلول عام ١٨٨٢ تمكنت الحكومة في السلط من تحصيل الضرائب من القبائل البدوية الضاربة في الجنوب منها وحتى تخوم الكرك • المصدر نفسه ص ١٨٢ •

كزعيم قبلي لقبيلة او لعشيرة ما زالت قائمة ، ان عنايتـــه بزراعـــة الارض واستخدام الفلاحين تبرزه عن باقي القبيلة التي ما زالت زراعتها بدائية جـــداً، ويكون شيوخ القبائل والعشائر الآيلة نحو الاستقرار قد شرعوا ابكـر بكثير فـي استثمار الارض زراعيا اعتمادا على الفلاحين،لا على اعضاءالقبيلة او العشيرة ٠

في تركيب هذا النموذج نجد تمايزا اساسيا بين القمة الآيلة نحو الزعامـــة الاقطاعية او شبه الاقطاعية للارض ، وبين القبيلة او العشيرة التي ما زالـــت علاقاتها وملكيتها للارض والمواشي مشاعية كما نجد تراتبا اجتماعيا له علاقـــة بانقسام القبيلة او العشيرة الى اقسام متمايزة فيما بينها على اساس مدى قرابـة او بعد هذا القسم او ذاك عنالزراعة وعلى مدى احتفاظه بسماته البدويـة ٠ ان الاقسام التي انخرطت في الزراعة ابكر هي عادة اقل «شانا » ٠ وفي هذا النموذج نجد ان الحاجة الى اظهار القدرة القتالية وصد الغزو ميزة هامة ، فالجماعـات التي تاخذ بالاستقرار في الارض تكون مغرية لجذب الغزاة ، ومن ثم فان القادرين على صد الغزاة واحيانا على تنظيم الغزو ضد الغير يتمتعوا بمكانـة اجتماعيـة ارفع ، اما الذين انصرفوا كليا او الى حد كبير للزراعة فانهم يصبحـوا اقـــل شانا من الاقسام الاخرى من القبيلة ٠

لنلاحظ ان العشائر التي آلت الـ يالزراعـة شيئا فشيئا في هذه المرحلة هـي في العرف الرعوي (البدوي) اقل شانا من العشائر المحافظة على طابعهـــا المترحل البدوي الصرف ، ان اتجاهها نحو الزراعـة يمت الى افتقارها القـدرة على مواصلة طابعها الرعوي الصرف ٠ نتحدث ها هنا عن العشائر التي استقرت اضطراريا ، وليس عـن القبائل والعشائر التي آلت الى الزراعة وهي في قمـة سطوتها البدوية ، وبعـد استحواذها على اراض واسعـة كالعدوان منذ نصف قرن (من هـذه المرحلة) ، او كبني صخر فيما بعـد ٠ هناك تراتب اخـر في العشيرة الآيلة الى الزراعـة متعلق بتقسيم للعمـل خاص بهذا النموذج الانتقالي فهناك تقسيم مهني اذا جاز التعبير له صلة بالزراعـة والرعـي معـا ، كما هناك تقسيم عمل ارقى بين الرجل والمرأة ، فاولا تظهر فئات حرفية تهتم اكثر فاكثـــر بصنع الادوات بين العشيرة ، وتنشأ في تجمعات ومناطق العشائر والقبائـــل الآيلة نحو الاستقرار الزراعي مواقع ثابتة اكثر اشبه بالقرى البدائية ، التـــي ينتظم فيها السكن عـلى اسس قرابية غالبا ، كما تظهر فيها اشكال اثبت مـــن الحرف المرتبطة بالمشاعـة الرعوية والزراعـة ، كالنسيج والحدادة وصنـــع الادوات الزراعية والبدائية والادوات المنزلية والعصر والطحن والخبز ، عوضا عن تحول التبادل البضاعي من ظاهرة عرضية وموسمية الى تبادل اكثر ديمومة وانتظاما في اسواق اسبوعية وتكثر صلات هذه التجمعات بالتجارة واصحـاب

الدكاكين والتجار المتجولين ، ولا تعود مبادلة الفائض من الانتاج الرعوي والزراعي مشينة ، لكنها تظهر اكثر فاكثر في اشكال مقنعة وساذجة ٠

اما العلاقات المشاعية والملكية المشاعية فهي تتجه اكثر فاكثر نحو الانحلال في الجماعات التي تطور استقرارها في الارض ، وبات الرعي هو المهنة الثانية للجماعة ، هنا يبرز فرز للارض المشاع الى حصص على اساس القرابة الادنى فالادنى ، اي نحو الشكل القائم للملكية المشاعية في الريف (٧٢) ٠

رأينا من دراستنا للتركيب الاقتصادي لشرقي الاردن في نهاية العهد العثماني وحتى الحرب العالمية الاولى ان البلاد ككل ذات اقتصاديات طبيعية ـ معيشية ، ما قبل رأسمالية ، وانها ذات انماط انتاجية متعددة ٠ ففيها النموذجين الاقتصاديين المشاعي الرعوي (البدوي) والمشاعي الزراعي (الريفي)، والنموذج شبه الاقطاعي والنموذج البضاعي البسيط ٠ بالاضافة الى النموذج الانتقالي نصف الرعوي ـ نصف الزراعي المستند غالبا الى طور اعلى من الملكية المشاعية ٠

ان كون البلاد متعددة الانماط ، قد اضفى صفة الانقسام والعزلة الاجتماعية على الجماعات الاقتصادية ـ الاجتماعية المرتبطة بهذه الانماط ٠ وفضلا عن ان اجزاء البلاد المختلفة قد كونت في الغالب « اطرافا » للمراكز المحيطة (في سورية الشمالية وفلسطين) فان هذه الاجزاء كانت على صلة اعمق بالمراكز مما هي بين الاطراف نفسها ٠ اي ليس فقط لم يوجد « شرقي الاردن » كوحدة ادارية سياسية من قبل ـ فهذه حقيقة غير جوهرية ، ولا تقتصر على شرقي الاردن ـ وانما لم تترابط اجزاء ما عرف بشرقي الاردن مع بعضها البعض اقتصاديا حول مركز اقليمي « داخلي » ٠ وهذا ما يعطي معنى محددا لقولنا ان شرقي الاردن لم تتكون من قبل كمجتمع ، او كتشكيل اجتماعي ـ اقتصادي واحد ، فيما ان هذه البقعة لم يسدها قبيل الحرب الاولى اساس مادي يبرر وحدتها الاجتماعية ، اي عدم وجود اسلوب انتاج سائد ، فان وجود وحدة المجتمع والاقتصاد لم تكن ممكنة ٠ ولذلك فقد

---

(٧٢) يصف ولبول تقسيم الاراضي ذات الملكية المشاعية في شرقي الاردن على النحو التالي : « في فترات محددة بين سنة وتسع سنوات حسب عادات القرى ، يقتسم الملاكون الارض فيما بينهم بحسب الحصص التي يمتلكها كل منهم وكل فلاح كان يزرع القطع المعطاة له للمدة التي عينت ، مع العلم بان عليه عند نهاية هذه الفترة ان يترك تلك القطع ويزرع غيرها بعد التقسيم الجديد للارض» ٠ راجع :

G. F. Walpole , «Land Problems in Trans Jordan » , Royal Central Asian Society Journal vol. 35 , Jan , 1948 , P P. 52 - 65 .

وجدت فحسب وحدات او بنى اجتماعية ـ اقتصادية متعددة لكل منها نمطها الاقتصادي الخاص ، اي اسلوب وعلاقات انتاج مختلفة وطبيعة اجتماعية مختلفة • كما كان لكل نموذج او نمط اقتصادي تركيبه الاجتماعي الخاص به والمستقل نسبيا • وتبعا لدرجة تطور النموذج المعين كانت تتحدد سمات فئاته وطبقاته الاجتماعية ، اي درجة نضج هذه الطبقات ومدى تمايزها وتناحرها • كما كانت لكل نموذج تناقضاته الاجتماعية الاصيلة والمتميزة عن التناقضات الاجتماعية في النماذج الاخرى • ويتبين من العرض المقدم آنفا انه ليس صحيحا الزعم القائل ان الطبقات لم تتشكل قبيل نشوء الدولة ـ الادارة المركزية في الاردن ، وانما تشكلت الطبقات بعدها وبسببها (٧٣) •

لقد نشأت الطبقات والفئات الاجتماعية في معظم المناطق الريفية في البدءات الحضرية كما برزت التمايزات الاجتماعية داخل الجماعات ذات الاقتصاد المختلط (الرعوي ـ الزراعي) وحتى لدى العديد من القبائل الرعوية قبيل الحرب الاولى • المشكلة ليست فيما اذا تشكلت الطبقات والفئات الاجتماعية في مناطق شرقي الاردن قبيل الحرب الاولى أم لا • فقد تشكلت فعليا في مناطق معينة وبدأت اجنة التمايز الاجتماعي لدى مناطق وجماعات اخرى • بل المشكلة ان الطبقات والفئات الاجتماعية قد تشكلت وتتشكل ، وتمايزت وتتمايز ، لا على مستوى البلاد والمجتمع كطبقات وفئات اجتماعية اقليمية • فذلك لم يكن ممكنا تاريخيا ، لان البلاد والمجتمع لم يظهر اي منهما من قبل كوحدة عضوية واحدة ولم ينشأ الاساس المادي لهذه الوحدة • فمن التعسف الحديث عن تشكل او عدم تشكل طبقي اقليمي في بقعة لم تعرف وحدتها الاقليمية بالمعنى الاقتصادي ـ الاجتماعي • وانما تشكلت الطبقات والفئات الاجتماعية ، او ظاهرة التبرقش الطبقي ، وتعني بذلك وجود مجموعة فئات وطبقات خاصة ، بكل نمط من الانماط الاقتصادية السائدة في مناطقها •

يضاعف من صعوبة تمييز وفرز مختلف الفئات الاجتماعية والطبقية ، ليس فقط وجود جملة من الانماط الاقتصادية ، وانما بشكل رئيسي لان المجموعات الاجتماعية المختلفة بانماطها الطبيعية ما قبل الرأسمالية تشترط وجود روابط اجتماعية تقليدية فيما بينها كروابط الدم والقرابة والانتماء القبلي والعشيري ، وروابط اقل اهمية : دينية ، اقلياتية ، فهذه الروابط غير الطبقية ظلت تحدد العلاقات فيما بين الناس ، بقدر اقل او اكثر مما كانت الروابط الطبقية تحددها • اي انه لا مجال للحديث عن اساس طبقي صرف للعلاقات داخل الجماعات الاجتماعية ـ الاقتصادية المختلفة •

---

(٧٣) نجد هذا الاعتقاد حتى عند كاتب جاد • راجع : جميل هلال ، الضفة الغربية، التركيب الاقتصادي والاجتماعي ، مركز الابحاث بيروت ١٩٧٥ •

تتجلى اهمية تقدير مفعول هذه الروابط والعلاقات التقليدية اولا من خلال ملاحظة ان التغييرات في المجال الاقتصادي (الملكية وعلاقات الانتاج) وتفسخ الاساس الاقتصادي للروابط القديمة، كالقبيلة والعشيرة ، لا يترتب عليها الا ببطيء شديد تغييرات مناسبة على مستوى البناء الاجتماعي والفوقي . وثانيا في ان التغييرات في علاقات الانتاج وفي نظام الانتاج كانت بطيئة جدا من ناحية وضحلة من ناحية اخرى . فالتغييرات في الجال الاقتصادي لم تظهر على شكل قفزات نوعية ، وانما عبر تطور بطيء ، تدرجي وسطحي التاثير الامر الذي لم يؤدي الى تطور جذري في القوى المنتجة .

لكل ذلك نلاحظ ان الزعامات الاقطاعية ، حتى في اكثر مناطق البلاد تطورا (المرتفعات الشمالية) قد التبست بطابع الزعامة القبلية والعشيرية ، ونجد ان القرى ، رغم انها تشكل وحدة اجتماعية ـ اقتصادية ، الا انها تتضمن روابط عشيرية وعائلية تقوم في حارات او احياء القرى .

وبكلمات اخرى ، كانت العلاقات الطبقية والاجتماعية تتشكل من خلال تقاطعها من جهة وتشابكها من جهة ثانية مع العلاقات والروابط التقليدية ما قبل الطبقية . ففي كل منطقة من البلاد تفسخت فيها اشكال المشاعية للملكية والانتاج ، كانت تتجسد وحدة مناطقية اساسها سيادة نمط اقتصادي اكثر تطورا وتتخللها تناقضات تفرضها الروابط ما قبل الطبقية (عشيرية ، قبلية ... الخ) . تشوه وتطمس بدورها الروابط الجديدة بين الناس ، اي الروابط الاجتماعية الحديثة .

٣ ـ التطور السياسي لشرقي الاردن ، مقدمات نشوء « الدولة » (١٩٠٨ ـ ١٩٢١) .

في ظل التركيب الاقتصادي الاجتماعي المتدني التطور ، وفي ظل سيادة العلاقات التقليدية وتشوه التركيب الطبقي ـ الاجتماعي في البلاد ، ومع قلة فرص التعليم والاتصال مع التيارات والحركات القومية التحررية في بقية البلدان، سورية والعراق ومصر ، لم تشهد البلاد نهوضا وطنيا ولم يشارك ابناؤها في النضال السياسي المناهض للسلطة العثمانية .فنحن مثلا لن نجد بين الاعضاء المؤسسين او المشاركين في انشاء الجمعيات السرية المناهضة للعثمانيين ، اي من ابناء شرقي الاردن . كما نجد ان الوعي القومي التحرري لم يتسرب الى البلاد ، وبالاصح لم يتجسد في تعابير ملموسة . وتبرز ثورة الكرك ان الوضع الموضوعي كان يدفع نحو التحرك المناهض للسلطات العثمانية ، لكن لم تتوفر لدى الجماهير ، لا الخبرة الكافية ولا القيادة الكفؤة والمنسجمة في نضالها ضد العسف العثماني .

وعلى الرغم من ان البلاد وبالذات متصرفية الكرك قد تمثلت في مجلس المبعوثان الثاني عام ١٩٠٨ ، في شخص توفيق المجالي « الاردني » الوحيد في هذا المجلس ، ورغم مشاركة مجالس الادارة في الاقضية « الاردنية » في المجلس العمومي لولاية سورية ، حيث مثل البلاد ستة اعضاء في فترته الاولى وثمانية اعضاء في فترته الثانية (٧٤) الا ان هذا التمثيل المحلي لم يبرز قوى جديدة في شخص ممثلي الاقضية او متصرفية الكرك ، بل جاء ليعكس وزن ونفوذ العشائر والاسر النافذة في مناطقها · والواقع ان السلطات العثمانية كانت تقاوم ـ فضلا عن القوى المحلية ـ وصول عناصر غير متنفذة بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي السائد (٧٥) ·

لقد وجدت حركة الشريف حسين البلاد مهيأة موضوعيا للانتفاض ضد العسف العثماني ، فقطعت ثمار هذا الوضع ابان الحرب العالمية الاولى في تحركها نحو الشمال ، عبر شرقي الاردن · على ان الشعارات القومية والاستقلالية التي رفعتها الاحزاب والتجمعات القومية العربية ومن ثم حركة الشريف حسين لم تكن مؤتلفة مع التكوين الاجتماعي التقليدي ، ولم تستطع ان تخترقه لتفككه او لتضعف من تماسكه · فظلت هذه الشعارات بمثابة مظلة سياسية عائمة للسكان المحليين ، وبمثابة تعابير لغوية غير مفهومة ، ازاء القيم القبلية والاقطاعية وشبه الاقطاعية · لكن التحرك المناهض للعثمانيين اثار حماس الفئات الاجتماعية الدنيا : جماهير الحرفيين والتجار وبشكل رئيسي الفلاحين ، وكذلك المثقفين وسكان البلدات والاقلية المسيحية · فقد كان هم اهالي البلاد التحرر من الضرائب والعسف والسخرة واشكال النهب المختلفة · اما هم الزعامات القبلية والاقطاعية فقد كان استعادة اعتبارها المفقود ، وترسيخ نفوذها التقليدي وقد استنهضت همم هذه الزعامات الوعود والاموال المغدقة من رسل الشريف حسين اكثر مما استنهضتها الشعارات القومية والاستقلالية· ونجد ان العديد من الزعامات المحلية التقليدية لم تستجب الى حركة الشريف حسين ، بل قاتلت الى جانب الاتراك ضدها · فعلى سبيل المثال ، كان الشيخ

---

(٧٤) راجع منيب الماضي وسليمان موسى ، تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ١٠ · والاقضية التي مثلت في مجلس ادارة ولاية سورية هي : الكرك ، معان ، السلط ، الطفيلة ، عجلون ، جرش ·

(٧٥) راجع عودة القسوس حول كيفية انتخاب ممثل الكرك الى مجلس المبعوثان ، حيث لم تقبل السلطات العثمانية تمثيل الكرك بنائب مسيحي ، بعد ان تبين ان الفائز الاول (قدر المجالي) اميا · فاعيدت الانتخابات ففاز توفيق المجالي ·

قدر المجالي (زعيم الكرك) وعدد من شيوخ البلاد على رأس قوة كبيرة من الفرسان التي انحازت الى جانب الاتراك ، في حين ان الشيخ قدر المجالي كان عام ١٩١٠ على رأس الثورة التي نشبت في الكرك • غير ان معظم هذه الزعامات . مع ميل ميزان القوى لغير صالح الاتراك عاد لينضم الى قوات فيصل •

بعد انسحاب الجيش التركي الرابع من عمان في اواخر ايلول ١٩١٨ ومع هزيمة العثمانيين في المشرق العربي ، خضع شرقي الاردن الى « ادارة بلاد العدو المحتلة » ، واقام فيصل حكومة عربية ضمن ما سمي بالمنطقة الشرقية (سورية الداخلية وشرقي الاردن) وكانت هذه الحكومة تابعة للادارة العسكرية المذكورة • وفي ظل الحكم الفيصلي قسمت سورية الى ثمانية الوية ، شملت ثلاثة منها مناطق ما عرف فيما بعد بشرقي الاردن : ١ ـ لواء الكرك ومركزه الكرك وتتبعه اقضية الطفيلة ومعان والعقبة ونواحي الشوبك ، العراق ، ذيبان ، وتبوك •

٢ ـ لواء البلقاء ومركزه السلط ويتبعه قضاءا عمان والجيزة وناحية مادبا •

٣ ـ لواء حوران ومركزه درعا وتتبعه اقضية ازرع ، المسمية ، بصرى الشام ، عجلون ، وجرش (٧٦) •

لقد شهدت هذه الفترة تطورا نسبيا في مساهمة سكان البلاد في الحياة السياسية ، وفي ادارة شؤون البلاد • فقد اضطلع عدد من الوجهاء المحليين وبعض المثقفين ببعض المهام الادارية والقضائية(٧٧)كما شارك عشرة اردنيين في المؤتمر السوري العام (حزيران ١٩١٩) من مجموع ٩٣ ممثلا ، عرفت مشاركتهم بهذا المؤتمر ، في حين شارك عن فلسطين٢٣ممثلا وعن لبنان والساحل

---

(٧٦) راجع : سليمان موسى : تأسيس الامارة الاردنية (٢١ ـ ١٩٢٥) ، مصدر سابق ، ص ١٢ •

(٧٧) ومن الذين اضطلعوا بمسؤوليات ادارية او اقتصادية في العهد الفيصلي : رفيقان المجالي ، حسين الطراونة ، توفيق المجالي ، عطاالله الطراونة ، عطاالله سحيمات ، يعقوب مدانات ، متري زريقات ، عبد المهدي الشمايله ، زعل المجالي ، محمد علي الكردي ، سالم بن مريحيل ، بسم الخماش ، عمر مطر ، مفلح عوجان ، عبد المجيد مهيار ، يوسف السكر ، شكري شعشاعة ، سليم الخماش ، زكي الخطيب ، عبد القادر التل ••• واخرين •

الغربي ٢٢ ممثلا (٧٨) ٠

على انه خلال فترة الحكم الفيصلي القصيرة، لم يظهر تحولا جديافي حياة البلاد بل لقد شهدت المزيد من الفوضى في ظل هذه الفترة الانتقالية القصيرة ٠ ولم تتمكن حكومة فيصل من احكام سيطرتها المركزية على البلاد وشكت رسائل وتقارير الحكام العسكريين للمناطق من عدم دفع الضرائب ومن انتعاش الغزو وانتعاش الشخصية البدوية عموما ٠ كما ان موقف السكان من التجنيد العسكري 'لذي فرض لمواجهة تقدم القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو نحو دمشق كان فاترا ، بل وسلبيا (٧٩) وما من شك ان تدني الوعي الاجتماعي والسياسي انذاك الذي لا يمكن عزله عن تخلف العلاقات الانتاجية، قد اضعف بشكل واضح من استعداد الجماهير للنضال من اجل الاستقلال والتحرر الوطني والوحدة القومية ، هذه الشعارات والاهداف غير المفهومة للجماهير 'لمكبلة بالروابط التقليدية والمحلية الضيقة ٠ فضلا عن ان الزعامة القومية للحركة الوطنية في سورية ، كانت زعامة ارستقراطية تخشى من الاعتماد على الجماهير وتفضل المساومة وعقد الصفقات مع الامبريالية (٨٠) ٠

وحتى في ظروف سقوط حكومة فيصل ، اثر دخول القوات الفرنسية الى سورية في تموز ١٩٢٠ (ومع حدوث فراغ سياسي في البلاد وشرقي الاردن)، فان الجماهير افتقدت الى زعامة محلية قادرة على تجاوز محدودية اطار زعامتها القبلي ـ المناطقي الى اطار البلاد بأسرها ، فالوضع الموضوعي ـ المحلي لم يكن يسمح بظهور مثل هذه الزعامة الوطنية ، بسبب التفكك العام اقتصاديا واجتماعيا ٠

وهذا ما تبرزه فترة ظهور الحكومات المحلية ، والتي سبقت نشوء امارة شرقي الاردن بثمانية اشهر ٠

---

(٧٨) مثل سوريا الوسطى (بما فيها شرقي الاردن) ٤٨ ممثلا ٠ راجع قدري قلعجي : جيل الفداء ، دار الكاتب العربي ـ بيروت ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ٠

(٧٩) راجع منيب الماضي وسليمان موسى : تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ٩٠ ٠

(٨٠) لذلك غادر فيصل سورية فورا ، ولم يفكر في مقاومة الاحتلال الفرنسي ٠ فاتجه نحو فلسطين ومنها الى اوروبا ٠

رسالة من الشرق
كمبوديا الجديدة

حمد العابدي*

مقدمة :

لم يكن الثامن عشر من شهر آذار (مارس) ١٩٧٠ بداية تاريخ النضال الوطني للشعب الكمبودي ، بل كان بداية التحول الكامل نحو الكفاح المسلح في اقصى حدته ، وتاريخ الانفتاح الجماهيري والتفاف الامة بسوادها الاعظم حول خط المنظمة الثورية ، والاستجابة الواسعة لنداء الثورة المسلحة الشاملة من اجل الدفاع عن شرف الوطن وتحقيق تحريره وتطهيره وحياده ٠

ففي ذلك اليوم استولت الامبريالية الامريكية على السلطة الفعلية في البلاد بعد ان تمكن عميلها لون نول (كان قائدا للجيش ورئيسا للوزراء انذاك) من القيام بانقلاب اطاح بنظام الامير نورودوم سيهانوك ، وتنصيب نفسه دكتاتورا سافرا ومنفذا لمشيئة اسياده الامبرياليين ٠

وعلى امتداد الفترة بين ١٨ اذار (مارس) ١٩٧٠ و١٧ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ احتل نضال الشعب الكمبودي مكانة بارزة في الاوساط السياسية الدولية ، وكان موضع اعجاب وتقدير وتضامن حركات التحرر العالمية ، وموضع اهتمام ودعم شعوب العالم الثالث ودول عدم الانحياز ، سواء في هيئة الامم المتحدة او في المؤتمرات المختلفة ٠

ان هذا البحث الموجز لا يتعرض لتاريخ النضال الحافل للشعب الكمبودي تفصيلا ، بمقدار ما يتعرض للثورة المسلحة العنيفة التي تمكنت من اقتلاع جذور النفوذ الامبريالي والسيطرة الاجنبية ، والتي توجت في خمس سنوات وشهر نضال الاجيال الكمبودية بالنصر الحاسم ، والتي بانجاز مهماتها التحريرية وضعت المنظمة الثورية الكمبودية كل الشعب الكمبودي على عتبة تاريخ جديد لكمبوديا جديدة ٠

٠٠ لقد كنت في بكين مع مسؤولين كمبوديين يوم وردت انباء تحرير العاصمة بنوم بنه واستسلام بقايا رموز السلطة العميلة مما اتاح لي تصور ملامح المستقبل المشرق ٠

اما المهمات الحقيقية لهذا البحث فهي التقاء الارادة الفلسطينية والتطلعات الفلسطينية

★ ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في جمهورية الصين الشعبية

مع الارادة الكمبودية والتطلعات الكمبودية التي تمثلت في النضال الحازم ضد الكيانات المصطنعة والامبريالية المساندة لتلك الكيانات ، وقد شهدت ايام الحرب لقاءات التضامن والدعم المعنوي المتبادل بين الثورتين الفلسطينية والكمبودية واستمرت هذه اللقاءات والاتصالات الودية ٠٠ حتى كانت لي من خلالها فرصة القيام بزيارة الى دولة كمبوديا الديمقراطية في الشهر الثاني من عام ١٩٧٦ تلبية لرغبة قائمة مشتركة بيننا ولدعوة الحكومة الكمبودية ٠٠

لقد تركت الزيارة في نفسي انطباعات عميقة وذكريات فريدة لا تنسى تجمعت على مدار اسبوعين متواليين بين العمال والفلاحين واثار الدمار ومواقع المعارك وحفر قذائف الطائرات ٠٠ وشكلت هذه الانطباعات والذكريات باعثا قويا ودافعا ملحا وراء ما اسجله على هذه الصفحات القليلة ٠

وان ما اقدمه لا يعود الى مراجع مدونة ، او وقائع في كتب التاريخ او الى ملفات المؤتمرات الدولية ، بل هو وليد ما اوحى به واقع كمبوديا اليوم التي رأيتها ارضا وشعبا وحركة بعد عشرة شهور من تاريخ تسجيل النصر النهائي ٠٠ وكل ما اعتمدت عليه هو الواقع الملموس وبعض الاحاديث مع كوادر المنظمة الثورية الكمبودية والفلاحين والعمال والجنود ٠

ومع انني اعتز بان هذا البحث المتواضع هو الاول الذي يقدم من على ارض الواقع ، وفي ضوء مشاهداتي في اكثر من مقاطعة وفي اكثر من موقع عمل ٠٠ مع هذا لا ادعي انه اعطى العنوان الكبير الذي يحمل مدلولاته الواسعة ، فالبلاد في بداية الطريق ، وما من شك في ان كمبوديا الديمقراطية ذات الخط السياسي الثابت ستنتقل عبر الجهود المكثفة والممتازة التي لست الى مكان القدوة والمثل في اسرة شعوب العالم الثالث ودول عدم الانحياز ، ولهذا فان التطورات الكبيرة ستتجاوز هذا البحث بكثير ٠٠ لقد كان من الممكن بناء تقديرات ادق ورسم صورة موسعة للمستقبل من خلال تحليل الواقع الملموس وما خصنا به القادة الكمبوديون من تطلعاتهم وبرامجهم ، لكن مقتضيات عملي تفرض علي الاحتفاظ بكثير من التحليلات الايجابية والصور المشرقة بعيدا عن صفحات الكتب والمجلات ٠

نبذة تاريخية :

ان اول مكان يهبط فيه الزائر هو مطار بنوم بنه القريب من العاصمة بنوم بنه وهي مدينة حديثة البناء على الضفة الغربية لنهر الميكونغ ، وكذلك تبدو بعض المدن التي اتيحت لي فرصة الوصول اليها ومشاهدتها ، لكن اثار انكور التي تبعد عن مدينة سييم ريب حوالي ستة كيلومترات في اتجاه الغرب تعبر عن حضارة عريقة كانت قائمة على الارض الكمبودية، ويتجلى هذا التعبير في القلاع المنيعة والمعابد والرسومات المنحوتة وفي تناسق قلاع انكوروات الخمسة وهي جميعا تعود الى امبراطورية انكور بين القرنين التاسع والثالث عشر ، وهي اثار عزيزة على الشعب الكمبودي وقد صمد فيها الثوار منذ عام ١٩٧٠ حتى التحرير عام ١٩٧٥ دفاعا عن شرف اجدادهم رغم تعرضها للقصف الجوي الذي تشهد به بقايا مادة النابالم على المدر المتجه الى الغرب من انكوروات وبعض التصدعات ، وقد ظلت اعلام الثورة مرفوعة على القلاع الشامخة تتحدى القصف الامريكي ومدافع العملاء ٠

والحقيقة القاسية ان تاريخ هذه البلاد ما زال ينتظر التدوين ، اذ انه حتى الان لم يكتب اي كمبودي شيئا عن تاريخ بلاده ، وكل الوقائع التاريخية المتوفرة هي ابحاث اعدها فرنسيون وانجليز وفيتناميون كل على هواه وبحكم خلفيته وتحليله · وهي بذلك لا تعتبر مصادر يعتمد عليها · وان الجهات المعنية في حكومة كمبوديا الديمقراطية ومنظمتها الثورية تهيء نفسها وتعد العدة لكتابة تاريخ البلاد ·· وقد اوصلها البحث كما علمت الى نتائج ممتازة ، فقد جمعت روايات القرويين ، ومعارف جيدة من وثائق ملموسة في المعابد البوذية بالاضافة الى وثائق قديمة اخرى · ووثائق دقيقة تعود الى القرن السابع ، وكل الدلالات تشير الى ان المجتمع الكمبودي كان موجودا منذ ٢٠٠٠ (الفي عام) ومستقرا في هذه البلاد ·

اما تاريخ القرنين التاسع والعاشر فهو اكثر وضوحا بشواهد انكور ، وتشير كل هذه الدلائل مع تاريخ القرن الحالي الى ان رقعة الارض الكمبودية كانت اكبر مما هي عليه الان ، وكان الاقطاع طابعا مميزا في الشمال والجنوب لعصر انكور ولمملكة تشامبا التي كانت قائمة في فيتنام الوسطى ·

وقد تعرضت البلاد في القرن التاسع عشر ـ وكانت آنئذ الحروب الاقطاعية في اوجها في كل من لاوس وكمبوديا وفيتنام ـ الى محاولات الاحتلال من جانب الاقطاع اللاوسي وفي نفس ذلك القرن اقتطعت لاوس جزءا منها ·

كمبوديا والاستعمار الفرنسي :

ويزحف الغرب الاوربي باطماعه الاستعمارية ، فتستولي بريطانيا على عدة اقطار في جنوب شرق آسيا ، وتبحث فرنسا الاستعمارية تحت نابليون الثالث عن مستعمرات في هذا الجزء من العالم ايضا ·· فيقع الاختيار على كمبوديا ويجري احتلال جنوب البلاد عام ١٨٦٣ ليصبح منطقة فرنسية اطلق عليها اسم (كوتشيتشينا) ويقتطع اللاوسيون كما اسلفت جزءا آخر وتصبح بقية البلاد محمية فرنسية ، واخيرا ضمت فرنسا نهائيا الاراضي الكمبودية التي اسمتها كوتشيتشينا الى فيتنام ، ومن ضمن تلك الاراضي الجزيرة المعروفة باسم فوكواس وهي لا تزال فيتنامية حتى اليوم ، اما الحدود الكمبودية ـ التايلاندية فقد تم تثبيتها بموجب اتفاقية بين فرنسا وتايلاند بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٧ ومن الشرق والجنوب اعترفت فيتنام آنئذ بالحدود الحالية لكمبوديا ·

وقد ظل الاستعمار الفرنسي متحكما في مقدرات الشعب الكمبودي اكثر من ثمانين سنة ، وحتى بعد الاستقلال عام ١٩٥٣ بقيت البلاد محكومة بعلاقات شبه اقطاعية ولم تمح آثار الاقطاع والتحكم الاقتصادي والثقافي الفرنسي الا بعد تحرير البلاد وسقوط لون نول عام ١٩٧٥ ·

ورغم حصول كمبوديا على استقلالها عام ١٩٥٣ ظلت ضمن الاتحاد الفرنسي الى ان اصبحت عضوا في الامم المتحدة عام ١٩٥٥ ·

سياسة الحياد الكمبودية بين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٧٠ :

منذ عام ١٩٥٥ كان الحياد والاستقلال والسلام شعارات ورغبات ومكاسب مرجوة يتوق الشعب الكمبودي باسره لتحقيقها والحفاظ عليها ، باستثناء قلة من المترددين · لكن تلك الفترة كانت بداية التدخل الامريكي لوراثة النفوذ الاستعماري الفرنسي الذي كان قد تقهقر واهتز من الجذور نتيجة اوضاع فرنسا الداخلية الاقتصادية والسياسية · وقد سعت الامبريالية الامريكية لفرض سيطرة واسعة على المقدرات الكمبودية ، الى ان استطاعت بالضغط المتواصل ومشوزة المترددين في آنواحد انتفرض توقيعاتفاقية معكمبودياعام١٩٥٥ تحت مظلة تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية ، ولم تكن تلك الاتفاقية تحالفا ، كما لم تدخل كمبوديا حلف سياتو ، الا ان النوايا الامريكية بدأت تتكشف فقد كانت تهدف من وراء معونتها وضغوطها الى احكام السيطرة على البلاد وتقوية قبضة عملائها الذين بدأت تهيئهم وتضع بين ايديهم الامكانيات للزحف نحو السلطة وسحق القوى الوطنية وتصليب التيار المتعاون مع الامبريالية ·

وبهذا التدخل المقنع اثارت الولايات المتحدة عدة مشاكل في البلاد ·· وكلما ازداد ضغط التدخل الامريكي ازداد الشعب وقواه الوطنية تمسكا ومطالبة بسياسة الحياد وحفظ الاستقلال والسلام ، على الرغم من موقف جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك الذي قال : ان الحياد موقف لا اخلاقي · استمر الشعب الكمبودي في دفع المترددين والحكومة ، بنضاله الدؤوب للتمسك بمبدأ الحياد ، وقابل الاميركيون هذا التيار الوطني بالمؤامرات المتتالية ، ولم يؤد ذلك الا الى ازدياد حدة نضال الشعب الذي قاوم مؤامرة الجنرال الخائن دابتشون الانقلابية عام ١٩٥٨ ومؤامرة المخابرات المركزية عام ١٩٥٩ ومحاولات ١٩٦٣ ، وظل الصراع والتوتر في تصاعد الى ان بلغت الامور حد قطع العلاقات الدبلوماسية بين بنوم بنه وواشنطن عام ١٩٦٥ · رحلت السفارة الامريكية من بنوم بنه لتفسح المجال لدور العملاء الذين كانوا قد ركزوا قواهم وشرعوا في تنفيذ مخططات اسيادهم الامبرياليين للوصول الى السلطة ، وقد استطاع اولئك العملاء ان يمارسوا ضغوطا شديدة على الامير نوردوم سيهانوك ارغمته على الموافقة على اجراء ما سمي بالانتخابات الحرة عام ١٩٦٦ · كان النظام السائد قبل ذلك هو التحكم في عملية الترشيح · اما انتخابات ١٩٦٦ التي قادها العملاء تحت ادعاءات الديمقراطية والسيادة الحرة ·· فقد اوصلت الى الجمعية الوطنية عملاء امريكا وربيبها لون نول الذي اصبح رئيسا للوزراء ، وذلك يعود الى تحكمهمفي ادارة وتمويل عملية الانتخاب· وجاءت الحكومة وليدة تلك اللعبة تحمل نوايا التدمير والسجن والمطاردة والتشتيت للقوى الوطنية وحل اي تنظيم يمكن ان يقود نضالا ضدها · واصبح الوطنيون مطاردين ، وقد ابلغ الوطنيون الامير سيهانوك بان عملاء اميركا قد دمروا الحياد والاستقلال وانهم سيتفرغون لتدميره شخصيا بعد ذلك ، فلم يثق الامير بهذا القول الى جانب ان قوة السلطة كانت قد خرجت من يده · وكان العملاء اذكياء ايضا فقد افتعلوا عدة احداث وزوروا عدة تقارير ، لايجاد المبررات للبطش بالوطنيين وكبت الشعب ودق اسفين في وحدة القوى الوطنية · ومن الاحداث المثيرة حادثة ١٩ نيسان في مقاطعة ساملوت حيث قاوم الشعب عمالة الحكومة، فاتهم لون نول شعب المقاطعة بمقاومة الحكومة والتمرد عليها ·

وفي ذلك الوقت ، ركزت دعايات لون نول ، على مسألة تمزيق وحدة القوى الوطنية · فبدأ الترويج لمجموعة من الافكار الانقسامية ، التي تتركز حول وجود تيارين يطالبان

بالحياد : الشيوعيون ، وانصار الحياد الحقيقيين · لكن هذا لم يؤثر على مسيرة النضال، فكانت الصدامات داخل كمبوديا تزداد عنفا على امتداد السنتين اللتين سبقتا انقلاب لون نول عام ١٩٧٠ ·

ولو لم يكن ذلك الصمود الوطني في الصراع الدامي ضد لون نول وعصابته العميلة لسحقت القوى الوطنية وسحق سيهانوك وجرى في كمبوديا ما كان قد جرى في اندونيسيا، لكن قوى الحياد الوطنية ازدادت خبرة وصلابة وتماسكا من خلال نضالها في تلك السنتين · وعلى وجه العموم كان نضال الشعب الكمبودي على مدى ستة عشر عاما مريرا وقاسيا ، ولكن ذلك هيأه لمواجهة الانقلاب اللون نولي ·· اذ كانت القوى الوطنية تضع في حسابها ان انقلابا سيقع في البلاد ، ولما ابلغت قيادتها الثورية الامير سيهانوك بان لون نول يقول علانية بانه سيصبح يوما ما مثل نوين وان هذا يعني انه يدبر انقلابا ضد نظام سيهانوك قام الامير باعتقالهم ولم يأسف لذلك الاجراء القاسي الا بعد ان ذكره بعضهم بتلك الواقعة في بكين بعد الاطاحة بنظام حكمه من قبل لون نول الذي خان الامانة لصالح اسياده الامريكان ·

وفي حديثه عن تلك الفترة اشار اينغ ساري نائب رئيس مجلس الوزراء : « كنا حينئذ نملك خمسة بنادق فقط ، حتى اصدقاؤنا الفيتناميون لم يتفهموا اهدافنا ودوافعنا النضالية ولم يساعدونا وكان علينا ان نعتمد على انفسنا ، اذ رأينا ان الاعتماد على النفس هو احسن الاساليب ، وذلك اعطانا اروع الدروس التي هدتنا الى طريق النصر والتحرير » ·

ويؤكد القادة الكمبوديون ان مبدأ الاعتماد على النفس الذي اتبعوه لم يكن مستمدا من اية تجربة في الخارج بل موقفا واسلوبا ذاتيين · « لقد تعلمنا انه في احلك الظروف واقصى الصعوبات يمكن المضي بالثورة ، ونحن على قناعة تامة بان الطريق الذي سلكناه كان صحيحا جدا » ·

حرب الشعب من ١٨ـ٣ـ١٩٧٠ الى ١٧ـ٤ـ١٩٧٥ :

وتمتد هذه المسافة الزمنية بين تاريخ الاطاحة بنظام الامير نوردوم سيهانوك وتولي العميل لون نول وزمرته السلطة في البلاد الى يوم تحرير مدينة بنوم بنه ، وهي تغطي سنوات الحرب الخمس بين الشعب الكمبودي تحت قيادة منظمته الثورية وجبهته المتحدة من جهة وبين عملاء الولايات المتحدة وجنودها وطائراتها ومعداتها التدميرية من جهة اخرى ·

ويمكن تقسيم فترة الخمس سنوات وشهر تلك الى ثلاث فترات زمنية : ـ

الاولى : ـ استمرت من ١٨ ـ ٣ ـ ١٩٧٠ حتى نهاية عام ١٩٧٠ ·

الثانية : ـ من بداية عام ١٩٧١ حتى ١٥ ـ ٨ ـ ١٩٧٣ ·

الثالثة : ـ استمرت من ١٥ ـ ٨ ـ ١٩٧٣ حتى ١٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ ·

★★★

الفترة الاولى :

تميزت هذه الفترة المبكرة من تاريخ الحرب المصيرية ، بالقتال ضد العدو بدون قوات

مسلحة كاملة ، اذ انه رغم سخونة السنتين الملتين سبقتا الانقلاب العميل والصدامات التي دارت خلالها ، لم تتشكل لدى الوطنيين وحدات كبيرة او حتى متوسطة ، بل وحدات صغيرة من ١٠ ـ ١٥ مقاتلا ، لكنحدوث الانقلاب هتك ما كان يخفيه الامبرياليون والعملاء ووضع الشعب مباشرة في مواجهة العدوان على سيادة بلاده ، وبدأت قوات الثورة المسلحة تزداد عددا لكنها لم تصل الى مرحلة تشكيل لواء · ان الميزة الرائعة التي مكنت المنظمة الثورية من مواجهة مسؤولياتها بسرعة وبدون اي ارتباك تكمن في وجود قوة سياسية منيعة جدا ، وهذا يعني ان الشعب قد عرف الحقيقة فعرف ان كل ما كان يصدر عن الوطنيين من مقاومة وتحريض ومواجهة صدامية ، كان صوابا ، القناعة التي دفعت بالاغلبية الى تلبية نداء الجبهة الوطنية المتحدة والالتحاق بالقوى المقاتلة ، سواء في مجال القوات المتحركة ام في قوات المحافظات ام في القوات الفدائية ·

بعد الانقلاب استعمل العدو كل حيلة ممكنة لاخفاء نواياه ولونه الحقيقي ، فبدا لون نول مناورات سياسية واسعة ، ادعى انه يقيم في البلاد نظاما جمهوريا على انقاض النظام الملكي ، وان ما يفعله هو تعبير عن رغبة الشعب وان الشعب يتذمر من وجود النظام الملكي الذي اطاح به ، كما ادعى ان النظام الملكي كان موضع سخط الخمير الحمر وقد اتبع لون نول حملته الدعائية بالافراج عن المعتقلين ، وتنظيم حملة دعائية واسعة ضد الفيتناميين وذلك في ظل راية وطنية مزيفة رفعها عملاء العدو ·

ورغم تلك النشاطات الواسعة التي مارسها العميل لون نول وزمرته فان الحيلة لم تنطل على احد ·· واتخذت المنظمة الثورية في اطار الجبهة الوطنية المتحدة من ذلك كله موقفا حازما ولم تخدعها المناورات فالعداء بين الوطنيين من جهة وبينالاستعماريين والامبرياليين والعملاء من جهة اخرى مبدئي والصف الذي كان يقف فيه لون نول معروف ، وقد تمكن قادة الثورة من تحريك قوة شعبية كبيرة ضد العدو · والثورة ـ كما ذكرت ـ لم تكن تملك قوات عسكرية كبيرة ، لكنها كانت تملك قوات سياسية صلبة ، اما العدو فهو ايضا لا يملك قوات مسلحة كبيرة ·· ومنتقدير الموقف حينئذ يمكن القول بلا تردد ، انه لو كانت الحرب ضد لون نول وزمرته فقط لتم اسقاطه بسهولة وباقل قدر من التضحيات والدماء · لكن التدخل الامبريالي هو الذي اطال عمر الحرب الى خمس سنوات وشهر ، حافلة في كل يوم من ايامها بالتزيف الدموي والدمار الذي ما زالت تشهد به بقايا المدن المدمرة وجذوع نخيل السكر والجسور المتهدمة ·

التدخل الامريكي المباشر :

وتتوالى الاحداث بشكل دراماتيكي متلاحق ، القيادة الثورية بتحليلها الصادق وخطها السياسي الصحيح وخبرتها النضالية السابقة ، كانت مهيأة للمواجهة بلا تردد ، وتمسك بزمام المبادرة · والجديد هو ان الحرب اصبحت سافرة ! اتضحت الجبهات والمواقع واسباب الصراع ، فسارت الحرب في منعطف دموي للغاية ولكن في اتجاه الحسم النهائي· وسرعان ما تدخلت الولايات المتحدة سافرة بلا خجل ، فاصبحت قوة اساسية في الحرب العدوانية بشكل علني الى جانب عملائها ، دخل الجنود الاميركيون من الجنوب ومن الشمال والشرق ، وشهد يوم الخامس من ايار ـ مايو ١٩٧٠ اكبر عملية نقل جوي ، اذ غطت السماء اسراب الطائرات العامودية (الهيليوكبتر) الاميركية ، فنقلت كل شيء

حتى الدبابات والطائرات النفاثة المقاتلة و٢٠،٠٠٠ جندي · اما في الشمال الشرقي فقد جرت عملية انزال اميركي لـ ٨٠٠٠ جندي خلال ٢٤ ساعة في محافظتي موندولكيري وبرتناكي ويقول ايينغ ساري (وكان في ذلك الوقت قائد المقاومة الشعبية في تلك المنطقة) « لم نكن نملك سلاحا لمقاومة الانزال ، فدبينا اخشابا طويلة من الادغال على شكل حراب وغرسناها في الارض تستقبل المظليين المعتدين ، وكانت الوحدة العسكرية التي لدينا لا تتجاوز الثلاثين فردا ، مما جعل البعض يصابون بخور في العزيمة اذ قالوا انه اذا لم يساعدنا احد من الخارج فلا طاقة لنا لمواجهة هذا العدوان ولن ننجح في دحره ، فقلنا للمترددين ، انتم وشانكم فاما ان تقاتلوا او ان تنسحبوا ، اما نحن فقد قررنا ان نقاوم المعتدين بانفسنا وبالوسائل المتوفرة لدينا » ·

ورغم عنف التدخل الامريكي ، فقد شجع الثوار ما كان يلقى الغرباء المعتدون من صعوبات بالغة ·· كان الاميركيون في حاجة لانزال كل شيء بالطائرات العامودية ·· الطعام والماء والذخائر والآليات حتى انزال « دوش » من اعلى للاستحمام ، وكانوا في نفس الوقت يواجهون صعوبة المناخ وانتشار البعوض الذي كان يملأ المنطقة· فالى اي وقت يستمر احتمال اجساد الغزاة لقسوة الطبيعة الرافضة لوجودهم ·

الغابات واسعة ، وصعوبات الاعداء كبيرة ، كل ذلك جعل الثوار على يقين من ان الغزاة الامريكيين سيفشلون ولن يستطيعوا البقاء ، وان اقامتهم على الاراضي الكمبودية لن تكون طويلة · قاتلوهم بمجموعات ثلاثية وقنص من عدة اماكن وكلما حانت الفرصة واشغلوهم في كل اللحظات ، ولم يتمكن الجنود الاميركيون من الاقامة اكثر من شهرين عجزوا خلالها عن تدمير قوات جيش التحرير المناشيء ، بل ان فرصة وجود الاعداء الغرباء كانت وقتا رائعا لتنظيم القوات الثورية والكوادر · كونت المنظمة الثورية خلالها خواتها بالاعتماد على النفس ، وحصلت على اسلحة اكثر سمحت لها بمواصلة القتال ، وفي الوقت الذي اعتدى فيه الاميركيون على المناطق الآنفة الذكر اعتدى جنود اميركيون اخرون ومعهم ١٠٠ر٠٠٠ جندي سايغوني من جهة الجنوب الشرقي فاحتلوا جانبي الطريق رقم (٧) ، وبعد الرحيل الاميركي الذي اشرنا اليه بقي الجنود السايغونيين حتى عام ١٩٧١ · وهكذا نستطيع اعتبار الفترة الاولى حسب ما ورد في التقسيم عند بداية البحث، فترة العدوان الاميركي المباشر من جانب القوات الاميركية والسايغونية ، وما دمنا بصدد ذكر دور السايغونيين فانه يبدو ان ذلك الدور السيء قد اقتصر بعد احتلال مواقع كقاعدة نياك لونغ وغيرها على طرق التموين كنهر الميكونغ الذي كانت تعتمد عليه سلطة لون نول في بنوم بنه ، وعلى عمليات كبت وتقتيل المواطنين في كافة المناطق التي احتلوها من الاراضي الكمبودية ، وكثيرا ما كانت تحدث بينهم وبين قوات العميل لون نول صدامات اثر خلافات حادة تنشأ بين الحين والاخر ، وقد انسحب السايغونيون عام ١٩٧١ بعد ان وجهت اليهم قوات الثورة الكمبودية ضربات عنيفة اضطرتهم الى ذلك ·

وفي تلك الفترة كان لون نول قد تمكن بما توفر له من مساعدات مالية ومعدات حربية امريكية من ان يرفع عدد قواته الى ١٨٠،٠٠٠ جندي ، وظل يحارب الثورة مدعوما بالمساعدات الامريكية والطيران الاميريكي ·

الفترة الثانية :

تمتد من عام ١٩٧١ حتى ١٥ ـ ٨ ـ ١٩٧٣ ، وهي فترة الحرب المدارة من قبل لون نول

وزمرته تحت اشراف المستشارين الاميركيين ،منه الجنود ومن الولايات المتحدة المستشارون والاموال ومعدات الحرب ، والمساندة الجوية بالقصف لمواقع الثوار • ومن ابرز العمليات الحربية الكبيرة التي نظمها لون نول واسياده في تلك الفترة عملية تشانلا ٢ على طول الطريق رقم ٧ ولكن تلك العملية التي علق العدو عليها امالا كبيرة فشلت ، وتكبدت قوات لون نول خسائر فادحة على اثر الهزيمة التي منيت بها • وفي الوقت ذاته قويت شوكة الثوار وثقتهم بالنصر •

بين العروض والتهديدات الاميركية :

ظهرت في الافق عروض للتفاوض بين الجبهة الوطنية المتحدة وبين العميل لون نول ، وكانت مفاوضات باريس من اجل تسوية في فيتنام مستمرة ، ولم تكن تلك العروض تهم الشعب الكمبودي وقواته الثورية ، اذ كانت الثورة تحرز انتصارات متتالية ، وتسير في خطتها التي كانت ترمي الى تحرير كل ما تبقى من الريف لتحكم الطوق على المدن التي كانت تتواجد فيها القوات المعادية وخاصة العاصمة بنوم بنه ، لكن ضغوطا مورست على الجبهة الوطنية المتحدة من الخارج •• فكان جواب الثورة هو رفض المفاوضات سواء مع لون نول او مع الولايات المتحدة ، والاستمرار في القتال حتى تحرير الوطن كاملا •• وقد قيل حينئذ وفي سياق العروض ان المفاوضات بين كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة وبين الفيتناميين قد نجحت بنسبة ٨٠ ٪ ولم يبق لتوقيع اتفاقية بين الطرفين الا اجتياز ما تبقى من نقاط وهو ٢٠ ٪ • وقد نقل آنذاك على لسان كيسنجر انه اذا رفض الثوار الكمبوديون المفاوضات واصروا على ذلك ، فان سلاح طيران الولايات المتحدة سيدمر كمبوديا خلال ٧٢ ساعة • وكان الجواب الثوري الكمبودي على التهديد « اذا فرض التدمير الامريكي على بلادنا ، فاننا لن نتردد في قبول التحدي ، وان لنا الشرف ان نقاوم العدوان حتى لو لم يبق منا سوى رجل واحد » •

ومن ذكريات تلك الفترة يروي قائد بارز من قادة المنظمة الثورية « في ١٢ كانون اول ـ ديسمبر ١٩٧٢ قصف سلاح الجو الامبريالي الامريكي مدينة هانوي بكل عنف وقسوة ، وفي نفس الوقت سمعنا التهديدات الامبريالية •• فماذا كان يمكن ان نفعل ؟ •• كان علينا ان نقاتل ، كنا نرى في عنف الهجمات الامبريالية وفي القصف الجوي المسعور ما يشير الى ضعف موقف الولايات المتحدة ، وكان ذلك الاعتقاد يزيدنا ايمانا بحتمية النصر ، القضية الفيتنامية تخص الفيتناميين يتصرفون حيالها بما يناسب اوضاعهم وواقعهم ، اما كمبوديا فامورها تعنينا نحن الكمبوديين • بعد اتفاقية باريس عانينا كثيرا ، وقد اعرب اصدقاؤنا الفيتناميون عن عدم امكانية تمرير الاسلحة الينا •• وبدا النصر بعيدا لدى كل المراقبين ، حتى الرئيس شو ان لاي قال لي يومها « ان وضعكم قد اصبح في غاية الصعوبة ، وربما تضطرون لمواصلة حرب عصابات من عشر الى خمس عشرة سنة اخرى » •

الايام العصيبة :

في السابع والعشرين من كانون ثاني ـ يناير عام ١٩٧٣ وقعت اتفاقية باريس المتعلقة بالوضع في جنوب فيتنام ، وكان الموضوع يخص الفيتناميين وحدهم ، ولم تعترف القيادة الثورية الكمبودية ، بتلك الاتفاقية لانه لا علاقة لها بالوضع في كمبوديا •• ظروف

الفيتناميين وتقديرهم لتلك الظروف جعلهم يوقعون اتفاقية باريس ، اما الكمبوديون فانهم رفضوا مبدأ المفاوضات باصرار ، لقناعتهم بانها ستؤدي الى انقسامات خطيرة في بلادهم وتضيعها كلها من بين ايديهم · فماذا كان بعد ذلك ؟

بتوقيع اتفاقية باريس والتزام فيتنام بها ، اغلق المنفذ الوحيد الذي كان بمثابة شريان حيوي يتلقى منه الثوار الكمبوديون ما ترسله لهم جمهورية الصين الشعبية من مساعدات، واصبحت كمبوديا محاصرة من كل الجهات ، وهو وضع فريد في غاية الخطورة ، نجم عنه عجز في الاسلحة والعتاد استحال تعويضه من الخارج وسقطت بهذا الحصار فيه اي دعم مادي من اصدقاء الثورة في الخارج ، وفي الوقت ذاته تركزت كل نشاطات سلاح الجو الاميركية بعد نهاية مهمته في فيتنام على كمبوديا · وقد شمل القصف الجوي الاميركي الذي اشتركت فيه طائرات بي ٥٢ ذات الثماني محركات كل جزء في البلاد ، وخاصة حول بنوم بنه وعواصم المحافظات حيث كانت قوات الثورة متشابكة مع القوات العميلة · ورغم وحشية الغارات فقد ظلت قوات جيش التحرير ملتحمة مع مواقع العدو في تداخل قلل من فعالية الطيران ، ولكن ذلك القصف المركز المتواصل على مدى ١٤٥ يوما دمر كل الجسور القائمة على طرق البلاد ، واتلف المزروعات ودمر اغلب العمران في المحافظات ، حتى لنعجب ماذا ابقت الحرب في كمبوديا ؟

وامام الوضع الحرج وانغلاق كل المنافذ رأت قيادة الثورة انه لا بد من مواصلة القتال والا ضاعت قضية الشعب الكمبودي ، وعقدت العزم على التمسك بكل صلابة بخطها الثوري العنيف رغم النقص المخيف في السلاح والتموين والادوية وغير ذلك من ضروريات المعارك والحياة ، وتحدت كل الصعوبات التي في طليعتها الحصار والقصف الجوي المركز · ويقول المهندس كيت شيون (كان وزيرا في الحكومة المنبثقة عن الجبهة الوطنية المتحدة) : « لقد بقينا لوحدنا نقاتل في اسوأ الظروف على مدى عامين ١٩٧٣ و ١٩٧٤ وحتى التحرير » ·

وقد هز الوضع القاسي في كمبوديا آنذاك العالم باسره ، وعلى الاخص شعوب العالم الثالث،فانتصرت لشعب كمبوديا المناضل ووقفت الى جانب حقه في وجه الهجمة الامبريالية الشرسة · حتى اتخذ الكونغرس الاميركي قرارا اجبرت بموجبه الادارة الاميركية على التوقف عن قصف الاراضي الكمبودية · والتزمت الادارة الاميركية اخيرا بالقرار التزاما شكليا ، بعد ان عجزت بكل ما مارست من عنف عن تدمير قوات جيش التحرير الكمبودي· كما عجزت عن التأثير ولو جزئيا في القرار الثوري الكمبودي القاضي باستمرار القتال حتى تحقيق كافة الاهداف الوطنية ·· ولم يكن توقف القصف الاميركي المباشر يعني التخلي عن السلطة العميلة برئاسة لون نول ، فقد عملت الادارة الاميركية كل ما في وسعها لدعم موقف لون نول ومده بكل الاسباب التي تساعده على المضي في محاربة الثورة ·· ولكن الحرب دخلت مرحلة جديدة ·

الفترة الثالثة :

وتمتد هذه الفترة من ١٥ ـ ٨ ـ ١٩٧٣ حتى ١٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ وهو يوم تحرير بنوم بنه · وخلالها حاربت القوات العميلة كادوات للامبريالية الامريكية ، وتوزعت فيها الادوار بين السادة الامبرياليين وبين المسودين لون نول وعصابته ·

الولايات المتحدة تولت تقديم كافة اللوازم مثل الطعام والسلاح والمعدات الحربية ، كما تولت تقديم الارشاد اللازم للسلطات العميلة فيما يتعلق بتحركات جيش التحرير ومواقعه ، وذلك بواسطة الطائرات الامريكية التي توقفت عن القصف وابقت على عمليات التحليق اليومية في الاجواء الكمبودية لجمع المعلومات عن الثوار وتوجيه القوات العميلة • واكثر من ذلك ظل القرار امريكيا ، والمستشارون اميركيون حتى اللغة المستعملة في العمليات والاوامر وتسجيل الحوادث والخرائط وتوجيه الحرب وادارتها كانت اللغة الانجليزية •

اما لون نول فكان عليه تقديم لحم المجنود ودمهم وايديهم للحرب مستغلا الجهل والبؤس والمجاعة من جهة ليزيد عدد جيشه ، وعمالة وحماقة جنرالاته ذوي الصيت السيء •

وكانت تلك الفترة فترة قتال في منتهى العنف والضراوة ، ومع كل الصعوبات المفروضة اخذ الوضع يتطور بسرعة لصالح جيش التحرير •• كان عام ١٩٧٤ مليئا بالتجارب وليدة الصعوبات والمعارك الطاحنة •• وفي ليلة الاول من كانون ثاني ـ يناير ـ ١٩٧٥ بدأ الهجوم الكبير • فقد فتح الثوار في ذلك الهجوم العام ثلاث جبهات •

الاولى : جبهة نهر الميكونغ ، وكانت في غاية الاهمية ، اذ كان الميكونغ هو المنفذ الوحيد والشريان الرئيسي الذي يربط بنوم بنه بسايغون في جنوب فيتنام وعبره كانت تاتي قوافل الامدادات التموينية والتسليح للقوات العميلة ، وكان قطع هذا الممر الحيوي يعني احكام الحصار على العدو ، ووضعه في اشد المآزق ، وقد صمم الثوار ان يقطعوا طريق الميكونغ في شهر •

الثانية : حول مدينة بنوم بنه العاصمة ، وهي ايضا هامة ، لان العاصمة كانت المقر الرئيسي لادارة العملاء ومقر قيادتهم السياسية والعسكرية •

والثالثة : جبهة حول العواصم الاقليمية (عواصم المحافظات) ، التي كانت المقولات العميلة تسيطر عليها ما عدا عاصمة محافظة واحدة كان قد تم تحريرها مبكرا ، وقد كانت هذه العواصم مقطوعة الاتصال ببعضها البعض ارضا ولا يأتيها التموين والامداد الا بالطائرات • اما الريف وهو يشكل ٩٠ ٪ من الاراضي الكمبودية فقد سيطر عليه الثوار ووطدوا فيه سيادة الفلاحين منذ وقت مبكر •

ماذا بعد الهجوم الكبير : بسقوط المواقع التي سلف ذكرها ، سقط اخر امل للامبرياليين وعملائهم ، لكن لون نول لم يستطع الصمود لمواجهة قدره المحتوم على الارض الكمبودية •••• واوقع العقاب بنفسه ، وطار بها مدفوعة بهلعه وجبنه ، متعلقة بملايين الدولارات التي نهبها من الخزينة ، وانتقل ذليلا ممتهنا الى هونولولو ليموت غريبا تحت وطأة ماساته • لقد بكى لون نول وهو يغادر مطار بنوم بنه متوكئا على عصا لسند جثته التي اثقلتها الهموم وتكاليف التبعية ، وشاهدت دموعه الملايين بواسطة التلستار ، لكنه ليس حزنا على فراق الوطن ، بل ابكته مرارة الهزيمة وتلاشي الاحلام ووصمة العار الابدية •• رحل الى غير رجعة تاركا حطام السلطة المنهارة لشركائه في العمالة يتداولونها ثم يفرون تباعا بالطائرات العامودية ممسكين بثياب الاميركيات الراحلات •

ورمت الولايات المتحدة وعملاؤها في بنوم بنه اخر سهم في الجعبة ، فعرضوا

بواسطة جورج بوش في بكين (لقد اصبح بوش مديرا لوكالة المخابرات المركزية حاليا) على رئيس الجبهة الوطنية المتحدة ان يتفاوض للعودة وتسلم السلطة ، لكنه اجاب بلسان الثورة الظافرة : « لا مفاوضات » وليرحل الاميركيين من البلد بسرعة وعلى العملاء ان يستسلموا فورا ،وهكذا تسقط اخر حيلة ، ويرحل السفير الاميركي والمستشارون الاميركيون ، تاركين وراءهم لوحات غرف العمليات العسكرية تروي احداث اخر ايامهم ، ومعهم تفر فلول العملاء المتبقية ممن ارتكبوا جرائم لا تغتفر بحق الشعب ٠

وبرحيل الاميركيين القسري يوم ١٢ ــ ٤ ــ ١٩٧٥ ، تحقق النصر النهائي الذي توجه تحرير مدينة بنوم بنه يوم ١٧ ــ ٤ ــ ١٩٧٥ وعلى جبهة حصار عواصم المحافظات احرزت قوات جيش التحرير وقوات المقاطعات انتصارات سريعة فحررت تلك المدن بسرعة ، وخلال ايام٠ كان اخرها تحرير مناطق الحدود مع تايلاند وقد تم في اربعة ايام وحررت مدينة سييم رييب وهي معقل هام في الشمال الغربي وعلى مسافة ٣١٠ كيلومترات من بنوم بنه في ١٩ ــ ٤ ــ ١٩٧٥ ٠ وقبلها معقل اخر هو مدينة كوبنغ توم ٠ وكانت جميع تلك المدن محاصرة ومواقع قتال دائم مع الريف وهي مرتبطة قياديا بمدينة بنوم بنه ، وقد تجمع منها الخبراء الاميركيون بواسطة الطائرات في بنوم بنه وهربوا مع زملائهم وسفيرهم وعملائهم من هناك ٠

وبتحرير كامل التراب الكمبودي ينسدل الستار على اخر مرحلة من مراحل المواجهة العسكرية بين الشعب الكمبودي في جبهته العريضة المتحدة بقيادة المنظمة الثورية ، من جهة وبين الامبرياليين الاميركيين وبقايا مخلفات الاستعمار القديم وطبقة المستغلين من جهة اخرى ٠

ويفتح الانتصار الكامل والحاسم الذي احرزته الثورة الباب على مصراعيه امام التحول الجديد والانتقال الكامل الى نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي جديد عبر مرحلة فريدة من نوعها في العالم ٠

خطة الهزيمة :

بعد رحيل لون نول وعودة باريف الذي رافقه الى جاكارتا وضعت تلك الخطة التخريبية، لتكون سلاحا جديدا في يد العملاء لاجهاض الانتصار الثوري ، وقد بنيت تلك الخطة على اعتبار ان الثوار لن يكونوا مدركين للمصاعب التي تقفز في وجوههم بعد تحقيق النصر ، وعلى ذلك لن يستطيعوا التصرف لمواجهتها ٠ وتتلخص الخطة في النشاطات التالية :

١ ــ خلق حركة سياسية تتظاهر بالحرص على مصلحة الوطن وتدعي الحياد بين الوطنيين والعملاء ، وتحاول شد الانظار اليها كمنقذ ومخلص من ويلات الحرب ٠ اما في جوهرها فهي احتياطي للعملاء ، وجسر ليعبروا منه لممارسة التخريب في المرحلة الجديدة التي تلي سقوطهم ٠

٢ ــ اخفاء كل العملاء الذين ظلوا وراء السفارة الاميركية ووراء لون نول بخلع البزات العسكرية وارتداء الملابس المدنية ، واخفاء الاسلحة في اماكن سرية لتكون في متناول اليد ، والانتشار بين الجماهير في بنوم بنه وغيرها للتحرك في الوقت المناسب ٠

٣ ـ فرز العملاء المختصين في اعمال التخريب لزعزعة الامن وافشال السلطة الثورية الجديدة ، وفعلا مارست تلك الزمر نشاطها مبتدئة بنسف البنك المركزي في بنوم بنه بعد تحريرها بيومين ٠

هذا وقد بنيت الخطة على عاملين اساسيين في تقدير واضعيها :

العامل الاول : مشكلة النقص في الطعام وما يترتب عليه من مجاعات ووفيات وتذمر شامل يخلق معضلات يصعب حلها على السلطة الثورية الجديدة ، وبذلك يعم السخط الجماهيري فيخلق مناخا للحركة السياسية العميلة ذات الحياد المزعوم لتمارس نشاطها التخريبي باسم الانقاذ وتوجيه التيار الساخط في نغم متناسق مع العملاء والاسلحة المتربصة ٠

العامل الثاني : وهو تقدير العملاء المبني على الامل في حدوث انقسامات داخل صفوف الجبهة الوطنية تؤدي الى تفتيتها امام الواقع المرير والوضع المتدهور ٠

وهكذا عملت القوى المهزومة على الافادة من التركة المقذرة التي ترتبت على وجودها طيلة السنوات الماضية ، لكن شيئا هاما واساسيا لم تضعه في تقديرها ، وهو الذهنية التي تعمل بها قيادة الثورة وكوادرها في ضوء خط ثوري واضح ٠ نسي العملاء ان الخط الثوري الاستراتيجي والسياسات المرحلية المندرجة فيه مبنية على حسابات دقيقة ومعلومات كاملة عن احوال الشعب والبلاد ٠

تحرير بنوم بنه والاجراءات الفورية :

في يوم ١٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ سيطرت قوات جيش التحرير الشعبي على المدينة بعد ان اطبقت عليها من عدة جهات فكانت المدينة في وضع يرثى له ٠٠ الرائحة المنبعثة من جثث الموتى الملقاة في الشوارع والمستشفيات ومن جثث الحيوانات نتيجة الوضع الذي سبق ذكره تملأ الاجواء وفي نفس الوقت اندس العملاء واخفيت الاسلحة لينفذ العدو خطته وفعلا جرت بعض حوادث النسف بعد التحرير مباشرة ، وعلى الفور لجأت قيادة الثورة دون تردد الى تنفيذ خطة « ما بعد النصر » التي كانت قد اعدتها لمواجهة المشاكل الرئيسية الثلاثة : ١ ـ مشكلة الطعام ٠ ٢ ـ مشكلة الامن ٠ ٣ ـ المشكلة الاجتماعية ٠

فحافظت على حياة الناس وباشرت في اخلاء المدينة كليا من السكان بما فيهم الاجانب وقد تم نقل الجميع بدون اي استثناء الى الريف في عملية سريعة بين ٢١ ـ ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ ٠ ولم يكن امام القيادة اسلم من هذا الاجراء ٠ وكان الريف مهيأ نفسيا وثقافيا لاستقبال سكان المدن ٠

لقد اكتسبت المنظمة الثورية خبرة في هذا المجال عندما تم تحرير عواصم بعض المحافظات وقدر القادة الكمبوديون انه لو لم يتم اجلاء سكان المدينة لنشبت حرب اهلية داخلية اودت بحياة مائة الف نسمة على الاقل ٠ لقد ترتب على اخلاء السكان بعض المشاكل لكن بمقارنة تلك المشاكل مع ما كان سيترتب على بقائهم نجد ان خطوة الاخلاء كانت اجراء رائعا ومدروسا بدقة فائقة ٠

هذا بالنسبة للعاصمة · فما هي مبررات اخلاء المدن الاخرى وخاصة التي تم تحريرها قبل ١٧ ــ ٤ ــ ٧٥ ؟ السبب واضح وهو ان الحرب كانت قد عمت كل انحاء البلاد ومع انتشار الحرب نشطت حركة التجار ورجال الاعمال في استغلال الفلاحين لدرجة ان الفيتناميين الجنوبيين كانوا يجمعون الارز من الفلاحين ويبيعونه الى لون نول، وبالتالي لم يتشجع اولئك الفلاحون للحرب الثورية لوقوعهم تحت تأثير استغلال التجار ورجال الاعمال ، فلجأت القيادة الثورية الى اجراء جذري وحاسم امت بمقتضاه كل شيء في المناطق المحررة وحتى تقضي على كل انواع الاستغلال وتمنع السوق السوداء اوقفت التعامل بالنقد واعتبرته لاغيا ·

وقد ادت سيطرة الثورة على هذه العملية الى توقف التجار ورجال الاعمال وفرت غالبيتهم الى حيث يمكن ان يمارسوا نشاطهم اللاانساني ·

اجلي السكان الى الريف من كل مدينة كان يتم تحريرها لمنع الاستغلال من جهة ولتجنب مخاطر الغارات الجوية المعادية آنئذ على الاماكن المزدحمة بالسكان ·

كان الكثيرون لا يفهمون اسباب النضال ، وبعد تأميم التجارة عام ١٩٧٢ بقيت السوق السوداء ، فجرت مكافحتها بتنظيم التعاونيات في الريف وبوقف التعامل بالنقد ، ويرجع الفضل لتلك التعاونيات في تسهيل مهمة استقبال النازحين من المدن فيما بعد · وكانت التعاونيات قد اعدت بالتثقيف الثوري المتواصل وخاصة في نهاية اذار ــ مارس ١٩٧٥ عندما اصبحت الثورة على ابواب النصر النهائي ، وذلك لتكون مهيأة لاستقبال القادمين من المدن ·

خبرات من حرب التحرير :

ليس من حقي او في مقدوري ان اعدد الخبرات والدروس التي اكتسبها وتعلمها رواد الثورة الكمبودية قادة وكوادر ، من نضالهم الطويل ومن حرب التحرير التي دارت في بلادهم والتي مثلت اعنف مراحل الصراع بين الوطنيين والعملاء ، لذلك اترك الحديث حول هذا الموضوع لاحد القادة البارزين :

« ان بلادنا صغيرة ، وقد عانى شعبنا كثيرا من جراء تلك الحرب العدوانية الشرسة ، فالاحوال المعيشية كانت سيئة للغاية ، وما زالت تواجهنا صعوبات كثيرة في هذا المجال ، لقد اوصلتنا خبرتنا التي اكتسبناها من نضالنا الطويل الى حقيقة اساسية وهي اننا لو لم نعتمد على انفسنا وقوانا الذاتية لما استطعنا تحقيق النصر وحل المشكلات المستعصية، وهذه هي احدى الخبرات الهامة جدا التي اكتسبناها بالممارسة في الواقع الملموس · بين عامي ١٩٤٧ ، ١٩٥٤ كان هناك نضال ضد الفرنسيين ، قدم خلاله الشعب الكمبودي تضحيات جسيمة ، لكننا استخلصنا منه الدروس والعبر ، فاعتمدنا مبدأ الاعتماد على النفس ·· وفي حرب التحرير تلقينا دعما من الاصدقاء ولا ننكر اهمية ذلك الدعم ، لكن النصر الحاسم تحقق بفضل قوانا الذاتية ، ولن ننسى كيف واجهنا مصاعب العجز في السلاح وفي ذخائر البنادق ، وكيف لجأنا الى تخليص احتياجاتنا من ايدي الاعداء رغم الثمن الباهظ الذي دفعناه ·

كنا مصممين على القتال ، وحاجتنا ملحة للقذائف وذخائر البنادق وكان الحصـــول عليها صعبا جدا وتلك الحالة قد تكون اقتصرت على كمبوديا وحدها دون سواهـــا ·· لكننا نذكرها لعلها تكون مهمة لدى بعض الاصدقاء واؤكد انه طيلة سنوات الحرب لـــم يكن بين مقاتلينا غريب واحد او مستشار من الخارج · لقد تعلمنا الحرب بانفسنا مـــن خلال الممارسة العملية ، شاباتنا وشبابنا لم يكونوا على معرفة بقيادة الدبابات ، لكنهـم وضعوا انفسهم في الدبابات التي سقطت في ايدينا وقادوها ، ومن ذلك كله تعلمنا انـــه يجب ان نثق بشعبنا وصممنا على النضال في ضوء امكانياتنا وفي ضوء واقعنا ، وهذه خبرة مفيدة للاقطار غير المتطورة » ·

ويتضح من حديث القائد الكمبودي بينغ ساري ان المنظمة الثورية التي كانت العمود الفقري للجبهة الوطنية المتحدة ، تعتمد على الشعب وتؤمن بان قوة الجماهير الخلاقـــة معين لا ينضب ، وبالتالي تثق بالشعب وقدرته الدائمة على العطاء · ولن يكون فـــــي مقدور اية قوة ان تهز الكيان الثوري الكمبودي المتلاحم ·

ما بعد التحريـــر

في شهر نيسان ١٩٧٥ تحقق النصر النهائي ، وتم تحرير التراب الكمبودي من النفوذ الاجنبي كما تم تحرير الانسان الكمبودي من وطأة التسلط والاستغلال والتمزق ·

وفي شهر نيسان اسقط الثوار السلطة العميلة ، واقام قادة الثورة وكوادرها السلطة الثورية ··· بدأ عهد دولة الفلاحين والعمال والجنود وهم السواد الاعـظم في الشعـب الكمبودي واصحاب المصلحة الحقيقية في النضال الطويل ومنجزاته · وفي نفس الشهـــر انعقد المؤتمر الثالث للجبهة الوطنية المتحدة بين ٢٥ و ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ ليقـرر اجـراء انتخابات عامة لاختيار نواب الشعب في ٢٠ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ ·

المهمات الرئيسية : مع تحقيق التحرير الكامل برزت ثلاث مهمات رئيسية تحتاج الـــى انجاز وهي بمثابة مشكلات كانت تتطلب حلا فوريا بدون ادنى تردد :

الاولى : حل مشكلة الطعام حتى الحصاد القادم ·

الثانية : تعزيز الدفاع وترسيخ الامن في المحافظات ومناطق الحدود ·

الثالثة : كيفية تنفيذ وممارسة العمل الانتاجي ·

وقد جاءت تلك المشكلات بسرعة وقبل الاوان · فقد كانت التقديرات تشيـــر الـــى ان التحرير النهائي لن يتم قبل ايار ١٩٧٥ وذهب المراقبون الاجانب الى الاعتقاد بانه لـــن يتم قبل عام ١٩٧٦ وحتى الامير نوردوم سيهانوك واذكر انه قال قبيل التحرير بايام وكنـت قابلته حينئذ في بكين « اذا استطاع العملاء الصمود في بنوم بنه حتى حلول فصل الامطار الذي يبدأ في نيسان ـ ابريل ١٩٧٥ فان مهمة جيش التحرير الشعبي ستكون صعبـــة وسيمتد القتال حتى حلول فصل الجفاف الذي يبدأ في شهر تشرين ثاني ـ نوفمبر ١٩٧٥ · (في كمبوديا فصلان فقط فصل الجفاف ويبدأ في شهر تشرين الثاني · وفصل الامطار ويبدأ في

شهر نيسان) ٠ لكن المثابرة على القتال اختصرت الوقت كثيرا وتجاوزت الحسابات وبرزت المشكلات المذكورة ٠ فكيف تصرفت القيادة الثورية ازاءها ؟

١ ـ من اجل حل المشكلة الاولى وهي مشكلة الطعام حتى الحصاد القادم ، بادرت القيادة الثورية الى اجلاء السكان من المدن الى الارياف ، بعد ان وزعت عليهم كل ما كان موجودا لديها من مواد تموينية ، ورغم استمرار الصعوبات الشديدة حتى تشرين الاول ١٩٧٥ لم تصل الامور الى حد حدوث وفيات ناجمة عن الجوع ٠ وكل الوفيات التي حدثت بين نيسان ١٩٧٥ وتشرين الاول من العام نفسه كانت بين سكان المدينة بسبب الاحوال المريفية التي لم يكونوا معتادين عليها من قبل ٠

وفي نفس الوقت تم تحريك قوات جيش التحرير الشعبي للانتاج ، اما المحاربون الذين انتهوا لتوهم من عمليات القتال فقد انخرطوا في العمل ضمن الخطة الانتاجية قسم منهم في تأدية مهمات الانتاج المزراعي وقسم توجه لاصلاح الطرق والسكك الحديدية التي كانت قد اتت عليها الحرب ، ومع نهاية عام ١٩٧٥ وبداية عام ١٩٧٦ اصبح لدى حكومة كمبوديا الديمقراطية طعام لكل مواطن ولديها فائض في الارز (في شباط ـ فبراير ١٩٧٦ كانت الدولة تعرض خمسين الف طن من الارز للبيع) كما اصبحت الطرق والسكك الحديدية صالحة للنقل بين معظم المحافظات ٠ وعلى اثر الحصاد الوفير اصبح الفلاحون القدامى (سكان الريف الاصليين) والفلاحون الجدد (السكان الذين قدموا من المدن الى الريف) ، متحمسين للمضي في انتاج المزيد من المحصولات وتطوير الزراعة ٠ وهناك امل كبير بان يرتفع مستوى انتاج الهكتار الواحد من الارض ليصبح ثلاثة اطنان من الارز ٠

٢ ـ اما الدفاع والامن فقد تعزز بانتشار التعاونيات في انحاء البلاد وعلى المناطق الحدودية ومعروف ان التعاونيات وحدات دفاعية فيما تحدده مهماتها الكثيرة ، بالاضافة الى الوعي واليقظة والروح العالية التي يتحلى بها جيش التحرير المنتج الذي بني وترعرع واكتسب الميزات الرفيعة في وهج المعارك الحامية على مدى خمس سنوات قاسية ٠

ومن الناحية الامنية اصبح الوضع مستقرا بعد تقويم القاعدة بالتثقيف وممارسة العمل المتواصل بحيث لم يعد في صفوف المواطنين فجوة يندس فيها اي عميل ٠ كما اصبح اجراء الانتخابات في ظل الوضع المستقر اكيدا وفي موعده المحدد ٠

٣ ـ ولحل المشكلة الثالثة وهي تنفيذ الانتاج ، فقد انخرط الشعب بكامله ودون اي استثناء في عملية الانتاج الزراعي على اعتبار ان الزراعة هي الاساس في الاقتصاد الكمبودي ولها الاولوية لتوفير الطعام من جهة ، والحصول على فائض لمواجهة الطوارىء وللتصدير وبذلك يمكن ضمان وتنمية الاقتصاد ٠ خلال سنوات الحرب كان الثوار في الريف يحاربون العدو ويمارسون الانتاج ويتلقون التثقيف ، والان وبعد التحرير يمارس الشعب كله الانتاج الزراعي بكل ما يترتب عليه من عمليات السيطرة على الماء كشق القنوات وبناء السدود الصغيرة وتشغيل النواعير ٠ ويجري تحقيق العمل والتغلب على المصاعب بكافة الايدي ٠ ان زراعة الارز والخضراوات وصيد الاسماك من الانهار والبرك الصغيرة وتربية الخنازير والجواميس وجمع الوقود وتطوير الصناعة الحرفية تشكل المهمة الرئيسية وتأخذ الاولوية ٠ وفي نفس الوقت يجري اصلاح المصانع وقد اصبح معظمها صالحا للانتاج كمصانع النسيج والخمور والخشب والسجاير ٠

وفي كل هذه النشاطات تلتحم الجماعات القيادية ، للتعاونيات بالجماهير ، وبذلك نستطيع القول بان الشعب الكمبودي بكل اطفاله ونسائه وشيوخه وكوادره وقادته يمارس الانتاج الجماعي الشامل ويمر من خلال ذلك بعملية صقل طويلة ومضنية ليولد من جديد مجتمعا نقيا تتكافأ فيه الفرص وتنعدم البطالة وتتحدد المقاييس والقيم الانسانية ٠

المواطنون الكمبوديون في الخارج :

هناك اعداد لا بأس بها من الكمبوديين المقيمين في اقطار اوروبية مثل فرنسا والولايات المتحدة واليابان وتايلاند ، وهذا الاغتراب عائد لاحد الاسباب التالية :

١ ـ الاغتراب المبكر الناجم عن الرغبة في ظروف معيشية خاصة او تلقي العلم في الخارج ، او الزواج من اجنبيات والاقامة في ديارهن ٠

٢ ـ ممارسة التجارة ، والهروب تعلقا بها من مخاطر الحرب الىاماكن اخرى ٠

٣ ـ الهروب من وجه النصر المحقق والتحرير ، وهي حالة انفردت بها مئات كانت مستغلة ومرتبطة بالنظام العميل والامبرياليين ٠

٤ ـ الهروب بسبب ارتكاب جرائم في حق الشعب خلال سنوات الحرب ٠

وبعد التحرير اخذ الكثيرون يعودون للبلاد ، لكن الحياة في كمبوديا تغيرتتغيرا جذريا، وعلى الاخص من حيث التنظيم الاجتماعي ونظام الحكم ٠ والحكومة ترحب بالعائدين الى وطنهم الذين يودون العيش والعمل كمواطنين ، وهي تقدر ان الذين ارتكبوا جرائم في زمن العميل لون نول لا يريدون التغيير الاجتماعي الجديد ، بل يخافونه فقد هربوا اصلا خوفا من الانتصارات الثورية ٠ وهناك مجموعة من الضباط كان قد ارسلهم لون نول لتلقي العلوم العسكرية في الولايات المتحدة وهم الان يريدون العودة للبلاد وتلقى رغبتهم ترحيبا من جانب المسؤولين ٠ وقد لاحظت خلال سفري من بكين الى بنوم بنه ان غالبية الركاب من الكمبوديين العائدين لبلادهم من فرنسا ، وكانوا جميعا في غاية الشوق والحنين يتزاحمون للاطلال على الميكونغ قبيل هبوط الطائرة في مطار بنوم بنه ٠

دولة كمبوديا الديمقراطية

وكما كان التحرير ايذانا بفتح صفحة جديدة مشرقة في تاريخ الشعب الكمبودي ، فقد اتى ايضا باسم جديد للدولة يتناسب مع نظامها الثوري ٠ فاصبحت تسمى دولة « كمبوديا الديمقراطية » كما نص على ذلك الدستور ٠ وقد علق الامير نوردوم سيهانوك على استبعاد كلمة « جمهورية » في الوقت الحاضر بقوله : (قال ذلك في مأدبة العشاء التي اقامها لنا في قصر الرئاسة كما اسماه وهو نفس القصر الملكي سابقا ٠ وقد اشار سيهانوك لهذه التسمية الجديدة ايضا ٠ وذلك بحضور كيو سامفان وايينغ ساري ٠) « لقد قال العميل لون نول للكمبوديين بانه يصنع لهم جمهورية بانقلابه الذي قام به لصالح الولايات المتحدة ، ولذلك فان الشعب يكره كلمة « جمهورية » لاقترانها بالعميل لون نول ، ولا يطيق سماعها لسنوات طويلة قد تمتد لعشرين سنة ، مع ان نظامنا الجديد في جوهره جمهوري٠» وحول تسمية الخمير التي تطلق على شعب كمبوديا والتي الصقها لون نول في اسم

جمهوريته الباطلة بتسميتها جمهورية الخمير قال سيهانوك : « كلمة خمير تشير الى قومية معينة وفي شعبنا من هم ليسوا من قومية الخمير · وهذه الكلمة تشير الى اسم قومية كما تشير كلمة (هان) في جمهورية الصين الشعبية · ونحن الان لا نستعمل تسمية خمير·»

اقوال في النظرية والحزب الحاكم

اثيرت مع القادة الكمبوديين اسئلة كثيرة ومكررة احيانا ، تعكس حيرة المهتمين بالشؤون الكمبودية ، واهتمامهم للتوصل الى حقيقة مؤكدة وواضحة · وتدور تلك الاسئلة حول هوية النظام ·· هل هو شيوعي ؟ ·· هل هو اشتراكي ؟ ·· وهل هناك حزب حاكم مسلح بنظرية معينة ؟

وقبل أن انقل انطباعي الشخصي اورد مقتطفات سمعتها من القادة الكمبوديين ردا على التساؤلات الآنفة الذكر ، انقلها الان مجردة دون تعليق ·

يقول ايينغ ساري : « لم نكن ننطلق من نظريات ، لقد اتبعنا مشاعرنا ومارسنا النضال عمليا ، ومررنا باشكال عدة من النضال ، فاشكال النضال متعددة ، والظروف مهمة ، وكذلك روح رجال المبادىء وايمانهم القوي بالنضال وبالقضية التي يناضلون من اجلها ، لم نتعلم في مدارس ايديولوجية ، وقد مارسنا النضال في ضوء واقع بلادنا وشعبنا ·· رأينا ان الناس فقراء ، ولا نعتقد ان بؤس الناس وفقرهم ياتيان من السماء، فحاولنا أن نفهم اسباب الفقر والتعاسة ·· شعبنا يعمل بجد وهو ليس شعبا كسولا ·· فلماذا يبقى الناس فقراء ؟ وبعد محاولة فهم السبب من الواقع مباشرة ، اكتشفنا انه يكمن في الاستغلال الاجنبي ، وما حدث في كمبوديا يؤكد هذا الاعتقاد ·· في عام ١٩٤٠ جاء الفرنسيون بقوات كبيرة الى بلادنا ومارسوا استغلالا في غاية البشاعة ، وفي عام ١٩٤٥ نظم اليابانيون انقلابا في البلاد والغوا سيادتها لبضعة اشهر ، وهكذا موجات اجنبية ورجال اعمال ومستغلون اجانب · »

« ان اكتشافنا لاسباب التعاسة دفعنا للنضال ·· ومفهومنا الان في كمبوديا الجديدة قائم على محو كافة انواع الاستغلال ·· التجارة كانت في السابق في ايدي الغرباء ،الفلاح يكدح طوال العام ومع ذلك يظل فقيرا بينما تتمتع طبقة اخرى بانتاجه ، واصحاب رؤوس الاموال كانوا يخربون باموالهم ضمائر الرسميين ويقيمون بجزء منها اعمالا لمصلحة الاجانب ، وكل الاعباء في النهاية انصبت على عواتق الفلاحين الفقراء ·· اما الطبقة المتوسطة فقد كانت بتذبذبها عاملا من عوامل تكريس المصائب التي عانى منها الفلاحون»·

« اننا لا نعالج الامور الا من واقع بلادنا · ولا يهمنا ماذا يسمينا غيرنا في الخارج (يشير الى تسمية الخمير الحمر التي يطلقونها في الغرب على القادة الحاليين) ·وسياسة كمبوديا الجديدة هي في حدود دستور دولة « كمبوديا الديمقراطية » · اننا نحترم كل الاصدقاء ، لكننا لسنا تابعين لاحد ولم نستورد افكارنا واساليبنا من الخارج ، ولم نقلد تجارب الغير » ·

ويقول كادر متقدم : « قدمنا الاف الضحايا لتحرير بلادنا وبناء استقلالنا الحديث ،

ونحن لا نتبع احدا ولا نقلد احدا ، بل ننطلق من واقعنا ونحقق سيادة الفلاحين الفقراء في الريف » ٠

وبالعودة لتاريخ نضال الشعب الكمبودي والاستطلاع والمعرفة الواقعية ، نرى ان تنظيما طليعيا فذا قد بلور خبرته خلال النضال في خط ثوري ثابت ، واحتفظ بوضوح الرؤيـــة والثبات والمقدرة على رسم السياسات المرحلية والطارئة التي تطلبها تطور النضال وتعدد اشكاله ، وان هذا التنظيم كان من الوعي والدراية بحيث قفز في وجه الانقلاب الامبريالـي الاميركي والقـوات والدعم الامبريالي منذ اللحظة الاولى ودون اي ارتباك او تـــردد ، وتمكن من تعبئة الجماهير ، وتشكيل الجبهة الوطنية المتحدة التي كان هو عمودهـــا الفقري لتعبئة طاقات الامة وتحقيق وحدتها ٠ ومن الاساليب التي اتبعها ذلك التنظيـــم القائد تحرير الريف اولا مع عدم الاحجام عن تحرير ما امكن من المدن خلال عمليـــة السيطرة على الريف ، وكذلك الاعتماد الكلي على الجماهير واستنهاضها في عمليـــة الاعتماد على النفس بشكلها الشامل ٠ ومنها ايضا حصر السيادة في كل شبر يتم تحريره في الفلاحين والعمال والجنود وهم ابطال التحرير والانتاج ، ثم تكريس هذه السيـــادة فعلا في دستور كمبوديا الديمقراطية واتاحة الفرصة لكل الامة بان تمارس الانتـــاج الزراعي والحرفي لتبدأ بكاملها من نقطة واحدة وترتقي شيئا فشيئا مع بعضها البعض وتتكون قياداتها حسب مآثر حقيقية وحسب مقاييس وثيقة الصلة بخدمة الجماهير بكاملها بعيدا عن الذاتية والمصالح الفردية ٠

وقد تجلت صورة البدء بعد التحرير في التحول نحو زراعة الارض حتى اصبح المجتمع كله فلاحين ، ومع ان ممثلي العمال بموجب الدستور هم خمس اعضاء مجلـــس نـــواب الشعب ، نرى ان هؤلاء العمال بدأوا بعد التحرير فلاحين ، وجرى انتقاء العمال حسب الحاجة من وسط الفلاحين ، وبذلك هم ليسوا مجرد حلفاء للفلاحين بل منهم ، وقـــد كرس الدستور سيادة الفلاحين بان جعل ثلاثة اخماس اعضاء مجلس نواب الشعب وهـو اعلى سلطة في البلاد من الفلاحين ٠

ومهما تكن هوية هذا النظام ، ومذهبه الايديولوجي يكفي ان نرى انه على هدى خطـه الثوري ، قد قاد الشعب الكمبودي كله بلا استثناء ، وتوجه به نحو الارض الطيبـــة المعطاء ، يشق فيها القنوات ويقيم السدود ويزرع الارز حتى غدا مشهد التعاونييـــن يغالبون طبيعة الارض واحتياجها للتسوية والري مثار اعجاب كل زائر ٠٠ ان هـــؤلاء الكمبوديين الفقراء يبنون اليوم وطنا وحياة اجتماعية جديدة يبدأونها بايديهم وفؤوسهم وبيوتهم الخشبية ٠

تتميز مسيرة الانتاج بكونها تسير بخطى سريعة وواسعة لكن في نسق بديع ومضمـار مرسوم بدقة ، ويوحي ثقافة سياسية واضحة ووعي عميق للصور الثلاث بما يباعد بينهما من زمن وما يميز كلا منها عن الاخرى : صورة الماضي وما اقترنت به من استغلال ومـا تخللها من نضال مرير مليء بالتضحيات ، وصورة الحاضر بصفتها بداية انطلاق المسيرة الظافرة ، وصورة المستقبل بما سيتحقق فيها من عدالة وتكافؤ فرص واسهام في النشاط الانساني الرامي الى رفع شان شعوب العالم الثالث واسرة دول عدم الانحياز ، ووفـــاء بالالتزام الثوري نحو حركات التحرر في العالم التي ما زالت تقارع الامبريالية والصهيونية والعنصرية والاستغلال ٠

نظام الدولة في كمبوديا الديمقراطية

لدولة كمبوديا الديمقراطية دستور صغير في حجم اوراقه ومختصر في نصوصه ، يتناول بوضوح المسائل الاساسية التي تقوم عليها الدولة والحياة الاجتماعية وعلى الاخص ما يتعلق بضمان توفر العمل ومشكلة الزواج (منع تعدد الزوجات والازواج) ، واتناول هنا بايجاز بعض ملامح النظام بلاد تفصيل ٠٠ هناك سلطات اساسية وهيئات تشكل العمود الفقري لبناء الدولة ، واعلى هذه السلطات هو مجلس نواب الشعب ٠ وكان المؤتمر الثالث للجبهة الوطنية المتحدة المنعقد بين ٢٥الى٢٧ـ٤ـ١٩٧٥ قد حدد موعد انتخاب نواب الشعب في العشرين من اذار ١٩٧٦ ٠

مجلس نواب الشعب :

تجري الانتخابات النيابية مرة كل خمس سنوات ، ويتولى المجلس بعد انتخابه من قبل ابناء وبنات الشعب الذين لا يقلون عن سن الثامنة عشرة ، اختيار مجلس الرئاسة ورئيس واعضاء مجلس الوزراء ، كما يختار من بين اعضائه هيئة قيادة ، ويعين الهيئة القضائية العليا ٠ ويتكون مجلس نواب الشعب من مائتين وخمسين عضوا يمثلون الفلاحين والعمال والجنود حسب النسب التالية : مائة وخمسون نائبا من الفلاحين ، خمسون نائبا من العمال ، خمسون نائبا من الجيش ٠

كيفية الانتخابات :

تجري الانتخابات العامة لاختيار ممثلي الشعب حسب النسب المذكورة انفا ، بشكل ديمقراطي وبأقل درجات البيروقراطية وذلك عن طريق التعاونيات التي يمثلونها ٠

حق الترشيح لتمثيل الشعب :

الترشيح لعضوية مجلس نواب الشعب ، حق يتمتع به افراد الشعب الكمبودي من ابطال التحرير والانتاج من فلاحين وعمال وجنود والذين سجلوا مآثر في خدمة الشعب ٠

مجلس الرئاسة : يتم اختياره من قبل مجلس الشعب بطريقة التصويت ، وعمله جماعي، وهو يمثل السياسة الخارجية والداخلية لدولة كمبوديا الديمقراطية ٠

السلطة التنفيذية ، وهي مجلس الوزراء ، ويجري انتخابه من قبل مجلس نواب الشعب، والوزراء يعملون جميعا مع المواطنين في الارياف ، ومراكز الانتاج ، ويتبع المجلس اسلوبا فريدا في اجتماعاته وتنفيذ قراراته،فقد تخلص اعضاؤه من كل مظاهر البيروقراطية التي لا يخلو منها بلد في العالم ، فقد تخلص من طريقة تكديس الملفات واعطاء التعليمات واصدار القرارات على الورق وبالتالي تخلص من الروتين وحتى من الاجتماعات الدورية٠ فالوزراء يجتمعون وقتا قصيرا لبحث القضايا الهامة في حدود الاولويات التي يحددها الخط العام ، فتتخذ القرارات حولها ، ومن ثم ينطلقون الى ميدان العمل بقوة القرار وفي حدوده ، ويمارسون العمل مع الجماهير في ضوئه ، وبذلك يكونون قدوة عملية في

التنفيذ ، وفي العطاء والاخذ من الجماهير ، ويتم تجنب التأويل والاجتهادات الذاتية التي تسود النظم التقليدية ، نتيجة عزلة القادة عن الجماهير ونتيجة المراسلات والقـــرارات الروتينية التي لا تبنى على معلومات حقيقية · والوزراء الذين التقيت بهم خلال زيارتي لكمبوديا يمارسون عملا ميدانيا تنفيذيا في ساحات الانتاج الحقيقية وبين الكـــوادر والجماهير ، ولا يتواجد في العاصمة من المجلس الا المكلف بالشؤون الخارجية يعـاونه خمسة من الكوادر ، وهو بلا سكرتير ، وله عمل اخر في تنظيم المدينة وقيادة عمال المصانع في ضواحيها وفي امور الامن ·

وتؤدي الاذاعة دورا رائعا واساسيا في ترسيخ الخط العام والخطوط التي تندرج تحته لتعالج مواضيع محددة وعلى الاخص تلك التي تتناول مراحل الانتاج وبذلك تبقى القـوى المنتجة مشدودة الى ادوارها المحددة ·

نظام التعاونيات

نشأت التعاونيات في الريف الكمبودي خلال حرب التحرير الكمبودية كتجربة رائدة حلت بها الثورة حينئذ المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والانتاجية · ويعد التحرير انتظم الشعب الكمبودي بأسره في تعاونيات كبيرة موزعة على امتداد الريف · والتعاونية هـي الوحدة الاجتماعية في المجتمع الجديد وتمثل شكلا من اشكال الديمقراطية ، وهي في نفس الوقت وحدة اقتصادية ودعائية وتعليمية وثقافية وسياسية ، والهيئة القيادية للتعاونيـــة منها وفي داخلها ، وتختلف عن اللجنة الشعبية في كوريا الديمقراطية ، وعن اللجنـــة الادارية في فيتنام ، وفيها بعض الاختلاف ايضا عن اللجنة الثورية في الكومونات الشعبية الصينية ·

ويؤكد القادة الكمبوديون بانهم لم يقلدوا تجارب اخرى خارج بلادهم ، كما يؤكدون ان انظمة حياتهم الجديدة هي وليدة نضالهم وتجربتهم الخاصة وواقعهم الموضوعي ·

والتعاونية تضم ما يعـادل ثلاث الى اربع قرى ، وهي اصغر وحدة في التقسيم الاداري الذي سيأتي ذكره فيما بعد ·

مهمات التعاونية :

١) تنظيم الانتاج الزراعي والحرفي ·

٢) مهمة النقل ·

٣) تنظيم التبادل التجاري المحلي مع التعاونيات الاخرى ومع الدولة وذلك حسب نظام المقايضة ·

٤) الرعاية الاجتماعية بكل ما تعنيه ·

٥) التربية والتعليم ومهمات التثقيف السياسي ·

٦) تمثيل السلطة ·

هذا الى جانب المهمات الاخرى التي تؤكد كون التعاونية لبنة في بناء الوطن الواحـد

والشعب الواحد ، وتكاد التعاونية ان تكون صورة مصغرة لكمبوديا الديمقراطية ٠

جيش التحرير الشعبي : يتكون جيش التحرير من افراد من ابناء وبنات الشعب الكمبودي وهو ليس جيشا تقليديا كبقية الجيوش المتفرغة للاستهلاك ومهمات الدفاع فقط ٠ بل جيش منتج ، يمارس العمل مع الشعب ، وليس له اي دور خاص يقتصر جهده على ادائه ٠

الوضع الاقتصادي : ترفع حكومة كمبوديا الديمقراطية شعارا ذا مضمون عملي معززا بالممارسة اليومية وبسرعة الانجاز ، وهو الزراعة اولا ، وهذا ملموس في حياة التعاونيات التي يلتقي فيها الفلاحون القدماء والفلاحون الجدد ٠٠ ففي فترة وجيزة اقيم نظام حواجز ماء المطر لمنع انجراف التربة والطمي ، وشقت قنوات الري ، واستعملت كل الوسائل البدائية والوسائل الاخرى المتوفرة ، واستعمل جهد الانسان والحيوانات في الحفر والنقل وادارة النواعير ، وتحولت البلاد بين عشية وضحاها الى حديقة دائمة الاخضرار والعطاء ٠ وهذا يثبت ان كمبوديا بنظامها الجديد ستحقق رخاء لم تشهده من قبل ٠ فهي مهيأة لتصدير الارز بكميات كبيرة والى اكثر من بلد في المستقبل القريب ، هذا الى جانب زراعة القطن ونخيل السكر والجوز والتبغ ، اما المطاط الذي تشتهر بزراعته البلاد فهو افضل انواع المطاط في العالم وذلك لعدم تعدد الفصول ولعدم حدوث تنوع كبير في درجات الحرارة طيلة العام ٠

وفي مجال صيد الاسماك تعتبر كمبوديا من البلدان المصدرة وهي تستغني عن كل الاسماك البحرية في الاستهلاك الداخلي اذ يكفيها داخليا اسماك الميكونغ والانهار الاخرى ، وتصدر الاسماك البحرية للخارج ٠

ويقوم النظام الزراعي وهو اساس الاقتصاد على ملكية الدولة والملكية الجماعية (التعاونيات) ، ولا مجال اطلاقا للملكية الفردية او تمليك الاجانب ٠

وفي الوقت ذاته تسعى الدولة لتطوير صناعاتها ، ولما كانت كمبوديا الجديدة متمسكة بمبدأ الاعتماد على النفس فانها ترفض المعونات الاجنبية بمفهومها الشائع ، رغم حاجتها في الوقت الحاضر ، ولكنها تقبل دعم الاصدقاء لمشروعات التنمية الصناعية ، على شرط ان يكون اسهام هؤلاء الاصدقاء لصالح الشعب الكمبودي ، وان يظل الشعب الكمبودي سيد انتاجه ٠

التجارة :

١) **التجارة الداخلية :** ـ بناء على احتياجات التعاونيات لمواد تتوفر لدى بعضها ولا تتوفر لدى البعض الاخر يجري تبادل المنتوجات الضرورية بينها حسب نظام المقايضة، اذ لا يجري التعامل بالنقد ، لان حكومة كمبوديا الديمقراطية ترى ان سلامة خطتها الاقتصادية والاجتماعية تتطلب عدم التعامل بالنقد على الصعيد الداخلي في الوقت الحاضر ، وبالتالي فانه لا يوجد نقد كمبودي حاليا ، ولا يجري استعمال اية عملة اخرى٠ وهذه تجربة فريدة في العالم ، ويصعب على الذين لم يتعرفوا على كمبوديا في الوقت الحاضر تصورها ٠ ولكن معرفة ذلك على الطبيعة تبعث على الارتياح البالغ وتجعلنا نتذكر الاضرار المتعددة والافات الاجتماعية التي تترتب على تداول النقد والاهتمام به محليا ، وذلك بما نعقده من مقارنة بين اوضاع المجتمعات الانسانية الاخرى وبين الصورة الفريدة في كمبوديا الديمقراطية ٠

والشكل الاخر للتجارة الداخلية هو التبادل بين الدولة والتعاونيات ، فمقابل تزويد

الحكومة التعاونيات بما لا يتوفر لها من تبادلاتها . تصدر التعاونيات فائض انتاجهـــا للدولة ٠

٢) التجارة الخارجية : يتجمع لدى الدولة ما يرد اليها من ملكياتها وما يصدر اليهـا من الملكيات الجماعية (بالمقايضات) فتقوم بتخزين قسم لمواجهة الطوارىء والكـــوارث الطبيعية ، وتصدر القسم الاخر للخارج مقابل الحصول على مواد يصعب توفيرها داخليـا ومقابل الحصول على العملة الصعبة اللازمة للدولة ٠ وتسعى دولة كمبوديا الديمقراطية الى رفع المستوى المعيشي لسكانها ، مع التمسك بمبدأ الاعتماد على النفس ، ودفن كـــل اساليب ومظاهر الاقتصاد السابق ٠

واكرر ما ورد في وقت سابق من ان اهم صادرات كمبوديا في نطاق التجارة الخارجية هي الخشب والمطاط والاسماك البحرية والسجاير والخمور والارز ٠ اما احتياجاتها فهي لـن تتعدى الامور التكنولوجية مستقبلا ، اذ ان الدولة تبذل قصارى جهودها لتحقيق الاكتفاء الذاتي في مختلف المجالات ، وبالتالي فان الصورة الراهنة تشير الى ان الاستيراد سيكون في نطاق ضيق يكاد لا يذكر وهذا ما يقتضيه مبدأ الاعتماد على النفس ٠

الوضع الاجتماعي : كما ورد في صفحات سابقة فان التعاونية في الوقت الحاضر هـي الوحدة الاجتماعية وهي في الوقت ذاته وحدة تعليمية وانتاجية ودفاعية وفيها الخدمـات كالصحة والرعاية الاجتماعية وقد شملت التعاونيات كل طبقات المجتمع القديم وصهرتهـم في بوتقة واحدة لهم نفس الفرص ونفس الاوضاع ، وعليهم نفس الواجبات يعملون يـــدا بيد دون اية امتيازات لاحد دون الاخر ، وكانهم ولدوا من جديد ، ولا يظهر حاليا اي تناقض او صراع طبقي او اجتماعي حاد ، ورغم وجود هذه التناقضات كامنة بشكل او باخر ، فانه ليس لها مظهر في الوقت الحاضر ٠

والتثقيف والانتاج والممارسة هي اساس التكوين الحياتي الجديد ٠ ولا يوجد في الوقت الحاضر تنظيم للاسرة من حيث تحديد النسل او تحديد سن الزواج ، بل ان الحكومة تحث الشباب والشابات على الزواج لان الشعب الكمبودي لا يتجاوز تعداده السبعة ملايين ، بالاضافة الى ما تسببت فيه الحرب من ضحايا بلغت اكثر من ستمائة الف نسمة ، بينمـــا التقديرات الاقتصادية تشير الى ان القدرة الاستيعابية للبلاد تتطلب وجود خمسة عشـــر مليون نسمة ٠ وفي نفس الوقت منعت الدولة حسب الدستور تعدد الزوجات للرجل وتعدد الازواج للمرأة ، وهي حالات كانت رائجة في الماضي والاسرة في العهد الجديد متماسكـة زوجا وزوجة واطفالا ، ولها الوضع المحترم بل المقدس في التعاونية ، وقد علمت ان حالات العبث خارج نطاق الزواج ممنوعة ، لاعتبارها من مظاهر البرجوازية المحاربة في كمبوديا الجديدة ٠

اما فيما يتعلق بالبطالة والعمل ، فقد نص الدستور بما معناه ، انه لا يوجد اي كمبودي بلا عمل ، اي ان البطالة معدومة نهائيا ، حتى الشيوخ ، والمناضلين الذين شوهت الحـرب اطرافهم ، لهم اعمال تتناسب مع السن والقدرة ، وقد نشأت روح الاعتزاز بالعمل حتى لا تجد اي جريح او مسن يقبل بان يعتمد في عيشه على عرق الغير ٠ وكذلك رهبان الديانة البوذية الذين كانت تعج بهم« الباجودات» البوذية قد ذهبوا للريف كمواطنين عاديـــن يعملون في الزراعة بلا تجمعات خاصة او اية امتيازات ، هذا وان الجهد الجماعي والانتاج

الجماعي وما يترتب على ذلك من ارتفاع في مستوى المعيشة يعود على المجموعة وذلك لعدم وجود ملكية فردية ٠

الفلاحون الجدد : تكرر استعمال هذه التسمية ، وهي في الحقيقة تطلق على اولئك الذين كانوا يعيشون في المدينة قبل اخلائها وتم الحاقهم بالتعاونيات ، وكان من هؤلاء الموظفون المدنيون والتجار الكبار والصغار واصحاب الحرف والمثقفون ورجال الدين وفقراء المدن ٠٠ ولقد اصبح هؤلاء جميعا فلاحين يعملون في الزراعة والمهن الحرفية المطلوبة لها ، كسائر القرويين والريفيين السابقين ، ويعيشون معهم في نفس التعاونيات والبيوت الخشبية الريفية الجديدة ، وان المرء ليشاهد الابتسامات على كل ثغر عندما يقف بين الفلاحين جميعا ٠

القدامى منهم والجدد ، وهم يناضلون معا لا تميز بين الواحد والاخر لا في الشكل ولا العمل ، في اية تعاونية ، وعند زراعة الارز او شق القنوات او اقامة السدود او جمع الاعشاب الضارة ، او النقل على العربات التي تجرها الجواميس او قيادة التراكتورات ، او عند التوجه للاجتماعات والعودة صفوفا تحت الرايات الحمراء ٠

٠٠٠ لكنه من الطبيعي ان يكون هناك تذمر لدى بعض الفلاحين الجدد وخاصة بين الذين كانوا رجال اعمال ومستغلين كبار واصحاب امتيازات ، انما لا تبدو اية اشارة في الوقت الحاضر تدل على هذا التذمر ٠ وتبذل حكومة كمبوديا الديمقراطية والشعب الكمبودي جهودا جبارة لرفع المستوى المعيشي في البلاد باقصى ما يمكن من جهد واختصار للزمن ٠

اعادة تأهيل المدن بالسكان : لو نظرنا الى المدن الان لوجدناها خالية تقريبا من السكان ، لكن العمل في اعادة بناء المصانع التي تهدمت وتنظيمها وبناء منشآت جديدة في الضواحي لمشاريع مستقبلية جار ليل نهار ٠ ان الصناعات الحرفية الصغيرة وخاصة المتعلقة بالزراعة ستكون منتشرة في الارياف وذلك لتطوير الزراعة من جهة ولاعمار الريف وتأهيله وتجنب التجمع في المدينة على حساب الريف مستقبلا ٠ اما الصناعات المتوسطة والثقيلة فانها في اغلبها ستكون في ضواحي المدينة وهذا للاستفادة من المصانع القائمة اصلا ومن المواصلات البرية والنهرية والبحرية ٠

وقد لاحظت هذه الظاهرة في ضواحي بنوم بنه ، اذ يجري ترميم وتشغيل المصانع القديمة واغلبها قريب من نهر الميكونغ الملاحي ٠ وفي ضوء ترتيب هذه الصناعات سيعاد تأهيل المدينة ، ومن هنا يمكن ان نحكم بان سكان المدينة مستقبلا سيكونون من العمال وسيتركز التأهيل السكاني في الضواحي حيث الاقامة القريبة من المصانع ، ولا داعي لبناء بيوت جديدة للعمال ما دامت البيوت القديمة موجودة بشكل اوفر ٠

ولدى الاستفسار من بعض المسؤولين عن هذا الموضوع اجابوا بان اعادة تأهيل المدن بالسكان مستقبلا تتوقف على عاملين اساسيين ، اولهما حاجة المدينة المبنية على ما فيها من عمل انتاجي يتطلب وجود العمال ، وثانيهما نوعية السكان اذ لا بد ان تتوفر فيهم الى جانب الحاجة لوجودهم في المدينة صفات الوعي السياسي والاخلاق الثورية ٠ وعرفت من مسؤولين اخرين بان سكان العاصمة سيكونون كما يلي :

١ ـ العمال الذين يقيمون في الضواحي لاداء المهمات المذكورة آنفا ٠

٢ ـ الافراد الذين يقومون بتأدية الخدمات العامة التي يتطلبها وجود الحكومة وحياة المقيمين في العاصمة من كمبوديين ودبلوماسيين اجانب ٠

٣ ـ البعثات الدبلوماسية الاجنبية التي ستستقبل بتأن بالغ وبالتدريج ٠

اما بقية المدن سواء التي ما زالت فيها بيوت غير مدمرة او التي سيعاد اعمارهـــا بعد الدمار الكلي الذي احدثته الحرب فانها ستقتصر على وجود الفئتين الاولى والثانية٠

ولا شك آن هذا التنظيم الجديد سيساعد كثيرا على تحقيق هدف ازالة الفوارق فـــي المساكن والمعيشة ، كما سيضمن اعمار كل بقعة في البلاد وينفي فيها حصر الرخاء فـــي مناطق محددة والتعاسة في مناطق اخرى ٠ كما سيقتل بالتدريج الرغبة في هجر الريـف الى المدن وذلك لان المستوى المعيشي في الموقعين سيكون بنفس المعدل في كافة انحـــاء كمبوديا ٠

رسالة الارض المحتلة

بيرزيت أول جامعة عربية في فلسطين

يوم الاحد ١١ ـ ٧ ـ ٧٦ ، تم تخريج الفوج الاول من حملة شهادة البكالوريوس في العلوم والآداب من جامعة بيرزيت · يأتي هذا الحدث الهام في ارضنا المحتلة، ليكرس قضية الوجود الفعلي ، لاول جامعة عربية في فلسطين · وليقوم باثبات قدرة سكان الارض المحتلة ،على اكتشاف وسائل واساليب الصمود· فالى جانب الانتفاضات الجماهيرية ، والقتال المنظم في وجه الغزاة الصهاينة ، لا بد من اكتشاف وسائل الصمود الثقافي والفكري والمادي · فجامعة بيرزيت لا تستطيع بامكانياتها الحالية ان تكون اكثر من اشارة على امكانية المؤسسات الجماهيرية الجادة في اكتشاف وسائل الصمود ، وفي تطويرها ·

تأسست مدرسة بيرزيت عام ١٩٢٤ على يد المرحومة نبيهة ناصر ، ثم تحولت الى مدرسة ثانوية كاملة عام ١٩٣٠ ·وفي عام ١٩٥٣ اضيف الى الكلية الصف الجامعي الاول وتبعه الصف الجامعي الثاني عام ١٩٦١ · وبعد حرب حزيران، وسقوط بقية اجزاء الوطن تحت الاحتلال الصهيوني ، جرى تحويل الكلية الى جامعة كاملة · واستطاعت بذلك ان تشكل احد الردود الوطنية على الاحتلال الصهيوني ، بوصفها مركزا ثقافيا وطنيا من جهة ، واطارا للحد من هجرة الطلبة والاساتذة الى خارج الارض المحتلة · وربما نقطة جذب للعديد من الجامعيين الفلسطينيين والعرب الذين يعملون في الخارج ، ويستطيعون الذهاب الى الارض المحتلة ·

الجامعة الوطنية وتحديات الاحتلال ·

جامعة بيرزيت ليست جامعة عربية عادية · لم تنشئها حكومة وطنية ، ولا يدفع نفقاتها جهاز تمويلي ثابت · انها تجربة تحد · فالتغلب على الصعوبات التكوينية تم عبر وعي جدي لضرورة الرد الوطني · فتحولت الجامعة من يد خاصة الى ايدي مجلس امناء فعلي ، يناقش اوضاعها من ضمن مفهوم وطني لدور الجامعة في ظل الاحتلال · اما المشاكل المالية المزمنة فيجري حلها عن طريق التبرعات والهبات · لذلك هي تجربة فريدة · ففي ايامنا ، لم تعد الجامعات الخاصة امرا ممكنا · لذلك كان التحدي الذي استطاعت جامعة بيرزيت ان تواجهه بنجاح ، هو تحد وطني اولا · ففي ظل سياسة الابادة الثقافية التي يمارسها العدو ، لا بد من مواجهات ثقافية · والجامعة الوطنية في فلسطين هي احد اشكال هذه المواجهات · ورغم العسف الصهيوني : اقتحام حرم الجامعة اكثر من مرة · ابعاد رئيس الجامعة د · حنا ناصر · اعتقال الطلبة · منع طلبة الجليل من الالتحاق بالجامعة ، فان التحدي لا يزال مستمرا · والنشاط الثقافي الوطني يجد لنفسه مكانا رغم الاحتلال ، والاغاني الوطنية ترتفع في حفلة التخرج · فشعبنا يعرف كيف يكتشف اساليب الصمود ·

تضم جامعة بيرزيت حوالي ٥٥٠ طالبا وطالبة ، يأتون من جميع ارجاء الوطن المحتل ، من الضفة والقطاع والجليل · (عدد الطلبة القادمين من الجليل هو عدد ضئيل جدا ، لم يكن في السنة الماضية يتجاوز عشرة طلاب) · ويأتي ٢٠ ٪ من الطلبة من المناطق الفقيرة ـ مناطق القطاع اساسا ـ و ٣٠ ٪ من القرى · و ٥٠ ٪ من المدن الرئيسية · هذا الاستقطاب الكبير نسبيا ، لا يحل مشكلة التعليم العالي في الارض المحتلة لسببين :

الاول هو عدم قدرة الجامعة،بامكانياتها الحالية على استيعاب عدد اكبر من الطلاب ·

والثاني · هو مسالة الاقساط نفسها · فالجامعة ، بوصفها جامعة خاصة،مضطرة الى اخذ اقساط من الطلاب · وهذه الاقساط بدورها لا تغطي عمليا سوى ٣٠٪ من نفقات تعليم الطالب · لذلك تلجأ الجامعة الى التبرعات من المؤسسات الاهلية والخاصة في سبيل الاستمرار ·

يرافق اتساع اماكن الاستقطاب (جميع مناطق الارض المحتلة تقريبا) ، نسبة مرتفعة نسبيا لاقبال الاناث على التحصيل الجامعي · نسبة الاناث هي حوالي ٣٠ ٪ الى مجموع الطلبة ·

ياخذ النضال الطلابي في بيرزيت بعده، بوصفه جزءا من النضال الوطني العام في الارض المحتلة · فهناك عشرة طلاب لا يزالون معتقلين ، وهناك المدرس تيسير عاروري الذي لا يزال منذ نيسان ١٩٧٤ رهن الاعتقال الاداري · وهناك عضوان في مجلس الامناء عبد الجواد صالح والفرد طوباسي ، ابعدا الى خارج الارض المحتلة ·

هناك جانب اخر من العمل الطلابي يسترعي الاهتمام بشكل خاص · هو العمل خارج الجامعة · فتح اسوار الجامعة امام مهمات اجتماعية ملموسة : فمجلس الطلبة المنتخب يشرف على برنامج العمل التعاوني وهو برنامج بالغ الاهمية · اذ يقوم الطلبة في اطاره باعمال مجانية ، تشتمل على المساهمة في شق الطرق ، ومهمات في مؤسسات عامة كالمستشفيات او العمل مع الفلاحين في مواسم القطاف· كما يساهم الطلبة في مكافحة الامية · فهناك الان مركزان لمكافحة الامية الاول في بيرزيت والثاني في مخيم الجلازون·وهناك مشروع لفتح ستة مراكز جديدة لمكافحة الامية · ينحصر عمل مكافحة الامية الان وسط الاناث ، حيث توجد نسبة مرتفعة جدا من الامية وتصل الى حدود ٦٠ ـ ٧٠ ٪ ·

الثقافة والمسالة الوطنية ·

يعمل في الجامعة الان ٥٦ استاذا · منهم ٢٠ استاذا يحملون شهادة الدكتوراه · ٢٠ ٪ من افراد الهيئة التعليمية اجانب : كندا ، ايرلنده ، انكلتره ، الولايات المتحدة · ومشكلة توسيع الهيئة التعليمية ، هي احدى اعقد مشاكل الجامعة · فسلطات الاحتلال لا تسمح للاساتذة العرب بالدخول · لذلك يجب الاعتماد على المتخصصين من ابناء الارض المحتلة ، او على الاساتذة العرب العاملين في الخارج والذين يحملون جنسيات اجنبية ·

لا تزال الجامعة على المستوى الاكاديمي بالغة التواضع · فهي لا تعطي سوى البكالوريوس في الآداب والعلوم الىجانب شهادة التربية · وهي تؤهل لنيل البكالوريوس في اللغة العربية ، اللغة الانكليزية ، علم الاجتماع ، علم الآثار ، التاريخ ، الاقتصاد ، ادارة الاعمال · والرياضيات ، الفيزياء ، الكيمياء ، علم الاحياء ·

اي ان الجامعة لا تزال تفتقر الى الكليات التطبيقية : طب ، هندسة ،

زراعة ... الباهظة التكاليف ·

نلاحظ في البرنامج الاكاديمي ثلاث مسائل بالغة الاهمية :

١ ـ التشديد على اللغتين العربية والانكليزية · واعطاء الدروس باللغتين · مع تشديد على اللغة الانكليزية التي تشكل لغة جميع المواد العلمية ، وبعض مواد العلوم الانسانية · هنا تطرح مسالة التعريب · وهي مسالة لا يمكن حلها في اطار بيرزيت وحدها · ولكن الوجهة العامة في تعريب التعليم العالي ، تعني محاولة جدية للابداع الثقافي · فلا وجود للابداع العلمي وخاصة في ميدان العلوم الانسانية ·

٢ ـ البرامج التي تعالج مسائل مباشرة تتعلق بالوضع الفلسطيني : الآثار ، الفلكلور · المجتمع الرعوي · التاريخ ...

٣ ـ محاولة تطوير البرنامج الاكاديمي في اتجاه البحث العلمي ، عبر مركز الابحاث والتوثيق داخل الجامعة · الذي يحاول جمع جميع الوثائق المتعلقة بالشعب الفلسطيني · كما بدا يعد مجموعة من الابحاث الميدانية ، التي سينشر بعضها في فترة قريبة : مشاكل التعليم في الارض المحتلة · هجرة المتعلمين من الارض المحتلة · مشاكل الاتصال بين عرب الارض المحتلة سنة ١٩٤٨ وسكان الضفةوالقطاع· الاقتصاد الزراعي في الارض المحتلة ...

الى جانب هذا المجهود الاكاديمي ،هناك مجموعة من النشاطات الثقافية التي تقوم بها الجامعة · مسرحيات · وقصائد ملحنة بطريقة حديثة · الرياضة الايقاعية ، ومجموعة من المحاضرات : الفولكلور الفلسطيني ، العائلات الكبيرة في فلسطين وموقفها من القضية ...

ان النشاط الثقافي الذي تقوم به جامعة بيرزيت ، يحولها اليوم الى مركز رئيسي لنضال شعبنا داخل ارضنا المحتلة · فالجامعة الفلسطينية ، التي كانت اشبه بالحلم ، والتي ووجهت محاولات انشائها بمعارضة واشكالات متعددة ومضايقات مختلفة ، تتحول في بيرزيت الى امكانية فعلية ، والى مشروع ملموس يستقطب حوله هيئة تعليمية مناضلة ، وطلابا يتخرجون ليبقوا فوق ارضهم ، رافضين مغريات الهجرة · يشاركون شعبهم في المواجهة اليومية الحادة ·

وعندما اصدرت سلطات الاحتلال قرارا بمنع قبول الطلبة من عرب الجليل والمثلث في الجامعة ، صرح شمعون بيرس ، وزير الدفاع الصهيوني ، بان ذلك القرار صدر « نظرا للتحريض المتطرف المعادي لاسرائيل الذي تمارسه جامعة بيرزيت » ·

مجرد محاولة متواضعة ، تشير الى قدرة شعبنا ، على اكتشاف نفسه ، وعلى البقاء في ارضه · لانه لا يصنع مصيره فقط · بل يفتح بنضاله الوطني نوافذ الثورة العربية ·

رأي

الدلالات السياسية لاغتيال محمود صالح

مساء الثالث من شهر كانون الثاني « يناير » الماضي قام عملاء صهاينة باغتيال المناضل محمود صالح في باريس ، وذلك باطلاق عدة طلقات من مسدس عليه بينما كان يقوم باغلاق باب المكتبة العربية التي يشرف عليها ، والواقعة في الحي اللاتيني ·

وليست هذه المرة الاولى التي يتعرض فيها مناضلون فلسطينيون وعرب الى الاغتيال في باريس على يد عملاء صهاينة· فقد اغتيل خلال السنوات الماضية وفي فترات مختلفة ، المناضلون باسل الكبيسي ومحمود الهمشري ومحمد بوضيا · كذلك فقد تعرضت المكتبة العربية لعدة هجمات من عملاء صهاينة منذ انشائها في العام ١٩٧٤ ، ففي شهر كانون الثاني « يناير » من العام الماضي قام العملاء الصهاينة باحراقها · ولا شك ان استهداف هذه المكتبة التي تقوم بنشر وتوزيع الكتب العربية ، يدل على ما تقوم به من دور سياسي في نشر الوعي بالقضايا العربية بشكل عام والقضية الوطنية الفلسطينية بشكل خاص ·

وحتى الان لم تكشف السلطات الفرنسية شيئا عمن قام بهذه العمليات القذرة ، ولعل هذا ما يثير الكثير من التساؤلات عن موقف ، وربما تواطؤ ، اجهزة معينة في دوائر البوليس الفرنسي مع مرتكبي هذه الاعمال الاجرامية · وما يعزز شكوكا كهذه اقدام بعض المتنفذين في وزارة الداخلية الفرنسية على اعتقال المناضل «ابو داوود»، الذي ذهب الى باريس بعلم وموافقة وزارة الخارجية الفرنسية ، للاشتراك في تشييع جثمان الشهيد محمود صالح ·

واذا كان اغتيال كل هؤلاء المناضلين قد اثار في حينه الكثير من التساؤلات عن ظروف وملابسات اغتيالهم ، فان اغتيال المناضل محمود صالح ، وفي هذا الوقت بالذات ، يثير اكثر من تساؤل ويضع اكثر من علامة استفهام حول حادث الاغتيال ، وحول ملابساته واهدافه السياسية· فالجريمة وقعت في وقت تراجعت فيه كثيرا حرب العمليات الخارجية او « حرب الظل » كما تسميها المصادر الاسرائيلية · ومنذ ثلاث سنوات ـ تقريبا ـ بدل المناضلون الفلسطينيون تكتيكاتهم في الساحة الدولية، فبدلا من العمليات العسكرية الخارجية التي كانت تستهدف المراكز والمؤسسات الصهيونية ، كثفوا من دائرة نشاطهم السياسي والاعلامي في العواصم والمدن الاوروبية ، وهو نشاط بدأ يعطي مردودا اكبر بكثير ، واقوى وامتن ، من ذلك المردود الذي نجم عن عمليات العنف الخارجية · فهل اغتيال المناضل محمود صالح كان محاولة لاغتيال هذا النشاط قبل ان يتبلور ودفع النضال الفلسطيني في الساحة الدولية الى دائرة العنف الخارجي مجددا ؟

الذين يعرفون المناضل محمود صالح يقولون عنه انه كان كتلة من النشاط والحيوية ، وانه استطاع خلال اقامته غير القصيرة في باريس اقامة شبكة واسعة من العلاقات مع القوى الديموقراطية والثورية في فرنسا • وكانت المكتبة العربية التي يشرف عليها مركزا لاستقطاب قوى عديدة لصالح القضية الوطنية الفلسطينية والقضايا العربية • ويقول عارفوه ، ايضا ، انه كان بما يمثله من مواقف سياسية جريئة ، محط نقمة الاوساط الصهيونية في فرنسا ، ومحط عدم رضا وعدم ارتياح دوائر عديدة في البوليس الفرنسي ، فهل الاغتيال اذن كان يستهدفه كشخص ام كموقف ام كحالة ؟

نحن لا نشك لحظة ان اغتيال المناضل محمود صالح كان يستهدف هذه الامور مجتمعة ، الشخص والموقف والحالة ،وكان محاولة صهيونية لاستباق وتطويق اية تحركات محتملة قد يقوم بها المناضلون الفلسطينيون في الساحة الدولية •

ابان اشتداد حرب العمليات الخارجية بين المناضلين الفلسطينيين وعملاء المخابرات الصهيونية ، شكلت الحكومة الاسرائيلية فريقا خاصا للاحقة المناضلين الفلسطينين في الخارج ، وقد انيطت مهمة ادارة هذا الفريق الاجرامي الى اهارون ياريف ، الذي ربط بعلاقة خاصة مع غولدا مائير ، رئيسة الحكومة الاسرائيلية ـ آنذاك ـ • ويدل تشكيل فريق كهذا بادارة شخص كان مديرا للاستخبارات العسكرية وبعلاقة خاصة مع اعلى سلطة ، على ما كان لاعمال هذا الفريق من اهمية سياسية وامنية للعدو الاسرائيلي •

لقد نفذ هذا الفريق عددا من العمليات الاجرامية كان ابرزها اغتيال المناضلين الثلاثة في باريس • ويتضح من استعراض الاسماء التي اغتيلت او التي كانت على القائمة ولم تنجح محاولات اغتيالها ، ان هذا الفريق الاجرامي كان يختار ضحاياه اختيارا • كان يختار ويلاحق المناضلين النشطين والفاعلين ، والذين استطاعوا بنشاطهم وقدرتهم ان يوجدوا اطارا واسعا من الاصدقاء والمتضامنين مع القضية • فالشهيد محمود الهمشري ، مثلا ، لم يكن شخصا عاديا ، بل كان معروفا في الاوساط التقدمية الفرنسية ، كان معروفا بقدرته السياسية وبحيويته وباخلاصه للقضية التي نذر نفسه لها • ولذلك كان هدفا كشخص وكموقف وكحالة • وعندما اغتيل الهمشري كان محمود صالح من خيرة من يتابع المهمة • لقد مضى ما يزيد على ثلاث سنوات بين اغتيال الهمشري واغتيال صالح ، فلماذا هذا الاغتيال اذن ؟

الشهيد محمود صالح استهدف كشخص، ليس لانه هدفا سهلا اصطياده ، فمكان اقامته او تواجده معروف حيث يكون دائما في مكتبته التي حولها الى مركز للنشاط ، بل لانه كان هدفا لا بد من اصطياده • فالاغتيال اذن استهدفه كشخص وكموقف• ولكن لماذا جرى اغتياله في هذه الفترة بالذات ، وليس قبل سنة او سنتين مثلا؟ هل كان صعبا اغتياله آنذاك ؟ نشك في ذلك ، فقد كان موجودا دائما في مكتبته منذ ان انشاها في العام ١٩٧٤ ، وتغيب فترة عنها في العام ١٩٧٥ عندما قدم الى الى لبنان للدفاع عن الثورة ضد الهجمات الفاشية التي تعرضت لها ، ورجع الى باريس بعد ان اقدم العملاء الصهاينة على احراق مكتبته •

وهذا ما يجعلنا نشك في ان توقيت

الاغتيال كان محض صدفة ، ويجعلنا نرجح ان التوقيت جاء ضمن حسابات اسرائيلية ومقدمة لنشاط صهيوني في الساحة الدولية خلال الفترة القادمة ٠

الى ما قبل العام ١٩٧٣ كانت عمليات العنف الخارجية هي السمة الغالبة على النشاط الفلسطيني في الساحة الدولية ٠ وقد اثارت هذه العمليات ـ في حينها ـ ردود فعل واسعة ، سلبية وايجابية في الاوساط الديموقراطية والثورية في الخارج ،وكانت ردود الفعل السلبية اوضح وابرز من الايجابية ٠ ولقد كنا من الذين انتقدوا هذه العمليات في حينها ، وبينا مخاطرها واثارها السلبية على النضال الوطني الفلسطيني ٠ لقد استغل العدو الصهيوني هذا النمط من النضال الفلسطيني ، واتخذه ستارا ليخفي عملياته الاجرامية ضد الشعب الفلسطيني، وعملياته الاجرامية القذرة ضد المناضلين الفلسطينيين في الخارج ، كما اتخذ منه مرتكزا لدمغ النضال الوطني الفلسطيني بدمغة الارهاب والعنف غير الثوري ٠ونحن وان كنا نخطىء هذا النمط من العمليات فكرا واسلوبا ، فاننا لا نعدم ان بعض العمليات الخارجية كان لها ما يبررها ، وان بعض هذه العمليات نقلت الاحساس بالقضية الوطنية الفلسطينية الى المجتمع الدولي الراكد ، والى الرأي العام العالمي الذي كان مشبعا حتى التخمة بالدعاية الصهيونية واضاليلها ٠ ولكن هذا لا يعني باي حال من الاحوال ، انه لو لم تكن هذه العمليات لما استطعنا تحريك مياه المجتمع الدولي الآسنة ، او لما استطعنا اختراق آذان الرأي العام العالمي التي اصمها وسخ الدعاية الصهيونية ٠

لقد فرضت القضية الوطنية الفلسطينية نفسها على المجتمع الدولي واخذت تستقطب اوسع القوى الديموقراطية والثورية في العالم ، ليس بفعل هذه العمليات ، بل بفعل نضالاتها الوطنية ، بفعل نضالات اوسع الجماهير داخل الارض المحتلة وخارجها ٠ بفعل نضالنا التحرري العادل، الذي يفرض نفسه كنضال وطني تحرري ضد الصهيونية والامبريالية والقوى الرجعية ٠ واي تغيب لهذه الحقيقة ستكون محصلته الاكيدة الانجرار وراء اعمال مغامرة والغوص مجددا في البحث عن ابطال فرديين يمتلئون حماسة واندفاعا واخلاصا وحبا للتضحية من اجل القضية، ولكن تضحياتهم لا تاتي بمردود ، وتعيد الثورة التي اصبحت ارادة وواقعا الى الحلم من جديد ٠ لماذا نقول ذلك ؟ نقول ذلك لاننا نرى في اغتيال المناضل محمود صالح في باريس وفي هذا الوقت بالذات محاولة صهيونية لاغتيال ما احرزته نضالاتنا الوطنية من مواقع متقدمة في الاوساط الديموقراطية والثورية في العالم٠

لقد استطعنا بنضالاتنا الوطنية خلال السنوات الماضية وتحديدا بعد العام ١٩٧٣ ان نحرز مواقع متقدمة في اوساط الرأي العام الدولي ،واستطاع الاعلام الفلسطيني الواعي ان يضايق الدعاية الصهيونية وان يحرز تقدما عليها في بعض المجالات على الرغم من كل ما تملكه من وسائل، ونحن لا نشك ان الصهاينة بدأوا يشعرون بضيق وازعاج كبيرين من تحرك مناضلينا السياسي الجريء والنشط في الخارج ، ولا سيما ان هذا التحرك اخذ يستقطب قوى عديدة بعد ان تخلص من « عقدة » العمليات الخارجية خلال السنوات الثلاث الماضية ٠ وهو تخلص اربك ويربك الاوساط الصهيونية والامبريالية في الخارج لانه افقدها احدى اهم مرتكزاتها في الهجوم على النضال الوطني الفلسطيني ، ولهذا فقد جرى اغتيال

محمود صالح لاصابة عدة اهداف في آن واحد : (١) ابعاد عنصر فاعل ونشط من الطريق (٢) خلق حالة من الذعر لدى النشيطين من المناضلين في الخارج ،لجعل حركتهم اضيق واقل نشاطا · ولقد شكلت العاصمة الفرنسية خلال السنتين او الثلاث الماضية احدى اهم مراكز النشاط السياسي الفلسطيني ، واخذت في الآونة الاخيرة تمثل مركز جذب لقوى عديدة ، وهذا ما اثار الاوساط الصهيونية فيها · وليس صدفة ان تتركز الاغتيالات التي نفذها الصهاينة ، في باريس ، وليس صدفة ايضا ان لا يكشف البوليس الفرنسي حتى الان عن اي من مرتكبي هذه العمليات الاجرامية · ولهذا فنحن لا نستبعد ان يقدم العملاء الصهاينة على اعمال اجرامية اخرى في فرنسا تحديدا وخارج فرنسا بشكل عام ، في محاولة منهم لخنق هذه الحالة قبل ان تنمو وتتجذر ، ولا سيما بعد ان ضاقت مجالات الاعلام الفلسطيني اثر النتائج التي اسفرت عنها الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، واعادة التحرك السياسي الفلسطيني في الخارج الى دائرة العنف والعنف المضاد ، لتضييق الخناق على هذا التحرك وعزله عن اطاراته الصديقة والمناصرة له · وكما قلنا ، فقد اتخذ العدو الصهيوني من العنف الخارجي مرتكزا لتشويه نضالاتنا الوطنية وعزلنا عن الرأي العام الدولي ·

٣) استباق اي توجه نضالي نحو العودة الى العنف الخارجي بتهيئة المجتمع الدولي لشن هجمة واسعة على نهج العمليات الخارجية · نحن لا نشك اطلاقا ان الدوائر الصهيونية تبني حسابات الان على ان ما اسفرت عنه الحرب الاهلية الوطنية في لبنان من نتائج قد يدفع بعض القوى الفلسطينية الى العودة الى العنف الخارجي للخروج من دائرة الحصار الذي تتعرض له الثورة الفلسطينية · ويبدو ان هذه الدوائر تاخذ في حسابها ما اسفر عنه الحصار الذي تعرضت له الثورة الفلسطينية اثر معارك ايلول في الاردن · فبعد ان فقدت الثورة مواقعها العلنية في الاردن ، نما في الاوساط الفلسطينية تيار نهج العنف الخارجي · وعبر هذا النمو عن نفسه بكثافة العمليات الخارجية خلال عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ · ونحن لا نذيع سرا اذا قلنا ان الحسابات الصهيونية هذه مجرد هراء ، فالمد الذي بلغه النضال الوطني الفلسطيني تخطى اطار العنف الخارجي كوسيلة للخروج من الحصار · اضافة الى ان العنف الخارجي لم يكن وليد الانحسار والتطويق فقط بل كان نهجا خاطئا ، وهو نهج آخذ بالتراجع يوما بعد يوم على ارض الممارسة النضالية ·

على ضوء كل ذلك ، فاننا نرى ان اغتيال المناضل محمود صالح ، هو عمل صهيوني استباقي لمواجهة احداث متوقعة، اضافة الى انه عمل يستهدف فتح ملف العمليات الخارجية لمواجهة التحرك السياسي والاعلامي النشط للقوى الوطنية الفلسطينية ومحاولة تطويق هذا التحرك بذكريات العنف الخارجي · وهذا ما تؤكده الملابسات التي رافقت اعتقال واطلاق سراح المناضل « ابو داوود » ·

اعتقال المناضل ابو داوود ·

سافر الاخ ابو داوود الى باريس ضمن وفد فلسطيني لحضور تشييع جثمان الشهيد محمود صالح · لقد دخل الاخ ابو داوود فرنسا باذن رسمي وبمعرفة وزارة الخارجية الفرنسية · وخلال وجوده في باريس التقى مع مسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية · واعتقل بعد هذا اللقاء ويوم تشييع جثمان الشهيد محمود صالح ·

وتشير كل المعلومات المتوفرة ، ان وزير الداخلية الفرنسي هو الذي اصدر امرا باعتقال الاخ ابو داوود دون معرفة لا رئيس الوزراء ولا رئيس الجمهورية ، ولكن بعد ان اثار الاعتقال كل هذه الضجة تنصل وزير الداخلية من معرفته بالامر والقى باللوم على بعض المتنفذين في وزارة الداخلية ·

ونحن نشك ان تكون الجهة التي كانت وراء اعتقال الاخ ابو داوود غير واعية لنتائج ما اقدمت عليه وانها ستضطر الى اطلاق سراحه بعد ايام · وتشير كل المعلومات ان الاعتقال جاء ضمن الحسابات الصهيونية ويخدم المخطط الصهيوني في اعادة فتح ملف العمليات الخارجية · فوزير الداخلية الفرنسي معروف بمواقفه المعلنة من العنف الخارجي وما يسمى بالارهاب الدولي ، ومنذ اشهر وهو يشهر في فرنسا حملة واسعة ضد ما يسميه بالارهاب الدولي · وقد اصدر مؤخرا تعليمات الى الشرطة الفرنسية تعطيها الحق بايقاف اي سيارة مدنية وتفتيشها بحجة مقاومة « النشاط الارهابي » ومنع حدوثه · ولعل هذا ما يفسر لنا ان التحقيقات التي اجرتها الشرطة الفرنسية حتى الان حول جريمة اغتيال المناضل محمود صالح ، لا تتعدى كونها تحقيقات شكلية · اضافة الى ان التحقيق تناول دائرة اصدقاء الشهيد والنشاطات التي كان يقوم بها وليس تحقيقا حول الجهة التي يشك انها ارتكبت الجريمة ·

ولقد اشار بعض الذين هم على اطلاع بحيثيات اعتقال الاخ « ابو داوود » و اطلاق سراحه ، ان الدوائر التي امرت بالاعتقال كانت تستهدف من الاعتقال ، طمس جريمة اغتيال المناضل محمود صالح بافتعال قضية اخرى، وفتح ملف العمليات الخارجية ضد التحرك السياسي الفلسطيني في الخارج · ولذا فقد بنت الدائرة الفرنسية التي امرت بالاعتقال، ان الحادثة قد تسفر عن امرين: اما ان يسلم الاخ ابو داوود الى المانيا اذا طالبت به ، ليفتح تسليمه الى المانيا ملف حادثة ميونيخ · واما اذا تعذر تسليمه الى المانيا ان تحرج السلطات الفرنسية في اطلاق سراحه ، واذا اطلقت سراحه ، فيظهر وكأنه خضوع للضغط العربي ، وكلا الحالتين تخدمان التحرك الصهيوني ضد النشاط الفلسطيني في الخارج · وقد ذكرت بعض الصحف الفرنسية ان الداخلية الفرنسية تلقت من المانيا برقية يوم اعتقال الاخ « ابو داوود » تشير الى ان وزارة العدل الالمانية سترسل في اليوم التالي طلبا بتسليمها « ابو داوود » · ولكن المانيا لم ترسل هذا الطلب · ولذا فقد كانت فرنسا محرجة في استمرار اعتقاله ، فاطلقت سراحه ·

لقد اثارت الاوساط الصهيونية والحكومة الاسرائيلية زوبعة كبيرة ضد اطلاق سراح الاخ « ابو داوود » وصورت الامر كانه خضوع للضغط العربي · ولا شك ان اطلاق سراح الاخ « ابو داوود »قد افشل الحملة الصهيونية او وضع العصي في عجلاتها · والسؤال الان بعد ان فتحت العمليتان ، جريمة اغتيال المناضل محمود صالح ، وحادثة اعتقال الاخ «ابو داوود» ملف العمليات الخارجية مجددا هو : هل ينجح العدو الصهيوني في اعادة التحرك الفلسطيني في الخارج الى حلقة الدوران في العنف الخارجي ، الى العنف والعنف المضاد ؟ وعلى الرغم من اننا نشك في ذلك فاننا نرى ان الاجابة على سؤال كهذا متروكة لكل القوى الوطنية الفلسطينية حتى تصيغها بشكل ثوري وفاعل ·

غ · خ

تقرير

قوات الردع العربية

(من تشرين الأول الى كانون الثاني ١٩٧٦)

بعد فشل جميع محاولات ايقاف القتال في لبنان ، قامت القوات السورية المتواجدة في البقاع وبعلبك والشمال ، بالتحرك عسكريا في محاولة لحسم النزاع بالقوة ·

وفي هذه الفترة استغلت «جبهة الكفور» التناقض القائم بين الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية من جهة ودمشق من جهة ثانية ، فكثفت اتصالاتها مع سورية، ولكنها بقيت على موقفها السابق الذي يرفض دخول اي قوات عربية الى المناطق التي تسيطر عليها ، حتى لو كانت هذه القوات سورية · وعلى هذا الاساس كان اي تقدم تقوم به القوات السورية سيتجه بالتأكيد نحو مناطق الحركة الوطنية والمقاومة · وكانت المقاومة والحركة الوطنية ميالتين الى تعريب الازمة ، بينما كانت «جبهة الكفور» تعارض التعريب ، وتفضل استمرار المبادرة السورية ، وتحتفظ بحقها في اللجوء الى التدويل كورقة اخيرة اذا ما اوقف السوريون مبادرتهم · وكانت الاتصالات العربية المكثفة تجري لعقد مؤتمر قمة عربي يؤمن مصالحة المقاومة وسورية ، وتلطيف الاجواء بين دمشق والقاهرة ، ويؤدي الى تضامن عربي يخلق المناخ الملائم لحسم الازمة اللبنانية سياسيا ، وتعبئة القوى والطاقات لمواجهة المرحلة التالية في تسوية ازمة الشرق الاوسط ·

وضمن هذا الاطار جرت اتصالات عربية رسمية وغير رسمية ، وكثف ممثلو منظمة التحرير في البلدان العربية نشاطاتهم ، ودعت دولة الكويت في ١٥ اب الى عقد مؤتمر قمة ، وبدأ الاستاذ كمال جنبلاط جولته الى بعض العواصم العربية منذ ٢٧ ايلول · وكانت الغاية من كل ذلك تعريب الحل ، طالما ان انفراد القوات السورية بالحل ، واعلان «القوات الانعزالية» عن تحالفها معها ، يثير شكوك المقاومة والحركة الوطنية ، وينذر بوقوع صدام عنيف بين السوريين والحركة الوطنية والمقاومة ، يستغله اليمين اللبناني لمتابعة هجمته وتحقيق مكاسب لا يسمح بها ميزان القوى الذاتي ·

ولقد زاد الاهتمام العربي بعقد مؤتمر القمة لحل النزاع بعد ان تحول الصراع اللبناني الى صدام مع سورية ، يهدد بالاتساع والتحول الى صراع مسلح عربي، كما انه يضعف سوريا ويضعف بالتالي المعسكر العربي عندما تبدأ مسيرة التسوية السلمية المنتظرة في مطلع العام ١٩٧٧ ، بعد انتهاء الانتخابات الاميركية ،واستلام الادارة الاميركية الجديدة مهماتها ·وكان وراء الاهتمام العربي ايضا سبب اخر يتمثل في ان الصدام مع سورية يمكن ان يؤدي الى تصفية المقاومة ، الامر الذي يتعارض مع اجماع الامة العربية على دعم منظمة التحرير واعتبارها ممثلا

شرعيا للشعب الفلسطيني ، خاصة وان اليمين اللبناني الذي تصلبت مواقفه منذ حزيران ١٩٧٦ ، واعتقد ان بوسعه شن الهجوم الاستراتيجي العام ، اخذ يعلن عن رغبته في تصفية المقاومة جسديا ، وتحرير لبنان من اخر فلسطيني» ٠

وفي منتصف ايلول اعلن الرئيس انور السادات بان مصر تحضر لعقد مؤتمر قمة سداسي في الرياض للبحث في الازمة اللبنانية ، وانها مستعدة لحضور هذا المؤتمر في اي وقت ، على ان توافق على ذلك الاطراف الاخرى ، وهي السعودية وسوريا والكويت ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وان تعلن هذه الاطراف عن استعدادها لحضور هذا المؤتمر ٠وعندما تأخر عقد مؤتمر القمة بسبب الشروط والشروط المعاكسة ، قامت القوات السورية باجتياح المتن الشمالي في ٢٨ ـ ٩ و ٢٩ ـ ٩ ٠ واستغل اليمين اللبناني ذلك لاستثمار فوز الغير والبدء « بمعركة التحرير » ، وارتكب مجزرتي صليما وارصون اللتين دفعتا السوريين الى تحديد نشاط اليمينيين في هذه المنطقة ، ومنع تواجد المسلحين الانعزاليين على ارض المتن الشمالي ٠

وفي ٢٩ ـ ٩ ـ ٧٦ دعا الرئيس السادات الى القمة السداسية العاجلة ، وبات انعقاد هذا المؤتمر متوقفا على الموقف السوري ، بعد ان اعلنت السعودية والكويت والرئيس سركيس ومنظمة التحرير الفلسطينية موافقتها ٠ وذكرت مصادر في القاهرة ان سوريا وضعت شرطين لحضور مؤتمر القمة هما : ضرورة اشتراك الاردن ، وعدم اشتراك عرفات شخصيا ٠ ولكن منظمة التحرير ابلغت الجامعة العربية في ٣٠ـ٩ ان ياسر عرفات سيمثلها في القمة ، وقالت وكالة الصحافة الفرنسية في القاهرة في ٣١ ـ ٩ « ان الشيء الوحيد الذي يحمل دمشق على تغيير موقفها هو ضغط حقيقي من السعودية » ٠ وفي ١٣ ـ ١٠ صرح مصدر سوري رسمي ان عبد الحليم خدام نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية ، سيرأس وفد سوريا الى مؤتمر القمة العربي المقرر انعقاده في القاهرة في ١٨ تشرين الاول ، وان الرئيس حافظ الاسد لن يحضر المؤتمر ٠

وفي ١٤ ـ ١٠ صرح مصدر مسؤول من القاهرة ان الرئيس المصري انور السادات ابلغ الرؤساء والملوك العرب مساء ١٣ ـ ١٠ ان مؤتمر القمة لن يجتمع ، على الاقل على مستوى القمة ، اذا لم يحضره الرئيس السوري حافظ الاسد ، وان الرئيس السادات بعث برسائل الى الملوك والرؤساء العرب تحمل هذا المعنى وقال فيها : انه اذا اناب الرئيس الاسد وزير الخارجية عبد الحليم خدام لحضور القمة العربية فهو لن يحضر المؤتمر ، وسينتدب لحضوره السيد محمود رياض وزير الدولة المصري للشؤون الخارجية ٠

وعندما تعذر التوصل الى حل للمعضلات التي اعترضت عقد المؤتمر ، قام السوريون بمظاهرة قوة جديدة على محور صوفر ـ بحمدون ـ عاليه ، ومحور جزين ـ صيدا ، في منتصف تشرين الاول٠ ووقعت على هذين المحورين صدامات عنيفة ، مما ادى الى تضاؤل امكانات انعقاد مؤتمر القمة العربية في القاهرة وتأجيله الى موعد لاحق ، وقامت ليبيا بسحب رئيس مكتب العلاقات الليبي من دمشق احتجاجا على استمرار العمليات العسكرية ، فكانت ثاني دولة عربية تقف هذا الموقف بعد العراق الذي سحب سفيره من دمشق في حزيران ١٩٧٦ احتجاجا على الصدام السوري الفلسطيني آنذاك ٠ وبرزت امام هذا التصعيد العسكري والسياسي فكرة عقد القمة المصغرة السداسية في الرياض كبديل لها ، وقبل

الفرقاء الاساسيون بالقمة البديلة · ومن المؤكد ان عنف المعارك كان سببا في دفع الدول العربية نحو عقد هذا المؤتمر ، كما اعطى طول هذه المعارك المجال الزمني لانهاء المباحثات وتذليل الصعوبات المتعلقة بعقد المؤتمر ·

اما على الصعيد اللبناني فقد اجتمع الرئيس سركيس في ١٣ ـ ١٠ مع الرئيس السابق كميل شمعون والشيخ بيار الجميل بغية اخذ رأي « الجبهة » بالموافقة على حضور رئيس الوزراء رشيد كرامي هذا المؤتمر ، خاصة وان رئيس الوزراء اللبناني قد طلب من الرئيس سركيس المشاركة في تمثيل لبنان في مؤتمر القمة· وجوبه الرئيس سركيس برفض « جبهة الكفور » المطلق لهذا الطلب ، ورفض حتى البحث في هذا الموضوع، مع الاصرار ان يتمثل لبنان برئيس جمهوريته اذا ما قرر المشاركة في المؤتمر ·

وعلى اثر الاجتماع طالب الرئيس سلام بضرورة حضور كرامي مؤتمر القمة ، لضرورة وجود رئيس الحكومة مع رئيس الجمهورية في مؤتمر القمة وفي اي اجتماع يعقد على مستوى الرؤساء ، لان هذا الحضور يعزز الوحدة الوطنية ويحقق فكرة المشاركة · وفي ١٥ ـ ١٠ اعلن رئيس « المجلس السياسي المركزي للاحزاب والقوى التقدمية » كمال جنبلاط بان الحركة الوطنية تحبذ انهاء القتال · ولكن المشكلة ليست في اتفاق القاهرة ولا بين المقاومة والسلطة انما هي بين المقاومة والمؤامرة التي تريد ابعاد المقاومة عن الجنوب · وقال ان الصراع في الاصل لبناني ـ لبناني ، وان الاحزاب والقوى التقدمية موجودة في لبنان منذ عشرات السنين قبل وجود المقاومة ،وان الانعزاليين هم الذين حولوا الصراع الى حرب اهلية· وجرى في هذه الفترة تحرك اسلامي واسع لمواجهة تطورات الوضع · وعقد « التجمع الاسلامي » في ١٥ ـ ١٠ اجتماعا دعا فيه لتنفيذ مقررات جامعة الدول العربية المتخذة في حزيران ، واعلن انه فوجيء « بالتوغل السوري » وفي اليوم نفسه عاد الوفد الكتائبي من دمشق بعد زيارة دامت ثلاثة ايام وجرى خلالها بحث الوضع العسكري المستجد بعد معركتي جزين والجبل ، وتركزت المحادثات على مسألتين اساسيتين هما : التنسيق بين « القوات الانعزالية » و « القوات السورية » في التحركات العسكرية خصوصا في الجنوب، ومتابعة ما يجري في عاليه ، والبحث في الوسائل السياسية والعسكرية لتأمين عودة الامن الى المنطقة · وقال مصدر كتائبي ان الجانب السوري اكد بان المبادرة السورية بشقيها العسكري والسياسي مستمرة الى النهاية ·

المؤتمر السداسي يحول « قوات الامن » الى « قوات ردع »

بدأ مؤتمر القمة السداسية اعماله في الرياض بتاريخ ١٦ تشرين الاول ١٩٧٦ في ظل وقف القتال مع سوريا ، رغم استمرار القتال والقصف والقنص على جميع المحاور بين المقاومة والحركة الوطنية من جهة و « القوات الانعزالية » من جهة ثانية ، وخاصة في الجنوب ، حيث استغل الجيب الانعزالي انشغال المقاومة و«القوات المشتركة » في الجبهات الاخرى ، واحتل ثكنة مرجعيون في ١٨ ـ ١٠ وهو اليوم الاخير للمؤتمر ·

وحضر المؤتمر كل من الملك خالد عاهل السعودية والشيخ صباح سالم الصباح امير دولة الكويت ، والرئيس المصري انور السادات والرئيس السوري حافظ الاسد والرئيس اللبناني الياس سركيس (دون ان يكون معه رئيس الوزراء الذي تعذر عليه

السفر لاسباب امنية) والسيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وانتهى في ١٨ ـ ١٠ ـ ٧٦ بمصالحة الرئيسين السادات والاسد ، ومصالحة قيادة المقاومة مع سوريا ٠ونص البيان الصادر عن المؤتمر على النقاط التالية : ١ ـ تدعيم التضامن العربي ، ٢ ـ ضمان عربي لسيادة لبنان ووحدته واستقلاله ، ٣ ـ تنفيذ اتفاق القاهرة وملاحقه بضمان عربي ، ٤ ـ تحويل «قوات الامن العربية » الى « قوات ردع عربية » تضم ٣٠ الف جندي ،ووضعها تحت تصرف الرئيس سركيس مباشرة ، ٥ ـ انشاء لجنة رباعية تضم ممثلين عن السعودية ومصر والكويت وسوريا تتولى التنسيق مع الرئيس اللبناني لتنفيذ المقررات في مهلة ٩٠ يوما ٠

وقرر المؤتمر وقف القتال نهائيا في كل الاراضي اللبنانية ابتداء من الساعة ٦ر٠٠ من يوم ٢١ ـ ١٠ ـ ٧٦ ، وعودة لبنان الى ما كان عليه قبل ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، وتضمن الملحق بالبيان جدولا زمنيا ينص على انسحاب جميع المسلحين وازالة كل المظاهر المسلحة في جبل لبنان في الايام الخمسة التي تلي وقف اطلاق النار، وكذلك في الجنوب ٠ اما في بيروت وضواحيها فقد حددت لذلك مهلة ٧ ايام، وللشمال ١٠ ايام ، على ان تلي ذلك اعادة فتح كل الطرق ، واعادة المؤسسات العامة الى الحكومة اللبنانية ، والمساهمة في اعادة تعمير لبنان ٠ واتفق على عرض المقررات على القمة الموسعة التي تقرر عقدها في ٢٥ ـ ١٠ ـ ٧٦ في القاهرة ٠ كما نص الملحق في احد بنوده على نقاط مراقبة من قوات الردع العربية بعد انشاء مناطق عازلة في المناطق المتوترة لتثبيت وقف اطلاق النار ٠

وكان اهم ما يميز « قوات الردع العربية » هو انها اصبحت مكلفة بفرض وقف القتال ، حتى ولو اقتضى ذلك استخدام القوة ،بدلا من الاكتفاء بالاشراف على وقف القتال عندما يتفق عليه الطرفان٠ وكان حجم القوة كافيا عمليا لفرض ايقاف القتال ، خاصة وان من المنتظر ان ينضم اليها جزء من القوات السورية الموجودة في لبنان ، والمسلحة باحدث الاسلحة والمعدات الحربية٠ونظرا لان قرارات مؤتمر القمة لم تعين قائدا لقوات الردع ، فقد كان من الطبيعي ان يستلم اللواء محمد حسن غنيم قائد « قوات الامن العربية » القيادة ريثما يتم تعيين قائد جديد ٠ ولكن اللواء غنيم ورئيس اركانه سافرا في ١٩ـ ١٠ الى القاهرة بناء على دعوة عاجلة من الامين العام لجامعة الدول العربية ، واستلم القيادة بالوكالة العميد نور الدين مبارك ٠

واستغل المتحاربون مهلة اليومين الباقيين على وقف القتال فصعدوا عمليات القصف والقنص على جميع الجبهات ، واحتل الانعزاليون بلدة مرجعيون في ٢٠ ـ١٠ وبدأت الاستفزازات في قرية العيشية الامر الذي دفع «القوات المشتركة» والمقاومة وجيش لبنان العربي الى احتلالها في ٢١ ـ ١٠ ٠

وفي ٢١ ـ ١٠ تم وضع مراقبة سرية في لبنان من ضباط سعوديين لتحديد مصادر الخرق والسهر على تنفيذ قرار وقف اطلاق النار ٠ واشرف الملحق العسكري السعودي الفريق علي الشاعر على ذلك ٠ كما تم وضع نقاط مراقبة في ٢٢ ـ ١٠ على خطوط التماس في العاصمة والضواحي، بغية تسجيل المخالفات وابلاغها الى الامانة العسكرية لجامعة الدول العربية والى القصر الجمهوري لمراجعة الاطراف المخالفة ٠

بيد ان وجود هذه النقاط لم يوقف اطلاق النار حتى بعد ٢١ ــ ١٠ ، واستمر القتال وتبادل القذائف ، واتسع حتى وصل الى الجنوب وشمل مدينة الخيام . واستمر التوتر في بنت جبيل ومحيطها . وفي ٢٣ ــ ١٠ غادر الفريق على وقف القتال من الانهيار ، وخاصة في الجنوب . وفي هذه الاثناء كانت الاتصالات تتم لتشكيل « قوات الردع العربية » . وكانت القوات الوحيدة المتوفرة في لبنان هي « قوات الامن العربية » (السعودية ــ الليبية ــ السودانية » ، والقوات السورية الموجودة في لبنان من قبل . وكان الرأي السائد بان القوات السورية ستشارك في « قوات الردع » بنسبة الثلث او النصف على ابعد تقدير . لذا اتجهت المقاومة والحركة الوطنية نحو مطالبة الدول العربية المعنية بالتعجيل في ارسال المزيد من القوات لموازنة التواجد السوري .

ولاقى تشكيل « قوات الردع » معضلة عملية . فلقد رفضت مصر بشكل قاطع ارسال اية قوات ، ووافقت فقط على ارسال معدات واسلحة اذا لزم الامر . وكانت المقاومة والحركة الوطنية تتحفظان ازاء اشتراك قوات اردنية ، كما كانت « جبهة الكفور » تتحفظ ازاء اشتراك القوات العراقية والليبية والجزائرية ، وتتهم العراق وليبيا بالمشاركة في الحرب اللبنانية . ولقد طالب جنبلاط بعدم التوقف عند اعتراض المتحفظين على اشتراك دولة عربية معينة بحجة انها طرف في حرب لبنان ، واعتبر هذه الحجة لاغية بدليل ان سوريا كانت طرفا رئيسيا في القتال ومع ذلك فقد طلبت ان تشكل اكثرية راجحة في « قوات الردع » ، وان شكوى « جبهة الكفور » سابقا من اشتراك ليبيا في « قوات الامن العربية » بحجة انها منحازة مع المقاومة والحركة الوطنية لا تستند الى اي اساس ، وقد ثبت بطلانها بعد الممارسة والتأكد من حياد هذه القوات، لذا لا بد من اشتراك عربي واسع في « قوات الردع » لتتوازن مع قوة سوريا لئلا تفقد القوات الوجه العربي .

ورغم جميع المحاولات لتجاوز التحفظات حول مشاركة عدد من الدول العربية في « قوات الردع » فقد بات من الواضح ان ارسال القوات سيبقى محصورا في المغرب ، وتونس ، والكويت،ودول الخليج، واليمن ، والسعودية ، والسودان ، ومعظمها دول لا تملك قوات عسكرية ضخمة مؤهلة للحركة بسرعة الى لبنان ، الامر الذي ادى الى تضييق مجالات ارسال القوات الى حد بعيد ، وجعل سوريا الدولة الاولى المؤهلة لارسال قوات الى لبنان .

مؤتمر القمة العربي الثامن :

على اثر القمة السداسية اجتمع وزراء الخارجية العرب في القاهرة بتاريخ ٢٠ ــ ١٠ ــ ٧٦ ، وفي غياب وزيري خارجية ليبيا والعراق . واوصوا بعقد مؤتمر قمة عربي موسع في القاهرة لدراسة مقررات مؤتمر القمة السداسي في الرياض .وفي ٢٥ ــ ١٠ ــ ٧٦ بدأ مؤتمر القمة جلساته، وحضره ملوك ورؤساء السعودية ومصر وسوريا والاردن والكويت وقطر والامارات العربية واليمن الشمالي واليمن الجنوبي والسودان وموريتانيا والصومال والبحرين ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ومثل العراق وزير الخارجية ، والمغرب وزير الدولة للشؤون الخارجية ، والجزائر وزير الاعلام الجزائري ، وليبيا الرائد عبد المنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة في ليبيا .

ولقد درس المؤتمر عدة مسائل اهمها : الوضع في لبنان وضرورة الحفاظ على سيادته واستقلاله ، وتضامن الشعبين اللبناني والفلسطيني ، ودرس ايضا الوضع في الجنوب اللبناني والاعتداءات الاسرائيلية المتصاعدة على الاراضي اللبنانية ، واصرار الدولة الصهيونية على ممارسة سياستها العدوانية التوسعية في الاراضي العربية • وعلى اثر ذلك قرر المجتمعون المصادقة على قرارات مؤتمر القمة العربي السداسي في الرياض ، واكدوا التزامهم بالعمل على توفير الضمانات اللازمة لتثبيت وقف اطلاق النار ، وانهاء الاقتتال بجميع صوره ، وعودة الحياة الطبيعية الى لبنان وتعزيز « قوات الامن العربية » ودعمها لتصبح « قوة ردع » تعمل تحت امرة رئيس الجمهورية اللبنانية شخصيا ، كما اكدوا على ضرورة تنفيذ اتفاق القاهرة وملاحقه• ولقد وافق المؤتمر ايضا على تأليف لجنة تضم ممثلين عن المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية والجمهورية السورية ودولة الكويت ، تقوم بالتنسيق مع الرئيس سركيس فيما يتعلق بتنفيذ اتفاق القاهرة ، وتكون مدتها ٩٠ يوما ، واكد من جديد ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد لشعب فلسطين ، وان على جميع الدول العربية الاعضاء في جامعة الدول العربية دعم المنظمة وعدم التدخل في شؤونها ، في الوقت الذي اكدت فيه منظمة التحرير سياستها بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد عربي •

وقرر المؤتمر ان تساهم الدول العربية، كل حسب امكاناتها ، في اعادة تعمير لبنان ، والاضرار التي حلت بالشعبين اللبناني والفلسطيني ، والمبادرة العاجلة بتقديم العون لهما ، وانشاء صندوق خاص للانفاق على متطلبات « قوات الردع » ، ومساهمة الدول الاعضاء في الصندوق بنسبة مئوية تحددها كل دولة حسب طاقاتها » ، وان يشرف رئيس الجمهورية اللبنانية على الصندوق ، ويضع بالتشاور مع الامانة العامة لجامعة الدول العربية والدول المساهمة بنسبة عشرة في المئة على الاقل ، نظاما عاما للصندوق ، يوضح طريقة الانفاق منه وتصفيته عند انتهاء مدته ، وان يعمل بالنظام الذي سارت عليه « قوات الامن العربية » الى ان يتم وضع نظام جديد • وحددت مدة الصندوق بفترة ستة اشهر قابلة للتجديد بقرار من مجلس الجامعة الذي ينعقد بطلب من رئيس الجمهورية اللبنانية •

ولقد تقرر ان تساهم السعودية بنسبة ٢٠ في المئة من نفقات « قوات الردع » وكذلك الكويت ، وان تكون مساهمة الامارات العربية بنسبة ١٥ في المئة ، وقطر ١٠ في المئة •

وكان ابرز ما سجل في اليوم الاخير للمؤتمر مساعي رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية من اجل حمل مصر والكويت على المشاركة ، ولو رمزيا ، في « قوات الردع » ، لايجاد توازن على الساحة اللبنانية ، الامر الذي يطمئن الحركة الوطنية اللبنانية التي كانت علاقاتها مع سوريا تمر في مرحلة حساسة• ولقد رغبت المقاومة في ان تشترك مصر بقوة رمزية توضع في اماكن محددة (المطار ، المرفأ ، طريق الشام ••• الخ) لتعطي الطرف الوطني نوعا من الاطمئنان• وكانت منظمة التحرير قد عملت من قبل على اطالة اجتماعات وزراء الخارجية العرب الذي سبق قمة القاهرة ، وساهم في اطالة الاجتماعات رئيس الدورة الحبيب الشطي وزير خارجية تونس ، الا ان المساعي الفلسطينية لم تكلل بالنجاح •

ولعل اهم ما توصلت اليه قمة القاهرة، هو وضع حد للخلافات العربية التي كانت تغذي الحرب في لبنان ، وتثبيت وقف اطلاق النار · ولكن المجتمعين لم يذكروا في بيانهم شيئا عن الجنوب ، ولم يتخذوا اي قرار بالنسبة الى الوجود العسكري السوري ، وعودة المهجرين (لبنانيين وفلسطينيين) الى مناطقهم ، وطريقة تطبيق اتفاق القاهرة ، ونسبة اشتراك كل دولة عربية في « قوات الردع» · ويبدو ان السبب الكامن وراء ذلك هو رغبة الملوك والرؤساء في تقديم الخطوط العريضة للحل ، وتحميل الرئيس سركيس مسؤولية حل الامور التفصيلية باسم الشرعية ، واستنادا الى « قوات الردع » الموضوعة تحت تصرفه ·

واخذ اتفاق القاهرة بموجب قرارات القمة ، صفة الضمان العربي لتنفيذه ، وتشكلت لهذه الغاية لجنة ضمت : الفريق اول علي الشاعر سفير السعودية ، واحمد لطفي متولي سفير مصر ، والعقيد محمد الخولي ممثل الجمهورية العربية السورية ، وعبد الحميد البعيجان سفير الكويت · وكان اخطر ما يواجه هذه اللجنة التصلب الاسرائيلي ازاء عودة المقاومة الى الجنوب (تطبيقا لاتفاق القاهرة) ، ومعارضة القيادات اليمينية لتطبيق اتفاق القاهرة الذي تعتبره لاغيا بفعل الحرب وتطوراتها ، ومطالبتها بمنع عودة الفلسطينيين ، حتى كلاجئين ، الى مخيمات تل الزعتر وجسر الباشا وضبيه·

ومن الجدير بالذكر ان رئيس الحكومة رشيد كرامي رافق الرئيس سركيس الى القاهرة هذه المرة (على اساس المشاركة)· وكان من المفروض أن يطرح رئيس الحكومة مسألة نوقشت في الاوساط الاسلامية بعد مؤتمر القمة السداسية ، وهي وضع « قوات الردع» تحت تصرف الرئيس سركيس مباشرة ، وليس تحت تصرف رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة معا · ولقد اعتبرت الاوساط الاسلامية هذا القرار مخالفا لمبدأ المشاركة ومناقضا للاعراف التي سار عليها الحكم في لبنان منذ الاستقلال · ولكن الملوك والرؤساء اقنعوا رئيس الحكومة بضرورة عدم الوقوف عند هذه النقطة في الظروف المضطربة السائدة التي تتطلب مركزية في اتخاذ القرار ، واعربوا عن ثقتهم المطلقة بحياد الرئيس سركيس الذي يمثل البلاد كلها ، ولا يعتبر نفسه ممثلا لطائفة واحدة ·

وربحت سوريا في المؤتمر عدة نقاط ، اذ لم يتخذ المؤتمر قرارا بسحب قواتها من لبنان ، كما لم يحدد بالضبط نسبة اشتراكها في « قوات الردع » ، واعطى وجودها في لبنان شرعية عربية قال عنها مصدر مسؤول في التجمع الاسلامي في ٢٧ ـ ١٠ ـ ١٩٧٦ : « ان الحرج الذي كان يواجه الزعماء المسلمين بالنسبة الى الوجود العسكري السوري في لبنان قد زال بعد مؤتمر القمة نظرا لان الملوك والرؤساء العرب قد سكتوا عنه بعد ما عارضوه قبلا ، واصروا على وضع « قوة الردع » بامرة الرئيس سركيس وحده بدون مشاركة ، وقد تركوا لرئيس الحكومة امر التفاهم في المشاركة العامة في الحكم وفي طريقة تحقيقها مع رئيس الجمهورية»·

تشكيل قوات الردع ومهامها

في اليوم الاخير لمؤتمر القاهرة ، تحدث الامين العام للجامعة العربية باسم الملوك والرؤساء ، وقال بان « قوات الردع » ستكون بمثابة « قوة امن » في مرحلة اولى ، و « قوة ردع » في مرحلة ثانية ، وان على اي بلد عربي يريد المشاركة في « القوة » التوجه مباشرة الى الرئيس سركيس ·

ولكن عدد الدول المؤهلة لارسال القوات تحدد بشكل واضح عندما شددت مصر على عدم المشاركة في « قوات الردع » ، وحذت حذوها دول المغرب العربي والكويت وقطر واليمن الجنوبية · واستبعدت ليبيا والجزائر والعراق والاردن بسبب التحفظات التي اخذ بها مؤتمر القمة · وعلى هذا الاساس اصبحت الدول المؤهلة لارسال القوات هي : سوريا، والسعودية ، والسودان ، واليمن الشمالي ، ودولة الامارات فقط · ومن المعروف ان عدد القوات المسلحة لهذه الدول هو (حسب التسلسل المذكور) : ٢٢٧٠٠٠ ، و ٥١٥٠٠ ، و٥٢٦٠٠ ، و ١٨٨٠٠ رجل · وهذا يعني ان القوة الاساسية في قوات الردع ستكون سورية بالضرورة ·

وفي ٢٧ ـ ١٠ ـ ١٩٧٦ ، اشار وزير الاعلام السوري الى موقف سوريا من تشكيل « قوات الردع » ، وذكر ان سوريا مستعدة لتحويل قواتها على الاراضي اللبنانية الى جزء من « قوات الردع » وتشكيل العمود الفقري لهذه القوات ·ولقد حصل ما توقعه وزير الاعلام السوري واصبحت « قوات الردع » ، كما سنرى ، تضم اكثرية سورية ، بالاضافة الى وحدات من السعودية والسودان ودولة الامارات واليمن ·

ولقد حدد الملوك والرؤساء في مؤتمر الرياض بكل دقة المهمة العملية الملقاة على عاتق هذه القوات وهي تتمثل بما يلي :

١ ـ فرض الالتزام بوقف اطلاق النار والعزل بين القوات المتحاربة ·

٢ ـ تطبيق اتفاق القاهرة خلال ٤٥ يوما ·

٣ ـ حفظ الامن الداخلي في مختلف المناطق اللبنانية ·

٤ ـ ازالة المظاهر المسلحة وفق جدول زمني محدد ·

٥ ـ الاشراف على انسحاب المسلحين الى الاماكن التي كانوا فيها قبل بدء الاحداث في ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ ·

٦ ـ جمع الاسلحة الثقيلة والعربات المدرعة ·

٧ ـ مساعدة السلطات الشرعية اللبنانية على تسلم المؤسسات والمرافق العامة ·

٨ ـ اعادة الحياة الطبيعية الى لبنان كما كانت في ١٣ـ٤ـ١٩٧٥ ·

٩ ـ فتح الطرق الدولية خلال خمسة ايام وتسيير الدوريات عليها ·

وهكذا احبطت قرارات القمة فكرة التقسيم ، ووضع العرب تحت تصرف رئيس الجمهورية قوة قادرة على فرض وقف القتال ومكنفة به ، حتى لو اضطرها ذلك الى استخدام العنف ·

المواقف والتنفيذ :

في يوم ٢٨ ـ ١٠ بدأ تسريع اجراءات تطبيق ما تأخر من بنود اتفاق الرياض ، من سحب قوات ، وازالة المظاهر المسلحة، وفتح الطرق ··· الخ · واخذت المقاومة الفلسطينية تسحب قواتها من الجبل بكثافة وتدفعها الى الجنوب تطبيقا للاتفاق المذكور · ولقد وافقت المقاومة والحركة الوطنية على ان تدخل « قوات الردع » المناطق التي تسيطر عليها ·

وعندما كانت قوات المقاومة تنسحب من الجبل وتتعاون مع الحركة الوطنية لازالة المظاهر المسلحة في المدن ، عقدت « قيادة القوات الانعزالية » الموحدة في مساء ٢٨ ـ ١٠ اجتماعا في مقر حراس الارز ·

اشترك فيه ممثلون عن الكتائب والتنظيم، والاحرار والجيش اللبناني وحراس الارز، والدرك والامن العام ، والمدعي العـــام العسكري · وقرر المجتمعون انشاء «مجلس امن قومي » يتولى مهمة الحفاظ على الامن في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم ، ورفض دخول اي قوة عربية الى هذه المناطق · وجاء هذا الرفض على اساس ان المؤتمرات العربية ، وخاصة مؤتمـــري الرياضـــ والقاهرة ، اعتبرت ان هنـــاك فريقيـــن متنازعين في لبنان ، بينما اعتبر المجتمعون ان هناك لبنانيين « وغرباء » معتدين ، ومهمة قوى الامن العربية ينحصر في رد « الغرباء » المحتلين وردعهم عن اللبنانيين المقيمين في بيوتهم · وتطرق المجتمعون الى بحث احياء المخافر ، وتسليح قوى الامن ، وانشاء قوة عسكرية رادعة ، وتسليـــم الحواجز الى السلطات الامنية ، ومنـــع تدخل عناصر الاحزاب والمنظمات المسلحة في الشؤون الامنية الداخلية الا بناء علـى طلب السلطات المختصة · وتوحيد جهـاز الاستقصاء الخاص بتقصي الجرائم ، ولا سيما الجرائم التي تمس سلامة الوطـــن وامن « القوات الانعزاليـة » · وكـــان المجتمعون يتصورون ان « قـوات الردع » ستتحرك على محور واحـــد ، وتقبـل مشاركتهم في الحفاظ على الامن ·

وبرز خلاف جديد مـــع بـــدء تنفيـــذ القرارات ، على « من يبدأ التنفيذ ؟ » ورأى اركان « جبهة الكفور » ان يبـــدأ الفلسطينيون اولا لاظهـار حسن نياتهم ، وبعدها تباشر الجبهة بالتنفيذ · ورفضـت المقاومة والحركة الوطنية تجزئة التنفيذ · واقترحت انسحابات شاملة ومتوازنـــة ، على ان يتم فتح الطرق وتأميـــن سيـــر المرافق العامة دفعة واحدة وبمبادرة كـلا الطرفين ، كي تحل « قوات الردع » محـل المنسحبين ·

وازاء هذه المشكلة التنفيذية واستمـرار تبادل النيران ، وضع الرئيس بالتعـاون مع اللواء غنيم خطة عمل تضمن عـــودة الاوضاع الى طبيعتها ضمن جدول زمنـي معين · ولكن الرئيس اثر اعداد المنـــاخ اللازم لتنفيذ الخطة قبل البدء بوضعهـا موضع التطبيق ، حتى يضمن النجاح وعدم الاحتكاك · وكان عليه ان يتريث حتى يتـم تشكيل « قوات الردع » واستكمال الوحدات المشتركة فيها · وبادر الاميـــن العـــام للجامعة العربية في ٣٠ ـ ١٠ بتوجيـــه رسائل الى الحكومات المشتركة في « قوات الردع » طالبا الاسراع في ارسال هـــذه القوات ·

وبدا الوضع في مطلع تشرين الثانـــي غامضا · فقرارات القمة لم توقف اطلاق النار ، و « قوات الردع » لا تزال بعيـدة عن لعب دورها كعنصر ضاغط على الموقف · وتصلب موقف العراق ازاء مقررات القمة، وسحـــب فـــي ١ ـ ١١ رئيس البعثـة الدبلوماسية العراقية في دمشق ، واذاعت سوريا ان دوريات عسكرية عراقية كثيفـة ظهرت على الحدود العراقية السورية ·

وفهم انصار استمرار القتال تمهـــل الرئيس بشكل خاطىء · فتابعوا التراشق بالمدفعية ونصب المتاريس على الطرقات · ولم يعوا جيدا تصريح ممثـل الجامعـة العربية د · حسن صبري الخولي « بأن قوة الردع ستعمل بشكل عادل وعلى جميع الاراضي اللبنانية ، وانه لن يكون هناك تساهل بالنسبة الى السلام » وان الخطـة الامنية « ستنفذ بالحسنى او بالقوة » · وكانوا يعتقدون ان بالامكـان تسخيـــن الوضع من جديد ،وقضم السلام بالتدريج ·

وفي مرحلة اعداد الاجواء الملائمة لعمل قوات الردع ، حاولت المقاومـة والحركة الوطنية اقناع الدول العربية بارسال اكبر عدد ممكن من القوات ·كما حاولت« القوات

الانعزالية » اقناع الرئيس سركيس بعدم ادخال قوات عربية الى مناطقها · وعندما ظهر واضحا ان « قوات الردع » ستدخل كل المناطق بلا استثناء ، وبشكل متوازن وعادل ، تباينت الآراء في « الجبهة الانعزالية » ، فوافقت الكتائب والرئيس السابق فرنجية على الخطة ، وتحفظ الاحرار ، وهدد حراس الارز باللجوء لمنع اية قوة عربية من الدخول الى مناطق « الجبهة اللبنانية » ·

ووقع في ليلة ٣ ـ ٤ تشرين الثاني تصعيد مفاجىء على جميع محاور العاصمة ، ورغم اكتمال وضع الخطة الامنية منذ ٢ ـ ١١ فان « قوات الردع » لم تتدخل ، وبقيت في مواقعها بانتظار تكاملها · وفي الرابع من تشرين الثاني عين الرئيس سركيس العقيد الركن احمد الحاج قائدا « لقوات الردع العربية » ، وبدأ العقيد الحاج اتصالاته النهائية لتحريك هذه القوات · وفي مساء ٧ ـ ١١ ـ ٧٦ وجه الرئيس سركيس رسالة الى اللبنانيين ، عبر محطات الاذاعة والتلفزيون ، تحدث فيها عن طبيعة المهمة الموكولة الى « قوات الردع » المؤلفة من قوات الامن العربية التي دخلت لبنان في حزيران ١٩٧٦ (٢٥٠٠ جندي سعودي وليبي وسوداني)، و ١٠٠٠ جندي سعودي اخرين ، و ٥٠٠ جندي من دولة الامارات العربية المتحدة ، و ٥٠٠ جندي من اليمنيين ، و ٦٠٠ جندي سوداني جاؤوا لدعم الوحدة السودانية ، و ٢٠٠٠٠ جندي سوري ·

وفي ٨ ـ ١١ حشد السوريون في منطقتي عاليه والمتن الشمالي قطعاتهم المخصصة للمشاركة في « قوات الردع » ، وكثفوا حشودهم بين المصنع وسفوح الجبال المطلة على البقاع من الناحية الغربية · ووصل التوتر الى ذروته في ليلة ٨ ـ ٩ تشرين الثاني · وكانت القوة العسكرية العربية تراوح في مكانها بانتظار اشارة البدء · وهنا اعلنت دمشق « بان تاخر قوة الردع لن يحول دون البدء بتنفيذ الخطة الامنية ، حتى لو اضطرت سوريا الى تغطية النقص العسكري الحاصل بسبب هذا التاخر » ·

وفي مساء ٩ـ ١١ ، وبعد تلقي اوامر الرئيس سركيس ، بدأت «قوات الردع» تحركها على محورين : عاليه ـ الحازمية (على مشارف بيروت) ، وعينطورة ـ المتين ـ الزعرور ـ ضهور الشوير · وكانت اولى مهماتها : انهاء المظاهر المسلحة ، وفتح الطرق · وطلب قائد « قوات الردع » العقيد الركن احمد الحاج من الجميع تسهيل مهماتها اذ انها ستضطر الى استخدام العنف اذا دعت الضرورة الامنية لذلك · وقابلت « جبهة الكفور » دخول القوات بالاضراب واغلاق المتاجر احتجاجا على الدخول اليها· واخذ الرئيس سركيس على عاتقه توازن تصرفات « قوات الردع»، وطمأن اقطاب جبهة الكفور بانه ليس هناك داع لتخوفهم ، وان القوات ستدخل جميع المناطق بلا استثناء ·

وفي ١٠ ـ ١١ تمركزت القوات في النقاط المحددة لها ، واتمت مهمتها دون اي حوادث تذكر ، ثم استمرت في تدعيم مواقعها خلال يوم ١١ ـ ١١ ، وقد اصبح طريق بيروت ـ دمشق الدولية سالكا بينما وصل عاليه في اليوم نفسه لواء سوري لتعزيز القوات المتقدمة ، وخفت الاشتباكات الى ادنى حد وصلت اليه خلال الاحداث ·

وتلا ذلك توقف استمر حتى بدء المرحلة الثانية في فجر ١٥ ـ ١١ ، حيث تقدمت وحدات من « قوات الردع » حتى بيت الدين ودير القمر ، بينما تحركت وحدات اخرى على ثلاثة محاور هي : الحازمية ـ برج البراجنة ـ المطار · والحازمية ـ

الشياح ـعين الرمانةـ الاسواق التجارية ـ منطقة الفنـادق · وضهـور الشوير ـ بعبدات ـ برمانا ـ المكلس ـ الاشرفية وانتهى تمركز القوات في النقاط الحساسة من العاصمة في حوالي الساعة العاشرة· دون حوادث تذكر ، سوى تدمير مربض رشاش ثقيل اطلق النار على « قـوات الردع » من بناية فتال · وفـي اليـوم التالي استقبل مطار بيروت اول طائـرة تابعة لشركة طيران الشرق الاوسط ·

وبانتهاء المرحلة الثانية من الخطـة الامنية اختفت المظاهر المسلحة في منطقة تواجد « قوات الردع » التي بدأت تعـزز مواقعها ، وتؤمن حراسة المرافق الهامة · وفي ٢٢ ـ ١١انتهت المرحلة الثالثة بدخول طرابلس وصيدا · وبدأ الاعداد لتنفيـذ بقية قرارات القمة (جمع السلاح الثقيل، تنفيذ اتفاق القاهرة ، استلام المؤسسات والمرافق العامة اعادةبناء لبنان ···الخ)·

ومن الجدير بالذكر ان الامن سـاد المناطق التي دخلتها « قوات الـردع » ، وعادت عجلة الحياة الطبيعية فيها الـى الدوران بشكل افضل من ذي قبل ، وزال التوتر والمظاهر المسلحة في هذه المناطـق رغم استمراره في جنوبي لبنان ، حيـث تابع الجيب اليميني تعامله مع اسرائيـل (اقتصاديا وعسكريا) ، وتعزيز مواقعه الدفاعية استنادا الى الوجود الاسرائيلي غير المرئي ، الامر الذي اقلـق الملـوك والرؤساء العرب ، ووضع صعوبة جديدة امام تنفيذ قرارات القمة ·

وعندما انتهى العام ١٩٧٦ كان الجنوب يشكل بؤرة غير آمنة تماما ، واستمـرت المجابهة غير الساخنة بين قوات الطرفين· ولقد كان بالامكان تصفية هذا الجيب ، وخاصة بعد ان حشدت المقاومة والحركة الوطنية قواتها حوله · كما كان بامكـان قوات الردع اعادة الامور الى نصابهـا واغلاق « السياج الحسن » الذي فتحتـه اسرائيل لتحقق كسبا دعائيا ولتضمـن التعامل مع جيرانها وسط بحر العداء الذي يحيط بها · ولكن الموقف الاسرائيلـي المتشدد ازاء سيطرة المقاومة على الجنوب او دخول قـوات عربيـة كثيفة اليه ، والاتصالات الدولية الرامية الى تهدئـة الموقف الذي يمكن ان يتطور ويصبح شرارة اندلاع حرب عربية ـ اسرائيلية ، واصرار الصهاينة على ان لا يدخل الجنوب سـوى وحدات من الجيش اللبناني المـذي لـم يستكمل بناءه ، فرضت تجميد الاوضاع في الجنوب بانتظار قرار من الرئيس سركيس·

عصام الجزار

-١-
عن الازمة الحكومية
وتقديم الانتخابات

في ١٩٦٩/٩/٥ وفي الساعة ١٧ر٤٠ من مساء يوم الجمعة وقبل حلول يوم السبت بعشرين دقيقة كما هو المفروض ، هبطت اول دفعة من طائرات الفانتوم التي زودتها الولايات المتحدة لاسرائيل ، في احدى القواعد العسكرية . وقد استقبلت الحكومة الاسرائيلية هذه الطائرات ، باحتفال رسمي حضرته رئيسة الحكومة جولدا مئير ووزير الدفاع موشي ديان ووزير الخارجية ابا ايبان ، آنذاك ، وقد مر هذا الحادث دون الاعلان عنه ، ودون ان يثير في حينه اي جدل سواء كان ذلك داخل الحكومة نفسها، او داخل الكنيست، « بسبب المساس بقدسية السبت وتدنيسه» على الرغم من ان الحكومة التي كانت قائمة آنذاك ، كانت حكومة ائتلافية وتضم وزراء عن كتلة « ليكود » المعارضة ،وكتلة المفدال الدينية ·

وفي تاريخ ١٩٧٦/١٢/١٠ وفي الساعة ١٥ر٢٥ من مساء يوم الجمعة وقبل حلول يوم السبت بسبع واربعين دقيقة، هبطت اول دفعة من طائرات الـ ف ١٥ التي تزودها الولايات المتحدة الآن لاسرائيل ، وفي قاعدة عسكرية بالقرب من القاعدة نفسها التي هبطت فيها طائرات الفانتوم · وقد استقبلت هذه الطائرات هي الاخرى « باحتفال رسمي حضره كل من رئيس الحكومة اسحق رابين ورئيس الاركان الجنرال مردخاي غور ، وقائد سلاح الطيران الكولونيل بنيامين بيلد ، بالاضافة الى ٣٠٠٠ مدعو » · (دافار ١٢-١٢-٧٦ ، ر١٠١٠ ١٤-١٢-٧٦) ·

والفارق بين الحدثين ، انه بينما التزم الاعلام الاسرائيلي الرسمي وغير الرسمي ، الصمت ، ودون ان تعقب على ذلك اية كتلة سواءكانت مؤتلفة اومعارضة وسواء كان ذلك من الناحية السياسية او الدينية للمساس بقدسية السبت ، الذي سببه الاستقبال الرسمي الذي اقيم من اجلها حينه ، نرى ان هبوط طائرات الـ ف ١٥ في الحالة الثانية ، وحفل الاستقبال الاستعراضي الذي اقيم من اجلها فيذلك الوقت، نرىان هبوط طائرات الصحف الاسرائيلية الصادرة يوم الاحد في ١٢-١٢-٧٦ ، مصحوبا بالضجة التي اقامتها الاحزاب الدينية بما فيها حزب «المفدال» الائتلافي ، احتجاجا على انتهاك حرمة السبت ، والتي وصلت اوجهابتقديم « الكتلة الدينية التوارتية » مشروع اقتراح لحجب الثقة عن الحكومة في الكنيست ، وهو الاقتراح الثاني عشر منذ تشكيل حكومةرابين قبل ثلاث سنوات·

وكان من الممكن ان يمر الاقتراح على هذا الاقتراح لحجب الثقة عن الحكومة، ككل الاقتراحات السابقة له ، والتي انتهى الحديث عنها بمجرد سقوطها في الكنيست، لولا ذلك التطور الدرامي للاحداث ، بعد ان اعلنت كتلة « المفدال » الائتلافية ،والتي

تشارك في ثلاث مناصب وزارية في حكومة رابين ، عن نيتها الامتناع عن التصويت ضد الاقتراح في الكنيست ، على الرغم من التفاهم الذي تم بين كل من رئيس الحكومة اسحق رابين ويجال الون ، وبين الوزراء المفداليين في الحكومة ، على الاكتفاء بالاعتذار الذي صدر عن اسحق رابين في جلسة الحكومة في ٧٦/١٢/١٢ . الا ان كتلة « المفدال » قررت في اجتماعها الطارىء بعد التصويت الذي جرى داخل الكتلة ، وباكثرية ٩ الى ١ (وزير الداخلية يوسف بورج)، معلنة « نحن لم نبادر بطلب سحب الثقة من الحكومة ولكن الوضع الذي نشأ يحتم علينا الامتناع عن التصويت » (ر١٠١٠ ٧٦/١٢/١٣) وهذا يعني ان الحكومة ستواجه اقتراح حجب الثقة ، وهي تفتقد لعشر من الاصوات المؤيدة ، مما خلق ازمة وزارية داخل الحكومة .

وكانت كتلة « ليكود » قد عقدت اجتماعا طارئا لبحث الموقف المستجد ، يحدوها امل كبير باسقاط الحكومة هذه المرة ، بعد اعلان « المفدال » عن موقفه . محاولة اضافة جوانب رسمية على اقتراح حجب الثقة ، وذلك بهدف تأييد الاقتراح على نطاق واسع ، وليس بقضية ذات طابع ديني محض . كما واصبح واضحا ان جميع الكتل الصغيرة ستصوت مع « الجبهة الدينية التوارتية » و « ليكود» مؤيدة سحب الثقة من الحكومة مقابل « المعراخ » وكتلة الاحرار المستقلين الائتلافية ، مما سيجعل الفرق بين مؤيديها وبين معارضيها ضئيلا جدا ، لا سيما وان كتلة الاحرار المستقلين ، كانت قد لوحت بالانسحاب من الائتلاف ومن الحكومة قبل اسبوع واحد فقط من بداية الازمة ، اذا لم يستجب « المعراخ » لطلباتها بشان تعديل قانون التأمين الصحي والعمل، واجراء اصلاحات في بنية الحكومة والوزارات .

ولذا فقد سارع اسحق رابين مصحوبا بوزير العدل حاييم تسادوك ، للاجتماع بوزراء «المفدال» مرة اخرى ، يوسف بورج واسحق رفائيل وزفولون هامر . في محاولة يائسة من اجل تغيير موقف حزبهم ، الا ان وزيري المفدال اسحق رفائيل وزفولون هامر قالا ان « جميع الايضاحات التي قدمها رئيس الحكومة ، من ان حفل الاستقبال قد انتهى قبل حلول السبت ، واعتذاره امام الحكومة ، قد اقنعتهما بعدم التصويت ضد الحكومة ، ولكنهما يريان ان من واجبهما الامتناع عن التصويت على الاقل » (هاتسوفيه ، دافار ٧٦/١٢/١٤ ، ر١٠١٠ ٧٦/١٢/١٥) .

واصبح واضحا ان « المفدال » ستمتنع عن التصويت وان « ليكود » سوف تعطى فرصة للتحدث في المناقشة العامة التي اقرتها لجنة الكنيست ليوم ٧٦/١٢/١٤ ، وتجيير عدم الثقة من قبل المتدينين الى الناحية الرسمية ، باتهامها الحكومة « باستغلال التفوق الرسمي . وشراء الاسلحة ، وفقدان كرامة الحكومة » (ر١٠١٠ ٧٦/١٢/١٥) .

وهكذا ، فان الازمة الوزارية تحولت من امر ديني يتعلق بانتهاك حرمة السبت ، الى امر سياسي بحت ، وراحت جميع الكتل المختلفة في الكنيست تجند كل قواها استعدادا للاقتراع على اقتراح حجب الثقة عن الحكومة ، مما حدا بالحكومة استدعاء وزير الدفاع شمعون بيرس من الولايات المتحدة وباقي اعضاء الكنيست في الخارج استعدادا لهذه الهجمة المعارضة الجماعية . وقد علقت صحيفة يديعوت احرونوت في عددها الصادر يوم ٧٦/١٢/١٣ انه « اتضح ان الموضوع الذي سيطرح اليوم للتصويت ، ليس تدنيس السبت ، كما انه ليس سبب الخلاف بين المعارضة والحكومة » ، وربما كان في ذلك تلميح للرغبة الاميركية ـ والتي كثر

الحديث عنها في الصحف الاسرائيلية قبل الازمة الوزارية ـ في تقديم الانتخابات الاسرائيلية للكنيست التاسع ، وصولا الى حكومة بديلة غير حكومة الاقلية ، تكون قادرة على اجراء المفاوضات واتخاذ القرارات عشية انعقاد مؤتمر جنيف للسلام ، دون ان تكون هذه الحكومة اسيرة لمشيئة الاحزاب الصغيرة في الائتلاف ، والتي قد تكون حجر عثرة امام التطورات السياسية الجديدة للولايات المتحدة في الشرق الاوسط · او ربما كان ذلك للاسباب التي طرحتها صحيفة دافار الرسمية ، بأن هذا الاقتراح الذي قدمته كتلة « الجبهة الدينية التوراتية » هو ، بدون شك ، اقتراح مغيظ وان « كل المقصود منه هو احراج المفدال عشية المعركة الانتخابية المرتقبة في الشارع الديني ، ولو كان همها الموضوع نفسه لاكتفت بتوضيح رئيس الحكومة وتعبيره عن اسفه ، اذا ما كان قد تسبب في اي تدنيس للسبت ، ولكن لان همها كان محض سياسي ، فانها سترفع اقتراحها اليوم في اجتماع الكنيست » (دافار ٧٦/١٢/١٤) ·

وقد قدم الاقتراح عضو الكنيست لكمان كهانا عن «الجبهة الدينية التوارتية ،مدعيا انه قد وصل الى اسرائيل سلاح في الماضي، ووصلت طائرات ولكن « لماذا في هذه المرة جرى تدنيس للسبت ، وجرى المس بكرامة الاشخاص ؟ ولماذا اقيم ذلك الاحتفال الاستعراضي ؟ » (دافار ، هآرتس ، عل همشمار ، ر٠١٠ ٧٦/١٢/٢٥) واضاف قائلا انه « لا يمكن منح الثقة لحكومة تكون على استعداد لتدنيس حرمة يوم السبت في حفل رسمي ، وتكون على استعداد لتضليل من حذروها من ذلك سلفا ، لا لشيء سوى القيام بعمل استعراضي ، هناك شك كبير ، في وجود ما يبرره ، حتى ولو لم يتضمن الامر تدنيس يوم السبت » (المصدر نفسه) ·

وبدا رئيس الحكومة اسحق رابين رده، معلنا ان اقتراح حجب الثقة يرتكز على افتراض خاطيء ، وانه لم يكن ثمة تدنيس لحرمة السبت في استقبال طائرات الـ ف ١٥ · وعلى الرغم من ذلك اعرب عن اسفه اذا ما كان الاحتفال قد سبب لاي كان بتدنيس السبت · اما لماذا الاعلان عن امر وصول الطائرات ؟ فقد دافع رابين عن ذلك بقوله « كان ذلك مناسبة ان نقول لشعبنا ولاعدائنا وللعالم كله ، اننا اقوياء ، وعلينا ان نعمق ذلك بشكل واع ، لا ان نزرع الارتباك ونظهر عدم الثقة ، فان ثمة ثقة بقوتنا حين يكون لدينا القوة ولدينا الوسائل » (دافار ٧٦/١٢/١٥) · ثم تطرق رابين الى الاحتفال الرسمي الذي اقيم عام ١٩٦٩ لاستقبال طائرات الفانتوم في ظروف مشابهة في محاولة لاربك اعضاء « ليكود » قائلا « وانا اعرف انه في ليكود يوجد اعضاء كنيست الان ،كانوا وزراء في تلك الحكومة ، فاذا كانوا يعتقدون بان سبعا واربعين دقيقة ليست وقتا كافيا بين هبوط الطائرات وحلول السبت ، وان العشرين دقيقة كافية ، فانا استغرب ذلك ! » (المصدر نفسه) ·

وعلى ذلك رد عضو الكنيست الليكودي يوسف تمير « سيدي الرئيس ، إذا كنت لم تنجح في اقناع زملائك في المفدال ، بان الحق معك ، فكيف ستستطيع اقناع الشعب والكنيست ؟» (المصدر نفسه) ، وانهى خطابه بالشعار التقليدي لليكود بأن « الحكومة تفتقر الى عمود فقري، وتسودها النزاعات الداخلية ، ولذا فان حزب ليكود، سيحجب ثقته عن الحكومة » (المصدر نفسه) ·

أما عضو الكنيست المفدالي سيمحا فريدمان، فقد عبر عن اسف حزبه «المفدال» لامتناعه عن التصويت على اقتراح حجب الثقة عن الحكومة وهذا من خلال الاحتجاج « على اهانة يوم السبت التي

نجمت عن الاستقبال الذي جرى لطائرات ف ـ ١٥ الثلاث ، وبسبب الاهانة التي وجهت للعقل الانساني ايضا ، بواسطة من يريد اقناع الآخرين بان العملية كما نظمت ، لها طابع خاص » · (دافار ، هاتسوفيه ، ر١٠١٠ ٧٦/١٢/١٥) ·

وهكذا سقط اقتراح « الجبهة الدينية التوارتية » لحجب الثقة عن الحكومة هذه المرة ايضا ، باكثرية ٥٥ صوتا للمعراخ والاحرار المستقلين والاقليات وعضو الكنيست ك· هليفي والوزير المفدالي يوسف بورج ، الذي خرج على قرار حزبه وصوت ضد الاقتراح مع الحكومة ، مقابل ٤٨ صوتا لليكود والجبهة الدينية التوراتية ، وركاح ، والمركز الحر، وداتس ، والاشتراكيين المستقلين وموكيد، وامتناع تسعة من اعضاء كتلة المفدال بينهم الوزيران اسحق رفائيل وزفولون هامر ·

ورغم ان هذه النتيجة كانت متوقعة تقريبا ، الا ان الاقتراع على اقتراح حجب الثقة هذه المرة ، وضع بعض علامات السؤال بالنسبة لمدى قدرة «المعراخ» على تنفيذ الانضباط الائتلافي، اذ ان التمرد الجماعي لاعضاء كتلة « المفدال » في الكنيست ، بما فيهم الوزيران في الحكومة الائتلافية اسحق رفائيل وزفولون هامر على « المعراخ » بامتناعهم عن التصويت ضد اقتراح حجب الثقة ، قد كشف مدى تعلق مصير الحكومة بهذه الكتلة ، وقد عقب عضو الكنيست المفدالي يهودا بن مئير على نتائج الاقتراع « لقد انقذنا الحكومة ولو اننا صوتنا ضدها لسقطت » (ر١٠١٠ ٧٦/١٢/١٧) ·

ثم ماذا كان سيحدث ، لو ان الاحرار المستقلين في الائتلاف ، قد تركوا الحكومة كما هددوا من قبل ؟ فلو اقترع اربعة من كتلة الاحرار المستقلين ضد الحكومة، او حتى اربعة اعضاء من حزب « العمل» نفسه من الذين يعارضون حكومة رابين ، لسقطت ايضا بسبب صوت واحد ·

والاكثر من ذلك انه اتضح بشكل قاطع ، ان الرغبة في تغيير الحكومة ، ضمت هذه المرة جبهة برلمانية عريضة . وبغض النظر عن الموضوع المطروح كسبب لاقتراح حجب الثقة · وعلى هذا علقت صحيفة يديعوت احرونوت ، في عددها الصادر يوم ٧٦/١٢/١٥ بان « قضية المراسيم ويوم السبت استخدما كذريعة للتعبير عن خيبة امل الجماهير من هذه الحكومة بالذات ، فان الجميع قد سئموا منها » · وتمضي الصحيفة الى القول انه « طيلة الـ ٢٩ عاما التي انقضت منذ قيام الدولة ، لم يحدث ان اتحدت قوى مختلفة جدا ، ومتعارضة جدا ، في جبهة واحدة ضد قادة الدولة كما يحدث الان ، (يديعوت احرونوت ٧٦/١٢/١٥) ·

اما صحيفة معاريف فقد علقت بقولها « ان الحكومة خرجت من اختبار حجب الثقة باغلبية ضئيلة ، لكنها اكبر مما كان متوقعا » (معاريف ر١٠١٠ ٧٦/١٢/١٥) · واضافت الصحيفة انه «باستطاعة اعضاء كتلة المفدال في الكنيست الجلوس بهدوء ، والا يتوقعوا اية عقوبة، ردا على انتهاكهم للانضباطية الائتلافية ، وذلك لانه ليس في مقدور رئيس الحكومة، تشكيل ائتلاف آخر » (المصدر نفسه) ·

وكانت الصحيفة تشير بذلك الى امتناع كتلة « المفدال » نفسها حين كانت في حكومة جولدا مئير الائتلافية ، عن الاقتراع ضد اقتراح حجب الثقة الذي رفعته كتلة « اجودات يسرائيل » بالنسبة للبث التلفزيوني في تاريخ ٦٩/٥/١٩ دون ان تجرؤ رئيسة الحكومة انذاك جولدا مئير على الرغم من انها كانت اقوى من رابين، على اتخاذ اية اجراءات عقوبية ضد وزراء « المفدال » بحكم قانون الانتقال لعام ١٩٤٩ ، الذي ينظم مسالة الانضباطية

الائتلافية · اذ ينص هذا القانون على ان الوزير الذي يقترع ضد الحكومة او يمتنع عن تأييدها ، هو بحكم المستقيل من منصبه ، اذا ما اخطر الكنيست خلال اسبوعين بذلك ، اي ان الوزيرين المفداليين رفائيل وهامر ، يكونان بحكم المستقيلين من الحكومة ، وفق هذا البند من القانون ،اذا اراد اسحق رابين تطبيقه ـ ويوافق على ذلك فورا · كما وينص قانون الانتقال ، بالنسبة للكتلة البرلمانية المشاركة في الائتلاف الحكومي ، على ان الاقتراع ضد الحكومة او الامتناع عن الاقتراع هو بحكم انشقاق هذه الكتلة عن الائتلاف ، ووزرائها من الحكومة ، اذا ما قررت الحكومة ذلك خلال اسبوع من يوم الاقتراع شريطة ان تعلن للكنيست عن ذلك خلال اسبوعين ·

والمعنى العملي لتطبيق هذه البنود هو تقديم الانتخابات ، اذ لن يكون للحكومة اكثرية في توازن القوى البرلمانية الذي نجم عن الازمة ، اذا ما انضمت كتلة « المفدال » المقالة للمعارضة ، وهذا معناه ان الحكومة تستطيع الاستمرار في الحكم كحكومة انتقالية ، حتى اجراء الانتخابات قبل موعدها القانوني ·
الا ان اسحق رابين وخلافا لكل التوقعات، تخطى في جرأته هذه المرة رئيسة الحكومة السابقة جولدا مئير ، ومضى في اللعبة حتى النهاية ، « وقرر تصفية حساباته مع وزراء المفدال على امتناعهم عن التصويت على اقتراح حجب الثقة الاخيرة في الكنيست ، باقصائهم عن مناصبهم » (دافار · هارتس ٧٦/١٢/٢٠) ·

وقد دعا اسحق رابين وزراء «المعراخ» الى عقد جلسة طارئة في ٧٦/١٢/١٩ ، وبحضور رئيس الوكالة اليهودية يوسف الموجي ورئيس الائتلاف بالنيابة عيدي يافي واطلعهم على نيته تطبيق اجراءات ضد وزراء « المفدال » واخراجهم من الحكومة ، حيث دعى وزراء المفدال بعد ذلك واطلعهم على عزمه ، وفي الساعة الحادية عشرة من نفس اليوم ، اجتمعت الحكومة ، وافتتح رابين الجلسة باعلانه عن الوضع الذي نجم عقب امتناع وزراء « المفدال » عن التصويت في الاقتراع الذي تم على اقتراح حجب الثقة عن الحكومة في الكنيست يوم ٧٦/١٢/١٤ ، مقترحا على الحكومة تطبيق قانون الانتقال لعام ١٩٤٩ المذكور ، والذي ينص على ان « حكم اعضاء الحكومة الذين امتنعوا عن التصويت كحكم المستقيلين من الحكومة» (دافار ، هارتس ٧٦/١٢/٢٠) · واوضح رابين ان هذا القرار قد جاء «من خلال الوعي ، ان ليس لحكومة اسرائيل ان تتنازل عن تطبيق القانون وعن كرامتها حتى ولو اثقل هذا الامر على وضعها البرلماني » (المصدر نفسه) ·

وفي نهاية كلامه اقترح اسحق رابين على الحكومة مشروع قرار شكلي مفاده ان « حكم وزراء المفدال ، كحكم المستقيلين من الحكومة اثر خرق المسؤولية الائتلافية » (المصدر نفسه) ، حيث اقر بالاجماع وهكذا كف وزير الداخلية يوسف بورج ووزير الاديان اسحق رفائيل ، ووزير الشؤون الاجتماعية زفولون هامر ، عن اشغال مناصبهم كوزراء في الحكومة ·

وقد رد الوزير زفولون هامر الذي صعقته المفاجأة على هذا القرار بقوله : « ··· لقد كان باستطاعتنا ان نصوت مع اقتراح حجب الثقة ونسقط الحكومة ، ولكننا لم نفعل ذلك لانه لم يكن لدينا اية نوايا جانبية ، ولكن حزب العمل قرر ان يخطو هذه الخطوة ـ على ما يبدو ـ لاسباب تخصه » ، (دافار ٧٦/١٢/٢٠) · واضاف يقول « ان من يظن ان الحكومة ستستطيع الاستمرار بتمثيل احادي فانه مخطيء ، اذ يستحيل عليها ان تمثل الشعب في هذه الفترة ، وفي هذه البلاد، في وضعها غير المتوازن من الناحية السياسية والامنية » (المصدر نفسه)·

اما وزير الداخلية المقال يوسف بورج، فلم يتردد هذه المرة في مهاجمة رئيس الحكومة بشدة من على منبر الكنيست : « ليس لدي شك في ان قرار الحكومة ، لم يتخذ بسبب الرغبة في تقوية الانضباط الائتلافي ، فأية حكومة بقيت بدوننا ؟ وكم هو الوقت الذي ستستمر فيه في الحكم ؟ وكم هو الوقت الذي ستبقى فيه متمتعةبثقة الكنيست والشعب ؟ » (ر٠١٠ ،هاتسوفيه ٧٦/١٢/٢٠) ٠ واضاف يوسف بورج « وانا اقول ان رئيس الحكومة لجأ الى خطوته هذه ، ليس من موقع القوة ، بلمن موقع الضعف ، ومن شدة الضعف عاد به يهرب الى الامام ، نحو الانتخابات المبكرة ٠ انه يهرب الى الانتخابات المبكرة على جناح اقتراح وقرار شبه درامي ، وكأنه يمكن بهذه الوسيلة ، ان يجعل الجمهور ينسى ولو للحظة ، صورة حزبه الذي تنهشه الخلافات الداخلية ، اضافة الى المسؤولية عن تفجر الوضع في مالية الدولة ، وتدهور علاقات العمل ، وتدهور العلاقات مع الهستدروت٠ ان هروبرئيس الحكومة لن يحل له اية مشكلة ولن يعفيه من المسؤولية الثقيلة ، في حين ان الشعب بحاجة الى الاستقرار ، فانه يتسبب في هزة اخرى ، وفي حين ان الحكومة بحاجة الى توسيع قاعدتها ، فانه يشكل حكومة تستند الى قاعدة اضيق ٠٠ هذه هي مسؤولية تاريخية اخذها على عاتقه ولن يستطيع التهرب منها » (المصدر نفسه) ٠

وعلى صعيد الاحزاب بشكل عام ، فقد كانت المفاجأة كاملة من خطوة رئيس الحكومة اسحق رابين ، باستثناء الاحزاب المشاركة في الائتلاف ، والتي علمت بخطوته هذه سلفا ، وكان يبدو ان معظم الاحزاب راضية عن امكانية تقديم الانتخابات ٠ على الرغم من ان هذه الاوساط رأت في خطوة رابين ضربة موجهة لها ، وقطع طريق على اتمام تنظيم نفسها والاعداد للمعركة الانتخابية ٠

اما حزب « ليكود » فقد سارع الى الاعلان عن نية حزبه تقديم اقتراح للكنيست بحجب الثقة عن الحكومة ، بحجة انها لا تتمتع سوى بتأييد اقلية من اعضاء الكنيست ، وقد علق مناحيم بيجن علىذلك بقوله : « ان المعارضة لا تستطيع تمكين حكومة اقلية من الاستمرار في العمل وكأن شيئا لم يحدث ، ان ما حدث خطير جدا ، فالحكومة لا تحظى سوى بتأييد اقلية من اعضاء الكنيست ، وواجبنا ان نثبت ذلك٠ وانا اعتقد انه يتحتم على رابين ــ وبدون اقتراحنا ــ ان يتوجه الى رئيس الدولة ، بعد بيانه في الكنيست غدا ، ليقدم له استقالة الحكومة ، واذا لم يفعل ذلك فواجبنا هو ان نبرهن على ان هذه الحكومة لا تحظى بتأييد الاغلبية ، وان عليها ان تستقيل » (ر٠١٠ ٧٦/١٢/٢٠)٠

ومن بين الصحف التي علقت على خطوة رابين هذه ، كانت صحيفة معاريف التي كتبت في عددها الصادر يوم ٧٦/١٢/٢٠ ان « عرض العضلاتالمفاجيء من جانب رئيس الحكومة ، اثار العديد من الاسئلة ، والسؤال الاول : من اين جاءت هذه الشجاعة المفاجئة وعاصفة التصلب لدى قيادة حزب العمل ، التي لم تظهر في العامين الماضيين قدرا كافيامن المسؤولية الرسمية ؟ والسؤال الثاني : ماذا سيحدث في المستقبل ؟ » ثم تمضي الصحيفة معبرة عن اعتقادها بان اسحق رابين درس بالطبع « انعكاسات خطوته على موقفه الشخصي في جماعةحزبه وعلى اعداد اللوائح السياسية الجديدة » وان الموضوع خطير ومصيري لان الامر وقع «في ذروة ازمة اقتصادية واجتماعية ، وعشية اختبارات سياسية صعبة جدا في المجال الدولي » (معاريف ٧٦/١٢/٢٠) ٠

اما يديعوت احرونوت فعلقت تقول « انه مهما كانت الحسابات السياسية ،فان المسألة هي ما اذا كانت حكومة اقلية تستطيع القيام باعبائها من الناحية

الادبية ، وسط ظروف مخيفة ، قد يتقرر فيها مستقبل البلاد والدولة » وتعتقد الصحيفة ايضا ، بان السلطة في اسرائيل « على ابواب ضغوط قوية من الخارج ، وعلى ابواب هاوية في الداخل، وعلى هذا فان الانتخابات المبكرة هي المخرج الافضل» (يديعوت احرونوت ٧٦/١٢/٢٠) ٠

وهكذا فقد اصبح واضحا ان اسحق رابين قرر التعجيل في موعد اجراء الانتخابات للكنيست ، وقد اعلن عن ذلك امام حزبه ، بعد ان اجرى مشاورات مكثفة مع ستة من وزراء حكومته ، اربعة منهم من حزبه وهم ، يجال الون وحاييم تسادوك ، ويسرائيل جليلي ويهوشاع رابينوفتش ، وكذلك مع وزيري الاحرار المستقلين ، ووجد رابين نفسه امام خيارين فقط ، اما ان يقدم استقالة حكومته قبل التصويت على اقتراح حجب الثقة الذي تقدمت به كتلة ليكود ، او ان يؤجل الاستقالة الى ما بعد الاقتراع اذا ما ضمن اسقاط الاقتراح ، الا ان رابين اختار الخيار الاول ، بعد ان فشلت الحكومة في الاتصالات التي اجرتها مع عضوة الكنيست شولاميت الوني ، وباقي الكتل الصغيرة لاقناعها بتأييد الحكومة في الكنيست او الامتناع عن التصويت على الاقل ، فسارع رابين الى عقد جلسة حكومية طارئة في مبنى الكنيست ، واطلع الوزراء على نيته الذهاب الى رئيس الدولة في نهاية الجلسة لتقديم استقالته ٠ وفي نفس الجلسة اطلع وزيرا الاحرار المستقلين كول وهاوزنر الحكومة على نيتهما تقديم استقالتيهما من الحكومة، بل وقدما استقالتيهما فعلا الى رئيس الحكومة مما زاد في تعقيد الازمة ، الا ان المستشار القانوني للحكومة بروفيسور ٠٦ براق ، عبر عن رأيه بأن الوزيرين ليسا بحكم المستقيلين لان خطوات الاستقالة لم تكتمل طبقا للقانون ، وهكذا ، فان استقالة وزيري الاحرار المستقلين خلقت سابقة قانونية تثير الاهتمام ، اذ ينص القانون على ان الوزير الذي يقدم استقالته عليه ٠

١ ـ ان يطلع الحكومة على نيته ٠

٢ ـ ان يقدم كتاب استقالته لرئيس الحكومة ٠

٣ ـ يجب ان تمر ٤٨ ساعة من اللحظة التي قدم فيها استقالته ، خلال هذه الـ ٤٨ ساعة يستطيع ان يتراجع عن استقالته ، فاذا لم يرجع بها ، يكون مستقيلا بحكم القانون ٠

الا ان اسحق رابين لم يمنحهما هذه الفرصة ، وسارع بعد انتهاء الجلسة الى رئيس الدولة افرايم كتسير ، حيث قدم استقالته ، والحكومة تحولت بفعل القانون الى حكومة انتقالية ٠

وقد جاء في البيان الذي قدمه اسحق رابين للكنيست يعلن فيه استقالته « ٠٠٠ لقد قدمت استقالتي لسيادة الرئيس ، بعد ان اطلعت الحكومة على نيتي بذلك ٠ وهذه هي الاسباب الاساسية لاتخاذي هذه الخطوة : في جلسة الحكومة يوم الاحد قدمت اقتراحا للحكومة ، ان تطبق القانون على وزراء المفدال وكتلتها في الكنيست ، وكنت اعلم عندما رفعت هذا الاقتراح ،ان الحكومة ستبقى حكومة اقلية تستند على ٥٧ عضو كنيست فقط ٠ ولانني لم انو ، ولا انوي ان اكون رئيس حكومة اقلية حتى يوم الانتخابات المعين في القانون ، كان يترتب علي ان اعمل على تقديم الانتخابات وحل الكنيست ٠ وقد قبل اقتراحي بالنسبة لذلك في مركز الحزب هذا المساء ، وفي التجمع المبامي بشكل جماعي ، ثم تقدمت بتوصية لمراكز الاحزاب كي تقر هذا الموقف ٠ ولهذه الاسباب اثرت ان استقيل من منصبي الآن ، كي اتمكن من الاستمرار في نفس الطريق ، والوصول الى تشريع قانون لحل الكنيست ، وتقديم الانتخابات٠

وبناء عليه تتحول هذه الحكومة الآن ،الى حكومة انتقالية ، وآمل ان تستمر حتى تشريع قانون حل الكنيست وتقديم الانتخابات » (دافار ٧٦/١٢/٢١) ٠

ومن الجدير بالذكر ، ان صحيفة دافار الصادرة في ٧٦/١٢/٢١ ، والتي اوردت نبأ استقالة رئيس الحكومة في عنوانها الرئيسي ، قد نشرت نبأ خاصا لمراسلها في واشنطن ناحوم برناع ، تحت الخبر الرئيسي مباشرة ، ويفيد النبأ ، بان الاتحاد السوفييتي اعرب في اتصالاته السرية مع موظفين امريكيين في الاشهر الاخيرة عن قلقه البالغ من موعد الانتخابات المتأخرة في اسرائيل ، وسأل اذا ما كان بالامكان تقديمها ، كي يزيد ذلك من امكانية اجراء مفاوضات تسوية عملية عام ١٩٧٧ ، وان الادارة الاميركية قد نقلت هذا القلق للحكومة الاسرائيلية ٠ ويفيد النبأ ان السوفييت يتوجسون خيفة ، من ان يكرس عام ١٩٧٧ بكامله ، لحسابات ترتبط في معركة الانتخابات المقبلة في اسرائيل ٠

وفي عددها الصادر في ٧٦/١٢/٢٢ ، نقلت الصحيفة عن رئيس رابطة جماعة الاساتذة من اجل السلام في الشرق الاوسط بروفيسور يوسف روتشلد ،والذي وصفته الصحيفة بانه صديق حميم لوزير الخارجية القادم سيروس فانس ولمستشار الرئيس كارتر للشؤون الامنية بيجنسكي قوله « ان خطوة رئيس الحكومة اسحق رابين في حله للحكومة ، وتقديم الانتخابات سوف تصلح الانطباع المغلوط في الولايات المتحدة من ان هذه الحكومة (حكومة رابين) ، تفتقد القدرة على القرار » كما ونقلت عنه قوله « ان تقديم الانتخابات سيقرب من فرص السلام في المنطقة ، ومع ذلك فان هذه الاستقالة ستعرقل الى حد ما، رغبة ادارة الرئيس كارتر في تعجيل الخطوات في هذه المنطقة ، والآن لا بد وان يضطر للانتظار حتى تتشكل حكومة جديدة في البلاد قبل ان تتجدد المساعي » (دافار ٧٦/١٢/٢٢) ٠

اما صحيفة هآرتس الصادرة في ٧٦/١٢/٢٠ ، فقد اوردت هي الاخرى نبأ خاصا لها من واشنطن مفاده ، ان اوساطا اميركية تتنبأ في ان تقديم الانتخابات في اسرائيل، سوف يسبب تغييرات حاسمة في برنامج العمل المنتظر ، للمفاوضات على تسوية في الشرق الاوسط للسنة المقبلة (١٩٧٧) ٠ وتضيف الصحيفة ان هذه الاوساط قد عقبت باستغراب كامل على خطوة اسحق رابين ، ويعتقدون ان ثمة تحضيرات تجري الآن لمواجهة احتمال مفاوضات مبلورة وملزمة ،على اتفاقيات انهاء حالة الحرب مع مصر وسوريا في شهور الصيف ٠

كما واورد النبأ عن موظفين مسؤولين في الادارة الاميركية ، انهم قد عقبوا على التغييرات في الحكومة ، بانها خطوة ايجابية في اتجاه السلام ، وان الخبراء في شؤون الشرق الاوسط في الادارة الاميركية قد ايدوا تقديم الانتخابات في اسرائيل ، لان وزراء المفدال كانوا يشكلون حجر عثرة ، امام التطورات السياسية الجديدة للولايات المتحدة ٠

وسواء كانت الجرأة التي اتسم بها رابين في معالجته للأزمة الوزارية والتي انتهت باخراج « المفدال » من الائتلاف واقالة وزرائه من الحكومة ومن ثم باستقالة الحكومة نفسها سعيا وراء تشريع لحل الكنيست وتقديم الانتخابات ، قد هبطت عليه مع الطائرات الاميركية النفاثة تمشيا مع العرف في هبوطها دائما عشية الانتخابات في اسرائيل ، ام كانت جرأة اليائس في قفزه نحو الهاوية ، نتيجة للتدهور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تعيشه اسرائيل الآن ، فقد تركت الباب مفتوحا امام احتمالات تغيير ، قد تكون كبيرة ، في القيادة الاسرائيلية ، لمواجهة التطورات المستجدة في النزاع الشرق اوسطي ٠

توفيق فياض

ـ ٢ ـ
المفاوضات السرية بدلا من
مؤتمر جنيف

تناولت الصحافة الاسرائيلية خلال الفترة الاخيرة موضوع عقد مؤتمر جنيف، وقد كان واضحا من خلال التصريحات الرسمية الاسرائيلية ، ان اسرائيل لا تريد عقد مؤتمر جنيف وانها تريد اسلوب الاتصالات السرية الثنائية ، كما كان واضحا ان المسؤولين الاسرائيليين لا يريدون اشتراك وفد من م ٠ ت ٠ ف في المفاوضات ، وانهم يريدون فقط اشراك بعض الشخصيات من المناطق المحتلة ضمن الوفد الاردني ٠

مؤتمر جنيف والحل السلمي

حذر وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس في خطاب القاه امام مؤتمر الرؤساء اليهود ، من ان عقد مؤتمر جنيف يمكن ان ينتهي بتأزيم النزاع في الشرق الاوسط ٠ وخلال جلسة مغلقة لهذا المؤتمر قال بيرس : « يجب على اسرائيل القول انها ستذهب الى مؤتمر جنيف ،وبصورة خاصة يجب ان تقول ذلك لاصدقائها الاميركيين ، ولكن يجب عليها ان تكون مدركة للخطر ، انه بدلا من تسوية النزاع فانه سيتم تأزيمه ، لانه سيتم دعوة كافة الاطراف الى جنيف ، وستطرح فيه كافة القضايا المختلف عليها ٠ ومع هذا ، فانه نظرا لان جنيف يعتبر رمزا ، فانني اؤيد الذهاب الى هناك » (دان مرغليث ، هآرتس ٩ ـ ١ ـ ١٩٧٧) ٠ وقد لمح بيرس ، في نفس اللقاء الى انه يعتقد بان التسوية لن تتم في جنيف وانما باتصالات اخرى ٠

وكان بيرس قد ذكر قبل ذلك انه يعتقد بان مؤتمر جنيف سيعقد فقط في النصف الثاني من عام ١٩٧٧ ٠ وانه يريد اسلوب الدبلوماسية السرية ، بدلا من اجراء مفاوضات في اطار مؤتمر السلام ٠ وهو يعتقد بانه من غير الممكن التوصل الى اتفاقية في السنة القادمة ، وانه يجب في البداية اجراء مفاوضات حول تسوية جزئية مع سوريا ، وبعد ذلك مع مصر واخيرا مع الاردن (دافار ١٤ ـ ١٢ ـ ١٩٧٦) ٠ كما عبر بيرس اثناء لقائه مع وزير الخارجية الاميركية الجديد سايروس فانس ، عن شكوكه بالنسبة لامكانية النجاح العملي لمؤتمر جنيف ٠ وقال « انه يفضل الدبلوماسية السرية حسب اسلوب المراحل التي بدايتها المفاوضات بين اسرائيل وسوريا » (هآرتس ١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٧٦) ٠

وكان واضحا عدم رغبة اسرائيل في عقد مؤتمر جنيف ، عندما حاول رئيس الحكومة ، يتسحاق رابين ، طرح بديل لمؤتمر جنيف ، وذلك بعقد مؤتمر على غرار « هلسنكي » للشرق الاوسط ٠ وقد طرح هذا الاقتراح في الكلمة التي القاها امام مؤتمر الانترناسيونال الاشتراكي ٠ وقد قصد بهذا الاقتراح كما شرحه رابين نفسه ، بان الاعتماد على صيغة مؤتمر هلسنكي ، لم يكن مريحا للعرب من عدة نواحي : ففي هلسنكي اشتركت دول فقط، وفي ذلك رد على السؤال لماذا يجب عدم اشراك م ٠ ت ٠ ف ، وفي هلسنكي لم تبحث المشاكل الاقليمية ، كما انه لم يتم في هلسنكي الحديث عن العودة الى الخطوط التي كانت قبل الحرب العالمية الثانية ، وتم كذلك في هلسنكي على ان تغيير الخطوط ليس امرا ملغيا (عال همشمار ١٦ ـ ١٢ ـ ١٩٧٦) ٠ وقد علق

يعقوب ريفتين على ذلك بقوله : بالنسبة لمبدأ اشتراك الدول فقط ، لا تزال هناك شعوب لم تحظ بعد بالسيادة السياسية، وهل من المحظور تأمين مكانة تمثيلية لها ، من اجل تمكينها من النضال السياسي من أجل حريتها ؟ الم تكن هذه حالتنا قبل مدة ليست ببعيدة · وبالنسبة لاشراك م · ت · ف : لماذا يجب ان نخلق في العالم الانطباع باننا نغلق كافة الطرق نحو النضال السياسي امام الحركة الوطنية الفلسطينية ، واننا نترك امامها فقط الطريق نحو الحرب المباشرة ؟ حيث انه من المفروض انه يوجد داخل الحركة الفلسطينية نفسها نقاش حاد ، حول الاشتراك او عدم الاشتراك في مؤتمر جنيف · (نفس المصدر) ·

وعلق تسفي شيلواح ، حول اقتراح عقد مؤتمر هلسنكي للشرق الاوسط ، واقتراح اسرائيل في الجمعية العمومية التابعة للامم المتحدة ، بعقد مؤتمر جنيف بدون م · ت · ف بقوله « ان اقتراح رابين عقد مؤتمر على غرار هلسنكي افضل بكثير من « مبادرة جنيف » · واشار الى ان تلك المبادرة ، لا يرجى منها اية نتائج عملية ، « وانها جاءت قبل كل شيء بسبب ضغوط يسارية على الحكومة ·فمن اجل ان يبرز حزب مبام ، موقفه امام يساريه الذين يضغطون عليه للانسحاب من المعراخ ، فقد طالب الحكومة في كافة المناسبات بمبادرات سلمية » (يديعوت احرونوت ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٧٦) ·

من يخاف من جنيف ؟

كتب المعلق الاسرائيلي دانيال بلوخ ،في صحيفة دافار الصادرة يوم ١٧ ـ ١٢ ـ ١٩٧٦ مقالا بعنوان « من يخاف من جنيف » ، اوضح فيه ملابسات الوضع السياسي في المنطقة ، ولمح فيه الى ان اسرائيل تخاف من عقد مؤتمر جنيف ، وفيما يلي اهم النقاط التي وردت في هذا المقال · يقول بلوخ ان السياسة الاسرائيلية تعتمد على موديلات · فقبل عدة اشهر سيطر موديل التسويات لانهاء حالة الحرب ، وان من تحدث عن مؤتمر جنيف او حول التسوية الشاملة فقد اعتبر كافرا · وقد عاد موديل جنيف والتسوية الشاملة في هذه الايام · ويرى بلوخ ، ان هناك عقبة رئيسية تقف في طريق عقد مؤتمر جنيف ـ مسالة التمثيل الفلسطيني· وانه طالما لم تعترف م · ت · ف بوجود اسرائيل وانها لم تقبل قرارات ٢٤٢ و ٣٣٨ فاننا (اسرائيل) نقف على ارضية صلبة ومؤيدين من قبل الولايات المتحدة · وحتى هذه الساعة لم تغير م · ت · ف النغمة ، ولكن المسالة ليست مستحيلة · ويتضح ، حسب رأي الكاتب ، « ان قسما من الزعامة العربية قد خطا بعض الخطوات نحو الاعتراف باسرائيل ، وان « لاءات » الخرطوم ليست قائمة الان · كما انه يمكن ان يحصل نفس الشيء لمقررات مؤتمر الرباط واتخاذ قرار بتمثيل مشترك للاردن ول·م · ت · ف · « واحيانا » هناك انطباع بان السياسة الاسرائيلية ليست مستعدة لاستقبال مثل هذه التطورات ، لاننا لم نعرف كيفية الرد على حملة السادات السياسية » ·

هذا ويرى الكاتب ، في عقد مؤتمر جنيف ، سواء كان لاسباب تكتيكية او لاسباب داخلية ، قيمة اعلامية وتربوية · وان مجرد الحديث عن هذا الاجراء ومجرد الترتيب له ، سيكون اقترابا من امكانية اجراء تسويات سياسية · « ومن المهم جدا ، ان يتم الامر بالذات من خلال مبادرة اسرائيلية ، دون ان نكون مضغوطين ، ومن خلال استقبال الادارة الجديدة في واشنطن في جو سياسي مريح بالنسبة لاسرائيل » ·

ويتوقع بلوخ ، ان نشاطا سياسيا كبيرا سيبدأ في شباط او اذار · « ولكن ربما ان مبادىء سياسة كارتر لن تكون مختلفة كثيرا عن الادارة السابقة ، ولكن لن

يعودوا الى اسلوب كيسنجر ، سواء في مجال الشكل الدبلوماسي ام في الوعود من تحت الطاولة · ويجب عدم التوقع، ان يكون مفهوم حدود السلام النهائية لدى الادارة الجديدة ، مختلفا عن مفهوم روجرز او راسك · ولكن السؤال هو فقط اذا كانت الادارة الاميركية ، ستهتم، في التوصل الى تسوية سياسية حقيقية مقابل الانسحاب الاسرائيلي وهل سيواصلون الاهتمام بالحفاظ على ميزان القوى في الشرق الاوسط وقوة اسرائيل العسكرية » (المصدر نفسه) ·

ومن جهة اخرى ، كتب معلق اخر ، مقالا تحت عنوان « الخوف من السلام »، علق فيه على رد رابين على حملة السادات وعلى رد هرتسوغ المندوب الاسرائيلي في الامم المتحدة على المندوب الاردني هناك ، قائلا ، « انما هي بمثابة رفض مبادرة السلام العربية » · ويرى دانيال عميت (دافار ٥ ـ ١٢ ـ ٧٦) ، انه يسود خلال السنوات الاخيرة في المعركة السياسية في الشرق الاوسط عدة حقائق استراتيجية، التي بدونها يحكم على اي تخطيط للمدى البعيد بالفشل :

● يجب ان تكون التسوية شاملة · وان اي جانب من النزاع ، يبقى معلقا سيعرض للخطر كافة الاتفاقيات التي يتم التوقيع عليها ، والاخطر من ذلك : فهو يزعزع الثقة المهمة جدا لتحقيق اية اتفاقية ·

● ان اطار المحادثات حول التسوية في الشرق الاوسط هو مؤتمر جنيف ، الذي تجري فيه مفاوضات مباشرة بين كافة اطراف النزاع · ان احد الدروس الهامة للماساة اللبنانية هو ان الاشتراك الكامل لكافة الدول العربية ، يمكن ان يؤدي الى نتائج ايجابية · وان استعمال وسائل الدعاية منذ الخمسينات ، حول الاستعداد لمقابلات مباشرة مع هذا الزعيم العربي او ذاك ، ليست الا محاولة لاحباط المفاوضات ·

● ان اية تسوية تتم ستكون بناء على قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، الذي يؤكد عدم السيطرة على الاراضي عن طريق الحرب·

● والمهم جدا ، هو انه لن تتم هناك تسوية دون الاشتراك الفعال والمستقل لممثلي الشعب الفلسطيني ـ م · ت · ف· هذا ايضا هو احد الدروس الرئيسية من الحرب الاهلية في لبنان ، التي اثبتت ان المحاولة المتواصلة والعنيفة ، لمصادرة تمثيل الشعب الفلسطيني من ايدي قيادته التي حصلت على اعتراف كبير في السنوات الاخيرة قد باءت بالفشل ·

ويعلق الكاتب على الرفض الاسرائيلي التفاوض مع م · ت · ف قائلا : « ان رفض التفاوض مع م · ت · ف الذي ينبع منه الشلل الذي يصيب الزعامة الاسرائيلية مقابل مبادرة السلام العربية الاخيرة ، غريب جدا · واذا كنا نعترف بالحقائق الثلاث الاولى التي ذكرناها ، فان الرابعة هي في صالح امن اسرائيل، وعلى القيادة الاسرائيلية المسؤولة ان تطلب توقيع م · ت · ف على كل اتفاقية تحصل عليها » · وطالب باشتراك الفلسطينيين وقال « لن يتم هناك اتفاق بدونهم ، وان اية دولة عربية لن تجرأ على توقيع اية اتفاقية دون اشراكهم · وان قيادة م · ت · ف الحالية هي التي ستوقع على كافة بنود الاتفاق ، والا فلن يتم التوصل الى اتفاق · لانه يوجد لهذه الزعامة تأييد جماهيري واسع منذ ان اصبحت م · ت · ف اسما مرادفا « للوطنية الفلسطينية » وان اشتراك م · ت · ف في مؤتمر جنيف هو اعتراف واقعي باسرائيل · وان من كرر صيغ اكل الدهر عليها وشرب ، هو مندوبنا حاييم هرتسوغ · واذا كان هذا هو رد الفعل ، فان احتمالات اسرائيل بالحصول على السلام ، عندما يتدفق على

بابها ضعيفة » (المصدر نفسه) ·

اشراك م· ت· ف والتسوية مع الاردن

لا يزال الموقف الاسرائيلي الرسمي متصلبا سواء ازاء اشتراك م · ت · ف بالمفاوضات في جنيف ام ازاء اجراء مفاوضات معها · فقد اشار رابين في جلسة الحكومة ، الى انه لم يطرأ اي تغيير على الموقف الاسرائيلي بالنسبة للموضوع الفلسطيني ، الذي يرتكز على اربعة مبادىء كما وردت في (دافار ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٧٦) ·

● يجب ان يكون حل المشكلة الفلسطينية مرتبطا بالاتفاقية مع الاردن ·

● تعارض اسرائيل مبدئيا دولة ثالثة بينها وبين الاردن ·

● خلال المفاوضات مع الاردن لن تعارض اسرائيل اشراك ممثلي السكان في الضفة في المحادثات ·

● ترفض اسرائيل اية مفاوضات مع « منظمات الارهاب » ·

وكان رابين قد اوضح في مناسبة اخرى ، « انه يجب الفصل بين حل المسألة الفلسطينية وبين استعداد اسرائيل للتفاوض مع الهيئة المسماة م·ت·ف،وانه يجب البحث عن حل للمسألة الفلسطينية في اطار اتفاقية بين الاردن واسرائيل» (هآرتس ١٤ ـ ١٢ ـ ٧٦) ·

ومن جهة اخرى اوضحت اسرائيل للولايات المتحدة بانها تعارض تشكيل وفد عربي واحد لمؤتمر جنيف اذا ما اشتركت م · ت · ف في هذا الوفد · وردا على التوضيحات التي اجرتها وزارة الخارجية الاميركية في اعقاب معلومات عن موافقة م·ت·ف· الاشتراك في وفد عربي موحد ، « اعلنت اسرائيل انها ستعارض اي تمثيل ل م · ت ف في المؤتمر وانها ستوافق فقط على اشتراك شخصيات من الضفة في الوفد الاردني » (ناحوم برناع ، دافار ١٠ ـ ١٢ ـ ٧٦) ·

هذا وقد اجرت صحيفة دافار ،(٣١ ـ ١٢ ـ ٧٦) ، مقابلة صحفية مع موشي دايان ،وزير الدفاع السابق ، حيث تطرقت فيه الى مؤتمر جنيف واشتراك الفلسطينيين، ، وقد سئل ، لقد قلت منذ مدة ان الروس ، سيوافقون على الذهاب الى مؤتمر جنيف دون اشراك م · ت ·ف، فعلى ماذا بنيت هذا الافتراض ؟ فقال : « بنيت هذا الافتراض على ثلاثة امور ، اولا ، وافق الروس على ذلك قبل سنتين، وبصورة عامة فان سياستهم ثابتة · وان مطلبهم باشراك م · ت · ف الان انما هو موقف تكتيكي ، ورد فعل على ان الاتفاقيات السابقة قد تمت بوساطة الولايات المتحدة ، وليس في اطار جنيف الذي تشترك فيه كلا الدولتين · ثانيا ، ان الصيغ السوفياتية الان بالنسبة لجنيف ليست متطرفة · فهم مستعدون حسب الصحف لجلسة افتتاحية دون م·ت·ف· وبعد هذا للجان عمل مختلفة · وثالثا ، وهو السبب الرئيسي ـ لا اعتقد بان الاتحاد السوفياتي يريد الان حربا اخرى في الشرق الاوسط ، لانه خسر هيبة ونفوذا كبيرين نتيجة للحرب الاخيرة · وهم حسب رأيي ، يريدون تدعيم نفوذهم ومركزهم في الشرق الاوسط بطرق سياسية ، وان احدى الطرق هي مؤتمر جنيف باشتراكهم، ولهذا سيكونون مستعدين للتوصل الى اتفاق حول تركيب المؤتمر وخاصة لاحياء هذه المؤسسة » · وسئل حول فكرة ارسال وفد عربي موحد الى جنيف باشتراك م · ت · ف فيه فاجاب: « يجب ان تشترك في المؤتمر فقط الدول ـ اسرائيل وسوريا ومصر والاردن ورؤساء المؤتمر الولايات المتحدة وروسيا وهناك مهمة معينة للامم المتحدة · واذا ارادت الدول العربية ان تضم داخلها

فلسطين ايضا ، فهم يستطيعون فعل ذلك، واذا ارادت كافة الدول العربية ان تجري بينها مناقشات مشتركة فهذا شأنها » ٠

اما بالنسبة للحل مع الاردن ، فيؤيد رئيس الحكومة رابين ، الحل الوسط الاقليمي في الضفة الغربية ، من خلال الافتراض ان نهر الاردن سيبقى الحدود الامنية ٠ وقد تحدث حول هذا الموضوع امام اللجنة الفرعية للجنة التحضيرية للشؤون السياسية التابعة لحزب العمل ٠ ومما قاله رابين ايضا : « يجب حل المشكلة الفلسطينية في شرق الاردن وليس عن طريق اقامة دولة ثالثة ٠ واشار الى انه لن يعارض ان يكون هناك ممثلون من الضفة الغربية في المفاوضات التي ستجري في مؤتمر جنيف ٠ وانه يجب التمييز بصورة واضحة جدا بين المفاوضات مع مصر وسوريا والاردن ، فبالنسبة لمصر ، المشكلة الرئيسية بالنسبة الينا هي ، الشريط الاقليمي مع شرم الشيخ ٠ وبالنسبة لسوريا يجب ان يكون واضحا اننا لن ننزل من الجولان حتى في اطار اتفاقية السلام ، ولكن لا يعني ذلك بالذات الحدود الحالية » (دافار ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٧) ، وفسر رابين في تلك الجلسة ماهية السلام بالنسبة لاسرائيل فقال : **« حدود مفتوحة ، مرور حر للاشخاص وللبضائع وعلاقات دبلوماسية »** ٠

هذا وذكرت دافار ٩ـ١٢ـ٧٦، ان خبراء الشرق الاوسط في وزارة الخارجية الاميركية قد اعدوا سلسلة من الوثائق للادارة الجديدة ، التي تؤكد ضرورة حل مشكلة اشتراك م٠ت٠ف٠ في المفاوضات للتسوية في الشرق الاوسط ٠ وقالت الصحيفة ان «هناك قسما من «خبراء الشؤون العربية» في وزارة الخارجية يعتقدون بأن م٠ت٠ف مستعدة لان تندمج في حملة السلام المصرية» ٠ وكان كيسنجر ، وزير الخارجية الاميركية السابق ، قد حاول اقناع وزير الخارجية الاميركية الجديد ، فانس ، بالامتناع عن السعي الى اجراء تسوية شاملة في الشرق الاوسط٠ ويرى كيسنجر، حسب ما اورده ناحوم برناع (دافار ١٩ـ١٢ـ٧٦) ان تجري في المرحلة الاولى اتصالات مع الاطراف ، يتم خلالها الوصول الى اتفاق لاشراك رمزي للفلسطينيين في المحادثات ٠ ومن ثم تجري المحادثات استعدادا لعقد اتفاقية انهاء حالة الحرب مع سوريا ومصر مع احتمال مفتوح للتفاوض مع الاردن في موعد متأخر جدا ٠ ويعتقد كيسنجر ، بناء على اتصالات مسبقة مع جهات اسرائيلية ، ان اسرائيل ستوافق على اشتراك مستشارين فلسطينيين في الوفود السياسية العربية للمحادثات ٠ وان اسرائيل لن تعارض في ان يكون ممثلو م٠ت٠ف٠ بين هؤلاء المستشارين ٠ كما يعتقد كيسنجر ، بناء على معلومات مخابراتية ، وصلت الى مصادر اميركية ، ان هناك امكانية لاقناع سوريا ومصر بالموافقة على التسوية ، التي تتجاوز تطلعات م٠ت٠ف بالتمثيل المباشر في المحادثات ٠ ويعتقد الاسرائيليون ان تأييد السادات لاقامة دولة فلسطينية في المناطق ما هو الا تكتيكي فقط ، ويمكن اقناعه بسحب هذا التأييد ٠ ويعتقد كيسنجر ايضا انه عشية المحادثات مع سوريا حول تسوية انهاء حالة الحرب ، توضح اسرائيل بصورة سرية ، انها ستكون مستعدة للانسحاب من عدد من المستوطنات في هضبة الجولان ٠

ومن جهة اخرى ، يعتقد يغئال الون ، وزير الخارجية الاسرائيلية « ان الطريق الوحيد لتصفية م٠ت٠ف كزعيمة للفلسطينيين ، هو منح الاردن نقطة ارتكاز في الضفة الغربية ٠ وانه طالما اننا غير مستعدين لحل وسط اقليمي مع حسين ، فانه لا يوجد لديه اي سلاح ضد م٠ت٠ف٠ وفي اللحظة التي سنكون فيها مستعدين لحل وسط حتى ولو كان جزئيا ٠٠٠ فاننا

سنخلق لدى حسين ولدى الزعامة المعتدلة في الضفة ، مصلحة للحلول مكان م٠ت٠ف وقد آمن الون في عام ١٩٦٧ بعد حرب الايام الستة بمسألة الادارة الذاتية في الضفة كوسيلة ناجعة ضد م٠ت٠ف٠ وهو يشك الان اذا كان هذا الاسلوب ممكنا ، وان القدرة على محاربة قوة م٠ت٠ف٠ تمر عن طريق حسين» (دانيال بلوخ دافار ٢١ـ١ـ٧٧) ٠

هذا ولا يؤمن الون بفكرة الاتحاد الفيدرالي بين اسرائيل والضفة الغربية ، لانه حسب تقديره لا يوجد فرق كبير بين اتحاد فيدرالي وبين دولة ثنائية القومية ٠ «لا يوجد طريق اخر للتسوية ، سوى اقامة دولة اردنية ، ذات اقليمين، يرتبط بعضهما ببعض كدولة واحد ٠ ويعتقد ان هناك دلائل في العالم العربي تقترب من هذا الرأي ، واليوم تسمع اصوات حول العلاقة بين الدولة الاردنية والدولة الفلسطينية ٠٠» (المصدر نفسه) ٠

هذا وقد هاجم احد كبار المحررين في جريد هارتس ، التلويح دائما بمشروع الون واعتبر أن النتيجة الحتمية لذلك ، ستؤدي الى اقامة دولة فلسطينية ٠ فقد قال «بولس» : اننا اذا لم نتوقف عن تقديم «مشروع الون» على انه يحتوي على اعلى حد من التنازلات التي يمكن ان نكون مستعيدين لها، فان هناك خوفا كبيرا ، من اننا لا نستطيع في نهاية الامر ، الحيلولة دون اقامة «دولة ثالثة» بيننا وبين الاردن ٠ وان هذه الدولة لن تكون «مجردة» ٠ اذ لا يوجد اية قوة تستطيع ان تشرنق الوعي الوطني لسكانها ، وان تقبل بمثل هذا الالتزام على نفسها ٠ وحتى اذا اضطرت الى القبول بذلك ، فاننا في هذه الحالة ، لن نكون واثقين ومتأكدين ، من انها لن تتحول الى قاعدة للعمليات الارهابية ضدنا ، حيث انه لن يكون هناك جيش نظامي يستطيع ان يضرب منظمات المخربين (هارتس ٢١ـ١ـ٧٧) ٠

ولكن اكثر ما يخيف الاسرائيليين من اقامة الدولة الفلسطينية ، حسب رأي «بولس» ، ويعتبره الخطر الرئيسي ، هو ان هذه الدولة سترى من واجبها ولا تستطيع التنكر لذلك ، «المطالبة بضم مناطق اسرائيلية (داخل الخط الاخضر) المزدحمة بالسكان العرب ٠ وكان باستطاعة الملك عبدالله التنازل عن وادي عاره ، حتى بالرغم من ان الجيش الاسرائيلي لم يحتله في الحرب ٠ ولكن الدولة العربية ـ الفلسطينية لن تستطيع التنازل عن دعاية تحررية وحدوية تجاه عرب اسرائيل ٠ وان مجرد قيامها هو بمثابة تحدي لسلامة امن اسرائيل» ٠ وانتقد «بولس» الدعاية الاسرائيلية ، ضد العائلة الهاشمية ، مؤكدا انها في نهاية الامر «الجهة العربية ذات الوزن ، المستعدة للقبول بنا وبحقنا في الوجود في المنطقة» ٠ وانتقد ايضا المناداة بتحويل الاردن الى دولة فلسطينية والقول بأن غالبيتها من الفلسطينيين فقال : «ان من يشير الى الحقيقة بأن غالبية سكان شرق الاردن هم فلسطينيون ، انما يستخدم فقط الحيلة الكلامية ، وانه ليس من مهمات الصهيونية التاريخية اسقاط نظام البدو في عمان ٠ وان مسألة الحكم الاسرائيلي على مليون عربي الذين لا يريدون هذا الحكم ، لا نستطيع حلها عن طريق الصاق الشارة الفلسطينية على المملكة الهاشمية ، وان كل من يعتقد بان حكما «فلسطينيا» في عمان سيقبل بالحكم العسكري الاسرائيلي في كافة المناطق المحتفظ بها بايدينا منذ ١٩٦٧ انما يرعى الاوهام» (المصدر نفسه)٠

« حملة السلام العربية » ٠

علقت الاوساط الاسرائيلية على مبادرة السادات الاخيرة ، ووصفتها بأنها حملة تكتيكية ، وانها فقط تعبر عن المشاكل الداخلية التي تسود العالم العربي وبالذات مصر ٠ ولكن هذه الاوساط لم تخف قلقها من المكاسب الاعلامية التي يمكن ان تحققها هذه الحملة ٠ ومن هنا جاء رد رابين ،

ورد هرتسوغ في الجمعية العمومية ·

يعتقد احد كبار المعلقين الاسرائيليين ، ان الحملة الديبلوماسية او «حملة السلام» من قبل السادات وبعض المتحدثين العرب، «ليست الا دليلا على الارتباك والضائقة الصعبة التي زجت اليها الدول العربية في هذه المرحلة من حربها ضد اسرائيل · فقد تسلق العرب على الشجرة العليا لمقررات مؤتمر الرباط منذ حوالي سنتين والان يحاولون النزول عنها ولكنهم لا يعرفون كيفية فعل ذلك · وكما حدث قبل ذلك فقد تسلق العرب على الشجرة العليا للاءات الخرطوم من اجل النزول عنها ايضا · وان الضائقة العربية هي وليدة الطريق المسدود الذي وصلت اليه السياسة العربية في مؤتمر الرباط · لان النتيجة العملية لمقررات الرباط كانت منع الاردن من التفاوض مع اسرائيل ، فقد حرروا بذلك اسرائيل من الضغط الدولي الفعلي للانسحاب من الضفة وادخلوا العالم العربي الى انسحاق داخلي صعب كانت نتيجته الحتمية ، الحرب في لبنان » (حفاي ايشد دافار ٥-١-٧٧) ·

ويضيف الكاتب قائلا : «يبدو ان السادات والاسد قد فهما الان ان قرارات مؤتمر الرباط كانت خطأ قاتلا من وجهة نظر عربية ، وربما ان هناك اوساطا معينة في م·ت·ف· بدأت تشك بفائدة الطلب غير المتزن لالغاء وجود دولة اسرائيل ، وان حملة السادات للسلام يمكن ان تعتبر كاظهار للصحو من غباء مقررات الرباط ··· وربما ان كافة هذه الاطراف العربية المختلفة بدأت تفكر الان ، من ان مكاسب م·ت·ف· في المجال الدعائي العربي والدولي كانت مكاسب مزعومة ، وانها عمليا حررت اسرائيل من اي ضغط حقيقي في الموضوع الاردني والفلسطيني طيلة اكثر من عامين» ·

ويعزو الكاتب انجاز التحول والتراجع في السياسة العربية ، الى السياسة الاسرائيلية والاميركية المتشددة بعدم التفاوض مع م·ت·ف· وانه كلما استمرت اسرائيل بهذه السياسة ، فانه سيزداد الصحو العربي والدولي بالنسبة ل·م·ت·ف· ولمواقفها · ولهذا يجب الاستمرار بهذه السياسة الى ان تنقلب العجلة الى الوراء بدورة كاملة والى ان يتم الغاء الحظر العربي على الاردن للتفاوض مع اسرائيل ··· ولكن قبل كل شيء يجب ازالة عقبة م·ت·ف· ومقررات الرباط وتمكين الاردن من التفاوض مع اسرائيل في اطار جنيف او خارجه ، على مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة··· وان التصريحات المختلفة من قبل السادات والاسد وحتى السوفيات وربما ايضا المحادثات بين مندوبين عن م·ت·ف· وبين الياف وبيلد ، يمكن اعتبارها بداية لقضم مقررات الرباط ، وان ذلك بداية انجاز للسياسة الاسرائيلية والاميركية · وانه ينبغي على اسرائيل ان تستمر في رفض اقامة دولة فلسطينية ثالثة بينها وبين الاردن بصورة مطلقة ، وكذلك الاستمرار بالمعارضة الشديدة لاي شكل من التفاوض مع م·ت·ف· او مندوبيها · وعلى اسرائيل ان تستمر بالاقتراح الحالي بالتفاوض مع وفد اردني، يضم تمثيلا فلسطينيا ، حول اتفاق يشمل ايضا حلا للمشكلة الفلسطينية (المصدر نفسه) · ويخلص حفاي ايشد ، الى القول انه ليس من المستبعد ان تكون حملة السادات الدبلوماسية موجهة الى الداخل وليس فقط الى الخارج · وفي نفس الوقت يحاول السادات ان يدق اسفينا بين الولايات المتحدة وبين اسرائيل ، وربما لاختبار رد الفعلي العربي الداخلي بالنسبة لسياسة متزنة اكثر تجاه اسرائيل ·

وتحدث معلق اخر حول حملة السلام هذه ، وعن احتمال قيام الولايات المتحدة بتقيم مشروع للسلام ، فذكر ان العرب يتقدمون بمشاريعهم السلمية هذه ، لانهم

يعرفون جيدا ان مشروع السلام الاميركي، لا يختلف كثيرا عن مشروعهم من الناحية الاقليمية ·

ويقول ماتي غولان ، اي معنى ذلك : «ان واشنطن سواء كانت في عهد نيكسون او فورد او كارتر ، فانها تؤيد انسحابا اسرائيليا كاملا من المناطق التي احتلت في حرب الايام الستة · ما عدا ـ وهنا الفجوة مع الموقف العربي ـ اجراء تعديلات على الحدود · ولكن اية تعديلات على الحدود ؟ صغيرة وغير جوهرية، وهنا الفجوة مع الموقف الاسرائيلي الذي يتحدث عن تعديلات جوهرية على الحدود · واذا ما تفحصنا الفجوتين ، فسنصل الى نتيجة ان الفجوة بين الولايات المتحدة وبين الدول العربية اصغر بكثير مما هي عليه بين واشنطن والقدس» (هارتس ٣١ـ١٢ـ ٧٦) ·

ولهذا يسعى السادات ، حسب ماتي غولان ، من وراء رسم خريطة اميركية الى تحقيق ظاهرتين ايجابيتين بالنسبة له : الخلاف الكبير وربما الانشقاق بين اسرائيل والولايات المتحدة وامكانية ان يثبت للعالم بأن الفرق بينه وبين الولايات المتحدة يتمثل فقط بعدة كيلومترات « مقيتة » · ولكن الرد الاميركي ـ الاسرائيلي على ذلك، هو ان الولايات المتحدة معنية ليس فقط بتقديم خريطة وانما بمشروع سلام · وهنا يمكن نقل النقاش حول المناطق الى النقاش حول ماهية السلام · وفي مثل هذه الحالة سيصعب على العرب ان يوضحوا لماذا يرفضون عقد اتفاقية سلام حقيقي ·

مشروع لتوطين اللاجئين الفلسطينيين

في اطار البحث عن حلول لانهاء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين تقدم رعنان فايتس، رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية، بمشروع الى حزب العمل ، لتسوية مشكلة اللاجئين داخل المناطق المحتلة · هذا وقد اورد امنون برزيلاي ، في صحيفة (هارتس ٢٣ـ١ـ٧٧) ، النقاط الرئيسية التي وردت في هذا المشروع ، والاسباب التي دفعته الى تقديمه ·

يرى فايتس ان الاتجاهات التي تلوح ، هي حسب رأيه ، ذات دلالات خطيرة لليهود وللعرب الذين يعيشون في المنطقة وهذا هو احد الاسباب للحاجة الملحة الى ايجاد حلول يتعلق بها مستقبل وربما مصير اسرائيل · ويرى ايضا ان العلاقات الرئيسية التي تتطلب حلولا بصورة ملحة هي : العلاقات مع السكان العرب ـ الفلسطينيين ، واستيعاب الهجرة والوضع الاقتصادي· وان هذه المشاكل حسب رأيه، قد تأزمت منذ حرب يوم الغفران وتحت « ثلاثة سيوف تتسلط فوق رؤوسنا » ·

ويعتمد مشروع فايتس ، على دراسات اجرتها الوكالة اليهودية خلال السنوات الاخيرة وكذلك على مادة احصائية تم جمعها في السنوات الاخيرة ايضا · ومن مبادىء مشروعه الرئيسية لوقف التدهور في مسألة المشكلة الفلسطينية، يذكر المشروع ضرورة تقليل الاختلاط السكاني وكذلك انتقال العمال من التجمعات السكانية العربية الى مناطق اسرائيل للحيلولة في المستقبل دون حدوث توترات اجتماعية وطبقية مستمرة على اساس قومي ·

«وهناك مبدأ اخر وهو اعطاء السكان العرب في المناطق المحتلة تعبيرا سياسيا · وبدون مثل هذا التعبير ، لا يمكن ان تكون هناك قاعدة للسلام بيننا وبينهم · والمبدأ الذي يليه ينص على انه في اية تسوية، يجب منح كافة الذين يسكنون في اسرائيل حقوقا مواطنية متساوية ، وحق تقرير المصير للعرب ـ الفلسطينيين حتى يتمكنوا من اقامة حكم واسلوب حياة خاص بهم» ·

ويقترح فايتس في خطته كحل للمشكلة الفلسطينية ، تقسيم اسرائيل والمناطق

المحتلة الى ثمانية الوية • خمسة للسكان اليهود وثلاثة للسكان العرب • والالوية اليهودية هي : صفد ، حيفا ، تل ابيب ، اشدود ، وبئر السبع • والالوية العربية هي : نابلس ، والخليل ، وغزة • وستكون مدينة القدس بموجب المشروع لواء مستقلا بحد ذاته • وسيتشكل في كل لواء «ادارة اللواء» التي تتسلم شؤون الداخل في مجالات التطوير والخدمات • وستتولى الحكومة المركزية بالذات ، شؤون الامن والخارجية والمالية ، وكذلك تتولى تنسيق نشاطات الالوية وتشرف عليها •

ان اهمية التقسيم الى الوية ، حسب رأي فايتس ، انها « ستمكن من تطوير القرى العربية» • وهناك تحفيز اخر لذلك سيتم ايجاده في العلاقات المالية والاقتصادية المباشرة بين الالوية العربية وبين مصادر المساعدات من الدول المختلفة ومن مؤسسات دولية ، وكذلك البدء بدفع تعويضات للاجئين العرب الذين يسكنون في المناطق المحتلة •

علاقات اقتصادية

«ستكون هناك علاقات اقتصادية بين الالوية على اساس انتقال المنتوجات والخدمات في اي حل سياسي • وانه ستكون في هذا الاطار امكانية نقل فائض مياه نهر الليطاني عن طريق المشروع القطري (مشروع تحويل نهر الاردن) ، لتطوير الالوية العربية ـ نابلس والخليل وغزة ـ وكذلك لتطوير قاعدة لاقامة منطقة تجارية حرة في غزة » •

هذا ويختبر المشروع فكرة الالوية مع كل واحد من الحلول السياسية المقترحة • فاذا تم اتفاق مع الاردن ، فان الالوية الثلاثة ستضم الى المملكة الاردنية • كما ان مشروع التطوير يأخذ في الحسبان شق طريق مباشر بين الخليل وغزة • وان هذا الطريق لن يمر عبر المستوطنات اليهودية، وان ميناء غزة يمكن ان تستعمله المملكة الاردنية ، ما عدا استيراد الاسلحة والعتاد العسكري • وفي حال غياب الاتفاق مع الاردن فانه بالامكان اختيار احد الخيارين السياسيين : اقامة دولة فلسطينية او انشاء اتحاد فيدرالي • وان توحيد الالوية الثلاثة مع كامل الحقوق ، ما عدا اقامة جيش وشراء اسلحة ، معناه حسب رأي فايتس ، دولة فلسطينية •

دولة فيدرالية

«ستؤلف الدولة الفيدرالية من ثمانية الوية وستكون القدس عاصمة لها • وستشكل ارض اسرائيل (فلسطين) من الناحية الامنية والعلاقات الخارجية ، وحدة واحدة ، تديرها حكومة مركزية • وان كافة الشؤون الداخلية بما فيها تقديم الخدمات والمبادرة باعمال التطوير، ستكون بأيدي ادارة محلية في الالوية • ويقترح المشروع نموذج الكونجرس الاميركي ، الذي بموجبه ينتخب كل لواء عددا متساويا من الممثلين الى برلمان الدولة • وسيشكل البرلمان الحكومة المركزية • وستكون الحكومة المركزية مسؤولة عن قضايا الامن والخارجية والعملة والجمارك والتنسيق بين الالوية • وسيتم في كل لواء اختيار مجلس اقليمي وسيشكل هذا المجلس الحكومة المحلية للواء ، وستكون مسؤولة عن علاقات الداخل مثل مشاريع التنمية واستيعاب الهجرة والتعليم والصحة والشؤون الاجتماعية والدين الخ » •

ويعطي فايتس الافضلية الرئيسية للاتفاق مع الحكومة الاردنية ، هذا الاتفاق الذي يجب السعي اليه ، حتى على حساب القيام ببعض التنازلات ، مثل ضم قطاع غزة الى الاردن ، وتقليل الاستيعاب اليهودي على امتداد نهر الاردن الى الحد الادنى• وان احتمال اقامة دولة فلسطينية افضل بنظر فايتس ، من اقامة دولة فيدرالية •

حمدان بدر

الانتخابات واثرها على
الوضع الاقتصادي

تتوقف التطورات الاقتصادية المتوقعة في اسرائيل خلال هذه السنة ، الى حد كبير ، على ما اتخذ خلال السنتين الاخيرتين من اجراءات واصلاحات ، في محاولة للحد من تدهور الوضع الاقتصادي وايجاد حل للمشاكل المعقدة التي نجمت بعد حرب ١٩٧٣ ، والتي تمثلت اساسا في العجز المتزايد في ميزان المدفوعات ، وسرعة ازدياد التضخم المالي · وقد اعلن وزير التجارة والصناعة حاييم بارليف ، ان هذه السنة ستكون سنة صعبة للاقتصاد الاسرائيلي، « انها سنة ميزانيات منخفضة ، وضائقة شديدة بالنسبة للتسليف · ويجب ان ندرك هنا ان الميزانية (المقترحة) تتحدث عن تدفيق مبلغ اضافي (للتداول)بمقدار ٥ر٥ مليار ليرة ، ومحظور التحدث عن مبالغ اكبر ، لان ذلك سيؤدي الى زيادة التضخم ، وخفض فائض العملة الصعبة» (هآرتس ، ٣-١٢-٧٦)· ويبرر بارليف مشاكل اسرائيل الاقتصادية بقوله ، انها تعود الى سببين اساسيين ، اولهما المشكلة الاقتصادية العالمية «فالاشخاص يرفضون رؤية ما يجري حولنا في العالم ، ولذلك يتولد انطباع خاطىء ، وكأنه لم تكن هناك سياسة (اقتصادية) واضحة ··· ففي العالم توجد مشكلة بطالة متفاقمة ، الامر الذي لم يحدث له مثيل عندنا · كذلك فان صادرات دول صناعية آخذة في الانخفاض، بينما صادراتنا في ارتفاع ، وميزان مدفوعات معظم الدول في العالم قد ساء ، بينما تحسن عندنا » · ويعتقد بارليف ان حقيقة التحسن في الوضع الاقتصادي الاسرائيلي ، في الوقت الذي يسوء في بعض البلدان الاخرى ، انما يدل على التقدم الاقتصادي في اسرائيل (في مقابلة مع ملحق صحيفة هتسوفيه ، ٣١-١٢-٧٦) · ثانيا ، ما تتحمله اسرائيل من اعباء امنية تتمثل في ميزانيات الدفاع الضخمة خلال كل سنة ، فاسرائيل تنفق ثلث ميزانيتها تقريبا في كل سنة على الامن ، كذلك فان الجزء الاكبر من المساعدات الخارجية (بالعملة الصعبة) ينفق على مشترياتها من الاسلحة ·

اتخذت اسرائيل خلال السنتين الاخيرتين عدة اجراءات لاصلاح وضعها الاقتصادي، واهمها : الاصلاح في ضريبة الدخل حسب توصيات لجنة بن شاحار ، فرض ضريبة القيمة المضافة ، وتعيين حد اقصى لعلاوة غلاء المعيشة بحيث تصل الى ٧٠٪ فقط ، ثم تمديد ربط السندات الحكومية بقيمة الدولار ، وبالتالي اتباع اسلوب التخفيض التدريجي في قيمة الليرة الاسرائيلية · وتشير الدلائل الى ان المكاسب التي حققتها هذه الاصلاحات والاجراءات تعتبر جزئية، «كذلك فان الهدوء في جبهة الاجور لم يتحقق حتى الان (والاضرابات العمالية دليل على ذلك) · اما تمديد ربط السندات (بقيمة الدولار) فانه لم يؤد الى خلق ثقة بالحكومة لدى المستثمرين · كذلك لم يتم ايجاد حل حقيقي لمشكلة ديون الحكومة المحلية المتزايدة ··· اما بالنسبة لاسلوب التخفيض التدريجي في قيمة الليرة ، فقد ادى الى تبديد المخاوف من امكانية حدوث تخفيض كبير في العملة ، رغم ان وزارة المالية تعمل في كل مرة على خلق توتر ما بسبب ما تشيعه من امكانية احداث

تخفيض كبير · كذلك فقد اصبح واضحا اليوم ان ضمان ربحية الصادرات (التي تعتبر الهدف الاساسي لسياسة التخفيض التدريجي) لم تتحقق» (ملحق هتسوفيه ، ٣١ـ١٢ـ٧٦) ·

لذلك يمكن القول ان كل واحد من هذه الاصلاحات قد ادى الى نتائج جزئية· اما المكسب العام فهو تحقيق تحسن في ميزان المدفوعات خلال السنة الماضية ، ناتج في اساسه عن تأثير السوق العالمية ، ولكن ليس هناك اي تأكيد لاستمرار هذا التحسن خلال هذه السنة ·

وبالنسبة للاهداف الاقتصادية خلال هذه السنة ، فقد اعلنت وزارة المالية الاسرائيلية ان هناك ثلاثة اهداف ستعمل على تحقيقها، وهي : اولا وقف التضخم المالي السريع· ثانيا ، اعادة تجديد الانعاش الاقتصادي· ثالثا ، تحسين ميزان المدفوعات ·

التضخم المالي يهرب الاستثمارات الجديدة

ان قضية التضخم المالي السريع هي من اكثر القضايا التي تحظى الان بالاهتمام المتزايد في اسرائيل ، بعدما اتضح خلال السنة الماضية ، ان لها تأثيرا سلبيا على الاصلاحات والاجراءات الاقتصادية، واهمها تلك المتعلقة بزيادة الاستثمارات خاصة الاجنبية · وبحسب رأي المعلق الاقتصادي في صحيفة دافار (١ـ١٢ـ٧٦) ان محاربة التضخم المالي والحد من ارتفاع الاجور يعتبر المهمة الاولى في السنة الحالية ، «وكما يبدو اصبح واضحا الان لوزير المالية ان محاربة التضخم المالي يجب ان تكون على رأس سلم الاولويات في السياسة الاقتصادية ، وذلك بعدما اتضح ان هذا التضخم يهدم كل مكسب ، ويقوض الثبات الاقتصادي والاجتماعي ويحد من الاستثمارات الجديدة ويهرب المستثمرين الاجانب · ففي نسبة التضخم المالي الحالية ، هناك احتمالات قليلة بأن نجد مستثمرين على استعداد للمخاطرة بتنفيذ استثمارات جديدة · ان عدم توفر هذه الاستثمارات سيعود بالضرر على البرامج المخططة لاعادة تجديد النمو الاقتصادي في سنة ١٩٧٨ ، وذلك بعد حدوث تدهور خطير خلال السنين الاخيرة بسبب توقف هذا النمو · وحسب تقدير بروفيسور افرايم كلايمان (استاذ اقتصاد في الجامعة العبرية) فقد ادى توقف هذا النمو الى خسارة ١٢ مليار ليرة على الاقل ، خلال السنين الثلاثة الاخيرة» · ويتحدث الكاتب في مقال اخر (دافار ، ٢١ـ١ـ٧٧) عن مشكلة الغلاء فيقول : «ان المعطيات التي نشرت في بداية هذا الاسبوع ، والتي اشارت الى ان معدل ارتفاع الاسعار للمستهلك قد بلغ خلال سنة ١٩٧٦ ، ٣٨٪ ، لم تثر اية دهشة ··· ان الجمهور الاسرائيلي لا ينفعل بوجه خاص من نسبة التضخم المالي حتى اذا بلغت ٣٨٪ ، ويصبح هذا الامر وكأنه جزء من واقع حياتنا » · وهنا بعض الامثلة على نسبة ارتفاع اسعار بعض المواد الاستهلاكية الاساسية في اسرائيل: الخبز ـ ٣ر٥٢٪ ، الحليب ومنتجاته ـ ٢ر٤٤٪ ، الزيوت والزبدة ـ ٤ر٥٤٪ ، البيض ٤ر٥١٪ ، لحوم الطيور ـ ٧ر٤٦٪ ، القهوة ـ ٢ر١١١٪ ، لحم البقر ٥ر٤٠٪ ·

ويلخص عضو اللجنة المالية في الكنيست ، ابراهام ملميد هذا الوضع بقوله : «ان الدمج بين التضخم المالي السريع وبين توقف النمو الاقتصادي ، يشكل ميزانا سلبيا للسياسة الاقتصادية» · ويعدد ملميد الوسائل التي ينبغي اتباعها من اجل مكافحة التضخم المالي بقوله : «ان هذا العمل يجب ان يتم بواسطة تقليص الميزانيات ، واتباع سياسة الكبح

في المداخيل والاجور ، وبواسطة السياسة المالية · ان دمج جميع هذه الوسائل يمكن أن يؤدي الى كبح التضخم المالي بمدى كبير ، والى تحقيق الاهداف الاخرى ، وفي الاساس منع زيادة الاستيراد وتشجيع الصادرات · ان استخدام وسيلة واحدة في السياسة المالية ، اي تقليص التسليف ، يمكن ان يؤثر بشكل سلبي على الصادرات · هذا في الوقت الذي يخصص فيه بنك اسرائيل للصادرات المكان الاول في سلم الافضليات» (مقابلة في ملحق هتسوفيه ، ٣١-١٢-٧٦) ·

دلائل انكماش في الاقتصاد

لم تحدث اية زيادة في الانتاج القومي في اسرائيل خلال السنتين الاخيرتين، وذلك بعد ان ارتفع في الفترة الواقعة بين ١٩٦٨ حتى ١٩٧٣ بمعدل ٥ر١٣٪ ، وفي سنة ١٩٧٤ بمعدل ٧٪ · «ان عدم النمو الاقتصادي يتطور الان الى وضع يمكن وصفه ببداية انكماش · وهذا القول غير واضح بكل ما يتعلق بمدى عمق هذا الانكماش ، ولكن جميع المعطيات تشير الى اننا حقيقة نواجه انكماشا معينا · كذلك ليس واضحا كيف سيتطور هذا الانكماش : هل سيكون شديدا وخطيرا ، ام أن ما يحدث ليس سوى تراجع معين لا يؤدي الى اية ازمة خطيرة» (يتسحاق دوتيش ـ ملحق هتسوفيه، ٣١-١٢-٧٦)· ويفسر عضو الكنيست ملميد (المصدر السابق) سبب عدم النمو في الانتاج القومي بقوله ، أن هذا الامر كان مخططا له ، «فبعد حرب يوم الغفران اتفق على الحاجة الى خفض معين في النشاط الاقتصادي · لقد كان الاقتصاد ساخنا بشكل غير مقبول · كانت هناك صعوبات معينة في ميزان المدفوعات · وقد بدأ وضع فائض العملة الصعبة يؤشر «بالضوء الاحمر»·كان يجب خفض النشاط الاقتصادي ، وذلك بهدف تغييب البنية · وكان التغيير المطلوب هو تحويل انتاج المصانع الى التصدير بدلا من الاستهلاك المحلي ، وكان المطلوب تشجيع القطاع الانتاجي من خلال تقليص قطاع الخدمات» ويضيف ملميد مفسرا هذه الخطوة ، ان خفض النشاط لم يكن هدفا وانما وسيلة لفترة انتقالية · «ففي نهاية الامر تلزم ظروفنا الخاصة نموا اقتصاديا سريعا ، اذ اننا ملزمون بتمويل نفقات امن كبيرة ومتزايدة ··· الامر الذي يمنع تحويل موارد (كبيرة) الى اهداف اجتماعية ضرورية · وكان واضحا ايضا ان الدولة التي تضطر الى استيعاب هجرة ، لا تستطيع تجميد (النشاط الاقتصادي) داخلها لفترة طويلة بل لفترة انتقالية محدودة ـ وذلك قبيل نمو مجدد على اساس افضل» · وحسب رأي ملميد ان النتائج التي كانت مرجوة من وراء خفض النشاط الاقتصادي لم تتحقق حتى الان ، « لم يتحقق تغيير في بنية الاقتصاد · لم يحدث تحويل جدي لانتاج المصانع من الاستهلاك المحلي الى الصادرات · كذلك لم يرتفع الانتاج الاقتصادي اضف الى ذلك : ارتفعت نسبة البطالة غير المنظورة ـ الامر الذي يمكن معرفته من خلال الحقيقة بأن الانتاج لم يرتفع ، بينما لم ينخفض عدد العاملين · والاسوأ من ذلك ، ان عدد العاملين في فرع الخدمات قد زاد على حساب عمال الانتاج · وهذا يدل على اننا لم نحقق اية مكاسب في مجال لتحسين البنية الاقتصادية · لذلك ، اقول اننا خسرنا وقتا ثمينا ، لاننا رفعنا الدين الخارجي ، بالاضافة الى زيادة الدين بالعملة المحلية كل هذا بمثابة خطأ لا يمكن اصلاحه» (المصدر نفسه) ·

وتشير الاحصاءات الرسمية الى ان عدد العاطلين عن العمل قد بلغ في شهر ايلول ، ١٩٧٦ ، ٤٧ الفا ، وتشير الارقام

غير الرسمية الى ان هذا العدد قد ارتفع في نهاية هذه السنة الى ٥٠ الفا · اما التوقع في سنة ١٩٧٧ ، فهو ان عدد العاطلين عن العمل سيصل الى ٧٠ الفا· ويعتبر فرع البناء ، من اكثر الفروع التي تضررت نتيجة خفض النشاط الاقتصادي حيث انخفضت نسبة النشاط داخله في السنة الماضية بـ ٥٠٪ تقريبا، الامر الذي ادى الى انخفاض عدد عمال هذا الفرع بعشرة الاف تقريبا · وتبشر التوقعات الرسمية بانخفاض عددهم بعشرة الاف اخرى خلال سنة ١٩٧٧ · وفي حديث مع مدير عام وزارة المالية ، عميرام سيفان (المصدر السابق) ، اعلن ان عدد العاطلين عن العمل ، يجب الا يتجاوز الـ ٥٠ ـ ٦٠ الفا خلال سنة ١٩٧٧ · وان الهدف الاساسي ، هو ··· تأمين فرص عمل اكثر في فروع الانتاج ··· ومن اجل ذلك ، استخدمنا وسائل كثيرة ومتنوعة : التخفيض الزاحف ، التسليف لتمويل الصادرات ، الحوافز التدريجية ، تقليص الطلبات المحلية وتحويل المساعدات للمصدرين وللعمال في فروع التصدير ايضا · ان هذه الوسائل مجتمعة بدأت تعطي ثمارها · فقد انتقل نمو عشرة الاف شخص من الانتاج للاستهلاك المحلي الى الانتاج للصادرات · وارتفعت الصادرات بأكثر من ٢٠٪ · ان سرعة الزيادة هذه تعني مضاعفة الصادرات خلال ثلاث سنوات» ·

ان زيادة الصادرات هي الوسيلة الرئيسية في سياسة اسرائيل الاقتصادية، لحل مشكلة العجز في ميزان المدفوعات · ويبدو ان جميع الاجراءات تقريبا ، ابتداءا من تحويل العمال الى فروع الانتاج ، وانتهاءا بالتخفيض التدريجي للعملة ، تصب في هذا الاتجاه · وقد ادت هذه الاجراءات مجتمعة الى خفض العجز بنحو ٨٠٠ مليون دولار خلال السنة الماضية ، الامر الذي يعتبر مكسبا كبيرا لسياسة اسرائيل الاقتصادية · وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا العجز كان قد بلغ في بداية سنة ١٩٧٦ ، ٣٫٩ مليار دولار · الا ان التوقعات لهذه السنة ، لا تبدو متفائلة جدا بالنسبة لامكانية استمرار هذا التحسن خلال هذه السنة ، وهذا ما يؤكده معظم الخبراء الاقتصاديين في اسرائيل ·

توقعات غير مشجعة لسنة ١٩٧٧

لقد اصبح واضحا الان في اسرائيل ، ان الازمة الحكومية ، والانتخابات للكنيست سيكون لهما تأثير سيء على الوضع الاقتصادي ، وذلك للاسباب التالية : اولا ، لا تستطيع الحكومة بوضعها الحالي ممارسة صلاحيات كاملة فيما يتعلق بالاجراءات الاقتصادية التي اتبعتها خلال السنين الماضية ، وذلك خوفا من ان يؤدي الى زعزعة كفة ثقة الجمهور بقادتها ، خاصة وانهم يطمحون الى الاستمرار في سلطتهم بعد الانتخابات· ثانيا ، لا يستطيع الكنيست المصادقة على قوانين واجراءات اقتصادية جديدة ، قبل موعد الانتخابات ، خاصة تلك المتعلقة بالميزانية المقترحة لعام ١٩٧٧ وما يتبعها من اجراءات على غرار تجميد الاسعار والدخل · ثالثا ، عدم الاستعداد الذي ظهر لدى الهستدروت وارباب العمل ، للمصادقة على اية اتفاقات جديدة مع الحكومة الحالية ، تتعلق بالاجور والدخل وتحديد ارتفاع الاسعار ، الامر الذي سيجعل المفاوضات الجارية بين هذه الاطراف عديمة الفائدة ، الامر الذي سيؤدي الى استمرار اشتعال جبهة المطالب العمالية ، وما يرافقها من اضرابات وتعطيل للمرافىء الحيوية ·

وهناك من يقول ، ان النصف الاول من سنة ١٩٧٧ سيكون عديم الفائدة من ناحية اقتصادية ، حيث لن تتحقق خلاله اية

اصلاحات مجدية · «وسيكون لفتـــرة الانتخابات هذه تأثير قوي على النشـاط الاقتصادي ، من عدة اتجاهات : اولا ، ستقوم ادارة الانتخابات في اسرائيـــل بانفاق بعض المبالغ المحددة من اجـــل اجراء الانتخابات · ثانيا ، ستنفق اجهزة الاحزاب مبالغ مختلفة ، سواء مـــن الاعتمادات الرسمية او خارجها · ثالثا، ستحول الحكومة اموالا من اجل منـــع الانخفاض في العمالة في الاماكن التـــي يسود بها الخوف من البطالة» (يتسحاق دوتيش ـ ملحق هتسوفيه، ٣١ـ١٢ـ٧٦)· اذن ستتميز سنة الانتخابات بتحويل مبالغ مالية ضخمة الى الاقتصاد ، بحيث تؤدي الى ارتفاع كبير في معدل الاستهـــلاك الفردي ، الامر الذي يهدد بنسف جميـــع المكاسب التي حققتها الحكومة الاسرائيلية خلال السنين الاخيرة في هذا المجال · «والافتراض الحالي هو ان وزارة المالية تستطيع الان ان تتصرف وفق سياستهـا الحالية مع الامتناع عن اتخاذ مبادرات جديدة · ولكن بعد تشكيل الحكومـــة الجديدة ، تستطيع وزارة المالية اتبـــاع خطوات اقتصادية قوية يفرضها الوضع الاقتصادي ، من اجل تحقيق الاهـــداف المتمثلـــة في خفض العجـــز في ميزان المدفوعات ، وتعديل سرعة ارتفاع الاسعار واعادة تجديد النمو الاقتصادي · ومـــن الواضح لاصحاب هذا الرأي في وزارة المالية ، ان الظروف غير مؤاتية لاجـــراء تخفيض كبير في العملة او فرض ضرائب غير مباشرة جديدة ، وذلك بواسطـــة رفع نسبة ضريبة القيمة المضافة · لذلك ، فالاقتراح القائم هو السعي من اجـــل تحقيق اتفاق مع الهستدروت وارربـــاب العمل ، على اساس خطة مقلصة ، الهدف الاساسي منها الحد من سرعة التضخـــم المالي ، وبحيث لا تتجاوز مدة ســريان مفعول هذا الاتفاق ستة اشهر ، اي بعد الانتخابات للكنيست» (دافيـــد ليفكين ـ دافار ، ٢٤ـ١٢ـ٧٦) · وبالفعل فقـــد اعلن بتاريخ ٢١ـ١ـ٧٧ ان اتفاقا مبدئيـا حول تجميد الاجور والاسعـــار والارباح والضرائب لفترة محدودة لا تتعدى بضعة اشهر قد تم بين الحكومة والهستدروت ، وان جهودا تبذل الان من اجل كســـب موافقة ارباب العمل ايضا · (هارتس ، دافار ، ٢١ـ١ـ٧٧) ·

ورغم الانتخابات ستضطر وزارة المالية ايضا الى اتخاذ قرارات بشأن موضوعين هامين · الموضوع الاول يتعلق باسعـــار البنزين · «فقد اوضح وزير المالية ان قرار مؤتمر اوبيك حول رفع اسعار النفط بنسبة ١٠٪ ، سيزيد نفقات الحكومـــة الاسرائيلية بـ ٧٠٠ مليون ليرة في السنة تقريبا ··· وفي المباحثات التي جـرت حتى الان (بين الحكومة والهستدروت) ، ظهر ان هناك استعدادا لدى وزارة المالية لتأجيل رفع اسعار البنزين حتى شهـر آذار (من هذه السنة) ··· وعلى هـــذا الاساس ربما تحملت الحكومة اعباء هذا الغلاء خلال ثلاثة اشهر او اكثر» (دافيد ليفكين ـ دافار ، ٢٤ـ١٢ـ٧٦) ·

اما الموضوع الثاني الذي يتطرق اليـه الكاتب فهو مسألة المساعدات الحكومية ، «فاثناء خفض هذه المساعدات فـــي اول شهر تشرين الثاني (من السنة الماضية) اوضحت وزارة المالية ، انه قبيل شهر اذار حتى نيسان ، لن يكون هناك مهرب من تخفيض اخر بها وبالتالي زيادة اسعار الحاجيات الاساسية ··· ولكن ثمة شك اذا كانت الحكومة على استعداد لتخفيض هذه المساعدات في الاشهر القريبة ،وربما اخرت هذا الاجراء حتى بعد الانتخابات» (المصدر نفسه) · لذلك يمكن القول ان فترة الانتخابات ، ستتميز بجمود الوضع الاقتصادي الحالي ، مع محاولة الحفاظ على الاستقرار والهدوء الداخلي ، وذلك حتى انتهاء الانتخابات ، وتشكيل حكومة

جديدة ، حيث يتوقع عندئذ سياسة اقتصادية جديدة ، وربما عودة الى الاجراءات القديمة كاسلوب تخفيض العملة وزيادة الضرائب وما شابه ٠

ميزانية مؤقتة لبضعة اشهر

صادقت الحكومة الاسرائيلية بتاريخ ٣٠-١١-١٩٧٦ على مشروع الميزانية للسنة المالية ١٩٧٧-٧٨ ، التي تبدأ في اول شهر نيسان من كل سنة ٠ ويبلغ حجم هذه الميزانية ١٢٢ر٥ مليار ليرة اسرائيلية ، مقابل ٨٧ مليار ليرة في السنة الماضية ٠ كذلك صادقت الحكومة على بعض الاجراءات الاقتصادية الاخرى التي اقترحها وزير المالية ، يهوشواع رابينوفيتش ، وتهدف الى الحد من الغلاء ومحاربة التضخم المالي السريع، وبموجب هذه الاجراءات سينخفض معدل ارتفاع الاسعار للمستهلك خلال هذه السنة بنسبة ٨٪ ، حيث ستتراوح نسبة ارتفاع الاسعار بين ٢٣ - ٢٥ ٪ مقابل ٣٨ ٪ خلال سنة ١٩٧٦ ٠ وبموجب هذه الاجراءات ايضا ، يتوقع ارتفاع الاجور خلال سنة ١٩٧٧ بنسبة ٣٦٪ ، بينما سيرتفع الاجر الصافي (بعد حسم الضرائب) بنسبة ٣٪ تقريبا (هآرتس ، دافار ، ١-١٢-٧٦) ٠

ونتيجة لهذه الاجراءات يتوقع ازياد الاستهلاك الفردي ، بينما سيؤدي انخفاض معدل الاسعار الى تحديد حجم التخفيضات التدريجية في قيمة الليرة الاسرائيلية ، وهي السياسة المتبعة منذ منتصف سنة ١٩٧٥ ، وبموجبها يتم تخفيض الليرة الاسرائيلية بنسبة لا تفوق الاثنين بالمئة خلال فترات زمنية متقاربة لا تقل عن الشهر ، وذلك من اجل احداث ملاءمة جارية في قيمة الليرة الاسرائيلية مقابل العملات الاخرى ، خاصة الدولار ، وذلك لتشجيع الصادرات ، وبالتالي كسب المزيد من العملة الصعبة ٠ وبموجب سياسة التخفيض التدريجي هذه في قيمة الليرة ، اصبح الدولار يعادل ٨ر٩٤ ليرة اسرائيلية ، وذلك بعد التخفيض الاخير ، الذي اقرته الحكومة الاسرائيلية في تاريخ ١٦-١-٧٧ بقيمة ١ر٩٪ ٠

واعلن وزير المالية رابنيوفيتش بعد اقرار مشروع الميزانية من قبل الحكومة، ان هذا المشروع يعتبر نقطة تحول بالنسبة الى معالجة مشاكل التضخم المالي السريع، حيث يشمل على اقتطاع ملياري ليرة من ميزانيات الخدمات في مختلف الوزارات واقتطاع مبلغ ٥ر٤ مليار ليرة في بند نفقات الحكومة ٠ وعلق حاكم بنك اسرائيل ، ارنون جافين على ذلك بقوله ، ان هذا القرار الذي يعتمد على كبح جدي لنفقات الحكومة وتقليص لميزانيتها يعتبر تحولا في امكانية ايجاد حل لاحدى المشاكل الاساسية في الاقتصاد الاسرائيلي وهي مشكلة التضخم المالي ٠ «انه دلالة على جهد قوي لخفض سرعة التضخم المالي ، ويشكل لا يؤدي الى افساد التحسن الذي طرأ على ميزان المدفوعات٠ واذا نفذ هذا القرار سيتوفر احتمال افضل لتحسين ميزان المدفوعات في سنة ١٩٧٧ - ٧٨ ايضا» (المصدر نفسه) ٠

كذلك اعلن مدير قسم البحث في بنك اسرائيل دكتور تسفي زوسمان ان هناك تشابها بين مشروع الميزانية الذي اقرته الحكومة وبين التوصيات التي قدمها خبراء بنك اسرائيل في هذا المجال ٠ واضاف زوسمان قائلا : «ان التقدير الذي تبلور من الدراسات التي اجراها قسم البحث حول الميزانية المقترحة ، هو ان التضخم المالي يزداد نتيجة النفقات ، التي تعتبر الضرائب غير المباشرة احدى مركباتها الهامة ٠ لذلك ثمة مبرر لخفض الغلاء بواسطة خفض هذه الضرائب ، ورفع اسعار الخدمات الحكومية ، كما تقترح وزارة المالية الان» (هآرتس ، ٣-

١٢ـ٧٦) ٠

من جهة اخرى اثار مشروع الميزانية بعض الاعتراضات من جانب الهيئات الاقتصادية في اسرائيل ٠ فقد ساد الهستدروت جو من الاستياء بسبب عدم اطلاع ممثليها على بنود مشروع الميزانية قبل اقرارها من قبل الحكومة (دافار ، ١ـ١٢ـ٧٦) ٠ الا ان هذا الامر لم يؤثر على المباحثات الجارية بين ممثلي الهستدروت وارباب العمل والحكومة من اجل الوصول الى اتفاق شامل حول علاقات العمل خلال الفترة المقبلة ٠

كذلك اعلن رئيس اتحاد الصناعيين ابراهام شفيط عن معارضته لحجم الميزانية المقترحة ، وبدلا من ذلك اقترح مبلغ ١٠٧ مليار ليرة اسرائيلية ، معتمدا على نسبة التضخم المالي المتوقعة خلال هذه السنة وهي ٢٣٪ ٠ « ان المبلغ الإعتباطي الذي اقترحته الحكومة كمخرج ليس سوى تمثيل لجميع مطالب الوزارات الحكومية ٠٠٠ بينما لم تنفذ الحكومة اية خطوة حقيقية من اجل خفض نفقاتها »٠ وحسب قوله فانه يرفض الميزانية المقترحة لانها لا تعكس سياسة واضحة واجابة صحيحة على المشاكل الاساسية ، وهي محاربة التضخم المالي ، الهوة في ميزان المدفوعات وخلق اساس للانعاش الاقتصادي ٠ (هآرتس ، ٣ـ١٢ـ٧٦) ٠

لقد اصبح واضحا ومؤكدا الان ان مشروع الميزانية هذا لن يقر بكامله في الكنيست ، وانما تستقر المداولات بين اروقة الكنيست على اقرار ميزانيةمقلصة لاربعة اشهر فقط ، ريثما يستقر الوضع السياسي وتتشكل حكومة جديدة ، ويبدو ان هذا الامر يلقى الان موافقة جميع الاطراف في الكنيست ٠ (ر٠١٠١٠ ، ٣١ـ١ـ٧٧) ٠

ويعلق الكاتب الاقتصادي لصحيفة دافار على هذه المسألة بقوله : وانني ادرك المشكلة الخطيرة التي تواجه الحكومة الان ، وهي انها لن تجد في تاريخ ٣١ـ٣ـ٧٧ الاكثرية الساحقة في الكنيست لاقرار مشروع ميزانيتها لهذه السنة ، وبدلا من ذلك سيكون لزاما عليها التعاون مع احزاب اخرى من اجل ايجاد طريق يمكنها من العمل بصورة قانونية بكل ما يتعلق بنفقاتها المالية خلال الاشهر الاولى من السنة المالية ١٩٧٧ ـ ٧٨ ٠ ان المخرج البسيط لهذه المشكلة هو التوصل الىاتفاق حول المصادقة على ميزانية جزئية لثلاثة او اربعة اشهر ٠٠٠ وهكذا يمكن مواصلة النشاط الاقتصادي خلال هذه الفترة ٠٠ ، (يعكون ارنون ـ دافار ، ٢٨ـ١٢ـ٧٦) ٠

ويضيف ارنون قائلا ، ان مشروع الميزانية يجب ان يقدم الى الكنيست للبحث به حسب الاصول المتبعة ٠ «ينبغي التصرف بمشروع الميزانية وكأنه ليس هناك ازمة حكومية ولا حكومة اقلية ٠ هناك اهمية كبرى ، خاصة اثناء فترة الانتخابات ، لمعرفة الاسلوب الذي يقترحه الحزب الحاكم لادارة شؤوننا في السنة المقبلة ، وما تقترحه الاحزاب ـ الموجودة اليوم في طرف المعارضة ـ حول التغيير في الميزانية ، في حال وصولها الىالحكم٠ ومن خلال طريقة رد الاحزاب على ميزانية الدولة ، يمكن معرفة المواقف التي ستتخذها ازاء جميع القضايا الاقتصادية ومعظم القضايا الاجتماعية ، وربما ٠٠٠ طريقة تفكيرها في المواضيع السياسية والامنية ٠٠٠ يجب عدم اعفاء ممثلي الحزب الحاكم ، ولا حتى ممثلي الاحزاب المعارضة ، من واجب شرح مواقفهم للشعب ، واسلوب تخطيطهم في السنة المقبلة» (المصدر نفسه) ٠

لذلك فان الميزانية المقترحة والاجراءات التي دعت اليها الحكومة ، ستعتبر جزءا من برامج الاحزاب الانتخابية ، حيث ستظهر في المستقبل القريب وجهات نظر مختلفة وربما متناقضة حول مواضيع اقتصادية واجتماعية ستكون ذا تاثير كبير على نتائج الانتخابات ٠

حنه شاهين